



شجرة الحضارة

قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ
حتى بداية العصر الحديث

الجزء الثالث

تأليف: رالف لنتون

ترجمة: أحمد فخري

تقديم: أحمد زكريا الشلق

شجرة الحضارة

قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ

حتى بداية العصر الحديث

(٢٠١١ - ٢٠٢٢م)



mohamed khatab

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المترجم علي السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1752

- شجرة الحضارة: قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث
(الجزء الثالث)

- رالف لنتون

- أحمد فخرى

- أحمد زكريا الشلق

- 2010

هذه ترجمة كتاب:

The Tree of Culture
(Part III)
by: Ralph Linton

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524- 27354526

Fax: 27354554

<https://t.me/kotokhatab>

شجرة الحضارة
قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ
حتى بداية العصر الحديث
الجزء الثالث

تأليف: رالف لنتون
ترجمة: أحمد فخري
تقديم هذه الطبعة: أحمد زكريا الشلق



2010

لنتون، رالف.

شجرة الحضارة: قصة الإنسان منذ فجر ما
قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث/ تأليف:
رالف لنتون؛ ترجمة: أحمد فخرى. - القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

مج ٢ : ٢٤ سم. - (المركز القومي للترجمة،
ميراث الترجمة؛ ١٧٤٥)

تتملك ٤ ٦٧٠ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - إنسان ما قبل التاريخ.

٢ - الحضارة القديمة.

١ - فخرى، أحمد. (مترجم)

ب - العنوان -

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٩٥ / ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 670 - 4

ديوى ٨٨، ٥٥٩

ف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة
العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم
بالضرورة عن رأى المركز.

محتويات الكتاب

الجزء الثالث

صفحة

القسم الثامن - افريقيا

- الفصل الثامن والعشرون : ما قبل التاريخ ٩
الفصل التاسع والعشرون : مصر ٢٢
الفصل الثلاثون : شعوب افريقيا في العصور التاريخية . . . ٦١
الفصل الحادي والثلاثون : الحضارات الافريقية ٩٥

القسم التاسع - الشرق الأقصى

- الفصل الثاني والثلاثون : الهند في عصر ما قبل التاريخ . . . ١٣١
الفصل الثالث والثلاثون : الهند في عصرها التاريخي المبكر . . . ١٦٤
الفصل الرابع والثلاثون : البوذية ١٨٦
الفصل الخامس والثلاثون : الهند في العصر السابق للاستعمار . . ١٩٨
الفصل السادس والثلاثون : الصين في عصر ما قبل التاريخ . . . ٢١٩
الفصل السابع والثلاثون : الصين في عصرها التاريخي المبكر . . . ٢٥٠
الفصل الثامن والثلاثون : عصر الاسرات المتأخر في الصين . . . ٢٨٠
الفصل التاسع والثلاثون : اليابان ٣٠٧

القسم العاشر - الدنيا الجديدة

- الفصل الأربعون : السكان الاصليون في أمريكا الشمالية . . ٣٣٥
الفصل الحادي والأربعون : الحضارات المتقدمة في أمريكا الجنوبية . ٣٩٣
فهرس الكتاب : ٤٣٥

القسم الثامن افريقيا

الفصل الثامن والعشرون

ما قبل التاريخ

يعتقد دارسو التاريخ الحضارى أن القارة السوداء قد أحسنت تسميتها ؛ اذ بالرغم من أنها من أقدم القارات التى استوطنها الانسان — ان لم تكن أقدمها جميعا — فإن ماضيها قد اكتنفه الكثير من الغموض ، اذ لم يعثر على أى وثائق فى أى جهة منها غير تلك التى خلفها الرحالة العرب فى العصور الوسطى ، وذلك اذا ما غرضنا النظر عن تلك المناطق المحدودة التى تشمل كلا من مصر واثيوبيا والساحل الشمالى لتلك القارة .

وهناك قصص وأخبار غير مكتوبة يتناقلها سكان الممالك الزنجية العظيمة التى تنتشر عبر القارة جنوبى الصحراء الكبرى ، وهى تعود الى تاريخ أقدم من كتابات أولئك الرحالة العرب بقرنين أو ثلاثة قرون . ولا شك أن قوائم ملوكهم وقصص الهجرات والغزو ، فيها شيء كثير من الحقيقة ، ومع ذلك فإن هذه الأخبار — اذا أردنا أن ننظر إليها كتاريخ — يجب أن نخضعها لكل ما يجب أن تخضع له جميع الوثائق الشفهية عند البحث ، أى يتحتم علينا ألا نقبلها على علاقتها .

أما بالنسبة للمناطق الواقعة أبعد من ذلك فى الجنوب ، فإن مثل هذه الأخبار تنقصنا أيضا وتحل محلها القصص الفولكلورية . فنحن نجد بقايا ما خلقته حياة الانسان فى كل مكان فى أفريقيا ، ولكن ما زالت هناك مناطق واسعة ممتدة الأطراف لا يمكننا أن نعتبرها من الناحية العملية الا مناطق مجهولة من ناحية الدراسات الأثرية . فقد عثر فوق سطح الأرض على أدوات

يرجع تاريخها الى العصر الحجري القديم ، فى جميع أجزاء القارة حيث اهتم بعض أعضاء الارسلالات الدينية أو موظفى الحكومة بالبحث عنها .

وقد عثر فى بعض المناطق على عدد كبير منها مما أوحى الى الباحثين بأن ذلك دليل اما على كثافة نسبة فى عدد السكان ، أو أن أولئك الناس قد أقاموا فترة طويلة جدا من الزمن فى ذلك المكان ، وهو الأمر الأكثر احتمالا .

غير أن عملية تأريخ البقايا الأثرية الافريقية المبكرة تثير مشاكل خطيرة ؛ فالدورات المناخية العظيمة التى نتجت عنها العصور الجليدية الأوروبية ، والفترات التى بين العصور الجليدية ، لم تحدث فى افريقيا أكثر من مجرد تقلبات فى كمية سقوط الأمطار ، كما أن التغيرات التى طرأت على الحياة الحيوانية كانت من التدرج بحيث لا تفيد الحفريات الا فائدة قليلة فى معرفة تاريخ ما يعثر عليه ، كما أن تطور الحضارة ، بل ومن المحتمل جدا تطور الانسان نفسه ، لم يسر الا سيرا بطيئا هادئا خلال العصر البليستوسينى .

وتختلف هذه الأحوال اختلافا تاما عن الأحوال التى كانت سائدة فى أوروبا ، اذ لم يستطع الانسان خلال الفترات المتعاقبة من التقدم الجليدى ، أن يجد لنفسه الا مستقرا مزعزا فى المناطق الواقعة على حدود القارة فى أقصى الجنوب . وإبان هذه الفترات العصبية أصبحت افريقيا ، مثل « الكنيسة » فى آراء « توينبى » أى كانت مستقرا للمكاسب الحضارية التى توصل اليها الانسان قبل ذلك ، وكانت افريقيا هى المكان الذى كان يعود منه الانسان للسكنى فى أوراسيا الغربية فى كل مرة يصبح فيها الطقس دافئا الى حد كاف . ولما كانت الأحوال المناخية فى افريقيا ثابتة الى حد ما ، وكانت السكنى

فيها مستمرة فإن مخلفات العصر الباليوليتى الأدنى فى افريقيا يفتقر الى التغيرات المفاجئة التى كانت تميز مختلف العصور الباليوليتية المتأخرة فى أوروبا . وقد عثر على أقدم البقايا الحضارية الافريقية التى كشفت حتى الآن فى شمال شرقى افريقيا ، ونرى فيها حضارة قائمة على استخدام شطافات

ومهاشم غير متقنة الصنع ، تذكرنا — ولو الى حد قليل غامض — بحضارات جنوب — شرقي آسيا . وعقب ذلك انتشرت في افريقيا لمدة بضعة آلاف من السنين حضارات فأس « بلطة » اليد التي عمت المنطقة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ومدينة الكاب ، وهي الحضارات التي أخذت فيها أشكال الأدوات تتطور تطورا تدريجيا حتى اتخذت الأشكال التي رأيناها في حضارات بلطة اليد التي انتشرت في أوروبا فيما بعد .

ولسنا نملك ، مع الأسف الشديد ، الا القليل من المعلومات عن سكان افريقيا في العصر الباليوليتي الأدنى ؛ اذ أن المستكشفات الأفريقية التي عثر عليها حديثا في جنوبي هذه القارة توحى بأن الانسان قد نشأ فيها . ومن المؤكد أن أشباه الانسان المتصبي القامة من مجموعة الأسترالو — پيثيكي (Australopithicine) قد قاربت أن تصبح « حلقات مفقودة » أكثر من أى حفريات أخرى وجدت حتى الآن . فإن الجمجمة الغريبة المعروفة باسم جمجمة روديسيا ، وما عثر عليه أيضا منذ وقت قريب في الكونفو البلجيكي ويحتمل أن يكون معاصرا الانسان النياندرتال ، يدلان على وجود سكان قطنوا في هذه القارة فيما بعد وذلك قبل ظهور الانسان العاقل ، ولكن الدليل الذي نملكه ما زال ينقصه الكثير حتى يصبح كافيا لاعطائنا نتائج نهائية .

يبد أنه باقتهاء العصر الباليوليتي الأدنى يصبح من الصعب تطبيق النظريات الأوروبية التقليدية في تتابع الآثار في افريقيا . وبالرغم من أنه عثر في بعض أجزاء أفريقيا على أدوات تشبه تلك الأدوات التي انتشرت في حضارات الشطفة في أوروبا ، وهي التي كانت تسمى في وقت ما بالحضارات المستيرية ، الا أن سوابقها ومركزها في تسلسل الحضارات الافريقية ليست من التحديد بحيث تجعلنا نقطع بوجود أى علاقات حقيقية بينها . ويبدو من المحتمل ، حسب الأدلة التي نملكها حتى الآن ، أن هذه الصناعة قد تطورت في افريقيا نتيجة للعلاقات التي قامت بين الذين كانوا يستخدمون « بلطة » اليد وبين غزاة

جلبوا معهم صناعة النصال من العصر البابوليلى الأعلى .
وتشبه أقدم النصال الافريقية فى نواح كثيرة ، تلك التى عثر عليها فى
أوروبا ، وفى الشرق الأدنى ، الأمر الذى يكاد يؤكد لنا أن افريقيا لم تعرفها
الا وهى فى أشكالها المتطورة . وعلى أى حال فقد طرأ على هذه الصناعات
كثير من التعديلات المحلية ، عن طريق التغير التدريجى الذى يحتمل أن تكون
قد ساعدت عليه اتصالات جديدة بآسيا ، حتى أصبحت صناعات من النوع
الميسولىلى . وقد وجدت هذه الصناعات فى كل جزء من أجزاء القارة ، التى
وصلتنا منها معلومات أثرية كافية ، مما يدل دلالة تامة على سعة انتشارها ،
كما أن الصناعات ظلت باقية مستمرة فترة طويلة نسبيا فى القارة . فقبايل
البشمن الذين يقطنون أقصى الجنوب من القارة كانوا لا يزالون ينتجون
الأدوات الميسولىلية فى الوقت الذى وصل إليها الأوروبيون . ولنا نعرف
على وجه التحديد ما اذا كان الأقزام الذين يعيشون فى الغابات الغربية كانوا
أيضا يصنعون مثل هذه الأدوات أم أنهم لم يصنعوها فان هذا الموضوع
ما زال قيد البحث لأن الأدلة الأثرية غير موجودة كما أن صناعاتهم الحديثة
لا تساعدنا على البت فى هذا الأمر ، اذ يرجع السبب فى افتقارهم الكامل للمهارة
فى أى نوع من الصناعات التى كانوا يتميزون بها من قبل الى اعتمادهم الطويل
على جيرانهم الذين كانوا أكثر وأقوى منهم ، وعلى الأدوات الحديدية التى
كانت متوافرة فى ذلك الوقت .

وتعتبر الهياكل العظمية التى عثر عليها فى المواقع الأثرية التى يرجع تاريخها
الى العصر البابوليلى الأعلى والى العصر الميسولىلى ، ذات أهمية خاصة
لأنها تلقى ضوءا على تاريخ الأجناس فى افريقيا . فبالرغم من أن البقايا ليست
كثيرة الا أنها تدل على شيئين : أولهما أن عددا من الأنواع والفصائل البشرية
لم يكن موجودا فى ذلك الوقت فى هذه القارة ، وأن الخواص الجسدية
الزنجية كانت أقل وضوحا وأقل انتشارا عما أصبحت عليه فيما بعد ، أما سكان

شمال أفريقيا الذين يرتبط اسمهم بالصناعات التي كانت منتشرة في العصر الباليوليتي الأعلى فإن المميزات القوقازية كانت سائدة كثيرا بينهم ، وهي تشبه المميزات السائدة بين السكان الحاليين للمنطقة . ولقد دلت البقايا المتناثرة التي عثر عليها في الهضبة الافريقية من شرقى السودان الى جنوب أفريقيا على أن النوع المعروف باسم البوشمن — هوتنتوت كان منتشرا في وقت ما انتشرا كثيرا نحو الشمال أكثر من انتشاره في الفترة التاريخية ، في حين امتدت العناصر القوقازية بعيدا ناحية الجنوب . ونظرا لجهلنا الكامل للون الجلد ونوع الشعر وما أشبه ذلك من المميزات فإن الكثير من البقايا التي عثر عليها في شرقى افريقيا كان يمكن جدا اعتباره قوقازيا لو عثر عليه في مكان آخر .

والأحوال المناخية في افريقيا الغربية الرطبة غير ملائمة للاحتفاظ ببقايا الهياكل العظمية ، وفي الوقت ذاته ليست لدينا أية معلومات عن هذه المنطقة . بيد أن المرء يجب أن يستنتج — وذلك عن طريق عملية تصفية بسيطة — أن مركز تطور مجموع الصفات الجسمانية التي تنسبها عادة الى الجنس الزنجي يقع هنا في هذه المنطقة كما يتحتم على المرء أيضا أن يستنتج أن هذه الخواص قد انتشرت باطراد من أفريقيا الغربية ، بل ويستطيع المرء أن يخاطر فيظن أن هذا الانتشار يرجع الى قوة الاحتمال العظيمة ضد الملاريا الخبيثة التي تميز بها زنوج افريقيا الغربية . وحتى الآن فإن معظم أفراد هذه المجموعة هم من حاملي ميكروب الملاريا ، وكلما اتجهوا الى منطقة ، تكون فيها بعوضة الانوفيليس حاملة الملاريا فإنهم ينشرون المرض وتكون العاقبة وخيمة بالنسبة للسكان المحليين . أما الفراغ الذى ينتج عن مثل هذه الكارثة بموت عدد كبير من السكان فسرعان ما تسده زيادة عدد الزوج والمولدين الذين يكونون أقل تمرضا للإصابة .

وفي الحضارات الافريقية في العصر النيوليتي سلسلة من المشاكل التي لا يمكن حلها الا بالاسترداد من الحفائر والقيام بعمل البحوث المنظمة في

منطقتين هامتين بصفة خاصة وهما الحبشة والسودان ؛ اذ أنهما من الناحية الأثرية يكادان أن يكونا غير معروفين حتى الآن . هذا ، وليس هناك شبهة شك في أن الحضارات الافريقية في العصر النيوليتي قد نبعت من المركز الآسيوى ، وأعنى به جنوب غربى آسيا ، وهو المركز الذى وصفناه من قبل في الفصل السادس عشر اذ أن الناحية التكنولوجية في كل منهما متشابهة كما نرى في كل مكان شمالي الصحراء الكبرى الافريقية في العصر الباليوليتي آن اقتصاده يقوم على وجود نباتات وحيوانات أصلها من جنوب غرب آسيا .

وبالرغم من احتمال وجود بعض الامتزاج بين هذه الأشياء التى أتت اليهم وشبهاتها من العناصر الوطنية ، الا أنه لا توجد أية شواهد مقنعة تدل على استئناس أى حيوان ذى أهمية اقتصادية فوق أرض القارة الافريقية . وقد ذهب البعض الى القول بأن افريقيا كانت المكان الذى نشأ فيه الحمار ونوع من الأغنام ولكن لم يقم الدليل على ذلك . فقد استأنس المصريون القط ، غير أن هذا الحيوان قد أفاد كثيرا فى ارضاء الانسان قهانيا أكثر من ارضائه له من الناحية المادية .

أما بالنسبة للمحاصيل فليس لدينا أى دليل مباشر يشير الى معرفة ما كان يزرع منها فى مجتمعات العصر النيوليتي جنوبى الصحراء الكبرى ، ولكننا نعرف أن عددا قليلا جدا من أنواع الحبوب التى تزرع فى جنوب غربى آسيا يمكن زراعته فى هذه المنطقة ، فان معظم محاصيل غربى افريقيا والسودان التى تزرع اليوم ترجع فى أصلها اما الى أصل أمريكى أو أن تكون فى أصلها من محاصيل جنوب شرقى آسيا ، أما بقية المحاصيل فانها سبق أن استؤنس (دجت) فى الحبشة . هذا ولو سلمنا بما ورد فى التقارير النباتية التى نشرها العلماء الروس فان عددا هائلا من فصائل النباتات قد زرع هناك . ان النباتات التى يحتمل أن تكون قد زرعت جنوبى الصحراء الكبرى فى العصور النيوليتية هى أنواع مختلفة من الدخن (الذرة المويجة) من فصائل

السورغوم والاليوسين والبنيستوم (Sorghum, eleusine, pennisetum) والبقول السوداني (من نوع فواندزيا Voandzeia) . فاذا كانت هذه النباتات قد استؤنست فعلا في الحبشة فان مشكلة جديدة ستضاف الى المشاكل المعقدة التي تواجهنا في محاولتنا تحديد أصول وهجرات النباتات الافريقية في العصر النيوليتي .

ويبدو أن طريق الهجرة الرئيسي الذي سلكه الوافدون الى افريقيا في العصر النيوليتي كان عن طريق شبه جزيرة سيناء وعبر البحر الأحمر . وبالرغم من العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الحبشة بجزيرة العرب خلال العصور التاريخية والهجرات العديدة التي كان يقوم بها سكان كل من البلدين منذ ألفى سنة مضت فان بقايا الحضارة النيوليتية لم يعثر عليها بقدر كاف ، ان كانت قد وجدت على الاطلاق في المنطقة المعروفة باسم القرن الافريقي . ان أعمال الحفر والتنقيب لم تحدث على نطاق كاف في هذه المنطقة ويتوقع المرء أن يجد الأدوات النيوليتية بين أيدي الأهالي ، لو كانت هذه الأدوات موجودة في هذه المنطقة . كان سكان الدنيا القديمة ينظرون الى « بلطة » اليد المنتشرة في كل مكان على اعتبار أنها أداة سحرية تتصل بالبرق ، ولهذا كانوا يحرسون على اقتنائها . وحيث انه لم يعثر عليها في هذه المنطقة فمن المؤكد أنها لو كانت موجودة فعلا فلا بد أنها كانت نادرة الى حد بعيد .

ويبدو أن أحسن تفسير لعدم وجود البقايا النيوليتية في شرقي افريقيا هو أنه في الوقت الذي حدثت فيه الهجرة النيوليتية من آسيا ، كانت معظم السواحل الافريقية على البحر الأحمر من الجفاف بحيث لا يمكنها القيام بأود الاقتصاد القائم على كل من الزراعة وعلى تربية الحيوان الذي كان متوافرا لدى مزارعي جنوب غربي آسيا القدامى ، وذلك في الوقت الذي لم توجد فيه حياة الرعاة التي جعلت سكنى هذه المنطقة فيما بعد أمرا ميسورا ، اذ لم يكن هذا النوع من الحياة قد تطور بعد . ومن المعتقد أن بعض الحضارات المصرية

المبكرة في العصر النيو ليتي قد أتت الى صعيد مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر ولو كان هذا الأمر صحيحا فانهم لم يخالفوا أية محلات سكنية معروفة تدلنا على طريق الهجرة الذي سلكوه . كما أن الأحوال المناخية قد تفسر ندرة المناطق الأثرية النيو ليتية في أجزاء كثيرة من الصحراء الكبرى إذ أنها قد أخذت في الجفاف المطرد منذ نهاية العصر الجليدي . وعندما تطورت الطرق الفنية اللازمة للاقتصاد الرعوى ، أخذت الهجرات طريقها من الجزيرة العربية الى القرن الأفريقي . وقد استمر هذا الحال خلال الفترة المتأخرة من عصر ما قبل التاريخ ، وهو يمتد في هذه المنطقة الى ما بعد بداية العصر المسيحي . هذا ، وحتى في العصور التالية ، فإن ظهور الاسلام كان سببا في الهجرات الواسعة النطاق التي حملت القبائل العربية الى الأراضي شبه القاحلة في شمال افريقيا (١) . وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نلاحظ أن كلا من الحصان والجمال قد وصلا متأخرين نسبيا الى افريقيا ؛ إذ أن الحصان قد ظهر لأول مرة في القارة مع غزو الهكسوس لمصر حوالي عام ١٥٠٠ ق . م ، وأخذ المصريون عن الغزاة الذين أتوا اليهم ولم يستخدموه الا في أغراض القتال فحسب (٢) . كانت الخيول تشد الى المركبات الحربية الخفيفة التي تتسع لرجل واحد وكانت

(١) لم تبدأ هجرات القبائل العربية الى مصر وشمال افريقيا بسبب ظهور الاسلام ، بل بدأت قبل ذلك بقرون طويلة وتاريخ القبائل اليمنية حافل بأسماء وأبناء القبائل التي هاجرت أو هاجرت فروع منها الى مصر وإلى شمال افريقيا واستقرت في تلك البلاد قبل ظهور الاسلام . (المترجم)

(٢) ان تاريخ دخول الهكسوس الى مصر هو عام ١٧٣٠ ق . م . وليس عام ١٥٠٠ ، فضلا عن ذلك فإن النظرية التي كان مسلما بها من علماء الآثار في السنوات العشر الأخيرة هي أن الحصان قد أتى الى مصر أثناء حكم الهكسوس وأن كلا من الهكسوس والمصريين قد عرفوه في وقت واحد . وقد حدث أخيرا (سبتمبر ١٩٥٩) أن أعلنت نتائج حفائر جمعية الآثار البريطانية في بوهن (امام وادي حلفا بالسودان) وفيها ما يشهد بوجود الحصان في وادي النيل قبل عصر الهكسوس بزمان غير قصير يرجع الى حوالي عام ١٨٠٠ ق . م . (المترجم)

القوس هي السلاح الرئيسى الذى يستخدمه قائد العربى ، واذا ما اشتد وطيس المعركة كان يحرر يديه وذلك بأن يشد اللجام الى خصره .

وكان لعبقرية المصريين وميلهم الى اتقان الصناعة الفضل الأكبر فى جعل المركبات الحربية المصرية أخف وأقوى المركبات الحربية التى ظهرت فى العالم القديم ، غير أنه فى الوقت ذاته كان حب المصريين للمحافظة على القديم سببا فى أنه عندما توصل المصرى الى حل جميع المشكلات الفنية بالمجلات الحربية ظل يستخدم نفس العربات عدة قرون أخرى . ولم يعرف المصريون الحرب من فوق ظهر الجواد ، وكانوا يستخدمون المركبات الحربية فى أعمال المناوشات وفى مطاردة الأعداء أكثر من استخدامها فى الهجوم على صفوف الأعداء لبث الذعر بينهم . ولسنا نملك الا القليل من المعلومات عن انتشار الخيل من مصر نحو الغرب ، بيد أننا نعلم أنه ابان العصور الرومانية القرطاجية كانت الخيول تستخدم بصفة عامة فى القتال فى شمال افريقيا ، كما كان الفرسان النوميديون يمثلون أهم فرقة فى جيش هانيبال ، كما ظلت الخيول مستخدمة بعد ذلك قرونا عديدة فى جيوش الرومان . وهناك ما يحل على الاعتقاد بوجود اقتصاد قائم على حياة الرعى يرتكز ارتكازا أساسيا على الخيل وذلك فى العصور الكلاسيكية (اليونانية — الرومانية) ، كاعتماد الحضارات التى نشأت فى الصحراء الكبرى فيما بعد على الجمال . هذا وقد تكشف الدراسات الدقيقة للمصادر الاغريقية والرومانية عن الكثير من التفاصيل الخاصة بهذه الحضارة أكثر من تلك التى يمكن جمعها من المصادر الاثرية الضئيلة . ويمكننا القول بأن الخيول قد انتشرت فى النهاية فى ربوع الصحراء الكبرى كافة ، وبرزت أهميتها فى السودان ابان العصور التاريخية أكثر مما يعتقد أكثر الناس . كانت الممالك العظيمة التى ظهرت فى شرق ووسط السودان تخضع لطبقة أرستقراطية من الفرسان ، وكان الفرسان الذين يلبسون حلل الزرد المعدنية ، هم نواة جيوشهم .

ولم يستخدم الجمل في مصر حتى العصر البطلمي بالرغم من أنه من المحتمل أن يكون قد عرف فيها قبل ذلك التاريخ بوقت طويل . وهناك تمثال واحد على الأقل لا يقبل الشك يمثل جملا ويرجع في تاريخه الى عصر الأسرات المبكر ^(١) . ومن المحتمل أن الجمل قد أتى عن طريق شبه جزيرة العرب الى القرن الافريقي وأقبلت على استخدامه القبائل الحامية السامية التي كانت تقطن المنطقة ، ومن هناك انتشرت الجمال بسرعة هائلة الى جزء كبير من أرجاء الصحراء الكبرى . وقد نتج عن هذا الانتشار أن فتحت مناطق أخرى للسكنى اذ أن في مقدور الجمل أن يعيش على العشب بعد فصل الأمطار القصير دون حاجة الى شرب الماء . كما جعل في الامكان أيضا امتداد طرق القوافل التي تعبر الصحراء ، وهي الدروب التي كان الجفاف المطرد قد جعل استخدامها أمرا مزعزا لا يمكن الاطمئنان اليه .

وفي ضوء هذه المعلومات الضئيلة ، يبدو أن الصناعات الحجرية ذات الطابع النيوليتي قد استمرت في شرقي أفريقيا ، وفي جميع أنحاء الهضبة من السودان حتى مدينة الكاب ، الى أن حلت محلها الأدوات المعدنية التي ظهرت في عصور حديثة نسبيا .

ولم تعرف أفريقيا عصر البرونز . وهي حقيقة غالبا ما يرجعها الباحثون الى استكشاف الحديد استكشافا قائما بذاته وفي وقت مبكر . هذا ، ويبدو الآن أن الأدوات الحجرية قد استمر استخدامها على الأرجح الى أن حل الحديد محل البرونز في البلاد المجاورة لافريقيا في أوراسيا ، فان الطرق الفنية وأشكال الأدوات والأسلحة توحى بأن افريقيا الزنجية قد أخذت أدواتها الحديدية عن النماذج الهندية والأندونيسية أكثر من تأثرها بأوروبا أو الشرق الأدنى .

(١) تمثال صغير عثر عليه في جبانة أبو صير الملق عند مدخل الفيوم ويوجد في متحف برلين .
(المترجم)

لقد عثر على بقايا النماذج التي تتميز بها حضارات جنوب غربى آسيا فى العصر النيوليتى فى مصر وفى المناطق الساحلية التى تطل على البحر الأبيض المتوسط ، ووصلت هذه النماذج الى ذروتها فى جودة الصناعة فى مصر وفى شمال أفريقيا فى أقصى الغرب وكونت جزءا من المركز النيوليتى المستقل المعروف باسم هسبانو — موريتانى (Hispano-Mauritianian) الذى كان مركزا مزدهرا بالسكان وذا ثقافة متقدمة . (انظر الفصل الثامن عشر) .

وليس هناك ما يدل على أن الحضارات المصرية فى العصر النيوليتى قد توغلت فى شرقى السودان ، وعلى طول المسافة التى تفصل بين مصر وبلاد المغرب ، فان المناطق الاثرية النيوليتية يقل عددها كلما توغل المرء ناحية الجنوب من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، كما يبدو من المؤكد أن جزءا كبيرا من الصحراء الكبرى لم يكن مسكونا خلال هذه الفترة الحضارية . ومع ذلك فان المناطق النيوليتية تزداد فى العدد عندما نصل الى غربى السودان اذ يوجد الكثير من الأدوات الدقيقة المصنوعة من الحجر وبلطة اليد والفخار المصنوع باليد ، ولكن يستحيل على الانسان أن يعرف نوع العلاقة التى كانت بين المركز الهسبانى — موريتانى فى الشمال وبين الحضارات الزنجية فى غربى افريقيا ، وذلك بسبب الافتقار الكامل الى أعمال الحفر والتنقيب المنتظمة فى هذه المنطقة .

ومهما كانت ضالة مخلفات الحضارة الافريقية فى العصر الحجرى فان مخلفات العصر الذى تلاه كانت أكثر ضالة ، ففى الفترة الواقعة بين نهاية العصور النيوليتية وما كتبه الرحالة العرب فى العصور الوسطى لا نعرف شيئا على الاطلاق عن الشاطئ الغربى لافريقيا . فمن المؤكد أنه كانت هناك اتصالات من وقت لآخر مع شاطئ البحر المتوسط عن طريق دروب القوافل فى الصحراء الكبرى ، ولكن الدليل على ذلك ينحصر فى احتمال وجود بعض عناصر ومؤثرات فينيقية فى هذه المنطقة وفى وجود بعض الخزف القديم الذى

يعتز به بعض السكان الحاليين لأنه من المحتمل جدا أن يكون بعض التجار الفينيقيين قد وصلوا الى شاطئ افريقيا الغربى .

أما فى المنطقة الشرقية من القرن الافريقى فقد ظهرت الحضارة الحبشية فى بداية العصر المسيحى . تلك الحضارة التى تأثرت فيما يبدو بالحضارة الاغريقية — الرومانية التى نمت وتطورت خلال العصر البطلمى والمصور الرومانية فى بلاد النوبة ، كما استمدت أيضا الشئ الكثير من عناصر الحضارة الهندية . ويذكر كتاب دليل البحر الأحمر *The Periplus of the Erythraean Sea* أن بعض التجار الهنود قد استقروا فى بلاد الصومال ابان القرن الأول الميلادى . كما أن الأحباش اعتنقوا المسيحية فى القرن الثالث الميلادى وبهذا وقعوا تحت تأثير بيزنطة — وهو التأثير الذى لا يزال ظاهرا فى فنونهم وفى طقوسهم الكنسية ^(١) . وبالرغم من وجود الكثير من الآداب الحبشية فان الشئ القليل منها هو الذى وصل الى أيدي علماء الغرب ، ومن المشكوك فيه أن تكون ذات فائدة كبيرة فى لقاء الضوء على تطور الحضارة الحبشية حتى بعد ترجمتها .

لقد زارت أرض الصومال بعثة مصرية واحدة على الأقل ، وهى البعثة التى أرسلتها الملكة حتشبسوت حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . ولكننا لا نعرف على التحديد الزمن الذى استمرت فيه هذه الصلة ^(٢) . لقد ترك لنا البطالمة الشئ الضئيل من المعلومات عن سواحل افريقيا الشرقية وهى المعلومات التى

(١) صلة الكنيسة الحبشية بالكنيسة المصرية وطقوسها أقوى وأهم من صلتها بكنيسة بيزنطة .
(المترجم)

(٢) لم تبدأ صلة مصر ببلاد بونت (وهى تشمل الصومال واريتريا وجنوبى الجزيرة العربية) فى عام ١٥٠٠ ق . م بل قبل ذلك بأكثر من ألف سنة فى عهد الأسرة الخامسة المصرية واستمرت وقتا طويلا بعد عهد حتشبسوت .

(المترجم)

أشرنا إليها آنفا وهى دليل البحر الأحمر . ومع ذلك فإن أكثر المواد التى لها قيمة تذكر فى دراسة الحضارة هى تلك القصص التى خلفها لنا الرحالة سواء منهم العرب أو البرتغاليون منذ القرن الثالث عشر ، وهى القصص التى تفهم منها أن الأحوال فى تلك الأيام كانت مثل الأحوال السائدة فى نفس المنطقة حتى عام ١٩٠٠ ميلادية على وجه التقريب .

وأخيرا ، فإن مصر تقف وحدها بعيدة عن التيار العام الذى سلكته الحضارة الافريقية ، ونظرا لأن الحضارة المصرية من أقدم وأهم حضارات العالم فإنها تستحق فصلا خاصا بها .

الفصل التاسع والعشرون

مصر

ان التاريخ المصرى والحضارة المصرية كانتا موضع البحث العلمى على أيدى العلماء المختصين لأكثر من قرن كامل من الزمان ، ولذا لا نعجب اذا ما وجدنا أن معظم المكتبات قد اقتنت الكثير من الكتب القيمة التى تعالج هذين الموضوعين . ولهذا سنقتصر فى هذا الفصل على مناقشة تلك النواحى من الحضارة المصرية ذات الأهمية بالنسبة للتطورات الحضارية فى العالم خارج مصر .

فلقد اقترض جيران مصر الآسيويون من حضارتها ، دون تحفظ أو خجل ، الشيء الكثير ، كما اقترض الاغريق من حضارتها ما شاءوا أن يقتضوا ، ولكنهم أخذوا ما استطاعوا رؤيته دون أن يكبدوا أنفسهم مشقة فهمه . وبالرغم من أن الحضارة المصرية قد استمدت جذورها من نفس المصدر الذى استمدت منه حضارات جنوب غربى آسيا فى العصر النيوليتى وهى الحضارات التى كانت الأصل الذى تفرعت منه حضارات أوراسيا ، فإن الحضارة المصرية اتخذت فى تطورها سبيلا خاصا بها يشعر به الدارس الحديث كما شعر به من قبل الكتاب الكلاسيكيون الذين استطاعوا أن يلاحظوا المصريين فى حياتهم اليومية . وقد ذكر هيرودوت أن المصريين من أغرب المخلوقات البشرية ، وأنهم كانوا يفعلون عكس ما يفعله الناس ، وأنهم ذهبوا فى ذلك الى أنهم كانوا يدخلون المنازل لقضاء الحاجة بدلا من أن يستخدموا الشارع لهذا الغرض كما كان يفعل المتحضرون ، أى الاغريق .

أما السبب في وجود هذا التباين فهو في حد ذاته مشكلة طريفة ، فإن الشعب المصرى ، والحضارة المصرية أثناء تطورها ، قد امتصا دون شك عناصر كثيرة كانت تتميز بها الشعوب التى كانت تقطن المنطقة قبل العصر النيوليتى . غير أن هذا كله لا يفسر الكثير من هذه المفارقات لأن بعضها كان نتيجة للظروف الجغرافية المحلية . فأرض مصر ليست الا وادى نهر النيل ، أى تلك الواحة المستطيلة التى تمتد مسافة ٦٧٥ ميلا من الشلال الأول حتى البحر ، وتمتد من الشرق والغرب حيثما وصل فيضان النيل ، وما عدا ذلك فهو صحراء جدداء قالوا عنها انها مملكة « ست » عدو الاله « أوزيريس » واهب الحياة . وخمسائة الميل الأولى من وادى النيل ليست الا أخدودا لا يزيد اتساعه عن اثنى عشر ميلا ، أما فى المائة والخمسة والسبعين من الأميال التالية فإن الوادى يصبح شبيها بمروحة منشورة تظلها المستنقعات ويسير ببطء فيها النهر بطيئا وفى فروع متعددة . ويختلف نهر النيل عن كل الأنهار الأخرى ذات الأهمية التاريخية ، اذ يجرى من الجنوب الى الشمال كما تقع مصر العليا جنوبى مصر السفلى .

وتتبخر مياه الفيضان بسرعة . وبالرغم من أن الوثائق المصرية القديمة قد ذكرت سقوط بعض الأمطار من آن لآخر فى مناطق لا تسقط فيها الأمطار فى الوقت الحاضر فإن الزراعة لا يمكن مزاولتها دون تنظيم للرى . ولقد قامت فى مصر قبل فجر التاريخ الحكومات التى استطاعت تنظيم العمل الجماعى اللازم لحفر القنوات وبناء السدود ، والتى كانت تملك الحق فى تسوية المنازعات التى لا يمكن تفاديها حول حقوق الماء .

ويبدو أن هذه الحكومات قد ظهرت أول ما ظهرت فى منطقة الدلتا حيث كانت أعمال الصرف والرى من الأمور المطلوبة ، ولكن استقلال المقاطعات عن بعضها البعض واشتراكها جميعا فى مياه نهر واحد قد أمدّها بدافع قوى للوحدة فى دويلات أكبر .

هذا وتعتبر مصر الأرض المثالية بالنسبة للباحث الأثرى الذى يهتم بالعصور التاريخية . فهناك عدد لا يحصى من النقوش بل ومن المخطوطات (البرديات) التى ساعدت جو مصر الجاف على حفظها هى وغيرها من المواد الهشة أن تفسد بسوء . كما أن اعتقاد المصريين الراسخ فى حياة أخرى بعد الموت ، تشبه حياتهم فى هذه الدنيا ، ومحاولتهم تجهيز من يموت منهم بكل ما يلزمه لتلك الحياة ، كان سببا فى حفظ الأدوات التى كان يستخدمها فى حياته اليومية حفظا تاما . بيد أن الموقف بالنسبة للباحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ ليس ، مع الأسف ، باعثا على الرضا ، وذلك لأن الرواسب السنوية من طمى النيل قد أخذت تتراكم فى الوادى بالتدريج الى أن دفنت آثار المحلات السكنية من العصر الباليوليتى والعصر النيوليتى تحت رواسب ضخمة من الطمى سمكها لا يقل عن بضعة أمتار . إن معظم معلوماتنا عن عصر ما قبل التاريخ قد أتى إلينا عن طريق المواقع الأثرية على حافة الوادى ، وعلى الأخص من الجبال ، حيث كان الميت يدفن بعيدا عن حافة الأرض المزروعة وبعيدا عن متناول الفيضان .

وبالرغم من أن أقدم الأشياء الأثرية قد أخذت تصل إلينا بالتدريج ، فهناك قط كثيرة ما زالت موضع نقاش وجدل بين العلماء ، ولم نصل الى نتيجة نهائية بشأنها . ففى الفصل السابق ناقشنا موضوع ما قبل التاريخ فى إفريقيا متحدثين عن القارة كلها بوجه عام . أما فى مصر فقد أعقبت حضارة بلطة اليد حضارة الشظفة أى الحضارة الأثرية (Aterian) ، وهى تذكرنا بالعصر الباليوليتى الوسيط فى أوروبا . وبعد هذه الحضارة أعقبتها حضارة أخرى وهى الحضارة السيلية (Sebilian) وهى حضارة ميكروليتية تشبه تلك الحضارات التى بقيت فى ربوع الهضبة الأفريقية الى عصور قريبة نسبيا . وحوالى عام ٦٠٠٠ ق . م جلب المهاجرون الآسيويون معهم بعض النباتات والحيوانات المستأنسة والتكنولوجيا النيوليتية . أما فى الدلتا فقد

زرع سكان مرمدة القمح والشعير وكانت لديهم الماشية والأغنام والماعز ، وكانوا يستخدمون مناجل خشبية ذات حواف ثبتوا فيها شطقات من حجر الصوان (الطران) واستخدموها في حصاد القمح الذى كانوا يخزنونه في صوامع مضمفورة من الحصير . كانوا شعبا مستقرا ويعيش في قرى مسورة مكوفة من أكواخ بيضاوية الشكل هيكلها من الخشب ، وكانت أوانيهم الفخارية من نوعين : أولهما بسيط غير مزخرف يستخدم لطهى الطعام ، وثانيهما أوان حسنة الصنع ذات لون أحمر أو أسود . وكانوا صناع أحجار مهرة ، وكان من بين مصنوعاتهم ألواح من « الاردواز » كانوا يستخدمونها لصحن ومزج الألوان التى كانت تستخدم في تزيين جسم « الانسان » كما كان من بينها قفوس حجرية مصقولة وسكاكين متقنة الصنع الى حد كبير ، فضلا عن سنان السهام المصنوعة من حجر الطران ، كما كانوا يصنعون أيضا شصوصا لصيد الأسماك ومخارز من العظم ، ولم يأت عام ٤٥٠٠ ق . م على وجه التقريب حتى بدأوا في استخدام النحاس .

أما في مصر العليا فقد ظهرت حضارة نيوليتية أخرى ، وهى حضارة « تاسا » التى كانت أقل تقدما من حضارة مرمدة ، وقد ظهرت بعدها بوقت قليل .

كان التاسيون يعيشون حياة نصف بدوية أو على الأقل كان أهلها يعيشون في معسكرات مكشوفة في أكواخ بسيطة جدا وواهية فلم تترك وراءها الا القليل من البقايا . واذا ما طرحنا هذا جانبنا نجد أن طريقة صناعتهم (تكنولوجيتهم) كانت تشبه طريقة أهل مرمدة . أما أهم أوجه الخلاف فقد كانت تتمثل في الألوان الفخارية التى كانت سوداء اللون ومزخرفة برسوم بيضاء تشبه زهرة الخزامى في شكلها . ومع أنه ما من شك في أن أسلاف كل من الفريقين قد وفدوا من جنوب غربى آسيا ، فإن أسلاف المرمدين قد عبروا برزخ سيناء في حين وصل أسلاف التاسيين الى مصر العليا عن طريق البحر

الأحمر متخذين الطريق البرى ولم يتخذوا طريق نهر النيل .
 واتحدت مصر السفلى تحت امرة حاكم واحد حوالى عام ٤٥٠٠ ق . م .
 وقهرت مصر العليا بعد ذلك بنحو مائتين وخمسين عاما ، وقد أمكن تحديد
 هذا التاريخ بدقة كافية على أساس التقويم المصرى الذى كانت الدورة
 السنوية التى تتألف من ١٤٦٠ عاما احدى وحداته . بدأت أولى هذه الدورات
 فى ذلك الوقت على أساس الملاحظات الفلكية فى كل من منف وهليوبوليس على
 حدود مصر العليا ، ولم يعش الغزو الشمالى وقتا طويلا لأن كلا من القسمين
 عاد الى استقلاله حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م ، ومنذ ذلك التاريخ حتى بداية عصر
 الأسرات حوالى عام ٣٢٠٠ ق . م لا تعرف الا القليل عن حضارة مصر
 السفلى ^(١) . ومع ذلك فقد ازدهرت فى مصر العليا حضارة غنية وهى حضارة
 البدارى التى نعرف عنها أكثر مما نعرفه عن أى حضارة أخرى من عصر ما قبل
 الأسرات لأنها كانت قوية وملأى بالحيوية ، ويبدو أن صلاتها المتكررة بآسيا
 كانت سببا فى الدفع بها نحو التقدم . وكانت حضارة جزرة ، وهى احدى
 صورها ، معاصرة على ما يظهر لغزو أسيوى أدخل الى البلاد ، التى كان سكانها
 من ذوى الرؤوس المستطيلة ، عنصرا من ذوى الرؤوس المستديرة . وما هو
 جدير بالذكر أن الغزاة قد وفدوا عن طريق البحر الأحمر متخذين الطريق البرى
 دون النيل .

كانت فترة سبعمائة العام التى انفصلت فيها الدلتا عن الصعيد صاحبة
 الفضل فى ارساء قواعد الحضارة المصرية التى عرفناها فيما بعد . وكان السكان
 لا يزالون يعيشون فى أكواخ بيضاوية الشكل مثل تلك التى كان يعيش فيها

(١) وهنالك رأى آخر بأن مدة انفصال الصعيد عن الدلتا لم تكن الا فترة
 قليلة ، وربما حدث الاتحاد الثانى فى أعقاب الثورة التى قام بها الصعيد فحرر
 نفسه ثم ضم الدلتا اليه وأصبح الملك « منا » الذى كان ملكا على الصعيد ملكا على
 شطرى الوادى وأسس الأسرة الأولى .

سكان مرمدة اذ لم يكونوا قد اكتشفوا بعد كيفية البناء بمواد تبقى على الزمن ، وان كانوا قد تعلموا كيف ينسجون الكتان وكيف يصهرون ويصبون النحاس وكيف يصنعون « الفياس » ذا اللون الأزرق الضارب الى الخضرة وعمل المينا الخزفية من البلور الصخري المسحوق . لقد كانت هذه الصناعات التي سبقت ومهدت السبيل لصناعة الزجاج أحد المخترعات المصرية التي ظهرت فيما بعد . وكانوا يصنعون أيضا أواني فخارية حمراء ذات حواف سوداء ويرجع وجود هذين اللونين في الاناء الواحد الى اختلاف طريقة الحرق . وكانت صناعة الأدوات المصنوعة من العظم والعاج متقدمة جدا وكثيرا ما احتوت المقابر على تماثيل صغيرة لنساء عاريات مصنوعة من تلك المواد . وأصبحت ألواح الاردواز أكثر فخامة وحسن صناعة وظهرت في زخارفها البداية الحقيقية للتقاليد المصرية التي عرفناها بعد ذلك .

وكان الموتى يحملون الى منطقة بعيدة عن متناول مياه الفيضان ، ويدفنون في حفر يضاوية الشكل مجهزة بأثاث جنازى متقن الصنع . كانت الجثة توضع على أحد جانبيها مع ثنى الركبتين وتغطى بالحصير ، وكان لدفء الرمال ، التي كانت سرعان ما تحيط بالجثة ، وجفافها التام ، الفضل في حفظ تلك الجثث اذ حنطتها تحنيطا ناجحا أكثر من أى طريقة أخرى معقدة ظهرت فيما بعد ، وما من شك في أن هذه العملية كانت العامل الرئيسى الذى أوحى الى المصريين بأفكارهم الخاصة بحفظ الجسد .

هذا ولم يحل عام ٣٣٠٠ ق . م حتى كان لكل من شطرى مصر ملكه وبلاطه ورموزه الملكية وآلهته الوطنية . كان لمصر العليا التاج الأبيض ، وكانت تعمره الالهة فخبث التي كانت على صورة الرخمة (النسر المصرى) ، كما كان نبات الـ « سوت » (الحلقة) هو الرمز الخاص بها . أما مصر السفلى فقد كان التاج الأحمر خاصا بها وكانت الالهة « واجيت » الهة « بوتو » ، وهى على صورة ثعبان الكوبرا ، حامية لها ، أما شعارها فكان النحلة . وظلت الاختلافات بين

الشمال والجنوب باقية على مدى عصور التاريخ المصري وأخذت هذه الاختلافات تكثر حتى لم تعد مقصورة على التنظيمات السياسية وحدها. ويشبه ذلك في بعض الوجوه ما يوجد من بين الاسكتدلانديين والانجليز. كان سكان مصر العليا كثيرى الاحتمال للمشاق يميلون الى التنازع ولا يقبلون على الترف بنفس راضية وأشداء في تسكهم بالحق. وكانوا من وجهة النظر المصرية قوما محبين للحياة المتطهرة. أما سكان الدلتا فقد كانوا مرحين مهرة يميلون الى اللهو وينزعون الى التجديد، وكانوا أكثر ميلا الى معارك الفكر منهم الى معارك السلاح، ولهذا كانوا ينظرون الى سكان الصعيد على أنهم همج غير متمدين ويسخرون من لهجتهم الخشنة وأساليبهم غير المنسقة.

وحتى في الوقت الذى اتحدت فيه المملكتان تحت امرة « منا » ذلك البطل الغازى الذى نشأ في الجنوب، فقد وجد من الحكمة السياسية ألا يحاول توحيد الحكومتين توحيدا تاما، بل كان يحكم كملك لمصر السفلى ثم كملك لمصر العليا، تاما كما كانت الحال في أوروبا عندما كان الشخص نفسه امبراطورا للنسا وفي الوقت ذاته ملكا للمجر. كان لفرعون قصر وهيئة موظفين في كل من مصر السفلى ومصر العليا (١)، وكان في بعض الأحيان يحكم كملك على الجنوب وأحيانا أخرى يحكم كملك على الشمال. وكان يدل على صفته في كل من تلك المناسبتين التاج الذى يضعه على رأسه، اذ كان يضع التاج الأبيض تارة والتاج الأحمر تارة أخرى.

وتميزت الفترة التى أعقبت توحيد شطرى مصر مباشرة بالتقدم الحضارى السريع، اذ أن مصر كانت ما بين عام ٣٢٠٠ وعام ٢٥٦٠ ق. م مركزا لاجدى القفزات الحضارية التى ما زالت معرفة أسبابها من المشاكل الرئيسية التى

(١) لا يوجد فى النصوص ما يؤكد وجود قصرين وهيئتي موظفين، بل كانت هناك ألقاب للموظفين تدل على أعمالهم الموكولة اليهم.

تواجه الباحثين في تطور الحضارات . لقد بلغت التكنولوجيا المصرية خلال الخمسمائة عام الأولى من هذا العصر شكلها النهائي في كل الميادين ما عدا العمارة . كان الصناع المتخصصون الذين كانوا يتمتعون بمساعدة الطبقة الحاكمة ينتجون الأواني الجميلة الشكل المصنوعة من أكثر الأحجار صلابة فضلا عن العدد الكبير من الأواني النحاسية الجميلة الصنع والحلى المصنوعة من الذهب أو من حجر اللازورد أو حجر الفيروز . وأهم من هذا فقد ظهر المحراث في أول عصر الأسرات . ونحن لا نعرف ما إذا كان المحراث اختراعا محليا أو انهم استعاروه من آسيا . لقد خفف استخدام المحراث كثيرا من مشاق الزراعة وأطلق القوى البشرية التي كانت تستنفد في الحقول حتى ذلك الوقت من عقالها ، ودفع بها الى ميدان المشروعات الوطنية الأخرى .

وأخذت الكتابة الهيروغليفية صورها النهائية (انظر الفصل التاسع) وأصبحت جزءا متمما للشعائر الدينية والأعمال الحكومية ولم تعثرها تغييرات تذكر بعد ذلك الوقت . ويبدو أنه قد حدث في الوقت نفسه ثورة عارمة في كل ميادين النشاط الفكرى اذ أن أولى الأبحاث ذات الصبغة العلمية التي تتناول تشخيص ومعالجة الأمراض والكسور ترجع في تاريخها الى ذلك الوقت . ونظموا أمور الدين وتبلورت الطقوس الكثيرة الخاصة بالمعابد والقصر . وأخيرا تمكنت الطبقة الحاكمة من الوصول الى نظام من أكثر النظم السياسية التي ظهرت في العالم حتى يومنا هذا تركيزا وتنسيقا . وفي ختام هذا العصر تقريبا شيدت أهرام الجيزة العظيمة ، ويمكن للمرء أن يدرك عظمة هذه المباني لو أنه عرف أنه أقدم وأضخم وأعظم ما شيدته يد الانسان ، قد شيد بعد أقل من مائتى عام من المحاولة الأولى التي بذلها المصريون لاستخدام الحجر في أى نوع من أنواع البناء . لقد استخدمت أبسط الأدوات في بناء الأهرام ، وهى الطرق المنحدرة والدراويل (الاسطوانات) والعتلات (الروافع) . أما البكرة فلم تكن معروفة في ذلك الوقت ، ولهذا فإن الأهرام تعتبر انتصارا للمثابرة

وللقوة البشرية دون غيرها . كما أن عملية تنظيم وتموين هذه القوة الهائلة المستخدمة في البناء عاما بعد عام كان عملا اداريا من الطراز الاول . لقد قيل ان عامة الشعب من المصريين كانوا متحمسين لهذا النوع من العمل لأنهم كانوا يعتقدون أنهم يبنون بيت الاله الذي يعتمد عليه مستقبل رخاء الأمة .

ولكن بالرغم من ذلك لم يكن لهم الا حظ ضئيل من الاختيار لأن الفلاحين المصريين في ذلك الوقت كانوا رقيقا للأرض ، أى تابعين للأرض التي يعملون فيها ومنظمين في وحدات مثل الوحدات العسكرية تحت امرة ملاحظين كانت مراكزهم تشبه مراكز صف الضباط . فلهذا كانوا معرضين للذهاب للعمل في الأشغال العامة وأعمال المحاجر والحملات العسكرية ، ويظهر أنهم كانوا ينظرون الى كل واحدة من هذه الحرف الثلاث أنها على قدم المساواة مع أختها . وسيطرت على آخر أسرتين في عصر الدولة القديمة (الأسرتين الخامسة والسادسة) رغبة ملحة لغزو بلاد النوبة فشتتا حملات مستمرة على سكان تلك البلاد . وكان هذا العمل بالإضافة الى العمل غير المثر الذي يتمثل في تشييد الأهرام والمعابد قد استنفد صبر المزارعين كما استنفد موارد بلادهم وأدى في النهاية الى انهيار الدولة القديمة حوالي عام ٢٢٨٠ ق . م وما تلا ذلك من انهيار سياسى وفوضى . وعندما ظهرت الى الوجود حكومة مركزية قوية في عام ٢٠٥٢ ق . م كان العامة قد نالوا حريتهم ولم يظلوا عبيدا للأراضى . وبالرغم من أنهم كانوا لا يزالون تحت رحمة جامعى الضرائب الملكية وأنهم في أغلب الحالات كانوا مستأجرين لأراضى المعبد أو أراضى الملك ، فانهم كانوا يتمتعون بقدر كبير من الحرية التي ظلوا محتفظين بها فيما بعد . وأهم من أى شيء آخر ، كان في استطاعة الأفراد العاديين أن يرتفعوا في هذه الحياة . وكم من موظف كبير افتخر في النقوش التي خلفها من بعده بأنه كان رجلا عصاميا ابن رجل من الطبقة المتوسطة أو من أبناء الفلاحين . وكان على الموظف الطموح ألا يقتصر على أداء واجبه أداء كاملا فحسب ، بل عليه أن يتحجب

وأن يتودد الى رؤسائه ، وذلك لأن كل الثروة والجاه كانت تتسلسل الى أسفل ، منحدره من أبهة فرعون .

وأهم ما أسهمت به مصر في ميدان التقدم الحضارى في العلم كان في ميدانى التكنولوجيا والدين . وكانت نظمها الحكومية ذات طابع جامد تتخلله الى حد بعيد النظم اللاهوتية ، فجعلت من هذه النظم شيئا غير مقبول خارج وادى النيل . ولم يكن متوقعا من الفلاحين الذين اعتادوا الدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات الخارجية أن يلتزموا دائما جانب الأدب مع كل فرد من هذا العدد الهائل من الكهنة والموظفين . كما أن الأمن النسبى الذى تتمتع به مصر والذى ساعدها على الصحراوات التى تكتنفها ، كان من الأسباب التى جعلت في الامكان وجود نوع من الحكم المطلق لم يكن في الامكان فرضه في مكان آخر .

وكان المصريون بحق أمهر الصناع في العالم الذى سبق العصور الكلاسيكية ولم يحل عام ١٥٠٠ ق . م حتى كانوا يعرفون طريقة مزج النحاس بالقصدير ليتجوا البرونز . كما كان لاستخدام المنفاخ في ذلك الوقت أثره العظيم في تسهيل عملية الصهر ، وكانوا يعرفون أكثر المعادن العادية التى نعرفها الآن . كان الحديد نادرا قبل عام ١٠٠٠ ق . م وحتى في ذلك الوقت لم يحصل عليه المصريون بصفة رئيسية الا عن طريق التجارة . والكلمة المصرية القديمة للحديد هى « معدن السماء » الأمر الذى يثبت انهم بدأوا باستخدام حديد الشهب . أما الذهب فقد كان متوافرا في مصر أكثر من أى بلد قديم آخر اذ كان يستخرج من عروق الكوارتز التى تحتوى الذهب ، وهذه العروق تتخلل أحجار الجرافيت المحلية ، فضلا عن أن هذا المعدن كان يزسل كجزية من بلاد النوبة أيضا . وكان المصريون يقدرون كثيرا معدن الالكتروم وهو مزيج طبيعى من الذهب والفضة ، بينما كانت الفضة في حد ذاتها نادرة جدا ، وكانت قيمتها تفوق كثيرا قيمة الذهب . وان ما قام بعمله صناع الحلى الذهبية

من المصريين في ذلك الوقت لا يمكن أن يصنع خيرا منه أى صائغ في العصر الحاضر . لقد كانوا على علم تام بفنون صياغة الذهب كلها فيما خلا التذهيب بواسطة استخدام التيار الكهربى . وتفوقوا في صناعة المينا كما عرفوا طريقة صنع الزجاج الملون ذى الألوان المختلفة ، وأكثر ما استخدموه فيه هو عمل الخز و التطعيم . هذا ، ويبدو أن طريقة نفخ الزجاج قد تقدمت وتطورت خارج مصر ، ربما في سورية (١) .

وكان الخشب نادرا في وادى النيل منذ أقدم العصور ، وكان يستورد من سورية ولبنان حتى في أيام الدولة القديمة ، وقد أدت ندرة وجود الخشب والحاجة الى استخدام أصغر القطع الى تطور مدهش في صناعة النجارة الدقيقة وعمل الأثاث . ان جميع التعشيقات المختلفة التى يستخدمها النجارون الآن كانت معروفة لديهم ، وكان المصريون مهرة خبراء في عمليات تطعيم الخشب بالصدف أو العاج أو وضع قشرة من الخشب فوق خشب آخر ، فضلا عن أنهم كانوا أول من أدرك الامكانيات الجمالية لخشب الأبنوس ، واستخدم هذا الخشب الصلب السهل الكسر . كما أنهم تهدموا الى درجة كبيرة في التطعيم بالعاج والصدف ، وكانوا أول من دبح الجلود و اخترعوا الطريقة التى ما زالت مستخدمة في معظم أرجاء العالم حتى الآن . وكانوا أول من عمل رسوما على الجلد ولا تزال مدية السروجى الحديث تصنع على غرار المدى المصرية القديمة أما من ناحية المنسوجات فقد نسجوا الملابس الكتانية بنن ومهارة لا تقل في روعتها عن تلك التى تنتجها المغازل الحديثة . كما عرفوا الصوف وان كانوا لم يستخدموه الا نادرا ، وان حظر دخول الملابس الصوفية الى المعابد يثبت عدم مصرية أصله . أما المنسوجات القطنية والحريرية فلم تكن معروفة لديهم (٢) .

(١) عرفت مصر صناعة الزجاج وعمل الاوانى منه بطريقة النفخ منذ الاسرة الثانية عشرة أى حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد .
(المترجم)
(٢) لم يعرف المصريون القطن منذ بدء حضارتهم ولكن من المحتمل أنه كان معروفا لديهم منذ القرن السادس قبل الميلاد .
(المترجم)

غير أن هناك عنصرا آخر من التكنولوجيا المصرية يستحق الذكر . كان المصريون ينزعون الى استخدام الوسائل الصناعية للتجميل كما يفعل الأمريكيون الآن . وكان الأطباء يعتبرون مد الناس بمثل هذه المساعدات جزءا متما لنشاطهم . وتحتوى البرديات الطبية على وصفات لازالة التجعيدات وصنع الشعر الأبيض ، وكان الكحل يستخدم فى اطالة الحواجب وفى رسم خطوط على الجوانب الخارجية من العين . وكان الكحل المستخدم للعين من نوعين : نوع أخضر وهو مصنوع من الدهنج (الملتخيت) ونوع رمادى وهو مصنوع من أوكسيد الرصاص . أما المغرة الحمراء فكانت تستخدم فى طلاء الشفاه والخدود ولكن دون مغالاة . أما الأظافر ، وراحتا اليدين وباطن القدم ، فقد كانت تصبغ بالحناء . وكان الرجال والنساء يرتدون الشعر المستعار المصنوع من الشعر البشرى الذى كانوا يصبون فوقه شمع النحل المذاب ، وكان أفراد الطبقات العليا يحتفظون بعدد من الجامات (الشعر المستعار) للمناسبات المختلفة . أما النساء فكن يضعن الشعر المستعار فوق شعرهن الطبيعى بعكس الرجال الذين كانوا يخلقون كلا من شعر الرأس والذقن . وكان الجنسان يشتركان فى ازالة شعر الجسد ، أما اللاتى كن يرغبن فى بلوغ أقصى درجات الأناقة فكن يطلين نهودهن بلون الذهب ويطلين حلمة الثدي باللون الأزرق .

كان المصريون على ما يبدو أول من فكر فى عمل الروائح العطرية الزيتية ، وهى ما زالت مستخدمة فى الشرق الأوسط ، وكان كل من النساء والرجال يحرص على نعومة جلده وذلك بتدليكه بالزيت . أما فى الحفلات فقد كان من عادة المضيف أن يضع فوق رأس كل ضيف من ضيوفه مخروطا من السحم المعطر الذى كان يذوب بالتدريج بفعل الحرارة المنبعثة من صالة المأدبة ، ويسيل على وجه الضيف وعلى جسده . وكان الرجال والنساء يتحلون بأدوات الزينة وأهمها عقود كبيرة من الخرز ذات ألوان مختلفة فضلا عن الأقراط الضخمة .

وقد بذل الصناع المصريون الكثير من الجهد فى صنع أدوات الترف
 اذ ان الاقبال الشديد عليها ، والمنبعث من عادة دفنها مع الموتى ، كان له نتيجة
 غريبة . كانت مقابر الفراعنة والنبلاء تزخر بكنوز الذهب والأحجار الكريمة ،
 وبالرغم من أن لصوص المقابر قد أعادوا جزءا منها للتداول الا أن العرض
 لم يكن يفي أبدا بالطلب . ولما كان غش الموتى شيئا سهلا فقد أخذ الصناع فى
 تقليد الأدوات الذهبية ، وذلك اما عن طريق طلاء المعدن بالذهب ، أو عن
 طريق معالجة سطحه مما جعل أحط أنواع المعادن تبدو كما لو كانت ذهبيا
 وكان للجهود التى بذلت فى تقليد المواد ذات القيمة وعمل بديل لها ، فضل
 كبير فى ظهورهم علم السيمياء وهو الأصل فى علم الكيمياء الحديث . وأقدم
 النصوص السيميائية يرجع تاريخها الى عهد البطلمة ، ولكنها تشتمل ، على
 الأرجح ، على نصوص ترجع فى تاريخها الى عهود أقدم وهى وصفات لعمل
 سبائك معدنية أو لجعل سطح بعض المواد يبدو كما لو كان من الذهب .
 ومما يستحق الذكر أن نفس النصوص الآتية الذكر قد اشتملت على وصفات
 لعمل أصباغ تشبه صبغة مدينة صور الأرجوانية الغالية الثمن . وبذلك ظهر
 علم السيمياء للبحث عن بديلات رخيصة لمواد غالية الثمن ثم دخله الكثير من
 التعقيدات وتحول الى بحث غامض عن حجر الفلاسفة بعد أن تلقفه فلاسفة
 الأفلاطونية الجديدة من أيدي الصناع .

أما بالنسبة للرجل الغربى الحديث الذى نما وترعرع فى أحضان المنطق
 الاغريقى التقليدى ، وفى ظل الفلسفة القائلة بالسبب والنتيجة ، فإن الديانة
 المصرية تبدو غير مفهومة . وتبعاً لميله الشخصى فانه سيفسر محتوياتها كعبث
 صيائى أو كلمحات من علم مستر لا يمكن أن يعرفه الا أولئك الذين سبق
 أن كشفت لهم غوامضه . والحقيقة أنه ليس لأى من الغرضين نصيب من الصحة
 لقد لخص مرة أحد الحكماء المشتغلين بالطلب من رجال الاسكيმო علاقة قومه
 بقوى ما فوق الطبيعة قائلاً « اتنا لا نعتقد ، بل اتنا نخشى » وقد يلخص

المصرى مثل هذه العلاقة بقوله « اننا لا نعتقد ولكننا نمسكها بأيدينا » فنحن نعرف أسماء ما يزيد على ألفى اله من آلهة المصريين ، الا أننا لا نعرف واحدا من بينها نظر اليه عباده بعاطفة حقيقية ، أو شعروا أمامه بأنهم لا حول لهم ولا قوة . فكل اله منها يمكن مراوغته والسيطرة عليه اذا تمكن الانسان من معرفة الكلمات التى من شأنها أن تمدد بالقوة اللازمة . ولا يمكننا تصنيف الآلهة المصرية واطلاق لفظى صالح أو شرير على أى منها . حتى الاله ست ، قاتل أخيه أوزيريس وسيد الصحراء ، لم يكن بأية حال مشابها للشيطان لدى المسيحيين . كان هذا الاله السيد القديم لبعض الأقاليم فى كل من مصر العليا والسفلى ومن ثم كانت عبادة سكان هذه الأقاليم له أمرا مؤكدا ، كما كان هذا الاله نفسه يحتل مركزا مرموقا بين المحاربين الذين يدافعون عن الاله رع اله الشمس ، بل كان هو نفسه يعبد على أساس أنه اله للحرب . كانوا يتضرعون للاله طلبا للمساعدة فى أغراض أخلاقية أو غير أخلاقية ، وكانت الطقوس الدينية التى تمارس فى المعابد تعاويذ وصلوات كما كانت مظاهر للعبادة . وكان المصرى القديم يميل الى معرفة الطرق والأساليب التى يمكن بواسطتها السيطرة على آلهته ، ويستخدم قوتها لمصلحته الخاصة أو لمصلحة الجماعة . ولم يكن يميل أبدا الى البحث فى المشاكل الخاصة بأصل الآلهة أو حقيقة طبيعتها ، ولهذا السبب لم يستطع أبدا أن يصل الى نظام لاهوتى متماسك بل ان الأساطير المصرية فى مجموعها أساطير غير منطقية ومتناقضة . ويبدو أن المصريين يفضلون عدة أساطير تشرح جميعها ظاهرة واحدة أكثر من أسطورة واحدة محددة .

وبينما يعكس هذا النقص فى التوافق المنطقى اتجاههم فى التفكير ، فان العوامل التاريخية ساعدت على ذلك أيضا . كانت مصر مكونة من ٤٣ اقليما كانت فى الأصل مجموعات مستقلة سياسيا وكانت دائما تحتفظ ببعض الاختلافات الحضارية الضئيلة . وكان لكل اقليم فى البداية مجموعة آلهته

الخاصة به . وكان سكان هذا الاقليم ينظرون الى اله منها ، أو أكثر من اله واحد ، على أنه حارس الاقليم الخاص ، وكانوا يرفعون اليه الجانب الأكبر من عبادتهم ، وحتى بعد تدعيم مصر سياسيا احتفظت آلهة الأقاليم بولاء أبناء أقاليمهم . وكانت المجموعات الالهية المختلفة منظمة على نسق واحد تقريبا اذ كان كل منها يحتوى عددا من الآلهة يقومون بأعمال متشابهة ، وهو الأمر الذى سهل ادماج الآلهة ، أى امتزاج عدة آلهة فى شخصية اله واحد . وعلى أى حال فقد كان المصريون غير راغبين فى التنازل عن أى قصة من تلك القصص التى ارتبطت بالآلهة المحلية المختلفة ، وكنتيجة لهذا ، أصبح فى الامكان سرد العشرات من الأقاصيص المختلفة والمتناقضة ، والتى تدور كلها حول كائن واحد ، كما استمرت أيضا الطقوس الدينية الخاصة بالآلهة المحلية الأمر الذى أدى الى سلسلة لا تنتهى من المتضاربات والمتناقضات .

كانت أهمية الآلهة ترتفع وتنخفض تبعا لارتفاع وانخفاض أهمية مدنها أو أقاليمهم . ومع ذلك ، فقد كانت هناك بعض المراكز التى احتفظت آلهتها بنفوذها فى كل عصور التاريخ المصرى . فمثلا كان الاله رع ، أو آتوم ، أو رع — آتوم ، — اله هليوبوليس — هو أقدم الآلهة الرئيسية . كان رع آتوم الها للشمس وخالقا للعالم ، وكان يمثل دائما فى صورة انسان ، وكان يرأس فى عقيدة هليوبوليس مجموعة تتكون من ثمان آلهة تشتمل على أوزيريس وايزيس أما ابنهم حورس فقد كان على رأس مجموعة تتكون من تسعة آلهة وان كان فى نظر المصريين أنه هو رع — آتوم تحت اسم « حور — اختى » ، وكان يلقب بابن رع . ولكن حورس كان فى الواقع يمثل الشمس عند الشروق كما يمثل رع الشمس فى منتصف النهار ، أما آتوم فقد كان يمثل الشمس الغاربة وكان يمثل كرجل متعب متقدم فى السن .

أما فى مدينة هومبوليس (الأشمونين) فقد كان الاله الرئيسى فيها هو الاله تحوت الذى كان يمثل فى صورة بجسم انسان ورأس طائر الايبس ،

وكان يتحكم في فصول السنة وفي القمر والنجوم وهو الذى اخترع الكتابة « الهيروغلوفية » ، والحساب ومسك الدفاتر واللغات والسحر والقانون بل وحتى لعبة الضاما ، وكان أيضا رئيسا للوزراء وكاتبا للآلهة ، وكان مثل رع — أتوم خالقا للعالم ، وإن كان قد خلقه بطريقة مختلفة ، وكان هو ومن معه من الآلهة مركزا لعقيدة هومبوليس .

وفي العصور المبكرة وجدت كل من هاتين العقيدتين نفسها وقد دخلت في منافسة مع عقيدة ثالثة وهى عقيدة « منف » التى كانت تتخذ الآلهة بتاح آله المدينة الها رئيسيا لها . وتبعا لهذه العقيدة يعتبر الآلهة بتاح أكثر قدما من الآلهة أتوم نفسه ، وأنه خلق رع — أتوم عن طريق النشاط العقلى المتعمق . وانحدر الآلهة والناس من ذكائه . وكان الآلهة الصقر ، وهو الآلهة حورس يمثل قلبه ، أما لسانه فقد كان يمثل آله الحكمة تحوت . وكان بتاح هو الآلهة الحامى للفنانين والصناع ورجال الأدب ، بيد أن العقيدة التى اشتملت على طقوس عبادته كانت من التجريد بحيث لم تحظ بالتأييد العام من المصريين الذين كانوا يمتازون بتفكير مادى واقعى . وأخيرا انتصرت عقيدة هليوبوليس فى ذلك النزاع الذى دار بين العقائد الثلاث وذلك لسهولة تطبيقها على العقيدة القائلة بتأليه الملوك ، والتى تساوى بين الفراعنة الموتى وبين أوزيريس ، وتساوى بين الأحياء منهم وبين حورس . أما آخر الآلهة الوطنية العظيمة فقد كان أمون — رع آله طيبة . كان الآلهة أمون رع فى الأصل الها غير هام لاقليم الصولجان (اقليم طيبة) ولم يكن الآلهة الحامى لهذا الاقليم ولكنه وصل الى القوة فى عهد فراعنة طيبة . فعندما تم لأولئك الفراعنة السيطرة على كل أرجاء مصر ازداد نفوذه عن طريق فراعنة طيبة بعد ذلك فى كل أنحاء البلاد ، وقويت عقيدته بأطراد حتى أضحت كبار كهنته هم الحكام الحقيقيين للدولة ، الأمر الذى حدا بإخناتون الملك المارق أن يشن حربا شعواء ضد كهنته هادفا الى الإصلاح الدينى ولكنه خسر المعركة .

وتختلف عقيدة أوزيريس من نواح كثيرة عن غيرها من المقائد العظيمة الأخرى . وتنقسم أسطورة أوزيريس الى جزئين لا تجمع بينهما الا المصادفة ، ففي الجزء الأول نجد أنه قد حكم مصر بالاشتراك مع أخته وزوجته ايزيس وكان أخوه ست يهيم بايزيس حبا ، وقد تمكن من قتل أوزيريس بخدعة ووضع جثته في صندوق ورماه في الماء فقام حتى وصل الى شاطئ بيبلوس (جيل) في سورية وتبعته ايزيس الى هناك وعادت الى مصر حيث تولى الاله أنوبيس تحنيط الجثة تحت اشرافها . ونزلت روح أوزيريس بعد ذلك الى العالم السفلى حيث أصبح حاكما على الموتى . وأخذت ايزيس الجثة المحنطة الى مكان سرى في مستنقعات الدلتا حيث حاولت أن تحمل منه (وهى احدى المتناقضات التي قد يفسرها الاعتقاد في الروح « الكا » بيد أن المصريين أنفسهم ، فيما يبدو ، لم يشغلوا أنفسهم بها كثيرا) ثم ولدت في الوقت المناسب الاله حورس . واستطاع ست الذي كان يبحث هو الآخر عن جثة أخيه أن يستكشف مكانها في غياب ايزيس وأن يأخذها معه ويقطع أوصالها ، ويعثر أشلاءها في جميع أنحاء مصر . غير أن ايزيس جدت في البحث عنها حتى استطاعت تجميعها . ولما شب حورس ودخل في طور الرجولة هب للانتقام لأبيه من قاتله ست وثبتت بينهما معركة ولكنها لم تكن حاسمة انتهت بتحكيم الاله الأرض « جب » الذي حكم بتصيب حورس حاكما على الدلتا وست حاكما على الصعيد ، ولكنه عاد فوضع الملكتين تحت سيطرة حورس .

ففي النصف الأول من الأسطورة يظهر لنا أوزيريس كاله للخصب ، له تلك السمات التي تميز آلهة الشرق الأدنى ؛ إذ إن حوادثها تشبه تلك التي كانت تروى عن الاله أدونيس الذي كان الها في بيبلوس ، وتموز الذي كان الها في بلاد ما بين النهرين . لقد قتل أوزيريس مثلها ومزقت جثته ودفنت ثم بعثت للحياة مرة ثانية ، وهى دورة كانت تمثل سنويا في حصاد القمح ودرسه ثم زراعة المحصول الجديد ونموه .

أما الجزء الثانى من الأسطورة فهو تمثيل للتاريخ المصرى الذى يضى
الالهية على حكم فرعون . كانت ايزيس مثالا للملكة الأخت والزوجة الوفية ،
فى حين قام حورس بدور الابن الكامل الذى يدافع عن أبيه وينتقم لموته من
قاتليه . كما أن التقسيم الأصلى لمصر بين حورس وست ما هو الا ذكرى
شعبية للتقسيم الحقيقى لمصر فى عصر ما قبل التاريخ ، كما أن التسوية النهائية
للتقسيم واعطاء مصر كلها لحورس ما هى الا ذكرى الوحدة المصرية الأولى ،
التي تمت فى عصور مبكرة تحت لواء الدلتا . وأصبح أوزيريس ، الفرعون
الكريم والحاكم على أرض الموتى ، والاله الذى يرضى بأن يشاركه رعاياه
فى خلوده ، أصبح هذا الاله أكثر الآلهة المصرية فى شعبيته . وكان آلهة العقائد
الأخرى لا يبدىهم غير الطبقات العليا ، أما ثالوث أوزيريس وهو (أوزيريس
— ايزيس — حورس) فكان معبودا من جميع طبقات الأمة ابتداء من فرعون
حتى الفلاحين . وكانوا يمثلون قصة حياته ومماته وبعثه عند مدفنه بأيدوس
على هيئة تمثيلية عاطفية كانت تستمر عدة أيام . وكان الملك يسند الأدوار
الهامة فى التمثيلية الى كبار موظفى الدولة ، وكانوا يعتبرون دور حورس ،
الابن المثالى ، شرفا خاصا لمن يسند اليه ، وكان السكان المحليون وآلاف
الحجاج الذين كانوا يجيئون الى الاحتفال يشتركون فى التمثيليات كممثلين
خارجيين . وكان الاحتفال ينتهى بملحمة تصور معركة تقوم بين قوات تمثل
كلا من جيوش حورس وجيوش ست قاتل أوزيريس لا تنتهى بقتل أحد ،
ولكن تنتهى باصابات كثيرة بين المشتركين فى تمثيلها ، وقد أصيبت وجوههم
بالكدمات ورؤوسهم بالجروح .

وأخيرا نتحدث عن اله آخر من الآلهة المصرية وإن لم يكن أقلهم شأنا ،
وهو فرعون نفسه فعندما يتوج فرعون يصبح الاله حورس ، وعند موته يتحول
الى أوزيريس ، وكان يعزز قواه الروحية التى كانت تعتمد عليها البلاد فى
رخائها طهارة الدم الملكى . ولهذا السبب كان فرعون يتزوج فى طفولته من

أكثر شقيقاته أو أخواته ملازمة له . بيد أنه كان يسمح لفرعون عندما يكتمل نموه ، أن يتخذ له من الزوجات والمحظيات ما يشاء وإن كان من المستحب بالنسبة لولى العهد أن يكون حائزا لأكبر نسبة من الدم الملكى وهو الأمر الذى حدا ببعض الفراعنة أن يتخذوا فى بعض الأحيان من بناتهم زوجات لهم حتى يضمنوا ذلك .

وكان قصر فرعون يشيد على هيئة معبد ^(١) ، وكانوا ينظرون إليه على أنه كذلك لأن فرعون كان فى الوقت نفسه كاهنا أكبر وتجسيدا للاله . وكانت الطقوس الدينية التى يقوم بها فرعون كل يوم تبعث القوة فى الطقوس والشعائر الأخرى التى كان الكهنة يقومون بها فى كل مكان فى مصر . كانت أفعاله وملابسه التى يرتديها ، بصفته الاله حورس تسير طول اليوم حسب قواعد تم وضعها منذ وقت طويل . وكان لفرعون مقران : أحدهما فى الصعيد والآخر فى الدلتا ، وكان عليه أن يقسم وقته بينهما بالتساوى حتى يحظى كل قسم من قسمى مصر بالفوائد التى كانت فوق الطبيعة التى ترتبط بوجوده ^(٢) . وحتى بعد موته كان نفوذ الملك يظل مستمرا اذ يصبح حاميا وطنيا وتصبح مدينة الهرم الخاصة به أو معبده الجنائزى غاصا بالكهنة الذين يظنون فى خدمته عدة أجيال يتوارثون وظائفهم .

وكان هناك المئات من الآلهة الأخرى التى لا نعرف عنها سوى أسمائها والأشكال التى كانت ترسم بها ؛ اذ كان المصريون يميلون الى تمثيل آلهتهم بأن يكون جزء من جسم الاله على هيئة حيوان والجزء الآخر على هيئة .
(١) ربما كان ذلك صحيحا الى حد ما فى العصور المتأخرة نظرا لبناء بيلون عند مدخله ، ولكن القصور والمنازل بصفة عامة كانت لها عمارة مدنية . تختلف عن العمارة الدينية .

(المترجم)

(٢) لم يظهر مقر الدلتا الا منذ الأسرة التاسعة عشرة فى مدينة « پر رعمس » فى شرق الدلتا .

(المترجم)

انسان ، وقد عبدوا الحيوانات فى العصور المتأخرة اعتقادا منهم بأن الآلهة حلت فيها . وكانت بعض الأقاليم تتخذ حيوانات معينة كرموز لها ، وكانت تحرم على سكانها قتلها أو استخدامها ، الأمر الذى يدعو الى الاعتقاد بأن النظام كله لا يعدو أن يكون طوطميا . وهناك وجهان غريبان لهذه الآلهة الحيوانية وهذه الرموز ، اذ انه بالرغم من أن الحضارة المصرية فى عصر ما قبل الأسرات كانت أسسوية فى أصولها ، الا أن الحيوانات المتوحشة التى رسموها كانت كلها افريقية ، ولكن فى الوقت نفسه فإن اثنين من أبرز الحيوانات الافريقية وهما الفيل والكركدن لم يرد رسم لهما بين رسوم الآلهة .

كانت الشعيرة الهامة المعروفة باسم شعيرة بيت الصباح أهم الطقوس الدينية المتصلة بعبادة الآلهة جميعا . كان فرعون أو كبير الكهنة فى أى معبد يستحم أولا بماء يجلبونه من بحيرة مقدسة ، وهى جزء طقسى فى كل معبد وفى كل قصر . وبعد أن يتم اغتساله يدهنونه بالطيب ويزوده كاهنان يرتديان قناعى تحوت وحورس بكل الرموز الخاصة بمنصبه . ومن النادر أن نرى اشارة فى القصص الشعبية الخاصة بالديانة المصرية الى أهمية الأقتعة بيد أنها كانت تستخدم فى طقوس كثيرة وهى حلقة هامة تربط الحضارة المصرية بالحضارات الافريقية الأخرى . وبعد أن تنتهى عملية التنصيب كان الكاهنان يقودانه مسكين بيديه الى الهيكل حيث يوجد تمثال للاله داخل ناووس مغلق . وكان عليه أن يحطم الختم الطينى الذى كان يغلّق ضلقتى باب الناووس ويفتح الباب ثم يلقى بنفسه على الأرض أمام الاله ثم يوقظه بعد ذلك بأن ينشد له نشيد ابتهاج الصباح ، ثم يأخذ الكاهن التمثال ويطهره ثم يمثل حركات اطعامه ويلبسه الثياب الملونة ويدهن وجهه باللون الأحمر ، ويحليه بالرموز المناسبة ثم يعيده بعد ذلك الى الناووس ، ويفلق الباب وينسحب ماشيا الى الخلف الى أن يترك الهيكل مزبلا آثار أقدامه بقطعة من جريد النخل . وكان كل طلب يطلب من الآلهة المصرية تصحبه القرابين ، ولكنهم كانوا

لا يشجعون ذبح عدد كبير من الماشية . ويتفق هذا مع الاتجاهات المصرية التي تغلط بين السحر والدين فيما يتعلق بعبادة الآلهة فإن أداء الطقوس المعقدة على الوجه الصحيح كان أهم بكثير من تقديم القرابين .

أما فيما يختص بالآراء المصرية المتعلقة بالعنصر الروحاني في الانسان ومصيره بعد الموت فانها كانت غير منظمة وغير منطقية مثل باقى عقائدهم الدينية بل ان وصف هذه الآراء أصبح أكثر تعقيدا بسبب ما حدث في بعضها من تغييرات خلال عصور التاريخ المصرى الطويل .

كان المصريون في عصر ما قبل الأسرات يعتقدون بكل تأكيد في الخلود الفردي لجميع الطبقات لأنهم زودوا مقابر موتاهم بالإنثاء الذى كان يختلف من حيث الكمية والنوع حسب موارد العائلة . ولكن تركيز السلطة في أيام الدولة القديمة حرم عامة الشعب لا من الحرية فقط ، بل وحرمة أيضا من الأمل في الخلود وذلك لأنه خلال ذلك العصر أو على الأقل في فترة محدودة منه لم يكن بين الأفراد من له الحق في التمتع بالحياة بعد الموت سوى فرعون والنبلاء الذين كان فرعون يمنحهم بعض الصيغ السحرية المعينة ، ويسمح بدفنهم بالقرب منه وبذلك يشتركون في جزء من حيويته الالهية . هذا ، ولسنا نعلم ما اذا كان عامة الشعب قد وافقوا على هذا الرأى أم لم يرضوا به ، ولكن الذى نعلمه أنهم لم يفقدوا الأمل في حقهم في الخلود ، ويثبت ذلك ما حدث من تقدم سريع في انتشار عقيدة أوزيريس وإيزيس وحورس بعد سقوط الدولة القديمة .

كان المصريون يعتقدون بوجود كائنين روحانيين على الأقل يتصلان بالفرد ولعل أكثر هذه الكائنات وضوحا هي ال « كا » التى تعتبر قرينا للانسان ، وهناك من الأسباب ما يدفع الى اعتقاد بأنها كانت ، في العصور المبكرة ، معادلة للمشيمة أى خلاص الجنين . كانت الكا تولد مع الانسان غير أنها كانت تحيا حياة منفصلة عنه خلال حياته ولكنها كانت تتحد مع جسده ثانية في لحظة

الموت . فإذا أصاب الجسد تحطيم كبير ، أو فقد فقدانا كاملا ، فإن الكا تهلك ، ومن هنا نشأت عادة التحنيط وعادة وضع تمثال للميت في قبره تحل فيه الكا في حالة فقد الجسد . وكانت الكا تعيش في القبر وتتغذى على القرايين ، وكانوا يزخرفون جدران القبر ويضعون فيه الأثاث لأجل اسعادها . وكان على كل مصرى أن يضمن لهذه الكا المأوى ، فضلا عن استمرار امدادها بالطعام . وكانت عناية الأحفاد الشديدة بأسلافهم الموتى اجبارية عليهم اذ كان في مقدور الميت التحكم في مصائر الأحياء . أما عن القرايين التى يفرضها الاعتقاد في احترام الموتى من الأسلاف فقد فاقت من حيث كثرتها ما كان يقدم للالهة ، وكانت تشمل على ذبح الحيوانات وارقة دهما فضلا عن الماء واللبن والنيذ .

كانت العلاقة التى تربط بين الأحفاد والأسلاف علاقة منفعة متبادلة . فقد كان في مقدور السلف أن يضفى على الأحفاد الحظ الحسن أو السيئ ، فى حين كان فى مقدور الأحفاد أن يجعلوا حياة الأسلاف ملأى بالمنغصات الشديدة اذا توقفوا عن تقديم القرايين . وهناك الكثير من الوثائق التى تصور أحد المتعبدين الذين خاب أملهم يهدد قريبه المتوفى بالامساك عن تقديم القرايين له اذا لم يقض له طلبا معيناً . هذا وان وجود عبادة للأسلاف ، حتى ولو كانت ذات طابع ناقص مبتور فى مجتمع لا يوجد فيه نظام العشائر أو يعتمد على سلاسل الأنساب ، أمر فريد فى نوعه ويدعو الى الدهشة ، وهو يوحى ، مثله فى ذلك مثل بعض العناصر الحضارية الأخرى ، بأن الأسلوب المصرى المبكر للتنظيم الاجتماعى كان يشتمل على مجموعات ثابتة محلية من الأقارب مثل تلك التى كانت ولا تزال شائعة فى افريقيا الزنجية . ان هذا الاهتمام الكبير بتوفير أسباب الراحة لأنفسهم فى العالم الآخر يوحى بأنهم كانوا يخشون احتمال انقراض ذرياتهم أو أن يأتى اليوم الذى لا تهتم فيه تلك الذرية بأسلافها وهى الظواهر التى لا يمكن أن يفكر فيها من كان يعيش فى مجتمع منظم على أساس العشيرة المستمرة . وهذا ولم تكن المعتقدات الخاصة بعناصر الشخصية

الأخرى أقل من سابقتها في تحديد معالمها . كان الأفراد يعتقدون أن لهم « با » ترك الجسد في لحظة الموت . وتمثل هذه الـ « با » في اللغة الهيروغليفية على شكل طائر اللقلق أو أبو حديج وهو طائر يتميز برأس بشري ملتصق وأمامه مصباح يشير ذلك إلى اعتقاد قديم يقول بأن البا تتحول إلى نجم ، ومع ذلك ففي إمكانها أيضا أن تعود إلى الأرض في صورة الرجل الذي مات أو على صورة طائر أو حيوان أو إحدى الأسماك . وسواء أكانت « البا » هي التي تلاقى حساب الميت وتجد السعادة في العالم السفلي تحت حكم الإله أوزيريس أم غيرها من الكائنات الأخرى ، فإن هذا أمر من الأمور التي ما زالت غامضة علينا . وكانوا يرمزون إلى الروح ، وهي ترحل بين جنات حقول الفردوس باسم « آخ » أو الروح الفعالة وكانوا يعتقدون أنها صورة شفافة للجسد عندما كان على قيد الحياة . وأخيرا ، كانوا في بعض الأحيان يرمزون إلى الكائن الأساسي (القوة الحيوية) في الشخص بكلمة « سخم » .

وظل فرعون يذهب إلى جنته في السماء حتى بعد ظهور عقيدة أوزيريس ، ولكن أرواح الأفراد الآخرين كانت تذهب إلى العالم السفلي لتعيش فيه ، ذلك العالم الذي كان جزء منه يسير موازيا لوادي النيل والجزء الآخر يسير تحته ، وكان يفصل بين هذا العالم وبين مصر سلسلة من الجبال تتخللها منافذ ضيقة تستطيع الشمس وأرواح الموتى أن تدخل منها . وكانت الروح تمر أولا بمنطقة مظلمة مخيفة تسكنها الشياطين والوحوش ثم تمر بعد ذلك بعدد من البوابات لا تفتح لها إلا إذا أعطت كلمة السر الصحيحة . وفي نهاية هذه الرحلة تصل الروح إلى ملكة أوزيريس ، غير أنه ما زال عليها أن تمر بامتحان أخير ألا وهو محاكمة الميت . كان يرأس المحاكمة مجموعة تتكون من اثنين وأربعين الها أو معبودا كل منهم يختص بخطيئة معينة ، وكان على الميت إما أن يعلن براءته من كل تهمة على حدة أو أن يردد التعويذة السحرية التي قد تمنع ذلك الكائن من أن يتكلم ضده . وكنوع من التأييد ضد ما عساه أن يحدث كان

القادرون من الناس يزودون بقرطاس من البردى « كتاب الموتى » يحتوى على تعليمات تشرح ما يجب أن يفعله الميت فى كل مرحلة من مراحل الرحلة ، وتشرح أيضا الكلمات الفعالة التى يجب أن تستخدم عندما تكون الروح مذنبه . ومن الأمور اللطيفة التى يمكن ذكرها عن المعاملات التجارية وأساليبها فى مصر القديمة أنه كثيرا ما يحدث أن تكون بعض هذه القرطاس غير كاملة اذ لم يكتب من القرطاس سوى مسافة بضعة أقدام فى البداية ، لأن البائع كان يعتقد أن المشتري لن يكبد نفسه عناء نشره الى آخره . وفى نهاية هذا الاعتراف السلبى أو اعلان البراءة كان قلب الرجل الميت يوزن فى إحدى كفتى ميزان ويوضع فى الكفة الأخرى ريشة بينما يقف صاحب الشأن الى جانب قلبه متوسلا اليه ألا يتكلم ضده ، كما يقف الى جانبه ، متأهبا لالتهام روحه اذا ما صدر الحكم ضده ، وحش رأسه رأس تمساح والجزء الأمامى من جسده على شكل أسد ، والجزء الخلفى على هيئة فرس النهر . أما اذا أعلنت المحكمة أنه مستحق للخلود فإن الاله تحوت يسجل الحكم على حين يأخذ الاله حورس الروح من يدها ويقودها الى حيث يجلس أوزيريس . ويجب هنا أن نلاحظ أنه على الرغم من أن كثيرا من الباحثين يعتقد أن محاكمة المصريين للموتى هى الأصل فى الحساب الأخير فى العقيدة المسيحية الا أن أوجه التشابه فى الواقع سطحية اذ أن أوزيريس فى الأسطورة المصرية لم يقوم بدور القاضى كما لم يقوم أى واحد من حورس بدور المخلص أو المنقذ . وزيادة على ذلك فإن الخطايا الاثنتين والأربعين كانت متصلة بمحاولات خرق قوانين التحريم أو بالتعدى على الملكية ولم يتعلق الا القليل منها بما نعتبره نحن بالموضوعات الأخلاقية .

كانت مملكة أوزيريس تشبه الى حد بعيد أرض مصر أكثر من مشابهتها للسماء المسيحية ، اذ كانت تتكون من حقولين كبيرين يشبهان كلا من الوجهين البحرى والقبلى فى مصر ، وكانا يقعان فى الجزء الغربى من العالم الأسفل ،

وفيهما كانت الروح تجتمع مرة أخرى مع أقاربها من الموتى ، وتمتّع بكل ملذات الجسد ، كما كانت تخضع لكثير من أوجه الضعف البشرى التى كانت أعمال السخرة أبرزها وأشدها . ولهذا كانوا يضعون عددا من التماثيل الصغيرة فى المقابر كبديلة للميت وعندما يؤمر الميت بعمل شيء ، كان أحدها يسرع قائلا : « سأفعل ذلك » ويسرع فى تنفيذ ما صدر اليه من أمر .

ومن العدل ، قبل أن نتهى حديثنا عن الدين المصرى ، أن نذكر شيئا عن الملك المارق اخناتون الذى كثيرا ما امتدحه الكتاب المعاصرون لخروجه على الدين الرسمى ، وأشاروا اليه على أنه الفرد الأول فى التاريخ الذى نادى بالتوحيد ومدحوه كشبيه ييوحنا المعمدان ، ولكن الوثائق المعاصرة تضعه فى موضع أقل من ذلك . كان أبوه أمنحوتب الثالث من أعظم ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، أولئك الملوك الأقوياء الذين جمعوا السلطة فى أيديهم وهى الأسرة التى جعل ملوكها من مصر قوة حربية عالمية للمرة الأولى فى التاريخ . وقد أحب أمنحوتب امرأة كان من المحال من وجهة نظر النبلاء المصريين أن يتزوجها لأنها كانت تنتمى الى أسرة من الطبقة الوسطى ووصل به اعتداده بنفسه على الاصرار بأن يجعل منها زوجته الأولى وملكة البلاد ، وكان رد الفعل لدى كهنة آمون لا يختلف كثيرا عن رد الفعل الذى يسرى بين رجال الكنيسة الانجليزية تحت ظروف مشابهة . ويبدو أن الأمر قد وصل الى الحد الذى جعل من بعض رجال القصر المداهين من لا يظهر لها الاحترام الكافى وكان رد الملك رادعا اذ أجبرهم على حمل جمارين خط عليها اسم الملكة وألقابها ليزكرهم ببركزها (١) . ولم ير الكهنة فى ابن الملك ، وكان يسمى أمنحوتب كأييه ،

(١) لا يوجد فى النصوص المصرية على الإطلاق ما يشير الى وجود من كان يعترض على زواج الملك أمنحوتب الثالث من زوجته الملكة « تى » كما أن الجمارين المعلقة فى السلاسل الذهبية كانت لا تعطى الا الى أقرب المقربين تكريما لهم وكانوا يعتزون ويفخرون بحملها .

انه يستحق أن يكون الوريث الشرعى من وجهة نظرهم ، وكان يعتقد أن هناك ما يبرر كراهيته للدين السائد في البلاد . كان أتون أو قرص الشمس الها ساميا معروفا لدى المصريين منذ زمن بعيد وان كان لم يعبد سوى العامة المنحدرين من أصل سامى وهو الأمر الذى أوحى بالاحتمال القائل بأن أم فرعون كانت احدى المؤمنات ^(١) به . وغير فرعون اسمه الى اخناتون حتى يكرم الاله أتون بذلك وجعل من عبادة أتون دينا رسميا للدولة . وتابع في هذا الأسلوب المعروف في مصر ، وهو الأسلوب الذى يقضى بأن يجعل كل مؤسس لأسرة جديدة اله مقاطعته الأصلية الاله الرئيسى كعمبود في البلاد . وبالرغم من أن اخناتون كان مصرا على تقديم عبادة أتون على كل شيء آخر فمن الأمور المشكوك فيها انه كان موحدا بمعنى انه كان ينكر وجود أى آلهة أخرى أو ينكر قوتها . وعلى الأقل فقد استمر في ممارسة الطقوس التى كان عليه أن يمارسها من أجل توفير الخير للبلاد .

ولكى يحطم نفوذ كهنة آمون بنى اخناتون عاصمة جديدة وحاول أن يبدأ عهدا جديدا فى الفنون والطقوس الدينية . واتخذ الفن المصرى طابعا اصطلاحيا معبرا ، وأصبحت التماثيل والصور المحفورة بالرغم من قيمتها الفنية العالية تمثل المناصب أكثر مما تمثل الأشخاص أنفسهم . ومع ذلك فقد ظهر بجانب هذا الفن الاصطلاحى المعبر أسلوب جديد فى النقش والتصوير أكثر حيوية مما كان قبله ، وهو أسلوب جديد لا يتصل بالأسلوب القديم الا كما تتصل صورنا الهزلية الحالية بفنوننا الجميلة . كان الفنانون أثناء تزيينهم للمقابر بعدد لا نهاية له من مناظر الطعام والأثاث والخدم الذين كانوا يرسمون ليقوموا بخدمة الروح ، كان هؤلاء الفنانون يسلون أنفسهم برسم

(١) أتون ومعناه قرص الشمس مصرى خالص وقد ورد فى النصوص المصرية منذ عهد الدولة القديمة كما أن عبادة الشمس بوجه عام عبادة أصيلة فى مصر منذ فجر تاريخها ولم يكن هناك اله سامى اسمه أتون .

تفصيلات واقعية مسلية يضعونها في الأركان المظلمة . هذا ، ويظهر نفس الأسلوب المتحرر غير التقليدي في الرسم على كثير من قراطيس البردى التي رسموا فيها موضوعات مضحكة أو خارجة عن المألوف . تحول اخناتون الى هذا الأسلوب المتحرر وحاول أن يتطور به تطورا يجعله معارضا للأسلوب الذي يفضله الكهنة . وكان اخناتون نفسه يشكو عيبا جسيما فأصر على إبراز هذا العيب في صورته . وأمر بأن يعمل له ولزوجته ورجال قصره أقنعة جسية للوجه حتى يستطيع الفنانون أن يعملوا نقلا من نماذج مضبوطة . ولحسن الحظ كانت أخته وزوجته نفرتيتي امرأة تستحق التقدير ، ورأسها الذي نحتة أحد مثالي العصر المتحررين تمثال من أعظم التماثيل الفنية في العالم التي تمثل أصحابها تمام التمثيل .

كان أتون الها للسلام على الأرض والمحبة بين الناس . وآمن اخناتون بهذه العقيدة ايمانا عميقا ، ورغبة منه في نشر تلك المبادئ أخذ في ارسال خطابات الى ملوك الدول المجاورة معبرا عن رغبته الملحة في السلام . ولسوء الحظ ، لم ينتظر حتى تتأكد نواياهم الطيبة نحوه فخفض قواته الحربية ، الأمر الذي ترتب عليه انكماش الامبراطورية المصرية التي امتدت في عهد أبيه الى ما وراء نهر الفرات من ناحية وفي آسيا الصغرى من ناحية أخرى .

وكان آخر ملوك هذه العائلة المتداعية هو توت عنخ آمون الذي ساعد عدم أهميته بحفظ مقبرته حتى يراها عالما الحديث . وقد نسي الناس هذا الملك بعد وقت قصير لدرجة أن أحد الفراعنة المتأخرين بنى مساكن لاقامة عماله فوق مدخل مدفنه ، وبذلك أخفاه عن أنظار لصوص المقابر . وبالرغم من أن معظم الأثاث الفاخر الذي كان في مقبرة توت عنخ آمون كان من النوع الذي عثر عليه في مقابر الفراعنة الآخرين ، الا أنه يمتاز ببعض ظواهر غير مألوفة . ومات توت عنخ آمون متأثرا بذات الرئة وهو لم يزل دون العشرين من عمره ، وبالرغم من قصر حكمه الا أن عهده كان كافيا لكهنة آمون لكي يستعيدوا

سلطتهم ويحاولوا بقوة وعزم إعادة النظام القديم وزادوا على ذلك بأن أجبروه على تغيير اسمه من توت عنخ أتون الى توت عنخ آمون . وربما أدركت العائلة المالكة أن الأسرة تسير الى نهايتها فوضعت في المقبرة الهدايا التي تلقاها فراعنة هذه الأسرة إبان عظمتها ووضعوا معها أدوات أخرى مما كانت تقتنيه الأسرة أو كانت ذات صلة بعبادة آمون . وكانت هذه الطريق هي أضمن الطرق لمنع مثل هذه الأدوات من الوقوع في أيدي كهنة آمون إذ كانت مقابر الفراعنة من الأماكن المقدسة التي لا يسمح بالاعتداء عليها .

أما التنظيم الاجتماعي والسياسي في مصر فيؤسفنا أن نقول ان الغموض يكتنف الكثير من تفصيلاته أكثر مما يتوقع الانسان اذ أن الوثائق الشخصية وسجلات القصر التي يمكن أن تصور العلاقات الاجتماعية نادرة نسبيا كما أن المصريين اتبعوا نظمهم على علاتها دون أن يجشموا أنفسهم عناء شرحها وتدوينها في نقوشهم . بيد أنه يمكننا القول ان الوحدة الاجتماعية الأساسية كانت ، فيما يبدو ، هي الأسرة البسيطة الصغيرة التي تشبه الأسرة عندنا اليوم ، اذ لم تكن هناك في العصور التاريخية أية سلاسل للأنساب ^(١) ، كما لم تكن هناك نظم عشائرية كما نعرفها في المجتمعات الأخرى . وليس لدينا ما يشير الى أنه كان يوجد مهر يدفع للعرائس كما كانت الزيجات الأولى فيما يبدو زيجات تقوم على الحب المتبادل ، كما يلوح أيضا انه كانت هناك نساء فضلن عدم الزواج وكان يسمح لهن بإدارة أملاكهن وتوزيع مودتهن على من يفضلن . وكانت المرأة تحتل مكانة رفيعة وكانت المتزوجات منهن يتصرفن في ثرواتهم الخاصة ويشرفن على ادارة أعمال أزواجهن أثناء غيابهم . ومع ذلك فلم يكن تعدد الزوجات من الأمور المعروفة بينهم . كانت هناك زوجة رئيسية ، أما النساء

(١) ظهرت بعض سلاسل الأنساب في نقوش بعض الأفراد في العصر المتأخر من تاريخ مصر ، حوالي عام ٧٥٠ ق م .

الأخريات فقد كن اما زوجات ثانويات أو محظيات ، فعلى قدر ما يزداد عدد النساء في بيت الرجل تزداد مكاتته الاجتماعية .

لقد أشرنا قبل الآن الى زواج الملوك من أخواتهم ، وقد انتقلت هذه الزيجات بعد سقوط الدولة القديمة الى النبلاء كغيرها من الامتيازات الملكية الأخرى . غير أننا لا نعرف ما اذا كانت هذه العادة قد انتقلت الى الصناع والفلاحين أو لم تنتقل . وعلى أى حال ففي النقوش الجنائزية نرى أن الرجال من جميع الطبقات الذين كانت تسمح لهم مواردهم المالية بتشييد مثل هذه المباني ، كانوا يشيرون الى الزوجة الرئيسية بلفظة « أخت » وان كنا نعلم أن هذه العبارة كانت تستخدم للتعزير والتدليل كما كانت تستخدم للتعبير عن القرابة الحقيقية ، ولهذا سيبقى موضوع انتشار هذه العادة سؤالا بدون جواب صريح محدد حتى تظهر معلومات أخرى جديدة .

وذكر بعض كتاب اليونان والرومان أن المصريين كانوا ينتسبون الى الأم ، بيد أن قهوشهم لم تلق الكثير من الضوء على هذا الموضوع ، وان كان من المعتقد أنهم كانوا ينتسبون الى كل من الأم والأب ، كما هو الحال عندنا اليوم ، كما كانت الثروات والمراكز تورث عنهما . وقد بدأ هذا النظام غريبا في عيون الرومان والاعريق الذين كانوا يتبعون نظام الانتساب الى الأب فقط . وما يذكر بهذا الصدد أن الكتاب اليونان والرومان فسروا انتساب المصريين الى الأم بأن النساء المصريات كن يملن الى عدم الاخلاص لأزواجهن ولهذا كانت بنوة أبنائهن دائما موضع شك .

أما الوحدة الاجتماعية المنظمة التي تلى وحدة العائلة فقد كانت وحدة المقاطعة أو الاقليم . كانت المقاطعات في العصور التاريخية تسير على نظام الوحدات الادارية ولكن قضايا سكان المقاطعة الذين يتحدثون في عبادة اله هذه المقاطعة كانت تنظر أمام حاكم المقاطعة الورائي الذي كان يشرف على الشؤون العامة المحلية والذي كان يشعر بالاعتزاز والفخر بمقاطعته مقترنا

بالاحساس بالمعاء نحو الأشخاص الذين يتمون الى مقاطعات أخرى . ومن المحتمل أنه في العصور القديمة عندما كانت الاثنان والأربعون مقاطعة مستقلة سياسيا عن بعضها البعض ، كان سكان كل اقليم يتزوجون من الجماعات المتصلة بهم بصلة القربى ، وهو النظام الذى لا يزال معمولاً به في افريقيا الزنجة التى تعتمد في حياتها الاقتصادية على الزراعة .

أما النظام الذى كان سائدا في المجتمع المصرى ابان العصور التاريخية فقد كان نظاما قائما على أساس وجود الطبقات مع اعطاء الكثير من الفرص للأفراد للوصول الى طبقة النبلاء . وفي الدولة القديمة كانت هناك طبقتان فقط هما طبقة العامة وطبقة البيت المالك وأقاربه ، التى كان أفرادها يشغلون كل المراكز المهمة في ادارة البلاد وفي الكهنوت ، وكان وجود العدد الكبير من النساء في بيوت أفراد الأسرة المالكة كفيلا بإيجاد العدد الكافى لهذه الوظائف . ولكن مع تقدم الزمن انقسم المجتمع الى طبقات عدة منها الفلاحون ومنها الطبقة الوسطى التى كانت تتكون من الصناع والجنود المحترفين ثم الطبقة الأرستوقراطية التى كانت تتكون من النبلاء والموظفين والكهنة ، وعلى رأسهم جميعا كان فرعون الذى كانت قدسيته تسمو به فوق مستوى الطبقات أو اعتباره كإنسان عادى .

ومما يجدر ذكره أن العبيد لم يرد ذكرهم في هذه القائمة لأنهم لم يلعبوا أى دور هام في الاقتصاد المصرى . أما المجرمون وأسرى الحرب فقد كانوا يرسلون اما الى صفوف الجيش أو يساقون الى المحاجر التى كانت كفيلا بالقضاء على أمانهم . غير أن القليل من العبيد ، وبخاصة من النساء ، كانوا يقومون بالعمل في المنازل ولكن هؤلاء كانوا يعتبرون من الأتباع ولا ينظر اليهم على اعتبار أنهم سلع مملوكة . فليس من المفيد اقتصاديا أن يعمل العبد في الأشغال العامة في حين أن هناك الكثير من الأيدي العاملة الرخيصة التى ترضى بالكفاف من العيش ؛ اذ أنه في مثل هذه الحالة يكون من الأرخص

تأجير الرجال الذين يحتاج اليهم العمل من آن لآخر فان ذلك أفضل مما يستتبع امتلاك المييد من التزامات . وقد ذكرنا آتھا نظام استرقاق الفلاحين في الدولة القديمة ، كما أشرنا أيضا الى انهيار هذا النظام في نهاية حكم الأسرة السادسة ، غير أن الفلاح المصرى فيما تلا ذلك من عصور لم يعد رقيقا للأرض بل أصبحت مخصصة له اما كملكية حرة أو ليستغلها اذا كانت من أملاك المعابد أو من أملاك الملك . وفي كلتا الحالتين لم يكن حقه في الأرض يذهب الى أشخاص غرباء بعد وفاته بل كان يرثها أولاده من بعده . وكان على المزارع أن يدفع الضرائب المستحقة على محاصيله وأن يدفع الايجار المستحق للمالك . كما كان عليه أن يتبع ما جرت به العادة منذ القدم ، تلك العادة التى كانت تحدد نوع المحاصيل التى يجب أن تزرع في مقاطعات معينة . وبالرغم من أن الفلاح لم يكن مقيدا بالأرض بحكم القانون فانه كان مرتبطا بها لحاجته الاقتصادية ، فان الأراضى الأخرى كان يستغلها أشخاص آخرون منذ زمن كبير ، فلو أنه ترك أرضه فان مصيره الوحيد هو أن يصبح من العمال غير المهرة أو المديرين .

وكان الصناع يتركزون في المدن حيث كان عمال المهنة الواحدة يعيشون في حى واحد وكان حانوت الصانع هو مصنعه ومخزنه في آن واحد ، أما الصناع فقد كانوا ينتظمون في نقابات تشبه مثيلاتها التى كانت منتشرة في أوروبا في العصور الوسطى ، وليس في امكاننا أن نعرف قيمة دخل هؤلاء الصناع المهرة ، غير أن حظهم كان ، بدون شك ، خيرا من حظ الفلاحين . ولم يكن هناك غير القليل من الجنود المحترفين في عهد الدولة القديمة ، غير أنه بمرور الوقت أخذت أهمية المنظمات العسكرية تعظم وتزداد وتصبح لها صفة الاستمرار . كان الجنود من سكان الصعيد محاربين أفضل من اخوانهم من سكان الوجه البحرى ، غير انهم جميعا كانوا لا يميلون كثيرا الى الحرب وهو الأمر الذى يفسر وجود الأجانب في القوات المصرية منذ عهد

مبكر . كان هؤلاء الجنود الأجانب يأتون في البداية من بلاد النوبة أو من سورية ، أما « الشردين » أو « رجال الجزر » فكانوا يشتهرون بالشجاعة وكانوا يعملون كحرس خاص لفرعون . وبالرغم من أن بعض الأجانب كانوا من المتطوعين فإن الكثيرين منهم كانوا من الأرقاء ، ونحن نعرف أنه في أيام الأسرة الثامنة عشرة كانت الحملات التي تشن على بلاد النوبة تسبقها في الغالب غارات على سورية في سبيل الحصول على الجنود والعكس بالعكس . وغنى عن القول أن مثل هؤلاء الجنود لم يكن من السهل استخدامهم ضد أقوام من قبائلهم ، ولكن كانت للجنود الأرقاء دون شك فوائد مؤكدة في الحروب البعيدة عن مواطنهم . كان أفراد تلك القوات جنودا مدى الحياة غير أنه لم تكن لهم حقوق مدنية تستحق الذكر ، ولهذا كان من الميسور إخضاعهم لأشد النظم تعسفا . ونظرا لأن روابطهم المدنية قد انقضت عراها عند أسرهم في الحرب فإن حنينهم الى الوطن لم يكن يقودهم أبدا الى التمرد . وكانت الحرب ، في رأى أولئك الرقيق ، بما فيها من أمور مثيرة وفرص للسلب ، أفضل بكثير من العمل في المحاجر أو في الأشغال العامة . وقد ظل نظام الجنود الأرقاء معبولا به في البلاد الاسلامية الى وقت قريب جدا ، ومن الأمثلة المشهورة ما ذكرناه آنفا عن الانكشارية في تركيا والمماليك في مصر .

ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد أخذ المصريون يزيدون من استخدام الاغريق الذين أثبتوا تفوقهم كجنود مرتزقة . ومنذ الأسرة التاسعة عشرة وما تلاها من أيام أخذ الجنود يلعبون دورا هاما في الحياة السياسية . لم يكن الفلاحون قوة يعمل حساب لها ، ولم يهتموا أيضا بالحياة السياسية ، ولهذا السبب كان المتنافسون على العرش أو مؤسسو الأسرات الجديدة يعتمدون اعتمادا كليا على الليبيين والنوبيين أو المرتزقة من الاغريق لأجل تأييدهم كما كان ذلك أيضا سببا في جعل الحاكمين الذين ييدهم السلطان يسمون الى اكتساب ودهم عن طريق غرهم بالهدايا . وفي أيام هيروdot (منتصف القرن

الخامس قبل الميلاد) كان هناك ما يقرب من نصف مليون جندي محترف في الدلتا وحدها ، وكان كل منهم اما أن يكون واضعا يده على منحة من الأرض أو يتلقى يوميا نصيبا كبيرا من الحبوب واللحم والنيذ . ومن أعجب الأحداث التي وقعت في ذلك العصر ذلك التمرد الذي قام به أكثر من ٤٠٠٠ جندي من جنود الغال الذين كانوا في جيش بطليموس فيلادلفوس . وكانت خطتهم ترمى الى الاستيلاء على الحكم ، ونجحوا فعلا في نهب خزانة الدولة . ولكن عندما فشلت حركتهم ارتدوا الى جزيرة في وسط الفرع السنودى وهى جزيرة تقع في أحد فرعى النيل ، حيث ابتحروا جميعا بطريقة طقسية ، وهى طريقة غالية يمكن مقارنتها بطريقة انتحار اليابانيين المعروفة بالهاراكيرى . وربما لاحظ القارئ أننا لم نشر الى طبقة التجار عند حديثنا عن جماعات الطبقة الوسطى . فقد كانت التجارة الداخلية المصرية تمارس محليا في أسواق المدينة وتسير على نظام المقايضة وبالرغم من أن الموازين والمقاييس المحددة كانت معروفة ومستخدمة منذ أقدم العصور ، فإن قيمة الأشياء لم تكن محددة حتى بداية القرن الثانى عشر قبل الميلاد ولكن قبل ذلك التاريخ كانت هناك جداول مفصلة تبين فيها قيمة كل سلعة بالنسبة الى عدد من السلع الأخرى المطلوبة . بيد أنه في نهاية القرن الثانى عشر قبل الميلاد بدأت النقود في التداول وكانت في صورة حلقات من الذهب أو الفضة أو النحاس ، ولكن العادة قد جرت بوزنها عند الشروع فى أى عملية تجارية ، أما العملة فقد بدأ استخدامها فى مصر أثناء الحكم الفارسى . ولما كانت الضرائب والايجارات والعشور تجمع كلها عينا فقد أصبح محتما على كل من المعابد والحكومة أن تشتغل بالتجارة ، فاذا كانت هناك أى تجارة خارجية فلا بد أن أكثرها كان فى يد الدولة والمعابد . أما بالنسبة لقرعون فقد كانت التجارة فى صورة جزية أو تبادل ملكى للهدايا ، وهو الأمر الذى ترتب عليه عدم سnoch الفرصة

لظهور تجار أثرياء أو مديري بنوك أغنياء يمكن مقارنتهم باخوانهم في بلاد ما بين النهرين .

أما الكتبة فقد كانوا يحتلون مركزا متوسطا بين الطبقة العليا والطبقة الوسطى ، ولعل المثل القديم القائل بأن للعلم قوة لم يتحقق في مكان ما مثلما تحقق في مصر . كان على الكاتب أن يمضى سنوات طويلة من الدراسة الشاقة حتى يسيطر على صواب الكتابة الهيروغليفية ، وإن كان هذا لا يعنى على الإطلاق أن تعليمه يقف عند هذا الحد . فقد كان عليه أن يلم بالأدب القديم ، وأن يعرف قدرًا كافيًا من الرياضيات وعلوم الهندسة حتى يستطيع أن يقوم بالعمليات الحسابية ، وأن يصمم المباني ويشرف على الأشغال العامة ، بل وقد يصل الأمر الى استدعائه لتنظيم الحفلات الحربية . ومما خلقه لنا بعض الكتاب الناجحين في تاريخ حياتهم الذى سطره في نقوشهم على مقابرهم أو لوحاتهم الجنازية نرى أنهم كانوا ذوى مواهب متعددة مثل مواهب ليوناردو دافنشى . ولما كان من المحتم على عائلة الراغب فى الالتحاق بسلك الكتبة أن تكون قادرة على اعالته خلال سنوات طويلة من الدراسة فقد وقفت مشكلة المعجز الاقتصادى سدا منيعا فى وجه معظم أبناء الفلاحين والصناع . وعلى أى حال فمتى توافرت لأى كاتب الخبرة والمهارة الكافيتان فله الحق فى أن يطمع فى احتلال أى منصب فى الحكومة بما فى ذلك منصب الوزير . ويجب أن نضع فى أذهاننا ونحن نتكلم عن هذا الموضوع انه كلما قويت الحكومة المركزية زادت رغبة فروعون فى أن تشغل المراكز الادارية عن طريق التعيين بدلا من شغلها عن طريق الوراثة ، وأن يشغلها بأبناء الشعب الذين يطمئن فروعون الى ولائهم له لأنهم يعتمدون فى حياتهم على عطفه . ولما كانت التعيينات فى الوظائف الادارية تمنح كفضل يسبغه الملك على من يرضى عنه فان التقدم كان يعتمد على ثلاث دعائم ، أولاها الطاعة لارادة الملك ، ثم اظهار النبوغ فى تملقه ، ثم مقدرة ، ولم تكن عطايا الملك هى المصدر الوحيد المفتوح أمام

الكاتب للحصول على الثروة بل كانوا يعتمدون أيضا على هبات الأفراد الذين يرغبون في قضاء مصالحهم مما جعلهم ذوي ثروة ، وهو الأمر الذى مكنتهم من التزوج من بنات النبلاء الوارثين وبذلك يصبح لأولادهم الحق في اعتبارهم من النبلاء المعترف بحقوقهم .

وكانت الطبقة العليا في المجتمع المصرى تتألف من موظفى الحكومة والنبلاء الوارثين والكهنة . وكما لاحظنا من قبل كان بعض موظفى الحكومة ينحدرون اما من عائلة من العامة أو من عائلة نبيلة ، أما المراكز العليا في السلك الكهنوتى فقد كانت بوجه عام وقفا على أبناء النبلاء . ولم يختلف ذلك كثيرا عما كان عليه الحال في الكنيسة في أوروبا خلال العصور الوسطى . وكان الموظفون ينقسمون الى قسمين وهم رجال الادارة الذين يشرفون على ادارة أمور البلاد وموظفو البلاط الذين كانوا مختصين بالعناية بشخص فرعون وممتلكاته . وكان الوزير على رأس السلك الادارى ويهين على كل الواجبات المدنية المعتادة التى كانت من اختصاص منصب الملك ، وهى واجبات ثقيلة ومشعبة . فقد كان على الوزير أن يقوم بعمل المحكمة العليا فيفصل في القضايا التى ترفع اليه من المحاكم الابتدائية ، وكانت الآمال الكبار تعقد على سرعة انجازه لمثل هذه القضايا . وكان الوزير يشرف على الأعمال العامة ويتلقى ثلاثة تقارير سنويا عن الأحوال في المقاطعات المختلفة . وكانت السلطات المسنولة عن الضرائب تبعث بحساباتها اليه في مقابل ايصالات يوقعها باسم الخزانة الملكية . أما حرس فرعونه الخاص فقد كان على الوزير أن ينتخبه بنفسه وأن يعد كل الترتيبات اللازمة اذا ما رغب فرعون في القيام برحلة من الرحلات . وكان الوزير يذهب كل صباح الى قصر فرعون ، ويقابله ويستفسر عن صحته ثم يعرض عليه شئون الدولة .

ولم يكن الوزير يعمل في هذا المضمار بمفرده ، بل كان يعاونه موظف كبير آخر يعرف باسم حامل الختم ، وكان يختص بالشئون المالية في المملكة .

فهو الذى كان يقدر الضرائب ويشرف على جمعها . ولما كانت الضرائب تدفع عينا وليس نقدا ، كان هذا الموظف الكبير مسئولا عن توزيعها وتحويلها الى نقود فيما تلا ذلك من عصور . وكان يختص أيضا بتصرف شئون المؤسسات الجنازية وممتلكات المعابد ، وكانت من أعقد الأمور وأدقها . وأخيرا ، كان عليه أن يحدد مقادير الأجور لمن يعمل فى ممتلكات الدولة والمعابد اذ كانت هذه الأجور تصبح مثلا للأجور فى المملكة كلها . وفى معظم أيام التاريخ المصرى لم يكن هناك الا منصب وزير واحد ومنصب حامل ختم واحد ، ولكن فى أيام الدولة الحديثة كثرت أعمال الادارة الحكومية وتمعدت فأضحى من الصعب على الوزير وحامل الختم أن يديرا المملكة بمفردهما فاستلزم ذلك انشاء منصب لكل من الوزير وحامل الختم لكل من الوجهين البحرى والقبلى على حدة . وظهر فى الأسرة الثانية عشرة منصب جديد وهو منصب « نائب الملك » فى النوبة ؛ اذ دعت الحاجة الى وجوده من أجل العمل السريع فى حالة حدوث هجوم مفاجئ لبعد الشقة بين مركز الحكم واقليم النوبة . وكان هذا النائب الملكى يمارس كل السلطات الملكية ، وكان له بلاط خاص وجهاز حكومى على غرار ما كان للملك نفسه . وكانت الادارات ملأى بعدد كبير من الكتبة . وفيما عدا هذا المنصب الممتاز فان الادارات فى المقاطعات كانت تتمتع بقسط كبير من الاستقلال ، وكان الحاكم فى كل مقاطعة مسئولا عن سلوك رعاياه كما كانت واجباته تشبه الى حد ما تلك التى كانت ملقاة على عاتق الوزير .

وكان موظفو القصر كثيرى العدد الى حد بعيد . ولعل أقرب هؤلاء الموظفين الى شخص الملك تلك الفئة من المستشارين الذين كان يطلق عليهم لقب المكرمين . وكان أفراد الأسرة المالكة يتخبطون بطريقة آلية فى سلك تلك الجماعة التى كانت تتكون بصفة رئيسية من رجال أثبتوا جدارتهم خلال السنين العديدة التى قضاوها فى السلك الادارى . كان هؤلاء الرجال العظام

يعيشون في البلاط الملكي على نفقة الملك ، بيد أن أعظم الامتيازات التي كانوا يفخرون بها هي ما كان يقدمه الملك لهم من تكريم ، اذ يعد لهم مقابر وأثاثا جنازيا على نفقته ويسمح بأن يدفنوا على مقربة منه . وكان أفراد هذه الفئة العظيمة يتقلدون المناصب المتصلة بأعمال القصر فضلا عن العناية بشخص فرعون . وكان شاغلو هذه المناصب يمنحون ألقابا فخرية مثل كاتم أسرار القصر الملكي . وكان البروتوكول الملكي يتميز بالفخامة المتناهية ، وكان الموظف الذي يعتنى بشخص الملك يلقب بلقب مدير الثياب الملكية ، يليه خادم اليدين ثم مدير الزيوت والعطور ثم حارس الشعر المستعار الذي يلبسه الملك وكثير غيرهم . أما الملكة ونساء القصر الملكي فقد كانت تحيط بهن حاشية أخرى أكثر أبهة وفخامة للعناية بهن . كما شمل هذا التنظيم الدقيق كل شيء حتى المطابخ الملكية التي كان هناك نظام خاص لترتيب أهمية وظائف من فيها . فقد كان الموظفون الثلاثة الذين يقومون بتقطيع اللحوم الملكية يسبقون في الأهمية صانع الفطائر وهذا بدوره يسبق صانع المأكولات الخفيفة وأنواع الجبن الذي يتقدم هو الآخر صانع الحلوى .

ولعل أكثر جماعات النبلاء الوارثين في الأهمية تلك التي كانت تتكون من حكام الأقاليم وعائلاتهم الذين كانوا ينحدرون من صلب الملوك الذين حكموا الأقاليم المختلفة قبل توحيد مصر . وبالرغم من تلك المحاولات التي كان يقوم بها الملوك الأقوياء للحد من قوة حكام المقاطعات والتقليل من أهميتهم فانهم احتفظوا باخلاص رعاياهم لهم . بل وكانوا يصبحون ملوكا صغارا في كل وقت تضعف فيه الحكومة المركزية . وكان حاكم الأقليم في حقيقة الأمر نائبا للملك في اقليمه يجمع بين الواجبات الادارية والطقوس الدينية ككاهن أعظم لاله الاقليم . أما النبلاء الوارثون فقد كانوا يعتمدون في حياتهم بصفة عامة على الضياع التي كان فرعون قد منحها للعائلة في الماضي . وبالرغم من أن الكثير من العائلات النبيلة كانت تفاخر بأصلها العريق الا أن مجال الترقية كان

مفتوحا أمام ذوى المقدرة من أبناء العامة الذين شقوا طريقهم فى الحياة فان
فرعون كان يغمرهم بفضله ، ويصبحون مؤسسين لأسرات نبيلة .

ومن المهم أن نلاحظ أن طبقة النبلاء المصريين لم تكن فى الأصل طبقة
من المحاربين . فبالرغم من أن عددا قليلا من الأسر العظيمة قد أنجب قوادا
قادرين على مدى الأجيال ، إلا أننا نجد أن كثيرا من الأسر العظيمة أولت
اهتمامها للشئون الدينية والادارية أو اقتصروا على وظائف البلاط .

وكان رجال الكهنوت من أهم أركان المجتمع المصرى اذ بالإضافة الى
قيامهم بالطقوس اليومية والاحتفالات السنوية للآلهة التى كانت تستمر غالبا
بضعة أسابيع كان الكهنة يقومون بعمل التنبؤات ويرفعون الى الآله مطالب
الأفراد مقابل أتعاب مناسبة . من المؤسف أن معلوماتنا عن نظم الوظائف فى
المعابد معلومات محدودة اذ أنها تقتصر على معرفة أسماء الموظفين المختلفين .
كان الكهنة ينقسمون بوجه عام الى طبقتين طبقة الكهنة المتنبئين وطبقة الكهنة
العاديين . وبصرف النظر عن المهام التى كانت ملقاة على عاتق كل من الطبقتين
فى العصور التاريخية فإن هذا التقسيم يوحى بأنه مماثل لما كان يحدث فى
كل العالم تقريبا من وجود تفريق بين الكهنة الذين ينزل عليهم شئ من الإلهام
ويذهبون فى سبات عميق ، ويجعلون الآله يتحدث عن طريق أفواههم ، وبين
الكهنة الذين كانوا يقومون بأجراء الطقوس المعتادة ويهتمون كل الاهتمام
بأن تؤدى على الوجه الصحيح . وكان فى كل معبد رئيس متنبئين ، ثم نائب
له ، ثم كاهن ونائب للكاهن ، وهكذا . أما الكهنة من النساء فكان لهن نظام
خاص بهن ، وإن كن أقل منزلة من حيث الواجبات الدينية من الكهنة الرجال
اذ كانت واجباتهن الرئيسية تقتصر على عزف الموسيقى والرقص فى المناسبات
الدينية ، وكانت المحظيات المقدسات يلتحقن بمعابد معظم الآلهة . أما المعابد
الجنائزية الخاصة بالملوك فقد كان يشرف عليها مجموعة منفصلة من الكهنة
يقومون بالإشراف على العبادة فيها وتقديم القرابين .

وأخيرا ، فان معظم المدارس التى كانت تدرس فيها العلوم المتقدمة كانت ملحقه بالمعابد اذ كانت العادة السائدة بين ذوى المهن والأطباء وغيرهم أن يحصلوا على اذن خاص ، وأن تكون لهم صلة اسمية بأحد المعابد ، وهذا يشبه الى حد كبير النظام الذى كان سائدا فى أوروبا فى العصور الوسطى .

ويدرك كل من يدرس الحضارة المصرية بأن المصريين كانوا شعبا على حظ كبير من المهارة والعبقريّة وانه لم يمتق تقدمهم سوى ما وصلت اليه نظم الحكومة من مركزية غنيقة لم يكبد العالم يشهد لها مثيلا . كان هناك اتحاد كامل بين الدين والدولة ، وقد ترتبت على ذلك السيطرة الكاملة على أجساد الرعايا وعقولهم . وليس أمام مثل هذه النظم من فرصة للبقاء الا باستمرار الحالة كما هى والابقاء على الأوضاع . ان معظم المخترعات التى تمت وأخذت طريقها فى نهاية الأمر الى الحضارة الأوروبية الآسيوية (الأوراسية) ، قد توصل اليها المصريون ابان الخمسمائة عام الأولى من التاريخ المصرى . بل ولعله من المشكوك فيه ان ما ساهمت به مصر خارج ميدان التكنولوجيا لم يكن نتيجة للتفسير الخاطيء الذى قدمه اليونان والرومان للمعتقدات والطقوس المصرية أكثر من الانتشار الحقيقى للعناصر المصرية .

أما فيما يختص بالحضارات الافريقية فان الموقف هنا يختلف تمام الاختلاف . فبالرغم من أنه من الصعب أن نجد أمثلة متشابهة تمام التشابه بين الحضارة المصرية والحضارات التى انتشرت فى ممالك وسط وغربى افريقيا ، فان المرء يحس بوجود وجوه شبه رئيسية بين الاثنين . وسنوضح هذا فى الفصول القادمة .

الفصل الثلاثون

شعوب أفريقية في العصور التاريخية

تقسم الصحراء الكبرى قارة أفريقية ، في جميع عصور التاريخ عنصرها وحضاريا الى قسمين . فقد كان السكان الأفريقيون شمالي هذه الصحراء الهائلة ، في غالبيتهم من الجنس القوقازي ، كما كانت الحضارات الافريقية في هذه المناطق في جوهرها أوروبية آسيوية (أوراسية) . كان شمال افريقية جزءا من تشملهم الحضارة الكلاسيكية المعروفة باسم الحضارة الايكومينية (Ecumene) ثم أصبح ابتداء من القرن الثامن الميلادي حتى وقتنا الحاضر جزءا من الحضارة الاسلامية المترامية الأطراف . أما جنوبي الصحراء الكبرى فان الغالبية العظمى من السكان الذين من الجنس المتزنج (negroid) وبالرغم من تسرب بعض العناصر الحضارية الفرية اليه من آن لآخر من مصادر خارجية ، فقد ظلت حضارات هذا الجزء ذات طابع خاص بها . وليس من الضروري أن نتحدث بشيء من التفصيل عن حضارات فلاحى شمالي أفريقيا وسكان مدنها فان السكان المحليين على ما يظهر قد تكيفوا بسرعة واتبعوا الأساليب التي أدخلها حكامهم المتعاقبون من الفينيقيين والاغريق والرومان والبيزنطيين والعرب . وفي منطقة جبال الأطلس ، وفي بعض مناطق الصحراء الكبرى التي ساعد سقوط الأمطار القليلة عليها بسكنى بعض من يعيشون على حياة المراعى ، عاشت بعض عناصر الحضارة الأكثر قدما خلال تلك التغيرات ولكن المعلومات التي حصلنا عليها عن هذه المناطق سواء من المصادر الأثرية أو المصادر الكلاسيكية معلومات قليلة لا يعتد بها . واختفت معظم

المخلفات التي بقيت من الحضارات الخاصة بشمال إفريقيا عند الغزو الاسلامي لأن البيئة في هذه المناطق تشابه مثلتها في المناطق العربية التي نبع منها الاسلام، لدرجة أنه أصبح في الامكان ادخال النظم الحضارية الاسلامية بجميع تفصيلاتها. زد على ذلك أن قبائل بأكملها من القبائل العربية التي تعيش على حياة المراعى نزحت الى داخل شمال أفريقيا ، تظاهرها هبة الاسلام وقوته فتمكنت هذه القبائل من بسط نفوذها الحضارى على السكان المحليين .

وفي العصور التاريخية تمكنت جماعة واحدة فقط من الجماعات التي تسكن الصحراء الكبرى من الاحتفاظ بحضارة مختلفة لها ميزاتها الخاصة وترجع أصولها الى عصر ما قبل الاسلام . تلك هي قبيلة الطوارق (Tuareg) وهم شعب من البربر الذي يقطن الجزء الغربى من الصحراء الكبرى . فبالرغم من أن أفرادها مسلمون اسما فانهم يمارسون عادات كثيرة لا تتفق وتعاليم الدين الصحيحة . وتحتل المرأة مكانة عالية جدا وغير عادية بينهم ، كما أن الالتساب يرجع الى الفرع النسائى . والنساء بوجه عام هن الحارسات الأمينات على وجوه النشاط الفكرى والفنى في القبيلة . كانت النساء في العادة هن اللاتي يعرفن القراءة والكتابة ، وكن عادة متعلقات ، بعكس الرجال الذين كان من النادر أن نجد بينهم من يعرف القراءة ، وكان من بينهم الشعراء والموسيقيات اللاتي لهن شهرة بين مواطنيهم . ولم تعش النساء أبدا بمعزل عن الرجال ، فقد كان يسبح للفتيات والشبان بالانغماس في حفلات اللهو التي تشبه الحفلات التي يقيمها طلبة الجامعات الأمريكية ، كما كانت تعتبر الصداقات بين النساء المتزوجات والرجال من الأمور العادية المسلم بها . وكان الرجال يمضون أوقاتهم في تربية الجمال ، وفي الاغارة على غيرهم اذ كان يتوقع من العريس المأمول ، أثناء الفترة التي تفصل بين الخطبة والزواج ، أن يسرق من الجماعات المعادية الجمال اللازمة لمهر العروس . وحيث انه كلما زاد مهر العروس زاد شرف الفريقين ، كان الزواج في الغالب

يتأخر حتى يصل الرجل الى السن التى يقال عنها منتصف العمر . ولم تكن النساء محجيات ، بمكس الرجال ، فان الرجل يضع فوق وجهه نقابا من القماش الثقيل ، لا يرفعه حتى فى أوقات الأكل أو النوم . وكثيرا ما كانت النساء يطرزن نقب خطابهن وأصدقائهن من الرجال بشعارات مناسبة . وقد فسر الطوارق أنفسهم ارتداء النقب بالنسبة للرجال بأنها للوقاية من الذباب والشمس . وبما أن النبلاء كانوا فى الغالب من أصل قوقازى خالص وذوى بشرة غير داكنة وعيون رمادية اللون فمن المرجح أن لتفسيرهم شيئا من الصحة . أما التنظيم السياسى فقد كان اتحادات مفككة سادت فيها عشائر ارسقراطية قليلة على شعب مستعبد أكثر عددا من هذه العشائر . فبينما كانت العشائر النبيلة من أصل قوقازى ، فان كثيرا من الدم الزنجى كان يجرى فى عروق العشائر المغلوبة على أمرها لأن هذه العشائر كانت من سلالات الأرقاء وبعض جماعات صغيرة وطنية زنجية تشربت حضارة الطوارق ، وسمح لها فى النهاية بالانضمام الى عضوية القبيلة . ولما كانت العادة قد جرت بأن يتخذ بعض الرجال من العشائر النبيلة صديقات من العشائر المستركة أثناء الفترة الطويلة التى تسبق الزواج ، فان كثيرا من جينات الوراثة كانت تنتقل من الدم القوقازى الى العشائر المستركة ، يقابلها انتقال ضئيل من جينات الدم الزنجى الى الطبقات العليا .

كان الطوارق — قبل أى اعتبار آخر — قوما يعيشون على تربية الابل ، ولكنهم كانوا يربون أيضا الأغنام والماعز ، كما كانت العشائر المستركة تمارس الزراعة حيثما كان ذلك ممكنا . وكان دخلهم المنتظم يأتى من حراسة طرق القوافل وسلب القوافل التى كانت لا تدفع « الاتاوة » أو تقود الحماية . وكانوا محاربين أشداء امتدوا بغزواتهم حتى وصلوا الى تيمبوكتو على نهر النيجر .

وشمال شرقى افريقيا ، أى شرقى وجنوب مصر ، منطقة قائمة بذاتها من

الناحيتين الجنسية والحضارية . فللسكان المحليين صفات جسمانية تضعهم في مركز متوسط من الزوج والقوقازيين . فهم يجمعون بين اللون الأسمر الداكن والملاح القوقازية . أما الشعر فهو يختلف تماما عن شعر الزوج الأصليين لأنه خشن جعد جدا لدرجة أنه اذا ما ترك لينمو الى درجة كبيرة فانه يقف منتصبا فيصبح كأنه شجيرة . ولا نعرف على وجه التحديد أصل هذا النوع بالرغم من أنه يعتبر عادة نتيجة للاختلاط القديم بين الزوج والقوقازيين ، ولكن هذا الامتزاج قد أصبح مع الزمن ثابتا تماما . فاذا كان ذلك صحيحا فانه يتعين علينا أن ننظر اليه على أنه فرع من أحد الأجناس . وحيث ان المنطقة تعتبر من أكثر المناطق حرارة وأكثرها تعرضا لقسوة الشمس ، فان اللون القاتم يكون مفيدا ، ويكون ثباته نتيجة لعملية اختيار طبيعية .

وفي هذه المنطقة ثلاث حضارات مختلفة ، اثنتان منها في الأراضي المنخفضة ، وواحدة في الهضبة الاثيوبية . وتقوم كل من حضارتى الأراضي المنخفضة على الاقتصاديات القائمة على تربية الحيوان . واحداها ، وهى الحضارة السائدة في بلاد الصومال ، تتبع في كل نواحيها النظام الرعوى المألوف عند الساميين ، ويتركز اهتمامهم الاقتصادى فى الابل والأغنام والماعز، أما المواشى فكان الاهتمام بها ضئيلا وعرضيا .

أما الحضارة الأخرى وهى الخاصة ببلاد الجالا ، وتقوم على الحيوان المستأنس ، فهى حضارة ذات طابع افريقى خالص وتقوم على صناعة الألبان وتعتبر المواشى أعظم الحيوانات أهمية . أما الحضارة الجبشية فهى تقوم على مزيج من الزراعة والاقتصاد القائم على الحيوان المستأنس ، ولكن الزراعة تستأثر بالأهمية العظمى . ولما كان الأحباش قد اعتنقوا الدين المسيحى فى القرن الثالث الميلادى واحتفظوا خلال الفترة التاريخية بأواصر الصداقة بينهم وبين المسيحيين الآخرين ، والمجتمعات الاسلامية فيما بعد ، فان هذه الحضارة لا تقترب من الحضارات الافريقية بقدر ما تقترب من حضارات الشرق الأدنى

وفي الحضارة الحبشية تأثيرات بيزنطية قوية وتأثيرات عربية كما كانت الأنظمة الحكومية في جوهرها ذات طابع سامي .

واتشر زنوج افريقيا من الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى وشرقي السودان الى أقصى جنوب أفريقيا حيث يقابل الانسان قبائل « الخويسان » أي « البشمن » و « الهوتتوت » الذين يختلفون عنهم بعض الشيء من الناحيتين الجسدية والحضارية . وبالرغم من وجود اختلافات محلية عديدة ، اذ أن بعض مظاهر معينة توجد في كل أنحاء المنطقة مما يجعلها تظهر وكأن هذه الحضارات المختلفة قد انحدرت كلها من أصل واحد في وقت موغل في القدم . فالاختلافات بين هذه الحضارات تظهر في صور واضحة في ميادين التكنولوجيا ، وفي التنظيم الاقتصادي ، وهما عنصران حضاريان يتأثران تأثرا كبيرا بالاختلافات في البيئة الطبيعية وبالصلات مع الحضارات الأخرى ، كما توجد أيضا اختلافات واضحة في مقدار ، ونوع ، وتنظيم الجماعات السياسية .

وكانت هناك نظم اجتماعية معينة موجودة في كل أنحاء افريقيا الزنجية . فتعدد الزوجات أمر شائع وهو مرتبط بزيادة عامة في عدد النساء ، وذلك راجع من ناحية الى أوجه النشاط الخطرة التي يمارسها الرجال كما يرجع من ناحية أخرى الى زيادة عدد الإناث على الذكور في نسبة الولادة وفي نسبة البقاء . ودفع مهر العروس أمر شائع عام ، وكان يقصد منه في أول الأمر أن يكون تعويضا لعائلة المرأة عن الخسارة التي تلحق بهم لفقدانهم لخدماتها ، وخدمات أبنائها الذين في ضمير الغيب . ولكن مثل هذا التفسير لم يجعل من المرأة شيئا من بين الأشياء التي يمتلكها الزوج ، ولم يمنحها من قسم عرى الزواج اذا تعرضت لاستفزازات تكفي لاغضبها . وبالرغم من وجود نظام الانتساب الى كل من الأم والأب فإن الزواج في كل مكان تقريبا كان من بين الأقارب المحليين من أهل الأب . وكان المقر ، أو المنزل المعتاد للعائلة ، يجمع

كبيرة ، أما اذا كانت مستقلة من الناحية السياسية ، فان أفرادها يتزوجون في «داخلها» ، وعلى رأس كل مجموعة من الناس المرتبطين برابطة القربى يوجد رئيس أو زعيم يستمد قوته من الدور الذي يلعبه في عبادة الأسلاف . وكان أعضاء العشائر ، والعشائر الفرعية يميزون أنفسهم في الغالب بلبس نوع خاص من الملابس ، أو عمل تشريط معين في وجوههم أو غير ذلك . أما الطواطم ، أى الحيوانات أو النباتات أو الأشياء التى كانت ذات صلة خاصة باحدى الجماعات الانسانية فقد كانت شائعة جدا في العشيرة الواحدة . كان يحرم على أفراد العشيرة أن يذبحوا أو أن يستخدموا طوطمهم ، ولكنهم كانوا لا يعترضون على قيام أفراد العشائر الأخرى بهذا العمل . وكانت هناك في العادة أسطورة تشرح هذه العلاقة بين العشيرة والطوطم ، ولكنهم لم يمتقدوا في أغلب الحالات بأنهم من نسل الطوطم .

كانت المجتمعات منتظمة تنظيميا طبقيا ، وهو تقسيم ثلاثي يبدأ بالزعماء ثم العامة الأحرار ، وأخيرا العبيد . وكانت العلاقات بين الزعماء والذين من دونهم علاقة استبدادية (أوتوقراطية) الى حد بعيد . كان هذا النظام يبدأ بالمائلة ، وكان المنتظر من الأطفال أن يظهرُوا احتراماً زائداً لآبائهم ، كما كان يتوقع من الشبان أن يظهرُوا احتراماً زائداً للذين يكبرونهم سناً ، وقد انعكست مثل هذه الاتجاهات في سلوك أعضاء العشيرة أو العشيرة الفرعية نحو رؤساء هذه الوحدات ، كما انعكست في سلوك الأفراد الذين لا ينتسبون الى عائلات هامة في المجتمع نحو الملوك والموظفين . أما نظم الانتخابات الشعبية أو الحكومة التى تمثل الشعب فلم يكن لها وجود . وكانت كل المناصب السياسية اما وظائف يتوارثها الأبناء عن الآباء أو يحصل عليها شاغلها بالتعيين . أما الديموقراطية فلم توجد الا في القرية فقط ولم تتمدها ، اذ كانت الاتجاهات ، كما هو الحال في جميع قرى العالم ، تقرر عن طريق المناقشة

غير الرسمية بين الرؤساء الطبيعيين للجماعة . وكان للزعماء مستشارون يتخبونهم بأنفسهم ولا يسمحون لهم الا بتقديم المشورة فقط . وبالرغم من هذه النظم الأوتوقراطية ، فإن نظرتهم الى القانون ، التي تشبه تماما النظرة الأوروبية ، موجودة في كل المجتمعات الزراعية وفي معظم مجتمعات الذين يعيشون على صناعة الألبان . كان يسمح للزعيم بممارسة سلطاته الأوتوقراطية ، ولكن في حدود مفهومة واضحة ، ولم تكن مجموعات القوانين بأقل صلاحية لأنها كانت تنقل حرفيا . ومن أهم وظائف الزعماء أن يكونوا قضاة يحكمون بين الناس ، فكانت القضايا ترفع الى الزعيم ، ويقدم المتخاصمان حججهم بعد أن يقسم كل منهما اليمين ، ويعتمد الزعيم في حكمه على السوابق . وكان يتوقع منه أن يظهر حكمه وصلاحيته لمنصبه وذلك عن طريق المهارة التي يظهرها في فهم الحجج المتعارضة وفي توقيع العقاب المناسب مع الجريمة . وفي حالة وجود حكومة بها موظفون ، فمن الممكن أن تستألف القضايا من المحاكم الابتدائية الى المحاكم الأعلى منها الى أن تصل الى رئيس الوزراء أو حتى الى الملك نفسه . وكان مسوحا بصفة عامة بالحكم بين متخاصمين بوساطة الحكم الالهي عن طريق التعذيب ، ولكنهم كانوا يلجأون الى ذلك فقط عندما تكون الأدلة غير جازمة ، ويترتب على ذلك عدم الوصول الى قرار نهائي .

وكانت الطقوس الخاصة بالوصول الى سن البلوغ عامة بينهم . كانوا يلقنون مجموعات الصبية والبنات الارشادات في معسكرات منفصلة تقام في الغالب على مسافة غير بعيدة من القرية . وفي هذه المعسكرات كانوا يعيشون تحت الرقابة الكاملة من أفراد بالغين ولكن يجب ألا يكونوا آباء أو أمهات لهؤلاء الشبان . كان هؤلاء البالغون تلقى عليهم الفشاوة بمختلف الوسائل ، ثم يلقنونهم في النهاية المعلومات الجنسية ، وغالبا ما كانوا يلقنونهم أيضا بعض المعلومات الدينية السرية . وكانوا يقومون بعمل عمليات مختلفة من تشويه

الجسد في أغلب الحالات وبطرق شتى . وكانوا يختنون الصبية . أما بالنسبة للبنات فكانوا يقطعون البظر ، وفي المناطق التي يزاولون فيها عمل التشریط في الوجه ، فانهم كانوا يشرطون وجوه كل من الفلمان والفتيات بالعلامات المميزة للقبيلة .

وكانت عبادة الأسلاف هي الدين الأساسي للعلم في افريقيا الزنجية . وكانوا أصلا يتوجهون بهذه العبادات الى مؤسسى الجماعات المتصلة بصلة القرى والى الأبطال الذين كانت أعمالهم ما زالوا يتذكرونها فيما بينهم . كانوا يؤمنون ايمانا ثابتا بأن الموتى يهتمون كثيرا بما سيفعله خلفاؤهم ، وأنهم قادرون على مساعدتهم وكانوا قادرين أيضا على إلحاق الضرر بهم ، كما كان في الامكان التأثير عليهم بواسطة الابتهاال وبالأخص تقديم الأضاحى وعلى هذه الافتراضات الأساسية نشأ الكثير من المعتقدات والعادات المحلية . فبالإضافة الى أرواح الأسلاف ، كانت هناك آلهة غير آدمية ، ولكن عدد هؤلاء الآلهة وأهميتهم كانت تختلف اختلافا كبيرا بين منطقة وأخرى . وباستثناء القليل من الممالك الكبيرة كانت عبادة الآلهة تقل في أهميتها عن عبادة الأسلاف .

وكان هناك اعتقاد راسخ في السحر بكل فروعه ، كما كان المطيبون الذين يمارسون هذه المهنة ، يحتلون مراكز مرموقة بينهم . كان الكهنة المحترفون يقومون بالعناية بهياكل الآلهة المختلفة ويشرفون على عبادتها . أما الاشراف على عبادة الأسلاف فقد كان من واجبات رئيس الجماعة من ذوى القرى . وكان هناك أيضا من يحترفون الانباء بالغيب ولا يمارسون غير هذا النوع من السحر ، أما النشاط الرئيسى للمطيبين فقد كان موجهًا بصفة خاصة الى شفاء المرضى .

كان المطيب ، عادة ، شخصا ذا نزعات هستيرية ، ولما كان هذا المنصب منصبا هاما من الناحية الاجتماعية ، وفي الوقت ذاته يدر الكثير من المال فقد

كانوا يراقبون وجود مثل هذه النزعات في الأطفال ، وكانوا يشجعونهم وكانوا يصوغون تعبيراتهم في الصيغ التي تلائم ما يتصورونه لهم . وعلى النقيض من الاعتقاد السائد فإن من النادر ، بل يكاد يكون من المستحيل ، أن نجد رجلا طبيا يشكو من مرض عقلي . فلكي يزاول هذا الطبيب عمله بنجاح ، كان يتحتم عليه أن يعرف الكثير في الحقائق وأن يكون ممتازا في ذكائه ، وفي الوقت ذاته يجب أيضا أن نعرف أن الغالبية من الأطباء ليسوا من أهل الشعوذة . كان هذا الشخص يعتقد فيما لديه من قوى ، وكان يملك في الغالب تلك المقدرة التي تسميها الآن الإدراك الحسي الزائد ، وكان أيضا في معظم الحالات معالجا نفسانيا عظيما ، ولديه علم بعلاجات حقيقية للأمراض لا صلة لها بالسحر ، يعالج بها المرضى الذين يشكون من الأمراض العادية . وما من شك في أن دراسة العقاقير الطبية الأفريقية وطرق الشفاء من الأمراض يمكن أن تقدم الكثير من المعلومات الى معارفنا الطبية . كان الطبيب يعرف السحر بكل فروعه ، وكان في مقدوره أن يقتل ، كما كان في مقدوره أن يبرئ . كان على استعداد لأن يقدم التعويضات التي تؤذى وأن يقدم أيضا الارشادات اللازمة لاستخدامها ، تماما كما يفعل الصيدلاني الحديث اذا قدم السموم . ومع ذلك ، فإن هذا كله ليس الا ناحية بسيطة من أوجه النشاط . ويجب ألا نخلط بين الطبيب والسحرة الذين يؤذون الناس الذين يوجدون في كل مكان في افريقيا الزنجية . فالساحر شخص يمارس دائما السحر الشرير ولهذا يعتبرونه في كل مكان عدوا لدودا للجماعة ، لأنه يسعى للشرحا في الشر . ولم يقتصر أذى السحرة على الأفراد فحسب ولكنه ضد الانسانية عامة . ولذلك كانوا يقتلونهم بدون شفقة حيثا كان يكتشف أمرهم . كانوا يعتقدون أن اشتغال الرجل بالسحر لم يكن في الغالب من وحي ارادته واختياره بل كان يفعله دون ادراك اذ كانوا يظنون أن ذلك راجع الى وجود « مادة سحرية » في الجسد وصفوها بأنها مادة هلامية بيضاء تشبه « البلم »

بعض الشيء ، ومن الممكن الحصول على مثل هذه المادة بطرق شتى ، كما كان من المحتمل أن تصل الى الشخص بطريق الوراثة ، ومن الممكن أن يصبح الشخص ساحرا شريرا دون أن يدري . وبما أن أعضاء الجماعة يشتركون جميعا في الايمان بهذه المعتقدات فان الأشخاص الذين يكتشف أمرهم ويتمهم المطيون بزاولة أعمال السحر ، كانوا في العادة يعترفون ويحكم عليهم بالاعدام دون أى اعتراض . وبينما كان المطيون يعملون فرادى ، اللهم الا عندما تضطربهم آداب مهنتهم الى الاجتماع بغيرهم ، فان السحرة يعملون ، كما هو المعتد ، في جماعات منظمة يجتمعون في الخفاء وينظمون معا ما يريدون عمله .

ومن أهم وجوه نشاط المطين عمل الفتيش . ومن الصعب على القارىء غير الافريقى أن يفهم حق الفهم طبيعة هذه الفتيشات . فانها لم تكن مسكونة بالأرواح كما أنه من المعروف أنها كانت تصنع ، ومع ذلك كانوا ينظرون اليها على أنها كائنات حساسة . كانت القرابين تزيد من قوتها ، كما كان في مقدورها أن تسمع ، وأن تستجيب للدعوات وأن تجلب الحظ الحسن أو الحظ السيئ ، وترجع قوتها الى كونها مركبة من مواد معينة ومصنوعة بطريقة معينة ، ومعظم المواد التي كانت تصنع منها « الفتيشة » مأخوذة من النباتات والحيوانات ولكن كثيرا منها ذات القوى العظيمة كانت تشتمل على دم آدمى ، وعظام ، وبعض أعضاء من الجسم . والفكرة مع ذلك لا تختلف كثيرا عن فكرتنا نحو مادة مثل البارود ، فهو مركب من الكبريت وفحم الخشب وملح البارود ، وكل منها غير ضار في حد ذاته ولكن نصير لها قوة مدهشة عندما تتحد بنسب معينة وبطريقة معينة .

وكان في استطاعة قطعان الماشية التي جلبها المهاجرون النيوليتيون الى افريقيا أن تنتشر في المناطق التي تنمو بها المحصولات التي جلبوها معهم بعد جهد كبير ، هذا اذا نت على الاطلاق . وكانت النتيجة الناجمة عن ذلك هي

تطور وارتقاء حضارة صناعة الألبان الافريقية التى تشبه فى بعض نواحيها الحضارة الأوروبية الآسيوية التى وصفناها آنفا فى الفصل التاسع عشر. وفى المصور التاريخية ، على الأقل ، كان أصحاب حضارات صناعة الألبان الافريقية فى غالبيتهم من الزوج ، مع أن كثيرا من هؤلاء الزوج كان يظهر فيهم آثار اختلاطهم بالجنس القوقازى . وكان مركز التطور بالنسبة لصناعة الألبان ، على ما يظهر ، هو شرقى السودان ، وهو المركز الذى ظهرت فيه فى الأزمنة المتأخرة أكثر الخصائص المميزة لهذه الحضارة . وبالرغم من أنها قد تطورت ، كما هو مفترض ، عن طريق الحيوان المستأنس الذى كان يمثل نصف اقتصاديات العالم النيوليتى الأصلى ، فليس هناك شك فى أن جماعات الصيادين وجامعى الطعام ، الذين لم يعرفوا الزراعة على الإطلاق ، قد أقبلوا على هذه الحضارة اقبالا مباشرا ، اذ يصعب علينا أن نفسر ما حدث بين قبائل الهونتوت بأى تفسير يقوم على أساس آخر خصوصا واننا نعرف انه حدث فى أجزاء أخرى من العالم ان انتقلت بعض القبائل من حياة الصيد الى الاقتصاد القائم على الحيوان المستأنس فى سرعة وسهولة تامتين .

وركزت كل حضارات صناعة الألبان الافريقية اقتصادياتها على قطعتين الماشية ، وكانوا يربون عادة بعض الحيوانات الأخرى ، وأخصها الأغنام ، ولكن بأعداد قليلة ، وكانت أهميتها الحضارية ضئيلة . وفى العصور التاريخية زاولت معظم المجتمعات التى مارست حضارة صناعة الألبان ، فيما عدا الهونتوت ، الزراعة فى حدود ضيقة ، حيثما سمحت الظروف المناخية بذلك . وكانت محصولاتهم الأصلية على ما يرجح هى المحصولات الافريقية التى سبق ذكرها ، ولكن منذ القرن السابع عشر فصاعدا أضيفت الى هذه المحصولات محاصيل أخرى ، ثم حلت محلها محاصيل غذائية من أصل أمريكى وعلى الأخص الذرة والبقول السودانى ونبات النيق (maniac) والقرع الصلى . وقد ينجم عن ادخال هذه النباتات ، التى تناسب تماما بيئة الهضبة الافريقية ،

زيادة في اعتماد الشعوب التي تمارس صناعة الألبان على الزراعة . كانت الماشية هي المحور الذي تدور حوله وتتركز فيه العواطف والحضارة في حياة السكان . واقتصرت كل الأعمال التي تدور حول الماشية على الرجال ، كما أن جميع الحضارات التي تعتمد على هذا النوع من الاقتصاد تسير على نظام الانتساب الى الأب والامثال لسلطته . وكان مهر العروس يدفع بعسدد من الماشية ، وفي بعض القبائل كانت العلاقة الجنسية التي تتم بين أى شخصين ، كانت والدتها قد دفع فيها مهر بماشية من نفس القطيع ، تعتبر فاحشة منكرة محرمة . وفي بعض القبائل الأخرى كانت الزوجة التي تشتري بماشية حصل عليها الرجل لنفسه بدلا من أخذها من أقاربه تصبح ، في عرفهم ، بأنها « تل » ولها الحق في تأسيس فرع جديد من العائلة .

أما الثروة فانها تقدر حسب عدد القطيع الذي يملكه الرجل بصرف النظر عن نوعه ، وقد نجم عن هذا الاتجاه في العصور الحديثة وجود مواش منحلة النوع ، كما أن سوء استخدام المراعى أضر بالمراعى المحجوزة للوطنيين . وكان حب الرجل لماشيته مضرب الأمثال ، وحتى من كان يملك منهم بضع مئات من الرؤوس فانه يعرف كل حيوان يملكه . كانت الحيوانات تبيت في حظائرها ليلا وترعى بالنهار تحت اشراف الفلمان ، وكانت تحلب في الصباح وفي الليل ، كما كانت تفصد أيضا للحصول على شيء من دمه . وكانت عملية القصد تتم من طريق اطلاق سهم صغير من قوس على أحد عروق الرقبة ويؤخذ كوب أو اثنان من دماها ثم يترك الجرح بعد ذلك ليلتئم . واذا ما حكمتنا اعتمادا على سلوك الحيوان ، فان هذه العملية لا تسبب الا القليل من الآلام . ولما كان المصريون القدماء لم يعرفوا هذه الطريقة على ما يبدو ، كما أن جميع الشعوب السامية تقف موقفا سلبيا ازاء استخدام الدم في أى صورة كانت ، فان ذلك يدل دلالة قوية على أن طريقة نزية القطعان الافريقية طريقة زنجية الأصل ، كما انها توحى أيضا بوجود بعض تقاليد الصيادين بين

محدثى هذا التنظيم لأن كل الشعوب التى تعيش على الصيد تنظر الى الدم على أنه عنصر هام من عناصر الوجبة الغذائية ، والسهم كما هو معروف هو السلاح الرئيسى للصيد .

وبالرغم من أن معظم المجتمعات التى تقوم على صناعة الألبان فى المصور التاريخية كانت تخرج للصيد فى جماعات كبيرة للقضاء على الأسود والحيوانات المفترسة الأخرى اذ كان من النادر أن تخرج هذه الجماعات للصيد بغرض الحصول على اللحوم . وحيث ان حيوانات الصيد كانت متوافرة فى كل مكان فى الهضبة ، فان هذا الاهمال لمورد طبيعى هام يبدو أمرا غريبا . وفى كثير من الحالات سمحت القبائل التى تعتمد على صناعة الألبان لبعض قبائل الصيادين ذوى المركز الاجتماعى المنحط بأن تشاركها الميثة فى أراضيها ، وكانوا يحصلون منهم على جلود الوعل والحيوانات المفترسة الأخرى لكى يلبسوها . ولم يدخل على حضارات صانعى الألبان الا قدم طفيف فى الناحية التكنولوجية . وكان معدن الحديد شائع الاستعمال بينهم كأدوات وأسلحة ، كما كان يستخدم حتى فى أدوات الزينة . كان هذا المعدن فيما يبدو متوافرا جدا . كما أقتنوا استخدامه فى الجزء الشمالى من الهضبة . وكان الحدادون يكونون فى كل مكان طبقة مستقلة بنفسها ذات مركز اجتماعى منحط ، وربما كان تفسير ذلك هو أن طرق الصناعات الفنية الحديدية قد أدخلها صناع أجانب وكانوا ينسجون الحصر ولكن النول الحقيقى لم يكن معروفا لديهم .

أما الملابس فكانت قليلة ، وكثير من أهالى الشمال الذين يمارسون صناعة الألبان كانوا يشون عرايا تماما ، لا يحملون فوق أجسامهم الا بعض أدوات الزينة . وفى أقصى الجنوب كان النساء والرجال يرتدون مآزر قصيرة حول الوسط . وكانت الأغذية المصنوعة من جلود الوعل والحيوانات المفترسة الأخرى عنصرا هاما من عناصر الملابس فى كل أنحاء المنطقة . وكانت الأواني تصنع من الخشب أو من نبات القرع ، ومع هذا فان أواني الطهى البسيطة

المصنوعة من الفخار كانت منتشرة بين كثير من القبائل . وكان الفن بدائيا ، واقتصر على بعض الرسوم الهندسية البسيطة التى كانت تعمل بواسطة الحرق فوق سطح الأواني . وعلى النقيض من غربى افريقيا ، لم تكن هناك تماثيل منحوتة أو أقنعة أو أى أدوات خاصة بالطقوس ، ويرجع ذلك بدون شك الى طبيعة الدين البسيطة وغير المنتظمة ، نسييا فى المنطقة .

وكان التنظيم الاقتصادى بسيطا . واذا تركنا جانبا الحدادين ، لم يكن هناك صناع متخصصون . كما أن الأسواق التى كانت ذات أهمية كبيرة فى كل الاماكن الأخرى فى افريقيا الزنجية لم تكن من الأمور التى تمتاز بها حضارات صانعى الألبان فاذا حدثت ووجدت مثل هذه الأسواق ، فمن السهل أن نعرف أن ذلك راجع الى تأثير أجنبى .

وفى قبائل صانعى الألبان ، كانت المعتقدات الدينية وطقوسها بسيطة للغاية . فلم تكن هناك مبادئ أو قوانين تبحث فى طبيعة الروح ، كما أن المعتقدات التى تتعلق بأحوال العالم الآخر كان يكتنفها الغموض . وكانت نظرتهم نحو خلود الروح بعد الموت تتسم بالاعتدال حتى بين أعظم الجماعات ميلا الى الحروب ، اذ أن نسبة الأمل فى بقاء الانسان حيا لمدة طويلة كانت نسبة قليلة . ولقد اتفقت بعض قبائل صانعى الألبان الشمالية مع الشاعر جوته فى أن الروح ليست هبة وانما هى شئ يناله صاحبه بمجهوده ولهذا اقتصر الخلود على الزعماء والمطبيين والأبطال . واعترفت معظم قبائل صانعى الألبان بوجود كائن أعظم ، كما اعترفت بوجود بعض آلهة أخرى . ولكن هذه القبائل كانت تفتقر الى معابد منظمة وأمورها منسقة مثل معابد الآلهة لدى الشعوب التى تشتغل بالزراعة . وعلى وجه العموم لم يهتم الناس بعبادة الآلهة والأسلاف الا فى حالات الخطر فقط ، وكانت الطقوس فى هذه الحالات بسيطة جدا . كانت القرابين الحيوانية تقدم من آن لآخر ، أما القرابين الآدمية فقد كانت نادرة جدا .

وتحت الحياة بين سكان حضارة صانعي الألبان خلق نظم خاصة في الأماكن التي يقيمون فيها (انظر الفصل التاسع عشر) . كانت الجماعات الأفريقية التي تشارك في هذا النوع من الاقتصاد تعيش عادة في أكواخ صغيرة ومنتشرة في كل مكان ويسمى الواحد منها « كرال » يعيش في كل منها عائلة مرتبطة ببعضها . كانت المنازل التي تحتلها الزوجات والأبناء وزوجاتهم تشيد حول حظيرة للماشية تتوسط المكان . ولما كانت الماشية تغري دائما بالاغارة عليها لسرقتها ، فإن معظم جماعات صانعي الألبان الأفريقية كانت من القبائل التي تميل جدا الى الحرب ، الأمر الذي مكن لها من أن يكون لها مركز محترم في علاقاتها مع جيرانها الزراعيين الذين لا يميلون مثلهم الى الاعتداء ، وقد أدى ذلك في النهاية الى وجود دويلات عديدة على أطراف المنطقة التي كانت تربي فيها الماشية وأن تصبح الطبقة الأرستقراطية التي تحتفظ بالماشية هي الطبقة الحاكمة للمناطق التي يقطنها سكان أغلبهم من الفلاحين . وهناك ظاهرة عجيبة خاصة بتلك الدويلات ، وهي أن كثيرا من تلك التي نشأت على الحد الجنوبي من السودان لم تنشأ الا منذ عهد قريب نتيجة لهجرات قامت بها قبائل « الفلا » (Fullah) التي أتت من الشرق . ويصعب علينا أن نحدد تماما الجنس الذي تنتسب اليه هذه القبائل التي نرى فيها مزيجا واضحا من الملامح الزنجية واللامح القوقازية . ويبدو أنها كانت أصلا من بلاد السنغال وبعد اعتناقها للإسلام بدأت تهاجر على نطاق واسع نحو الشرق ، وحيثما كانوا يذهبون كانوا ينجحون في السيطرة على الزوج . وحتى في العصر الحاضر نراهم قد نجحوا في السيطرة على الشعوب الزنجية التي تعمل في الزراعة في المناطق التي لا تخضع خضوعا رسميا لحكمهم .

وفي خارج المناطق التي كانوا يحكمونها كفاتحين ، كان التنظيم السياسي عند رعاة الماشية من السودانيين وسكان شرقي أفريقيا تنظيما بدائيا . كان النظام المعتاد هو اتحاد يقوم بين العشائر والعشائر الفرعية ويراعى فيه مركز

كل عشيرة ومكاتها . أما نظام الرق فلم يكن مهما من الناحية الاقتصادية ، وفي كثير من الحالات لا نرى أثرا لوجوده .

كانت النظم القانونية أقل تطورا هنا منها في المناطق الزراعية . أما السلطة السياسية التي كانت سائدة بينهم فقد كانت في العادة مركزة في يد زعماء العشائر أو المطبين الذين يتوارثون مهنتهم ، وكانت وظيفتهم الرئيسية هي انزال الأمطار . وكانت النظم الثانوية أقل تطورا هنا منها في المناطق الزراعية . وأكثر المظاهر الاجتماعية التي يمتازون بها هي تلك الأهمية الكبيرة التي يعلقونها على تكوين مجموعات من الشباب الذين في سن متقاربة . وكانت كل مجموعة من الشباب الذين يصلون الى سن معينة يختلفون بدخولها طور الرجولة في وقت واحد ، ويجرون لافرادها عملية الختان بنفس المدة ، وبذلك يقيمون بينهم عهدا من الاخاء ، ويصبحون مرتبطين برابطة الدم . ومثل هذه المجموعة كانت تخدم معا كوحدة في الجيش ، وكان لأعضائها حقوق عليهم وواجبات متبادلة بينهم وبين بعضهم البعض قد تمتد في بعض الحالات الى حد اقتراض الزوجات .

ويسكن معظم أرجاء الهضبة في جنوبى كينيا سكان من القبائل التي تتكلم لغة الباتو وهي قبائل لم تصل الى هذه المناطق الا منذ وقت قريب نسبيا . وبالرغم من أن تربية الماشية كانت تضى على اقتصاد هذه القبائل عندما اتصل بهم الأوروبيون ، فانهم كانوا يعتمدون أيضا في الوقت نفسه على الزراعة اعتمادا كبيرا أكثر من القبائل السودانية وقبائل صانمى الألبان في شرقى افريقيا . وقد يكون هذا الاتجاه ازداد نتيجة لمعرفة هذه القبائل للمحصولات الأمريكية في الوقت الذى اتصل فيه الأوروبيون بتلك المنطقة لأول مرة . وليس هناك شك في أنه قبل مجيء هذه القبائل الى الهضبة كانت حضارة هؤلاء الغزاة الذين يتكلمون لغة الباتو تشبه تماما حضارة سكان القرى من مزارعى غربى افريقيا ، ويبدو أنهم قد جلبوا معهم أساليب أكثر

تقدما في التنظيم السياسى . وفي خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر استطاعوا أن ينشئوا في المنطقة عددا من الامبراطوريات التى لم تعمر طويلا وكان كل منها يرتكز حول زعيم عظيم ومنظم حربى ، ولكن لم تستطع واحدة من هذه الامبراطوريات تكوين الاداريين المحترفين الذين ساعدوا على الاستمرار في بقاء الممالك الزراعية ، وأشهر هذه الامبراطوريات هي امبراطورية الزولو التى أنشأها الزعيم « تشاكا » .

وفي أقصى الجنوب من افريقيا استمر الهوتنتوت يحيون حياة هي صورة معرفة جدا من حياة حضارة صانعي الألبان ، وهؤلاء الهوتنتوت قريبو الشبه جدا ، سواء في مظهرهم الجسماني أو في لغتهم ، بقبايل البوشمن . ولا شك أنهم كانوا يتبعون أصلا حضارة لها طابع حضارة البوشمن (انظر الفصل الثاني عشر) ، ولكن طرأت عليها تعديلات بسبب صلتهم بمجموعة من مجموعات حضارة صانعي الألبان . وقبل أن يغزو المتكلمون بلغة الباتو هذه الهضبة ، كان نفوذ الهوتنتوت يمتد كثيرا نحو الشمال ، ربما الى حدود كينيا . كانت الماشية والأغنام ذات الذيل السمين هي أهم حيواناتهم المستأنسة لأن كلا النوعين يمكن الحصول على اللبن منه . وكانت النساء هن اللاتي يقمن بأعمال الحلب ، كما كانت الماشية تستخدم كدواب للحمل ، وهما الأمران اللذان جعللا الشعوب الافريقية الأخرى من صانعي الألبان تنظر اليهم كأنهم يأتون أعمالا تقرب من الكفر . وبدلا من أن يعيش الهوتنتوت في أكواخ ثابتة (كرال) بوجه عام ، فانهم كانوا يعيشون في معسكرات مؤقتة ، وكانوا يكتثرون من التحرك من مكان لآخر . وهم يعتمدون اعتمادا عظيما على الصيد الذى يقوم به الرجال ، أما أساس التنظيم الاجتماعى بينهم فهو الجماعة التى تمشي معا وتتسبب الى الأب وتزواج من الخارج . ولكن هناك دلالات كثيرة على أن الانتساب الى الأم أو على الأقل الانتساب الى كل من الأم والأب كان معروفا لديهم . وأهم الظواهر الاجتماعية التى يمتازون بها هي الاحترام

الكبير ، والذي يبلغ حد التجنب ، الذى يديه الاخوة نحو اخواتهم البنات والروابط القوية التى تربط الرجل بأخواله . ولم يعرفوا من التنظيم السياسى الا القليل الذى لا يستحق الذكر . وبالرغم من أنه كان لكل مجموعة منهم رئيس يرأسهم ، فلم يكن لهؤلاء الرؤساء سلطة حقيقية . أما الدين فلم يكن الا صورة غير منظمة من عبادة الأسلاف ، وكان للقمر شأن كبير فى أساطيرهم ، ولكن لم يكن هناك شأن هام الا لثلاث كائنات أخرى ذات قوى فوق القوى الطبيعية كانوا ينظرون اليها على أنها أكثر أهمية من الأشباح العادية للموتى ، بل انهم كانوا يعتقدون أيضا أن هذه القوى الثلاث من أصل آدمى . وكانت الاحتفالات السنوية بمقدم المطر ، والتى كانت تقام فى شهر نوفمبر أو ديسمبر عندما يحين وقت أمطار الصيف ، أهم الاحتفالات الدينية عندهم .

وفى افريقية ، كان الحد الذى يفصل بين الحضارات الزراعية وحضارات صناعة الألبان يتصل اتصالا تاما بنزول الأمطار . فابتداء من حدود الصحراء الكبرى يزداد سقوط المطر كلما سرنا نحو الجنوب فى مناطق السودان الغربية والوسطى الى أن يصل الانسان الى الأقاليم الاستوائية الرطبة التى تقع فى الأراضي الساحلية الواطئة ، وفى حوض الكونغو . ولم يكن هذا التغير فى المناخ مفاجئا أو سريعا بل كان يسير تدريجيا الى درجة جعلت كلا من الحضارات الزراعية وحضارات صناعة الألبان تعيش جنبا الى جنب فى مساحات واسعة مترامية الأطراف فى الشرق وفى الغرب . وبالرغم من أن بعض القبائل كانت تمارس تربية القطعان والزراعة فى وقت واحد ، فإن الأسلوب السائد بينهم كان يتمثل فى العلاقة التكافلية التى تربط بين صانعى الألبان وبين المزارعين الذين كانوا يعملون جنبا الى جنب ، ويتبادلون المنتجات . ومع كل ، فإن السيادة السياسية لصانعى الألبان على المزارعين كانت هى النظام المألوف . وعلى طول الحدود الغربية للهضبة الافريقية الكبرى ، كان الانتقال المناخى من ناحية أخرى مفاجئا ، كما أن الحدود التى تفصل بين اقتصاديات

صانعي الألبان والمزارعين كانت تسير تماما مع الخط الذي تسقط فيه الأمطار بمعدل أربعين بوصة سنويا . وحيثما يزد انهمار المطر عن هذا المعدل فإن وجود ذباب التسي — تسي ، الذي يحمل مرضا قاتلا للماشية ، كان يجعل من صناعة الألبان عملا غير مربح .

ويصلح الاقتصاد القائم على الزراعة ليكون أساسا لارتفاع ممالك عظيمة مستقرة نسبيا يمكننا أن نقول عنها ، اذا صرفنا النظر عن موضوع معرفة القراءة والكتابة ، انها تستحق أن تسمى مدنيات . وهذه هي الممالك التي ستحدث عنها في الفصل القادم ، وكانت كثيرة العدد ومتقدمة جدا في المناطق التي تقع في جنوبي السودان مباشرة . وبالرغم من أن النظم الامبراطورية قد تسربت هي الأخرى الى الكونغو فان معظم الدويلات التي قامت هناك تقتصر الى التنظيم المحكم الذي كان يسود الدويلات الشمالية ، وكانت أقل منها تقدما . والى الجنوب من ذلك اختفت المجتمعات المنظمة سياسيا تاركة وراءها جماعات مستقلة أو مجموعات صغيرة من القرى على رأسها زعماء محليون . وتشابهت نظم الحياة الريفية في كل أنحاء المنطقة التي كان اقتصادها الرئيسي يعتمد على الزراعة لدرجة أن المرء يجد نفسه مضطرا الى الاستنتاج بأنه كانت توجد هناك طبقة حضارية قديمة وفرعية ، فرضت عليها النظم المركزية السياسية فرضا في مناطق مختلفة دون أن تستطيع أن تغير شيئا كثيرا في الحياة اليومية لعامة الشعب .

وفي المناطق التي كانت ترتفع فيها جدا النسبة في نزول الأمطار كانت الماغز والدجاج والكلاب هي كل الحيوانات المنزلية ، ويقل أو يندر وجود أثر لتربية الخنازير . وعلى حدود المنطقة المزروعة كانوا يربون بعض الماشية ولكننا نلاحظ أنهم يميلون جدا الى التخصص في ذلك مثل ميلهم الى التخصص في وجوه النشاط الاقتصادي الأخرى . واتصلت القبائل التي تحتفظ بالماشية بالقبائل التي تعمل في الزراعة ، وكاتتا تبادلان منتجاتهما والمحصولات

الرئيسية للمنطقة التي يغزر فيها سقوط المطر ، هي الموز واليام والتارو ، ويشار الى النبات الأخير عادة في المؤلفات باسم يام الثور . والموز والتارو نباتان أصلهما من منطقة جنوب شرقى آسيا وقد دخلا الى افريقيا حتما عن طريق المحيط الهندى . كما نعرف أيضا أن فصيلة من فصائل نبات اليام ، على الأقل ، قد جاءت الى المنطقة من جنوب شرقى آسيا . ومن المرجح جدا أن الذين نقلوا هذه المحصولات هم المهاجرون الملايو — پولينيزيون الذين هاجروا الى جزيرة مدغشقر واستقروا فيها . وحيث ان جميع المحصولات ذات الاهمية الاقتصادية التى كانت تزرع فى المناطق الاستوائية الرطبة بافريقيا باستثناء اليام لم تكن من أصل افريقى ، فمن المرجح أن هذه المناطق قد تركت للقبائل البدائية التى كانت تعتمد على الصيد وجمع القوت الى وقت قريب نسيا .

وفى المناطق التى كانت تسقط عليها الأمطار بكمية أقل كانوا يزرعون الذرة ونبات التيوكا ومختلف نباتات الدخن (الذرة العويجة) والذرة الصفية (السورغوم) والقول السودانى . ولكن يجب أن نلاحظ أنه فى هذه المنطقة أيضا لم تكن معظم المحصولات الأساسية فى العصور التاريخية من أصل افريقى . ويبدو من الأسلم أن نفترض أن الزراعة على نطاق واسع ، وهى التى تمهد السبيل لوجود عدد كبير من السكان المستقرين فى مكان واحد ، لم تظهر الا فى عصور متأخرة نسيا فى افريقيا الزنجية . وحيث ان الحكومات المركزية القوية لا يمكن أن تنشأ بدون وجود مثل هؤلاء السكان فان الحضارات الزنجية يتحتم أن تكون ، هى الأخرى ، من أصل حديث نسيا .

ومعظم المنطقة التى تشغلها الآن الحضارات الزراعية كانت فى الأصل منطقة ملأى بالأشجار النامية فيها ، أما المناطق الأخرى مثل الجزء الجنوبى من حوض نهر الكونغو والمناطق الساحلية فى غربى افريقيا فقد كانت تعطيها

الغابات الكثيفة ، ولهذا السبب كانت توجد فيها كميات هائلة من الأخشاب الصلبة ومنتجات الغابات الأخرى ، مما جعل في الامكان حدوث تقدم فنى متقن ومتوازن ، ولو أن ما كانت تنتجه هذه الحضارة من مصنوعات كانت أشياء معرضة كثيرا للتلف . وبعبارة أخرى فإن عالم الآثار الذى يعمل فى هذه المنطقة يواجه موقفا يشبه الموقف الذى يواجهه فى جنوب شرقى آسيا . وبعد ادخال صناعة المعادن أهملوا ، فيما يبدو ، صناعة الأدوات الحجرية بكامل أنواعها ، أما الأدوات الخشبية التى كانت كثيرة دائما على مر العصور ، فقد تعرضت للقضاء عليها بسبب النمل الأبيض والمناخ الاستوائى .

وفى العصور الحديثة عندما زادت قيمة الأشياء الأثرية فى حد ذاتها نرى كثيرا من الأوروبيين ينسبون أعمارا طويلة للأدوات ذات القيمة الفنية التى عثر عليها فى غرب افريقيا . وعلى أى حال فإن عمر أى تمثال من التماثيل الخشبية التى لا يصنع مثلها فى الوقت الحالى لا يمكن أن تزيد على مائتين أو ثلاثمائة سنة على أقصى تقدير ، ولكن من الأسلم فى أكثر الحالات أن تقدر مائة عام فقط كعمر لأى أداة لم تخرج من افريقيا قبل عام ١٩٠٠ .

أما صناعة السلال وعمل الحصر فقد كانت متقدمة فى كل أنحاء المنطقة الزراعية ، وكان غزل الملابس متقدما جدا فى الجزء الشمالى الغربى من المنطقة ، الأمر الذى يوحى بأن هذه الصناعة قد دخلت الى هذه المنطقة كجزء من الحضارة الفيلوليتية ويبدو أنها وصلت الى هذه المنطقة من بلاد البحر الأبيض المتوسط . أما فى الأجزاء الشرقية والجنوبية من المنطقة المزروعة ، فقد استبدلوا الملابس المنسوجة بملابس أخرى مصنوعة من أوراق الأشجار . وهذه الملابس مثل مثيلاتها فى جنوب شرقى آسيا كانت تصنع من أوراق أشجار من عائلة الفيكوسى (Ficus — التين الهندى) ، ولكن بعض تفاصيل معينة فى صناعتها تدل على أنها أصيلة وغير منقولة عن غيرها . وكانت الأدوات الفخارية تصنع فى كل مكان فى المنطقة ، ولكن ندرة وجود أوان فخارية مزخرفة أو

ملونة تجعلنا نعتقد أن هذه الأدوات الفخارية صنعت لتكون أدوات للطهي قبل أى اعتبار آخر . أما الأدوات التى تستخدم لتناول الأطعمة فهى مصنوعة كلها من الخشب أو من قشرة نبات القرع . وكانت المنازل تشيد من الخشب والقش وهى مواد تلائم المناخ السائد فى المنطقة ، وكانوا يتقنون تشييدها اتفاقا يدعو الى الإعجاب ، كما أن منازل المدن كانت فى العادة متسعة وكبيرة الحجم .

وكانت صناعة الحديد بما فيها من عمليات الصهر للخامات المعدنية المحلية منتشرة فى كل أنحاء المنطقة ، زد على ذلك أن صناعة صب الشبة (النحاس الأصفر) والذهب بطريقة الشمع المنصهر كانت من الفنون المتقدمة الى حد كبير .

أما البرونز فلم يكن معروفا بينهم ، كما أن العمال الزنوج الذين يشتغلون بعمل الأشياء المعدنية لم يعرفوا خلط المعادن وعمل السبائك منها . وكان الذهب يصاغ كما يصل اليهم من مناجم الذهب الراسب ، أما النحاس الأصفر فقد كانوا يحصلون عليه عن طريق التجارة . ولم يعرفوا استخدام المعجلات فى أى صورة من صورها وهو نقص عجيب اذا ما أدخلنا فى اعتبارنا تلك الصلات الطويلة التى كانت تربط سكان الصحراء الكبرى بعضهم ببعض . وعلى النقيض من حضارات صانعى الألبان ، أنتجت معظم الحضارات الزراعية تماثيل محفورة فى الخشب ذات قيمة فنية كبيرة ، وكل الأدوات التى يمكن مشاهدتها فى المعارض الحديثة للفن الأفريقى قد صنعتها بالفعل تلك القبائل التى تمارس مثل هذا النوع من الاقتصاد . وقد وصل الإنتاج الفنى الى أوج عظمته فى الممالك الكبيرة فى غربى افريقيا ، وفى الكاميرون وفى الجابون وفى منطقة حوض نهر الكونغو . وفى الممالك العظيمة نرى أن الفائض الاقتصادى المستمد من الشعوب المحكومة قد مكن الطبقة الحاكمة من معاونة الفنانين المحترفين ، بينما مهد الاقبال على أدوات الترف السبيل لوجود أسواق دائمة .

والشئ الذى يجب أن نذكره ونؤكد أنه حتى فى المناطق التى لا يوجد فيها مثل هذا التركيز للثروة فإن الصناع الفنين ، مع استثناءات بسيطة ، كانوا دائما عمالا محترفين . وكلمة « بدائي » تسمية غير صحيحة اذا ما استعملت لوصف فن النحت الافريقى ، وأى محاولة لمقارنته بما يعمله الأطفال أو المجانين ليست الا محاولة تدعو الى السخرية من صاحبها . ان المظاهر المختلفة التى نراها فى الفن التجريدى الافريقى ، وبعض الخصائص التى نشاهدها فى هذا الفن ، ليست الا نتيجة مباشرة لتقاليد وضعت أسسها منذ وقت طويل . وبالرغم من أن بعض الأعمال الافريقية قد تظهر لنا أنها أعمال ساذجة بسيطة اذا حكمنا عليها بمقياس القيم الأوروبية فإن الفن الافريقى ليس فنا أقل من أى فن آخر زادت صفاته التقليدية زيادة كبيرة ، مثل الفن البيزنطى .

ومن أهم الظواهر فى الفن الافريقى ذلك التقدم الكبير فى صنع الأقنعة ، ولم يقصدوا من هذه الأقنعة اخفاء وجه مرتديها فحسب ، ولكن قصد بها أيضا منحه لفترة مؤقتة صفات الكائن الذى يشبهه القناع . وفى كثير من الحالات ، كانت الأقنعة فى حد ذاتها عبارة عن فتيشات ، وبهذه الصفة كانت تقدم لها القرابين بين حين وآخر حتى تستطيع أن تحتفظ بقوتها ، وأن تحتفظ أيضا برغبتها فى المساعدة .

وكان العاج يستخدم بصفة رئيسية فى عمل أدوات الزينة ، وفى عمل التمويذات ، وقد أثنوا صناعته كثيرا . وخير ما صنعوه من العاج هو تلك الأقنعة الصغيرة والتماثيل ذات الشكل الغريب التى كان يصنعها أفراد قبيلة الوريجا ، وأنياب الفيلة العظيمة الحجم التى كانوا ينقشونها بالزخارف والتى كانت جزءا من مذهب « بنين » .

وتقدمت أيضا صناعة أدوات الزينة المصنوعة من المعدن تقدما عظيما فى غربى افريقيا ، وبالرغم من أن بعض القبائل قد توصلت الى عمل بعض الأدوات الحديدية المتقنة الصنع فإن خير ما صنعوه كان من الشبة (النحاس

الأصفر) وهو معدن مستورد ، وكانوا يصنعون أدواتهم منه بطريقة الصب والسمع المذاب (انظر الفصل التاسع) ، وخير ما وصلنا مما صنع من هذا المعدن هو رؤوس ملوك « ايف » التي يرجع تاريخها الى القرن الحادى عشر الميلادى والتي يمكن مقارنتها سواء فى فكرتها أو كمالها الفنى بخير ما أخرجته مصر من هذا النوع . ولا يزال الأشاتيون مشهورين ببراعتهم فى عمل التماثيل الصغيرة المصنوعة من النحاس الأصفر وينظمونها أحيانا من مجموعات متشابهة لتصور الأمثال الشائعة بينهم . كما نبغوا أيضا فى صب التماثيل المصنوعة من الذهب ، وقد اعترف العالم كله بالتفوق الفنى الذى وصلوا اليه فى صناعة الرؤوس ذات الحجم الطبيعى المصنوعة من البرونز ، وكذلك فى اللوحات ذات الزخارف المعقدة التى قام بصنعها أهل « بنين » .

وفى تقسيم العمل بين الجنسين اشتغل الرجال ، كما هى العادة ، فى الخشب والمعدن . كما أنهم اشتغلوا أيضا فى عمل الملابس من أوراق الشجر ، وهو ما يختلفون فيه اختلافا كبيرا عما هو متبع فى جنوب شرقى آسيا ، واشتغلوا بالفخار والنسيج فى معظم المناطق التى ارتقت فيها هذه الصناعات . وفى الزراعة طهروا الأرض مما فيها من أشجار أو نباتات ، ولكنهم تركوا فى أغلب الحالات أمر الغرس وزراعة المحصولات للنساء . وكان هناك بعض الاستثناءات من هذه القاعدة فى حضارات غربى افريقيا ولكن الاشتغال بالزراعة بالنسبة للرجال كان يعتبر عادة عملا منحطا وكانوا يتركونه للعبيد كلما أمكن ذلك .

وحيثما يوجد الاقتصاد القائم على المزج بين الزراعة وتربية الحيوانات المستأنسة ، كان الرجال يعنون بأمر الحيوانات ، أما النساء فانهن يكرسن كل أوقات فراغهن بعد الانتهاء من أعمال الزراعة وشئون البيت ورعاية الأطفال فى عمل الأدوات الفخارية الضرورية للاستعمال ، وفى عمل السلال ، ويصرفن هذا الوقت فى الأعمال التجارية فى بعض الحضارات الأكثر تقدما . وكانت معظم الأعمال التجارية الصغيرة فى الأسواق فى أيديهن ، ولانت كل امرأة

تحاول أن تنتج فائضا من الطعام لأن الربح الذى يأتى من بيع هذا الفائض كان يعتبر من نصيبها وحدها .

وكان هناك ميل قوى بين كل القبائل الزراعية نحو الاحتراف . وبلغ هذا الميل أوج تطوره فى المدنات التى كان فيها الأبناء يتوارثون حرفهم عن آبائهم ، كما أن التخصص المحلى الناتج عن توافر مواد معينة أو اتقان صناعات معينة ، كان أيضا من الأمور المعتادة . وامتد نشاط البعثات التجارية الى مسافات بعيدة فى مناطق كثيرة فان الأسواق كانت متوافرة بصفة مستمرة فى كثير من الجهات . ولقد بلغت هذه الأعمال التجارية أوج تقدمها فى المدنات التى كانت تعتمد على الضرائب التى تفرض على السلع عند البيع كجزء هام من الدخل الملكى .

وساعد على تسهيل الأعمال التجارية استخدام عجلات محلية مختلفة الأنواع كان من بينها كل من الملح ، وسبائك من قضبان نحاسية ، وأدوات وأسلحة حديدية من أشكال خاصة ، وما شابه ذلك ، كوسيلة للتبادل التجارى . وفى معظم المناطق الزراعية فى افريقيا كانت الوحدة المعتمدة أساسا للتعامل هى أصداف الودع التى كانت تأتى فى الأصل من جزر « مالاديف » أمام ساحل الهند وكانت الملايين من هذه الأصداف تستخدم فى جميع الجهات ، حتى فى غربى افريقيا ، عندما وصل الأوروبيون الى تلك البلاد . ولا بد أن هذه الأصداف كانت تنقل عبر القارة ، كما أن وجودها يدل على المدى الذى وصلت اليه العلاقات التجارية الافريقية عندما كانت أمورها فى يد أبنائها الأصليين .

وكانت وسائل الزراعة بدائية اذا قورنت بغيرها . فلم تكن المحاريث معروفة بينهم ، كما أن الآلة الزراعية المفضلة لديهم كانت فأسا ذات يد قصيرة تضطر من يستخدمها أن ينحنى جدا حتى ليكاد رأسه يلمس الأرض . وكان من النادر استخدام السماد أو اتباع نظام المحاصيل الدورية وهى المحصولات

التي كانت تد الناس بمقومات الحياة وكانت ذات أثر قوى على نظم الاستقرار . فتطهير الأرض مما فيها من نباتات كان عملا من الأعمال الشاقة جدا في مناطق الغابات التي تسقط فيها الأمطار ، ولكن المحصولات التي كانت تزرع فيها وهي اليام والتارو والموز كانت تجفف التربة ببطء ، وجعلت السكنى الدائمة في نفس المناطق أمرا ممكنا . وفي المناطق الأكثر جفافا ، كان في الامكان زراعة الأرض ستين أو ثلاثا بعد تطهيرها من النبات ثم يتركونها بعد ذلك دون زراعة لعشر أو عشرين سنة . ولا ترجع هذه الدورة فيما يبدو الى استفاد قوة التربة بقدر ما ترجع الى نمو الأعشاب البرية في الأرض المطهرة . ولم يكن في مقدور المزارعين الوطنيين أن يتغلبوا على ذلك ، ووجدوا أن الأسهل لهم أن يهجروا الحقل الى أن تنمو النباتات الكبيرة فتخنق الأعشاب البرية وتقضى عليها . ولهذا السبب كانت القرى تنتقل من أماكنها كل عشرين أو ثلاثين عاما ، فأصبحت ملكية الأرض قليلة الأهمية ، مع الاحتفاظ طبعا بملكية المناطق الكبيرة بوجه عام . وكلما زاد عدد أفراد الجماعة المحلية أصبح لزاما عليها أن تترك مكانها ، كما كان هناك ميل نحو تقسيم القرى الى مجموعات من البيوت المتفرقة عندما تكون هناك سلطة مركزية قوية تجعلهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم .

وحيث ان تطهير أرض جديدة لا يمكن أن يتم على وجه مرض الا بمجهود عدد كبير من الرجال أصبح وجود جماعات تتعاون فيما بينها هي الظاهرة الغالبة في المجتمعات الزراعية . وبالرغم من مساوئ نظام الزراعة المتنقلة ، فقد نشأت مدن كبيرة الحجم في كثير من مناطق غربي افريقيا أصبحت مستقرا للملوك كما أصبحت مراكز دينية وتجارية ، وهي تشبه في ذلك مدن الشرق الأدنى في العصور المبكرة . وقد ساعد على وجودها واستمرارها تقدم التجارة ، الأمر الذي كان يضمن لها امدادها بما يلزمها من مؤونة ومن المواد الخام .

وأقر كل من الجنسين تعدد الزوجات اقرارا تاما . فضلت النساء لأنه كان يرفع عن كاهلهن الكثير من مشقة العمل ، ولكن الرجال كانوا يفضلونه لأسباب أخرى . ففى كثير من القبائل كانت العلاقات الجنسية محرمة على الزوجة ابان فترة ارضاعها لطفلها ، ولما كان ارضاع الطفل يستمر عادة لمدة سنتين أو ثلاث فقد كان الزوج الذى يقتصر على زوجة واحدة يشعر بكثير من الحرمان . وأصبحت مكانة المرأة عالية جدا نظرا لأهميتها الاقتصادية ، فقد راعت القواعد المتبعة بينهم حقوق الزوجات اللاتى يعشن فى كنف رجل واحد . كانت الزوجة الأولى أو الزوجة التى تنتمى الى طبقة اجتماعية عالية ، ترأس النساء ، أى ترأس نصف العائلة ، وتشرف على أوجه النشاط الذى تقوم به النساء مجتمعات . وكان المفروض على الرجل أن يقسم وقته بالعدل والقسطاس بين زوجاته ؛ وذلك بأن يحدد أياما معينة لكل زوجة بالتعاقب بينهن . وخلال الفترة المخصصة لها كان للزوجة حقوق كثيرة على زوجها . وكان لها الحق دائما فى مشاركتها اياه فى أى أرباح يحصل عليها أثناء اقامته معها ، وفى واقع الأمر لم يكن هذا النظام يختلف كثيرا عن نظام الاقتصاد على زوجة واحدة تتبعها أخرى وهكذا . وعلى العموم فان اختيار زوجة جديدة كان يخضع لموافقة الزوجات السابقات ، وكثيرا ما كانت زوجات الرجل يدفعنه للزواج من امرأة معينة يرين أن طباعها تتفق مع طباعهن وتصلح لمساعدتهن فى العمل .

وفى العائلة الحسنة التنظيم ، كانت كل زوجة تركز فترتها مع زوجها للقيام بجميع الأعمال المنزلية مثل الطهى والعناية بالأطفال بدلا من جميع الزوجات الأخريات ، وبذلك تنفرغ الزوجات الأخريات للعمل فى الحقل وفى أوجه النشاط الأخرى مثل البيع فى الأسواق . وبالرغم من أن مثل هذا النظام يبدو غريبا اذا نظرنا اليه من ناحية القيم الأوروبية الا أن الانسان يجد نفسه مضطرا للاعتراف بأنه يقدم حلا من أعظم الحلول التى عرفت حتى الآن

بالنسبة للمشكلة النسائية التي تتمثل في جمع المرأة بين قيامها بالأعمال المنزلية ، وفي الوقت ذاته اشتغالها بعمل آخر .

وكان الزوج من الناحية النظرية هو المهيمن على العائلة ، ولكن الرجل الذي يملك شجاعة فائقة فقط هو الذى يستطيع أن يتحدى زوجاته عندما يتحدثن في جبهة واحدة ضده . وكانت الروابط التي تربط بين الابن وأمه قوية على مدى الأيام ، وكانت العلاقة بين الابن وأبيه أقل ارتباطا . أما بالنسبة للاخوة فلم يكن بينهم كثير من الود ، وخصوصا الاخوة غير الأشقاء .

ونرى في الشعوب المشتغلة بالزراعة عادة الانتساب الى فرع الأم وإلى فرع الأب على السواء . وحتى في المجتمعات التي تسير على نظام الانتساب الى فرع الأب نرى بعض النظم التي توحى بأن هذه المجتمعات كانت في الأصل تسير على نظام الانتساب الى عائلة الأم . وقد وجدت بعض المجتمعات التي تسير على نظام الانتساب الى الأم مشكلة عدم التوافق بينها وبين الإقامة بين قبائل تسير على نظام الانتساب الى الأب حلا لذلك ، وهذا الحل هو ارسال الأبناء الى فرع عشيرة أمهم بعد فطامهم بوقت قصير وهناك يعتنى بهم واحد من اخوتها الحقيقيين أو أحد أقاربها ومع مرور الزمن يكبرون ويتزوجون ويعملون كأفراد في تلك العائلة .

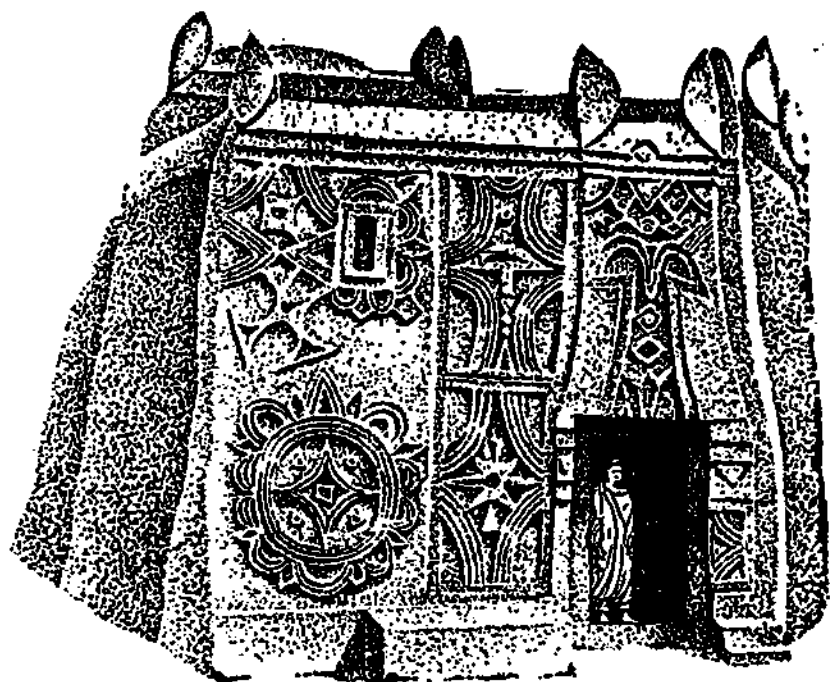
وهناك نظام طريف آخر نجده في بعض الحضارات التي تسير على نظام الانتساب الى كل من سلالة الأم وسلالة الأب في وقت واحد ، والتي كان لكل منها نظمها الاجتماعية والدينية الخاصة بها ، اذ كان كل فرد ينتمى لجماعتين مثل هاتين الجماعتين يحرم زواجه من كليهما . وعلى أى حال فان دراسة نظم الأنساب في المجتمعات الزراعية ، اذا نظرنا اليها نظرة عامة . نرى أن نظام الانتساب الأصلي في المنطقة كان هو الانتساب الى سلالة الأم . وهناك تفسير آخر يمكننا أيضا أن تقدمه وهو أن يكون النظام المبكر لهذه المجموعات المحلية المتصلة بصلة القربى كانت تتبع نفس النظام الذي كان

سائدا في منطقة الأوقيانوسية « أوسيانيا » وهو الذي كان يقضى بالزواج من المجموعة نفسها . وفي مثل هذه المجموعات كانت الأنساب تسير عادة على نظام الانتساب الى كل من الفرعين ، ولكن عندما تتجه مثل هذه المجموعة نحو الزواج من الخارج فانها تتطور وتسير اما على نظام الانتساب الى عائلة الأم أو نظام الانتساب الى عائلة الأب .

وكان المجتمع يسير على نظام طبقي ، وكان مقسما الى ثلاث طبقات : طبقة الزعماء ، وكانت في العادة وراثية ، ثم طبقة العامة ، وتليها طبقة العبيد . وبالرغم من أن نظام الرق قد اتسع وازداد شأنه منذ اتصلت أوروبا بهذه البلاد منذ القرن السابع عشر الى أوائل القرن التاسع عشر ، فليس هناك شك في أنه كان معروفا فيها قبل ذلك . وهناك نوعان من الرقيق : الأعداء الذين وقعوا في الأسر حديثا ، وهؤلاء كان ينظر اليهم على انهم في مرتبة الحيوانات المنزلية ، والأرقاء المنحدرون من عائلات الرقيق التي أمضت وقتا طويلا تحت نظام الرق أو هؤلاء الأفراد من رجال القبائل نفسها الذين استرقوا سدادا لدين أو تكفيرا عن أخطاء بسيطة . وغالبا ما كان الرقيق يتصل بعائلة سادته الأحرار لمدة أجيال ، وكانوا يعتبرون بيع مثل هذا العبد الموروث وصمة في جبين كل من العبد وسيده ؛ لأنه يدل على أن كلا منهما قد فشل في علاقة اجتماعية مشروعة مع صاحبه . وكان في الامكان بيع عبيد الدين والمجرمين الذين أدينوا بسبب جرائم تافهة في داخل القبيلة نفسها ، وكان من المحرم بيعهم خارجها ، وعلى الأقل كانوا لا ينظرون الى مثل هذا العمل نظرة الرضى والقبول . وكانت العلاقة التي تربط بين العبد والسيد تحددها نظم موضوعة منذ أوقات طويلة وتضمن لهم فيما عدا أسرى الحرب درجة معقولة من العدالة وحرية العمل . وكان السادة مسئولين عن عبيدهم ، كما كان العبد الموروث الذي يعمل عند عائلة من العائلات الكبيرة يتمتع بمركز أفضل في كثير من النواحي من المركز الذي كان يتمتع به الرجل الحر الفقير .

وفي داخل المجتمع الطبقي كان لزعماء العشيرة الأصلية والعشيرة الفرعية مكانة هامة . كان مركز الزعامة في العادة وراثيا في عائلة معينة ، وهي أقرب العائلات الى الفرع الأصلي المباشر الذي انحدر منه الجد الأكبر لهذه الجماعة التي ترتبط بروابط القرى . وكان الزعيم يختار من بين أبناء هذه العائلة على أسس مزايده ومقدرته أكثر من ترتيب مولده ، وكانوا يعتقدون أن القوة الروحية للجماعة كلها قد تجسدت فيه ، ولهذا السبب كان مثل هذا الزعيم يلعب دورا هاما في جميع الطقوس الدينية التي من شأنها ضمان رفاهية الجماعة . أما في الشئون الدنيوية فقد كان هو الموجه والمشرف على جميع أعمال المجموعة ، كما كان يقوم بالفصل فيما ينشأ بين أفرادها من منازعات . وكان لكل مجتمع من المجتمعات التي تسير على نظام الاقتصاد القائم على الزراعة مجموعة قوانين على درجة كبيرة من التقدم ، كما كان لها نظم مرعية وأساليب قضائية . كانت القوانين تحفظ بدقة وكان للسابقات القانونية أثر هام عند نظر القضايا ، وكانوا يدعون الشهود ليؤدوا الشهادة بعد أن يحلفوا اليمين ، كما كان لكل من الجانبين الحق في أن يوكل من يتولى شرح موضوعه . وباختصار ، كان النظام كله يشبه النظام الأوروبي تماما . وكانوا يلجأون ، كما كان الحال في أوروبا في العصور الوسطى ، الى المحاكمة عن طريق التحكيم الالهي ، والتعذيب في القضايا التي تكون الأدلة فيها متضاربة بحيث يصعب على القاضي أن يصل فيها الى قرار ، أو في المحاكمات التي تعقد للفصل في القضايا الخاصة بالسحر حيث يصعب جدا اثبات مثل هذه القضايا بالطرق القانونية المعتادة . وكانت تجربة براءة المتهم أو ادائته بطريقة الحكم بتناول السم من الأمور العادية بينهم ، ولكن الكمية التي كانت تعطى للمتهم لم تكن كافية للقضاء عليه .

وكان للدين في المجتمعات الزراعية أهمية تزيد كثيرا عن أهميته في المجتمعات التي تعيش على صناعة الألبان . كان أهل الزراعة يعتقدون أن



بيت مشيد بالطين - نيجيريا

أسلافهم موجودين معهم في كل وقت ، وأنهم لا يساعدون المنحدرين من أصلابهم فحسب ، ولكنهم أيضا يقتصون منهم اذا ما اقترفوا أية أخطاء أخلاقية . وكانوا ينظرون الى السلف من الذكور خاصة بنفوس ملؤها الخوف أكثر من الحب . وما يجدر ذكره أنه في كثير من المناطق التي اعتنق فيها بعض أفراد القبائل الدين المسيحي وما استتبع ذلك من القضاء على ذلك السجن الذي كان يضمهم فيه أولئك الحراس غير المنظورين الذين كانوا يسهرون على جعل أبناء القبائل في وضعهم القديم ، نرى أن النتيجة هي انهيار واضح للمعتقدات الوطنية . وإلى جانب الأسلاف كان هناك أيضا عدد من الآلهة ينظمون في العادة على غرار العائلات البشرية . كان أولئك الآلهة ذوي صلة بقوى الطبيعة ، أما الذين كانوا يتمتعون بمراكز كبيرة من بينهم فقد كان لهم رسل ذوو قوى فوق القوى الطبيعية ، وخدم يعملون كوسطاء بين الآلهة وبين

البشر . وغالبا ما كان الناس يسعون بجهد لاكتساب رضا هؤلاء الخدم أكثر مما كانوا يفعلون بالنسبة لسادتهم الآلهة الكبار . وقد بلغت هذه المعتقدات ، كما هو المتوقع ، أوج تطورها في الممالك العظيمة اذ انها كانت بالنسبة للقوى العادى لا تزيد عن مجرد أسماء مقدسة وكائنات تدور حولها أساطير شائقة ، ولكن لم تكن لهم بها صلات كبيرة .

وبصرف النظر عن أرواح الأسلاف التى كانت دائما تحيط بهم ، فإن اهتمام القرية كان مركزا في الفتيش الخاص بها ، وكان المظيب للقرية هو الذى يقوم بعمله عندما يبنون القرية ، وكان ينتقل مع القرية الى أى مكان تذهب اليه . وكانوا يحتفظون عادة بهذه الفتيشات داخل منزل فى داخل القرية أو فى خارجها ، حتى تضمن للجماعة دوام الصحة وحسن الحظ . وكان عليهم أن يسترضوها وذلك بتقديم القرابين ومعاملتها بإله من الآلهة . وبجانب الفتيش الرئيسى للقرية كان للجماعة عادة فتيشات أخرى لتساعدهم فى بعض وجوه نشاطهم مثل صيد الحيوانات ، وصيد الأسماك ، والزراعة ، وكانوا يزدون من قوة كل منها باقامة الحفلات وتقديم القرابين فى أوقات معينة . وأخيرا ، كان فى حوزة كل فرد فتيشات شخصية يلبس بعضها ويترك البعض الآخر فى منزله ، وكان يعتقد أن بعضها يجلب الحظ الحسن بوجه عام ، والبعض الآخر للمساعدة فى بعض أوجه النشاط الخاصة مثل الصيد والحصول على المال .

وأخيرا ، يجدر بنا أن نذكر شيئا عن الجماعات السرية التى كانت منتشرة بين قبائل المزارعين . ولكن مما يثير العجب حقا أن جماعات صانعى الألبان لم يقبلوا ، فيما يبدو ، على مثل هذه الجماعات على الإطلاق . وأصل هذه الجماعات غامض ، ويرى البعض أنها قد نشأت تقليدا لنظام المرابطين بين سكان شمال افريقيا المسلمين ، كما يحتمل أيضا انها قد تطورت كنتيجة لنظام تنوير المراهقين بتفهمهم بعض الأسرار وهو النظام المنتشر على نطاق واسع

بين سكان تلك المناطق . وعلى أى حال فإن هذه الجمعيات السرية من أبرز الظواهر التى ميزت حضارات افريقيا الزراعية . كانت هذه الجمعيات بمثابة جمعيات دينية فى بعض نواحي نشاطها ، ولكنها كانت فى نفس الوقت منظمات للمساعدة المتبادلة ، وللسيطرة الاجتماعية ، ولابتزاز الأموال فى بعض الأحيان . كان لكل جمعية أقمعتها الخاصة ، وملابسها المميزة التى ترتديها فى الحفلات العامة التى كانت تقيسها بين حين وآخر . وكان المفروض أن النساء والأطفال والرجال الذين ليسوا أعضاء فى الجمعية يجب أن يؤمنوا بأن هؤلاء الرافضين المقنعين انما هم كائنات لها قوى فوق قوة الطبيعة ، وكانوا يقتلون أى شخص يكشف شخصياتهم الحقيقية . وكان لكل جمعية علامات يتعارف بها أفرادها ، كما كانت لهم كلمات سر خاصة ، وكان أعضاؤها يتعاهدون على المساعدة المتبادلة كما هو الحال عند الماسونيين الأحرار .

وأصبحت هذه الجمعيات عاملا من العوامل فى توحيد القوى فى مناطق تنقصها الوحدات الكبيرة السياسية ، كما مكنت أعضائها من السفر خارج أراضيهم وهم مطمئنون . وحيثا كانت السلطة السياسية قوية كان رجال الحكم ينظرون اليهم نظرة كراهية بطبيعة الحال ، وفى داهومى صدر الأمر بمنع مثل هذه الجمعيات والتهديد بقتل كل من ينتمى إليها . واختلف نشاطهم باختلاف المناطق ، ولكن تنفيذ ما فيه خير الجماعة كان دائما من أهم أهدافهم . وكانت الزوجات اللاتى يتكبرن ويخرجن على طاعة أزواجهن ، أو اللاتى ينحرفن عن الطريق السوى ، عرضة للعذاب المبرح بل والقتل أحيانا ، يقوم به رجال مقنعون من أعضاء الجمعية . وان الشبه بين الكلوكلوكس كلان وبين جمعيات غربى افريقيا شبه كبير ، وهو أكثر من أن يكون مجرد مصادفة . وبجانب هذه المنظمات السرية التى يقرها المجتمع ، كانت هناك منظمات يتجه نشاطها لغير صالح المجتمع . فإذا ضربنا الصفع عن جمعيات السحرة التى سبقت الإشارة إليها وشككتنا فى عدم وجودها ، فقد كانت هناك جمعية الفهد الذى كان أفرادها يقتلون الناس ، ويأكلون لحومهم كجزء مما يقومون به من السحر الأسود .

الفصل الجادى والإثلاثون

الحضارات الأفريقية

لا يدرك الا القليل من الناس مدى ما وصلت اليه حضارات كثير من المجتمعات الافريقية من غنى وتقدم فى الوقت الذى اتصل بهم الأوروبيون لأول مرة . ففى المناطق التى جاء منها معظم أسلاف الزوج الأمريكين كان هناك عدد غير قليل من الممالك العظيمة التى تستحق أن يطلق عليها بحق اسم مدنيات فى جميع النواحي ، ما عدا معرفة القراءة والكتابة . ولم يقلوا مطلقا عن أوروبى العصور الوسطى فى الفنون والحرف ، أما من ناحية استكمال تنظيمهم السياسى ، والمهارة التى كانوا يظهرونها فى ادارة منظماتهم الاجتماعية، وتوجيهها لتوطيد نظامهم السياسى ، فانهم كانوا أكثر تقدما من أى بلد فى أوروبا قبل القرن السادس عشر . ولن نكون مبالغين اذا قلنا ان الزوج الافريقين قد أظهروا عبقرية فى بناء الدولة فى موطنهم لا يمكن أن يجاريهم فيها شعب آخر باستثناء شعب الانكا الذى كان يستوطن بيرو فى أمريكا الجنوبية .

ومن المعروف أن كل مدنية تضم الى نفسها عناصر حضارية من مصادر متعددة ، ولا يستثنى من ذلك المدنيات الافريقية الزنجية . فالصلات بينها وبين مدنيات مصر وساحل البحر الأبيض المتوسط قد قامت منذ أقدم العصور . ونعرف أيضا أن مصر اتجرت مع القبائل الزنجية فى أعلى النيل منذ عام ٣٠٠٠ ق.م على الأقل^(١) . وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٠—١٢٠٠ ق.م)

(١) رقم ٢٥٠٠ ق ٠ م أقرب الى الصواب .

فتح المصريون بلاد النوبة واحتلوها ، وأقاموا لهم نائبا للملك في ربوعها .
ويبدو أن المدينة المصرية قد هالت النوبيين فتقبلوها بحماسة ، بل وأصبحوا
عبادا مخلصين للاله آمون رع المصرى فتوثقت بذلك العلاقة بين مدينة طيبة
المقدسة وبين ناباتا عاصمة النوبيين . وعندما استقر شاشانق وأتباعه من
الليبيين في بلاد مصر هرب كثير من كهنة طيبة الى ناباتا وزادوا من عملية نشر
الحضارة هناك . وفي عام ٧٣٠ ق . م غزا النوبيون مصر ذاتها ولكنهم في ذلك
الوقت كانوا قد أصبحوا مصريين أكثر من المصريين أنفسهم . وحاولوا إبان
الفترة القصيرة التى مكثوها فى الحكم أن يحيوا بعض الطقوس الدينية التى
كانت تلفظ ألقاسها الأخيرة حتى فى هذه البلاد التى لم تكن تحب التغيير ،
كما رحبوا أيضا باللاجئين المصريين الذين هاجروا اليهم فى السنين الأخيرة
من حكم الأشوريين والفرس . واحتفظت بلاد النوبة باستقلالها فى أيام البطالة
والرومان واستطاعت أن تخلق لنفسها حضارة مستقلة خلال الستة القرون
الأولى بعد مولد المسيح اتحدت فيها العناصر المصرية والاعريقية والرومانية ،
ولكن مع شئ كثير من الابتكار . وفى القرن السادس الميلادى اعتنق النوبيون
الدين المسيحى ، واستطاعوا أن يصدوا هجمات المسلمين المتعاقبة حتى منتصف
القرن الرابع عشر عندما سقطت مملكة دقلة المسيحية فى يد الفونج ، وهم
زنوج مستعربون كانوا فى الأصل يسكنون منطقة النيل الأزرق ، ومنذ ذلك
الوقت شاركت بلاد النوبة فى المدينة الاسلامية .

من ذلك نرى أنه كانت هناك فرص كثيرة سانحة أمام المؤثرات المصرية
ومؤثرات بلاد الشرق الأدنى الأخرى ، والمؤثرات اليونانية والرومانية ، لتصل
الى افريقيا الزنجية عن طريق شرق السودان ، ولكن يصعب علينا أن نعرف
الى أى مدى اشتركت هذه المؤثرات فى تأسيس الحضارات الزنجية الواقعة
الى الجنوب والى الغرب ، فذلك أمر يضرب تحديدده . ويتوقع الانسان أن
يجد أقدم العناصر الحضارية التى استعاروها ، وهى التى من أصل مصرى ،

لا تزال قائمة حول أطراف المنطقة التي انتشرت فيها قديما . وقد وجدت بالفعل عناصر في بعض الحضارات الزنجية المتقدمة تذكرنا بأشياء في الحضارة المصرية القديمة ، فالفكرة ذات الانتشار الواسع الخاصة بالوهية الملك الذى يعتمد رخاء البلاد وسعادتها على قوته ، دليل على ذلك . كما أن وجود عادة زواج الملك من أخته وهى العادة التى كانت منتشرة فى كثير من ممالك وسط افريقيا تدل أيضا دلالة قوية على تلك الصلة .

وطبقا لهذا النظام كانت على الملكة واجبات ، ولها امتيازات ، ولها أيضا مركز وثروة تشبه ما كان للملك لأنها تعتبر دائما أختا له . وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن مصر أن الملكة كانت فى الوقت ذاته أختا وزوجة وهى نفس العادة التى كانت متبعة فى القبيلة الأوغندية « باهيا » ، كما تشبه الديانة فى قبيلتي « اليوروبا » و « الأشاتى » بما فيهما من نظام كهنوتى متقن وآلهة متعددة يعبد كل منها على حدة ، وحيوانات مقدسة ما كان فى ديانة مصر . كما اعتقد الاشاتى أيضا فى وجود قرين روحانى كان يزور القبر بعد الموت ، وكانوا يقدمون له القرابين تماما كما كان يفعل المصريون الذين كانوا يعدون قبورهم من أجل راحة ال « كا » . ومما يزيدنا ايمانا بوجود هذه الصلة القديمة أن الاشاتى يطلقون على هذا القرين للروح اسم « كرا » ولكن هذه الأشياء التى ذكرناها وغيرها من العناصر الأخرى التى توحى بأثر مصر نراها موزعة توزيعا غير منتظم ولهذا يصعب علينا تفسيرها على أساس انتشار التأثير المصرى . ويبدو من الأرجح أن وجودها فى كل من مصر وافريقيا الزنجية كان نتيجة لتطور مستقل فى كل منهما بعد أن تفرعا من أصل واحد ، من حضارة حامية قديمة . ونحن نعلم أن القبائل الحامية لم تستقر فى وادى النيل فحسب ، ولكنها استقرت أيضا فى معظم الصحراء الكبرى عندما كان المناخ فى هذه المنطقة خيرا مما هو عليه الآن . وتشير كل الدلائل الى أن الحاميين ، وهم من أصل قوقازى ، أخذوا يتسربون الى الشعوب الزنجية التى

في الجنوب منذ العصور النيوليتية ، ان لم يكن قبل هذا التاريخ . وقد بقى منهم حتى الآن البربر ، وهم من سلالة سكان الصحراء الكبرى الحاميين في العصور التاريخية . وقد ساعد اعتناقهم للدين الاسلامي على جعل توغلم في الجنوب شيئا شبيها بالحملات الصليبية ، اذ كان هذا التوغل على نطاق واسع ، ولكنه لم يكن شيئا جديدا بالنسبة اليهم بل كان استمرارا لما كان يحدث منذ وقت طويل .

ولم يحل القرن التاسع الميلادي حتى كان البربر بعد أن دخل عليهم القليل من الدم العربي قد أنشأوا عددا من الممالك في كل أنحاء السودان الغربي ، كان أكثرها أهمية « سونجهاى » و « غانا » في منطقة نهر النيجر ، وفي القرن الرابع عشر الميلادي أخضعت مملكة ماندنيجو كل أنحاء السودان الغربي . وامتزج الدم البربرى بالدم الزنجى امتزاجا كبيرا . وكانت الغالية العظمى من الأسرات الحاكمة في هذه الممالك السودانية من الزنوج ومع ذلك فانهم كانوا في أعماق نفوسهم يؤمنون بالحضارة الاسلامية ، كما كان تنظيمهم السياسى يسير على النمط الاسلامى . وقد ذهب الكثيرون الى القول بأن الممالك الزنجية الوثنية التى قامت في المناطق الأبعد من ذلك في ناحية الجنوب ، قد أخذت حضاراتها من تلك التى كانت في السودان ، ولكن الواقع هو أن كيان الممالك الوثنية يختلف تماما عن النظم الاسلامية لدرجة أنه لا يمكن أن تتصور أن يكون هناك أى تأثير عليهم غير ذلك الحافز نحو التقدم الذى يصاحب وصول مؤثرات من حضارات أخرى . وقد تفوق الوثنيون على الشعوب الاسلامية في تنظيمهم السياسى المتشابك ، وفي المهارة التى أظهروها في الاستفادة من النظم التى كانت سائدة بينهم لتقوية السلطة الملكية .

ولنأخذ مملكة أوغندة (حضارة شعوب الباجاندا) . ومملكة داهومى كمثليين لهذه الممالك الوثنية . فأولاهما تقع في الطرف الشرقى من حدود الممالك

الوثنية ، ولم يصل اليها الا الشيء الضئيل من النفوذ الاسلامى . أما مملكة داهومى فهى تقع فى الطرف الغربى من خط الحدود ، وقد نشأت بعد أوغنده بوقت طويل . وكانت فى هذه المنطقة ممالك كثيرة لها علاقات كثيرة مع الممالك الاسلامية الواقعة حول النيجر ، كما كانت للمنطقة الساحلية الافريقية علاقات حضارية هى الأخرى . وبالرغم من أن رحلة « هانو » (Hanno) القرطاجنى هى الرحلة الوحيدة التى وصلت إلينا أخبارها^(١) ، فما من شك من أنه كانت هناك رحلات أخرى غير رسمية حدثت قبل تلك الرحلة وبعدها بقصد استعمار تلك البلاد ، فإن الذهب والعاج اللذين كان يكتظ بهما الساحل الغربى واللذين تركا اسميهما فى قسمين سياسيين من أقسام المنطقة ، كانا اغراء قويا للقرطاجنيين المغرورين بمهارتهم وشجاعتهم فى البحث وراء الكسب . كانت داهومى فى المنطقة التى استقبلت الاتصالات الأولى للتوغل الأوروبى الحديث ، وبالرغم من أنه يصعب علينا أن نحدد مدى تأثير هذه الاتصالات الجديدة على النظم القائمة هناك ، فما من شك فى أنها غيرت الاقتصاد الوطنى ، وقلت الاهتمام من الانتاج الزراعى العادى الى الاتجار فى الرقيق ، واشغال الحروب جريا وراء المنفعة .

أما أوغنده فانها تقع فى شمال غربى بحيرة فكتوريا ولها خط ساحلى طويل تحميه جزر بعيدة عن الشاطئ ، مما جعل حركة الاتجار على طول الساحل أمرا سهلا . وبالرغم من أن « الباجندا » لم يصلوا الى معرفة استخدام الشراع أو أى سفن غير القوارب الكبيرة التى كانت تصنع من الألواح الخشبية فإن المستوى العالى الذى وصل اليه تطورهم التكنولوجى قد انعكس فى اتقان

(١) كان « هانو » ملاحا فينيقيا عاش حوالى عام ٥٠٠ ق . م . وكتب وصفا لرحلة قام بها لاستكشاف شاطئ أفريقيا الغربى تمهيدا لتأسيس مستعمرات تجارية فيها . وقد وصل هانو فى رحلته الى ما بعد « سيرا ليون » ، اذ أنه زار رأس پالماس .

صناعة هذه القوارب التي استخدموها في الحملات الحربية التي كانوا يشنونها على القبائل المجاورة ، كما أن قائد أسطول القوارب كان يعتبر من الموظفين المهمين . وإذا ما أردنا أن ندخل في بعض التفاصيل لرأينا أن الصيد كان المصدر الرئيسي للحصول على الطعام الذي يحتوى على المواد البروتينية ؛ اذ كانوا يجففون الأسماك ويوزعونها عن طريق التجارة في كل أنحاء المملكة . وطبقا لما ذكرته المصادر الوطنية فإن تنظيم مملكة باجندا حدث على يدى شعب حامى من صانمى الاپان غزا المنطقة منذ حوالى خمسمائة سنة مضت ، وأسس الأسرة التي ما تزال تربع على كرسى الحكم . وفي الوقت الذي اتصل بهم الأوروبيون كان هؤلاء الغزاة قد انصهروا في بوتقة الوطنيين من الناحيتين الجسمانية والحضارية ، كما كان للزواج المستمر بين الغزاة وأبناء البلاد أثره في طبع كل من الأسرة المالكة والعامة بطابع واحد وهو الطابع المتزنج . ومن الناحية الاقتصادية ، كانت الطبقات كلها تعتمد اعتمادا أساسيا على الزراعة ، وكان لديهم أيضا بعض الماشية ولكنها كانت تعتبر بصفة عامة نوعا من أنواع الترف . وكانت الماعز هي الحيوان المنزلى الشائع ، أما الرجل العادى المحظوظ الذى يملك بعض الماشية فانه كان يتركها لترعى مع قطع الزعيم ، وذلك لأن رعى الماشية كانت تتولاه جماعة خاصة تسمى « هيمى Hima » يتوارث أفرادها هذا العمل . ولم تكن الجماعات الأخرى تضمهم في مركز اجتماعى ذى قيمة .

وكانت هناك أنواع مختلفة من المحصولات ولكن المصادر الرئيسية للطعام هي الموز المعتاد ونوع آخر كان من النادر أن يؤكل فجاء ، اذ كانوا يفضلون غليه في الماء ثم يهرسونه حتى يصبح عجينة . وعجينة الموز هي العنصر الأساسى في الوجبة الوطنية ، وتشبه في ذلك وجبة الرز في بلاد الشرق الأقصى . وبالرغم من أن هناك أنواعا أخرى من الطعام ، الا أنهم كانوا ينظرون اليها على أنها أشياء عرضية وتستهنى فقط من أجل طعمها ، وللتنوع الذى تضيفه على

الوجبة . ومما يجدر ذكره انهم لم يستخدموا ألبان كل من الماشية والماعز الا قليلا . وبالإضافة الى أنواع المحاصيل المختلفة كانوا يزرعون نوعا من أنواع التين تدمهم قشوره بما يلزم لهم من الثياب المصنوعة من قشور الشجر وهى ثيابهم التى يرتدونها كملابس وطنية .

وكان للزراعة بين قبائل الباجندا آثارها الهامة فى نظمهم فى الانتاج وفى المساكن وفى التنظيم الاجتماعى . فمنذ أن تزرع شجرة الموز تستمر فى انتاج شجيرات أخرى منها ويستمر الجميع فى انتاج محاصيل جديدة قد تستمر لخمس وعشرين أو ثلاثين عاما ، مما ساعد على استقرار الإقامة فى أماكن ثابتة . زد على ذلك ، أن المحصول كان من الوفرة بحيث يستطيع أن يقيم أود عدد كبير من السكان وذلك بالرغم من أن النساء كن هن اللاتى يقمن بأعباء الزراعة كلها ، وقد قيل بأنه كان فى مقدور المرأة الواحدة أن تتولى العناية بعدد من أشجار الموز يكفى لإطعام أربعة رجال . ولكن فى الوقت ذاته كانت نسبة الموت بين الذكور كبيرة بسبب الحروب ، والقرايين البشرية التى تتطلبها المناسبات المختلفة حتى أصبح عدد النساء بالنسبة لعدد الرجال بين السكان ثلاثة الى واحد ، وقد ترتب على ذلك وجود مجتمع فيه متسع وفائض من الوقت والجهود مع الامكانيات اللازمة للتقدم فى الصناعات وإتقانها ، ووجود الطقوس الدينية المعقدة .

وكانت التكنولوجيا فى جوهرها هى نفس التكنولوجيا التى وصفناها آنفا فى كلامنا العام عن القبائل الزراعية . ولكن قبائل الباجندا كانت تختلف عن معظم الشعوب الافريقية لاصرارها على تغطية الجسم كله بالملابس . وبالرغم من أن الأولاد قبل بلوغهم سن المراهقة كانوا يسيرون وهم عرايا ، وكانت البنات يرتدين ثبة أو مئزرا تبدل من شرايح متناثرة من أوراق الموز ، فانهن بعد بلوغ سن المراهقة كن يرتدين ثيابا تلف أجسادهن وتغطيها من الابطين حتى القدمين . أما الرجال فقد كانوا يرتدون ملابس أكثر من النساء

تكون من منزر يلفونه حول الوسط ، ثم قميص طويل ، وفوق ذلك ثوب يشبه العباءة . وكانت كل هذه الملابس تصنع في الأصل من قشور الشجر وكانت صناعتها هي أهم الصناعات التي يقوم بها الرجال .

وكان المزارعون يفضلون العيش في مساكن رحة فنيحة على أن يعيشوا في القرى . وكان كل مسكن منها تحيط به مزارع الموز وقيمون حول كل من المسكن وزراعة الموز سياجا يضمهما وكانت المنازل دائرية ومخروطية الشكل ومغطاة بالقش . وكان مدخل البيت يحويه رواق صغير أو مظلة فوق أعمدة وقد اتبعوا ذلك في منازل الزعماء بل وفي مقر الملك نفسه ، ولم تختلف هذه المنازل الكبيرة عن منازل غيرهم الا باتساع رقعتها وكبر حجمها وكثرة عدد المقيمين فيها . فمثلا كان المقر الملكي المشيد فوق أحد التلال بالقرب من بحيرة فكتوريا ميلا ونصف ميل في الطول ، وميلا في العرض ، وبين المسكن الذي كان يقطنه الملك وبين المدخل الرئيسى كانت توجد مساكن المئات من الموظفين والحرس والعبيد ، بينما رصت مقرات الزعماء العظماء على الطريق خارج أسوار المقر الملكي .

ومن بين الظواهر غير العادية التي امتازت بها مملكة باجندا ، والتي ساعدت دون شك على قيام الحكومة المركزية بأداء عملها بنجاح ، تلك الشبكة الفخمة من الطرق الجميلة . كان اتساع كل منها عادة نحو أربعة أمتار ، وكان سطحها صلبا كما كانوا ينشئون جسورا تخترق المستنقعات . وكان زعيم كل مقاطعة يقوم ، كواجب من واجباته ، بالمحافظة على الطريق الذي يمتد من مقر الملك الى مقره ، في حين كان على كل نبيل في أى مقاطعة أن يحافظ على الطريق الذي يربط بين مقره وبين مقر زعيم تلك المقاطعة . وقد ساعد وجود هذه الشبكة من الطرق على تحركات الجنود ، وفي تبادل البضائع المصنوعة اذ كان لديهم أسواق عديدة كان يجلب اليها الصانع المحترفون ، والفلاحون المحليون ما لديهم من منتجات . وكانت الأسواق في

العادة تعقد في أيام مختلفة من الأسبوع وفي مناطق يمكن أن يقطع الإنسان المسافة بين كل اثنين منها مشيا على الأقدام ، ولهذا كان في استطاعة الباعة المتجولين أن يحزموا بضائعهم بعد فض أحد الأسواق ويسيروا بها الى سوق آخر . وكان يقوم بالاشراف على كل سوق موظف مسئول يقوم بالمحافظة على النظام ومعاقبة الذين يفشون في التعامل ، وكانت الحكومة تحصل ضريبة قدرها عشرة في المائة على المبيعات .

وكان التنظيم الاجتماعي والسياسي عند الباجندا صورة من تقاليدهم في نشأة الدولة . فلم يكن هناك غير ثلاث طبقات يسود في كل منها النظام الوراثي وهي طبقة العبيد وطبقة العامة ثم أعضاء العائلة المالكة . وحيث ان تعدد الزوجات كان هو القاعدة المتبعة ، فقد كان المتوقع من الملوك أن يكون لديهم عدد من الزوجات أكثر مما لدى أى فرد من رعاياهم ، كمنظر من مظاهر هيبتهم ، ولهذا السبب كان عدد أفراد الجماعة الملكية كبيرا جدا . ومع ذلك فلكي يحولوا دون قيام الحروب الأهلية كان معظم اخوة الملك الحاكم يقتلون عندما يعتلى العرش ، وأن يقتلوا أيضا أى واحدة من بناته اذا تزوجت أو ولدت طفلا ، ولهذا السبب كان يحدث قصص في الجماعة الملكية في كل جيل . ويلى أعضاء الجماعة المالكة التي كان يحرم على أفرادها أن يشغلوا مناصب ادارية ، عدد من الموظفين الذين يعملون في ادارة البلاد . وبين هذه المجموعة من الموظفين وبين النبلاء الاقطاعيين في أوروبا بعض وجوه شبه سطحية . وعلى أى حال ، فقد كانوا يعينون جميعا بأمر الملك ويدينون بالولاء له مباشرة . وحيث ان كل تعيين في الوظيفة كان ينتهى آليا بوفاة الملك ، وأن كل رجل هر كان يعتبر صالحا لتولى مثل هذا المنصب فان هؤلاء الموظفين الاداريين لم يكونوا في يوم من الأيام طبقة يرث فيها الأبناء وظائف آبائهم .

وكان العبيد في الغالب من أسرى الحرب أو من سلالة هؤلاء الأسرى ، ولكن كان هناك أيضا رقيق من الباجنديين أنفسهم وهم الأطفال الذين كان

يرهنهم آباؤهم كضمان لسداد دين ، والذين كانوا يعتبرون عملهم في خدمة الدائن كفائدة للقرض . كان الرقيق يعاملون عموما معاملة حسنة ، وكانوا يتخذون النساء الرقيات كمحظيات وكانت الواحدة منهن تصبح حرة متى ولدت طفلا من سيدها . أما بالنسبة للرجال من الرقيق فان أكبر ضرر كانوا يتعرضون له هو صلاحيتهم لأن يقدموا كقرايين بشرية وهو ما كانت تتطلبه طقوس كثيرة في ديانة الباجندا .

وكان العامة ينتظمون أصلا في ست وثلاثين عشيرة تنتسب كلها الى فرع الأب وتزوج من خارج القبيلة . ولكن عندما اتصل بهم الأوروبيون لأول مرة كانت ست من هذه العشائر قد فقدت شخصيتها عن طريق الامتزاج مع العشائر الأخرى . وكان لكل عشيرة زعيم يختاره مجلس شيوخ العشيرة ، وعندما يتبوا مركزه كانوا يطلقون عليه اسم مؤسس العشيرة الأول ، اذ كانوا يعتقدون أن ذلك المؤسس قد تجسد فيه . وكان لكل عشيرة طوطمان ، كانا من الحيوانات في العادة ، وكانوا يطلقون على عشيرتهم اسم الطوطم الأكثر أهمية . وكان محرما على أعضاء العشيرة أن يذبخوا أو أن يستخدموا هذا الطوطم ، ولكنهم لا يعترضون اذا قام أحد أفراد العشائر الأخرى بمثل هذا العمل . وكانت العشيرة تنقسم الى عدد من العشائر الفرعية . وكانت الظاهرة الرئيسية التي تميز منطقة كل عشيرة فرعية هي الجبانة التي يدفن فيها أفرادها . وبعد أن تستخدم هذه الجبانة مدة ثلاثة أجيال متعاقبة تصبح هي والمزارع التي تحيط بها ملكا لأعضاء العشيرة الفرعية لا ينازعها فيها أحد ، ولا يستطيع الملك أن يأخذها منهم ، وكان لكل عشيرة فرعية زعيمها وفي أغلب الحالات معبد يعبد فيه مؤسسها أو أحد آلهتها .

وتنظيم العشائر والعشائر الفرعية المحلية أقدم كثيرا من دولة الباجندا . وقد فرض الغزاة الحاميون عليهم النظام الإداري للدولة ولكنهم حرصوا على ابقاء كل منهما منفصلا عن الآخر . وكان زعماء العشيرة والعشيرة الفرعية

ممنوعين من الاشتراك في الحكومة الوطنية ، وكان من النادر أن يعين الموظفون ليحكموا قوما من عشائريهم . وفي نفس الوقت فإن حق العشائر المختلفة في شغل بعض الوظائف التي تضي الشرف على أصحابها كان داعية لجعل ولاء العشيرة سببا في ربط أفراد الرعية بالحكومة المركزية . ولنضرب بعض أمثلة قليلة . كان منصب حارس المقابر الملكية وراثيا في عشيرة « القرد » وكان حارس الملك يختار من عشيرة الفار ، أما الرجال الذين كانوا يحملون الملك على أكتافهم أينما ذهب خارج مقره فانهم كانوا يجندون من عشيرة « الجاموسة » . وحراس البوابة الملكية كانوا من عشيرة « عش الغراب » ، وقارعو الطبول الملكية من عشيرة « فرس النهر » وكانت زوجته من عشيرة « كلب البحر » هي التي تعد فراشه . وكان على كل عشيرة أن ترسل زوجات منها للملك ، كما كانت ترسل جماعات من الأولاد والبنات من وقت لآخر من العشائر المختلفة للخدمة في المقرات الملكية وفي منازل كبار الموظفين .

وكان كيان الدولة كله يدور حول الملك الذي كانت أعماله المكلف بالقيام بها دينية وسياسية في الوقت ذاته . ويلى الملك مباشرة موظفان هما ال « كاتيكرو » أو الوزير الأول ، وال « كيمبوجوى » أو حامل جبل سرّة الملك . ويقوم الأول بإدارة شئون المملكة ، ويقوم الثانى بالإشراف على الهياكل الوطنية . وبذلك تطابق وظائفهما الناحيتين الرئيسيتين في واجبات المنصب الملكى . وكانت المملكة كلها مقسمة الى عشر مقاطعات ، يرأس كلا منها موظف كبير يسمى « باسازا » أو المحاكم ، وكان عليه أن يطبق العدل ويحافظ على النظام ويشرف على الأشغال العامة ، كما كان عليه أن يقدم فرقة من الجنود وقت الحرب ، وأن يحافظ على سلامة بنايات معينة في المقر الملكى ويقوم بترميمها عند الحاجة ، كما كان عليه أيضا أن يمد المقر الملكى بالمال كل بواقع شهر كل عشرة أشهر ، وكان على كل حاكم من حكام الأقاليم واجبات أخرى خاصة . فقد كان على « باسازا » مقاطعة « كايا داندو » وهى

المقاطعة التى يقع فيها المقر الملكى ، كان عليه أن ينوب عن الملك فى المناسبات المختلفة فى الأوقات التى يكون فيها الملك فى عزلة ، وكانت هذه الاعتراضات كثيرة نظرا لطبيعة الملك المقدسة . وكان باسازا مقاطعة « بوسوجو » تحتل مركزا عظيم الأهمية لأنه كان يتكفل بأبناء الملك الذين كان يتحتم عليهم الإقامة فى مقاطعته ، كما كان يلعب دورا رئيسيا فى اختيار الملك الجديد . وكان باسازا مقاطعة « بوسيدا » هو أمين المقابر الملكية وكان منصبه هو المنصب الوراثى الوحيد فى عائلة معينة . وكانت أوامر تعيين « الباسازات » تنتهى بموت الملك وذلك بالرغم من أنه كان من الممكن أن يعاد تعيينه . وعلى أى حال فكان يتحتم أن يخلفه عضو آخر من نفس العشيرة . وكان لكل باسازا مقر فى العاصمة ومقر آخر فى المقاطعة التى يحكمها ، وكان يشرف على كل مقر وكيل عنه يمثل الحاكم فى غيابه . ويلى الباسازا ستة موظفين من صفار النبلاء يتدرجون فى أهميتهم وكانوا يحكمون المراكز الفرعية فى المقاطعات . كان هؤلاء الستة يعينون بوساطة الملك بعد استشارة « الحاكم » ولكنهم كانوا مسئولين أمام الملك وحده ، وكانوا مثل الباسازا يملكون مقرات فى العاصمة ، كما كان يتوقع من كل الموظفين أن يمضوا أوقاتا كثيرة هناك . وكان النبلاء جميعا من كل الطبقات يكونون المجلس الأعظم للسلكة الذى يكاد يكون فى حالة انعقاد دائم .

كان تطبيق العدالة من أهم المسئوليات الملقاة على عاتق جميع الموظفين باستثناء موظفى القصر . هذا ، وكان الانتقام الشخصى محرما تحريما تاما اللهم الا فى الفترات التى كانت تفصل بين موت الملك واعتلاء ملك آخر على العرش ، اذ كانت الفوضى تسود فى مثل هذه الفترة . وكانت هناك مجموعة قوانين ، وكانت تعدل من وقت الى آخر بقرار من الملك . وكان النبلاء فى كل طبقة يعملون قضاة يحكمون بين الناس فى مقاطعاتهم الخاصة ، وكان فى الامكان استئناف الأحكام من المحاكم الابتدائية الى المحاكم العليا حتى تصل

القضية الى الملك نفسه . وفي حالة المنازعات كان يفرض على كل من المدعى والمدعى عليه أن يدفع مبلغا متساويا يضيع على من يخسر القضية ، وهو اجراء مفيد حتى لا يشجعوا المنازعات غير الضرورية . وكانوا يلجأون الى التحكيم الالهى عن طريق التعذيب عندما تكون الأدلة غير قاطعة . وكانوا يستخدمون التعذيب لاتزاع الاعترافات ، وكان من الجائز أن يحتفظوا بالمشتبه فيهم فى أماكن للحجز انتظارا للمحاكمة ، ولكن لم تكن هناك أماكن خاصة لتنفيذ الأحكام التى تصدر بالسجن . وكانت العقوبة الشائعة للجرائم الصغيرة هى قطع بعض أجزاء الجسم وهى تدرج ما بين صلم الأذن وجذع الأنف الى الخصى أو بتر الأعضاء . أما هؤلاء الذين كانوا يدانون فى جرائم كبيرة فكانوا فى الغالب يحتفظون بهم لتقديمهم كقرايين بشرية .

وكانت الضرائب تجبى بغير انتظام ، وتفرض عندما تفرغ الخزانة الملكية ، ولكن طرق جبايتها كانت منظمة . كان يعين فى كل مقاطعة من المقاطعات ستة من الموظفين لجبايتها ، واحد يعينه الملك وآخر تعينه الملكة الأخت ، وثالث تعينه الملكة الوالدة ، ورابع يعينه الوزير الأول ، وخامس يعينه أمين الفتيشات الوطنية ، والسادس يعينه حاكم المقاطعة . وكان جباة الضرائب يزورون كل نبيل ويحددون قيمة الضريبة التى يجب أن تدفعها المنطقة على أساس عدد البيوت التى تحتويها . وكانت الضرائب تدفع عينا ، وكان يسمح بشهرين بين تقرير الضريبة وجمعها حتى يعطوا المزارعين الوقت الكافى لجمع السلع اللازمة . وكان الملك يأخذ نصف المتحصل ويقسم الباقي بين الملكة الوالدة والملكة الأخت والوزيرين العظميين . أما البازا والنبيل فقد كانا يأخذان جزءا من الضرائب المحصلة من مقاطعتهم . وكان الفلاحون يؤخذون للعمل كجنود أو كعمال فى الأعمال العامة . وكان هناك نظام غريب يقضى بأن يدفع كل رجل يؤخذ للعمل مبلغا مجزيا لرئيس العمال قبل أن يبدأ العمل بالرغم من أنه لم يكن يحصل على أجر مقابل عمله .

وكانت الأسرة المالكة تحيا حياة مختلفة ، في نواح كثيرة ، عن حياة عامة الشعب وعن الموظفين . فقد كانت الشخصيات الرئيسية في العائلة المالكة هي الملك والملكة الوالدة ثم الملكة الأخت . وكان لكل منهم ، وخصوصا الملك ، شئ من الصفة الالهية يذكرنا بما كان في مصر القديمة . كان الملك يحيط نفسه بمساج من الطقوس الكثيرة ، وكان على كل انسان يقترب منه أن يخر ساجدا أمامه . وبالرغم من أن الملك لم يكن يخضع لقيود الزواج فانه كان يملك عددا لا يحصى من الزوجات اللاتي كن يقدمن اليه كهدايا أو كرشوة أو اللاتي يرثن من حريم أبيه ، أو اللاتي يجذبن أنظاره . وكانت أرفع النساء شأنا بينهن هي تلك التي اختارها أبوه لتكون زوجة له . وكانت الزوجات جميعا يعشن في مقر الملك ، وكن خاضعات لرقابة مشددة لضمان شرعية الأبناء الذين يلدنهم ، والذين كانوا يحتفظون بطوائف أمهاتهم اعترافا منهم باتسبابهم لعشيرة أمهاتهم ، وبالإضافة الى ذلك الطوطم كان عليهم أيضا أن يحترموا طوطمي الأسد والفهد .

وكان كل أمير من الأمراء عند بلوغه الانتهاء من مرحلة الفطام يسلم لحاكم مقاطعة (باسوجا) كان يعين وصيا عليه ويخصص له ضيعة صغيرة . وكان الابن الأكبر الذي كان محرما عليه أن يرث العرش يشارك الحاكم في الاشراف على اخوته من الذكور بينما تكون الابنة الكبرى للملك مسئولة هي أيضا عن أخواتها البنات . وقلما كان يبقى حيا أحد من أبناء الملك بعد موته فترة طويلة ، وذلك لأنه بمجرد اختيار الذي سيجلس على العرش كان هو وأمه يجعلان اخوته الذين يحتمل أن يحصلوا على تأييد شعبي ويرسلان بهم الى مكان معين ويوضعون في مكان مغلق تحت خراطة مشددة ثم يتركون ليموتوا جوعا وعطشا . أما بنات الملك فكن يعاملن بكل احترام غير أنه كان يحرم عليهن الزواج أو أن يكون لهن ذرية ، وفي الوقت ذاته لم يكن مطالبات بالمحافظة على عفتن . وكان بعضهن يصبحن كاهنات ، بينما كانت

الأخريات يعشن كنساء يتمتعن بحريتهن يملكن ضيعات صغيرة ، ويعشن حياة تسودها الفوضى والعش .

وعند وفاة الملك كان يعقد اجتماع عاجل يحضره الوزراء العظام والحكام الأوصياء وأكبر أبناء الملك . وعندما يقررون من الذى سيخلف الملك فى حكم البلاد كان يعلن موت الملك باطفاء النار المقدسة التى كانت دائمة الاشتعال عند مدخل مقر الملك ويخفون حارسها ، وقرعون طبولا خاصة لا تستخدم الا فى هذه المناسبة فقط . وكانت دقائق الطبول تحمل الأنباء الى كل أنحاء المملكة فتسود الفوضى فى الحال فى جميع أنحاء البلاد ، وهوم الحروب بين الحكام والنبلاء يحارب بعضهم بعضا ، وينهب الأقوياء جيرانهم الضعفاء ، ويستدعى جميع الأمراء الى مقر الحكم ويعلن الحكام الذين يقومون بالوصاية على الأمراء من سيكون الملك القادم . وبعد ذلك يتحدى الوزير الأول أى أمير من المرشحين الذين خاب أملهم ، وكل من ينتصر لهم ، أن يارزوه بالسلاح وتصبح أم الملك الجديد هى الملكة الوالدة ، كما كانت تختار احدى أخواته الشقيقات أو غير الشقيقات لمنصب الملكة الأخت . وكان يعين أيضا فى ذلك الوقت نفسه بعض الموظفين المهمين جدا ، وكان الملك يحضر احتفالا هاما يعرف باسم « التهام البلاد » يضى الصفه الشرعية على أحقيقته فى العرش ، ولكنهم كانوا يؤجلون حفلة التسويج لمدة ستة أشهر يلبس فيها الملك الجديد ثياب الحداد على أبيه .

وكان الحاكم المشرف على المقابر الملكية يأخذ الملك الميت الى مقاطعته حيث تحنط جثته ، وبعد أن يتم ذلك يحملون جسده الى المبنى الذى أعد ليكون قبرا له . وكان الرعايا يأتون بالملابس المصنوعة من قشور الشجر كهرايبن للملك الميت ، وكانت هذه الملابس تكس فى المنزل حتى يمتلىء الى السقف ، وبعد ذلك يعلقون الباب ويختمونه . وكانوا يحضرون أربعة من خدم الملك الخصوصيين وأربعة من زوجاته ومئات من العبيد والأسرى ويقتلونهم

ضربا بالهراوات ويلقون بأجسادهم حول المبنى . وبعد مضي ستة أشهر كانوا يفتحون المنزل ويأخذون رأس الجثة المحنطة وينلقونه ثم يشرب أحد الرجال الجعة واللبن من هذه الجعة فيصبح بعد ذلك الوسيط الذي يتكلم عن طريقه روح الملك الميت الى الناس . وكانوا يعيدون الجعجة ثانية الى القبر ، أما عظم الفك وحبل السرة فكانوا يضعونها في معبد من المعابد التي في مقر الملك الميت . وكانوا يحتفظون دائما بمقرات الملك ، وكان وزراء الملك الراحل وموظفو قصره وكثير من زوجاته يستمرون في خدمة روحه . وعندما يموت أحد هؤلاء الموظفين كان يعين موظف آخر بدلا منه . وكان على الملك الحاكم أن يزور معبد أبيه مرة خلال مدة حكمه . وعندما تشرف زيارته على نهايتها كان يعطى اشارة يقبض بعدها على مئات من المشاهدين الذين كانوا يشاهدون تحركات الملك ويقدمون قرايين لروح أبيه .

وتقام حفلة التتويج عندما تنتهى فترة الحداد على الملك ، وكان الملك الجديد وأخته يقسمان اليمين قبل تولي السلطة ، ثم يلبسان الملابس الملكية . وبعد ذلك يحضرون أمام الملك رجلين معصوبى العينين يقنصان من الطريق فكان يرمى أحدهما بسهم يجرحه ، ثم تأخذ جماعة صغيرة هذا التمس وتلقى به على حدود مملكة مجاورة ، كانت في حالة حرب دائمة مع الباجنديين ، وبعد أن يشوهوه يتركونه هناك ليموت . أما الثاني فكانوا يقودونه الى المكان الذى تقدم فيه القرايين حيث يبدؤون في قتل ثمانية رجال آخرين الواحد بعد الآخر ، ثم يلقون أمعاءهم حول رقبته ، ويمنح بعد ذلك لقباً خاصاً ، ويصبح مسئولاً عن زوجات الملك . وأخيراً ، يبنى حكام المقاطعات مقرات للملك وللملكة الوالدة والملكة الأخت . وكان لكل من هذه السيدات بلاطها الخاص ووزراؤها وموظفو البلاط وكانوا ماثلين لزملائهم الذين في خدمة الملك سواء في اللقب أو في اختصاص العمل .

وكانت عقيدة الباجنديين ، في الأمور الخاصة بما فوق القوى الطبيعية ،

مصبوغة صبغا قويا بالسحر ؛ ففي هذه البلاد كما في جميع بلاد افريقية ، كان يوجد مطببون من بين وجوه نشاطهم عمل الفتيشات والأعمال السحرية والابرار من المرض . وكان هؤلاء المطببون يختلفون تماما عن الكهنة الذين يلحقون بخدمة آلهة معينة ، وان كان هناك بعض الازدواج في عمل الفريقين مثل الانباء بالغيب الذي كان يعد من أهم أعمال المطبيين ، ولكن الكهنة كانوا يمارسونه أيضا . ولكن المطبيين كانوا يزاولون عملهم في التنبؤ بالغيب عن طريق القاء أصداف الودع ودراسة أحشاء الطير وبعض الطرق الموضوعية الأخرى ، في حين كان كهنة المعابد يزاولون عملهم في الانباء بالغيب عن طريق الوحي . وكان الدين الباجندي يدور حول عبادة الموتى . كانوا يعتقدون أن الأرواح العادية تعود بعد أعوام قلائل من وفاة الميت فتجسد في أطفال من نفس العشيرة فكانوا يسمون الطفل باسم الشخص الذي مات ثم لا يعبدون روحه بعد ذلك . وخلال الفترة التي تفصل بين الموت والتجسد كان عليهم أن يقدموا القرابين للروح ، وبالرغم من أن الأرواح كانت بوجه عام أصدقاء للأقرباء إلا أنها كانت سريعة الانتقام اذا ما أهملها أقرباؤها كما كانت تعاقبهم على السلوك غير السوي ، وكثيرا ما يكون غضبها سببا في حدوث الأمراض . وكانت الآلهة العظيمة عند الباجنديين في حقيقة الأمر ، أرواحا لأنهم كانوا يعتقدون أنهم كانوا بشرا يعيشون في يوم ما على الأرض ، وكانت كل عشيرة تعبد روح الجد الأول كالهيا الرئيسية . وكان هذا الجد يتجسد في زعيم العشيرة عند تولي منصبه . وكانوا يعبدون روح الجد الأول ، وكانوا يقيمون لها معبدا ويمينون له كهنة ويحيطونه بكل مظاهر الألوهية . ولم تكن هذه المتناقضات المنطقية التي تشتمل عليها مثل هذه المعتقدات المتعددة من الأمور التي تضايق الباجنديين ، فقد كانوا يشبهون المصريين القدماء في هذه الناحية . كانوا ينظرون الى جميع الموتى من الملوك بأنهم آلهة وطيون ، وكثيرا ما كان الملك الحاكم يستشيرهم اذا وجد نفسه أمام إحدى المشاكل . أما الآلهة الذين

لم يكونوا من أرواح الأسلاف فقد ساووا بينهم وبين الظواهر الطبيعية المختلفة . وأهم الآلهة الباجندية هو الاله « موكاسا » Mukasa الذى كان مرتبطا ببحيرة فيكتوريا ، وكان هو الذى يأتى بالمسك ويتحكم فى العواصف كما كان الها للخصب . وكان لكل اله معبد ، أو عدة معابد ، يقوم على خدمته فى كل منها هيئة كاملة من الكهنة ، كما تلحق بها الضياع الخاصة والأرقاء الذين يقومون بالعمل فيها . وكان للآلهة الأكثر أهمية معبد رئيسى يؤمه الملك وكبار الموظفين وذلك الى جانب معابد أخرى صغيرة متفرقة فى أنحاء البلاد ، يؤمها عامة الشعب . وفى كل معبد وسيط يقوم بالاتصال بين المتعبدين والآلهة ، وكان ينقل أسئلة المتعبدين ومطالبهم الى الاله ، وعندما تكون الروح مستولية على جسمه ينطق باجابة مفككة يقوم الكاهن بتفسيرها . وكانت تصحب الابتهالات قرايين تختلف حسب أهمية الطلب ، ومركز العابد . وأسوأ ما فى ديانة الباجنديين هو انتشار القرايين البشرية بينهم ، اذ كانوا يقدمونها كجزء من عبادة الآلهة العظيمة . وعندما كانوا يخافون من حلول كارثة عامة ، كانوا يقدمون المئات من الأشخاص كقرايين فى وقت واحد ، اذ كان هناك ثلاثة عشر مكانا فى المملكة تقدم فيها مثل هذه القرايين الجماعية . وكان الأسلوب المتبع فى تقديم القرايين يختلف من مكان الى آخر . ففى أحد الأماكن كانوا يضربون الضحايا بالهراوات حتى يموتوا ، ثم تترك أجسادهم لتأكلها الضباع والعقبان ، فى حين كانوا يكسرون أذرع وأرجل الضحايا فى مكان آخر ويتركونهم على الشاطئ للتماسيح لتلتهمهم وهم أحياء .

وكان حظ أوغنده أسعد كثيرا من حظ معظم الدويلات الزنجية الأخرى . فان صعوبات النقل ، وعدم وجود زيت البترول ، والموارد الطبيعية ذات الأهمية البارزة ، حمتها من الاستغلال الأجنبى ، يضاف الى ذلك أن المناخ لم يشجع الأوروبيين على الاستقرار هناك . وكان لتأسيس الارسالية البروتستانية الانجليزية عام ١٨٧٧ والارسالية الكاثوليكية الفرنسية عام ١٨٧٩

فضل في اختفاء المظاهر الدموية من الدين الوطنى . وبعد وفاة الملك موتيسا Mutesa عام ١٨٨٤ تمزقت البلاد بفعل الجروب التى اندلعت نيرانها بين المرشحين للعرش الذين كان يساعدهم البروتستانت أو الكاثوليك أو المسلمون ، وفي عام ١٨٩٤ أصبحت أوغندة محمية بريطانية . وقد أظهر الأغنديون رغبة ملحة في التعليم ، وليس هناك شك في أنهم سيلعبون دورا هاما في تقدم احدى المدنات الافريقية الحديثة .

وكان لداهومى ، وهى تقع على شاطئ الرقيق في غرب افريقية علاقات طويلة ووثيقة مع الأوروبيين أكثر من أى مملكة زنجية أخرى . فقد زارها أولا البرتغاليون في منتصف القرن الخامس عشر ثم أصبحت مركزا هاما لتجارة الرقيق . وفي منتصف القرن التاسع عشر كانت معروفة لدى الأوروبيين الذين كانوا يزورونها دائما أكثر من أى دولة زنجية أخرى بما في ذلك الأشاشى . وكان سكان غربى افريقية قد تعودوا التجارة والاتاج التجارى عندما وصل الأوروبيون لأول مرة ، وكانت معظم الحرف يتوارثها الصناع المحترفون الذين سهلت روابط القرابة بينهم أمر تكوين النقابات ، كما أن التجار الذين كانوا يتعاملون في سلع مختلفة كانوا في أغلب الأحيان ينظمون صفوفهم ليحافظوا على الأسعار ، وليضمنوا المنافسة العادلة بينهم . ولهذا السبب لم يكن النشاط التجارى الذى جاء في أعقاب الاتصال الأوروبي أمرا جديدا عليهم ، اللهم الا من ناحية كثرته . وقد نتج عن ادماج السلع الأجنبية في حضارة هذه البلاد والحاجة الى توزيع السلع المستوردة في جميع أنحاء المملكة ، والمكاسب التى كانت تجبى من وراء الرقيق ، نتج عن ذلك كله ائاحة الفرصة للعامة ، بما فيهم النساء ، لكى يجنوا ثروات كبيرة . وحتى الملك نفسه كان تاجرا ، وكان يستمد معظم دخله من التجارة بالاضافة الى الدخل الذى يأتیه عن طريق الضرائب وعن طريق دخل الجبارك .

ومن المحتمل أيضا أن يكون الاتصال الأوروبي قد لعب دورا مائثلا في

التطور التكنولوجى فى داهومى . فلقد كانت جميع شعوب هذا الجزء من افريقيا عمال معادن مهرة ، وقد أثبت العثور على عدد من الرؤوس الفخمة الصنع للملك « اينى » فى القرن الحادى عشر أن هذه المهارة كانت قد أتمت تقدمها قبل وصول الأوروبيين ، ومع ذلك فقد كانت هناك رواية يرويها سكان مملكة « بنين » المجاورة تشير الى أن الفن قد دخل فى القرن الخامس عشر على يد فنان برتغالى ، وكانت هناك عشيرة تنسب اليه من سابكى النحاس يقولون انهم من نسله . ويمكننا أن نؤكد أن الأوروبيين لم يدخلوا هذه الصناعة الى افريقية ولكنهم ربما أسهموا فى وصولها الى حد الكمال فى مملكة « بنين » . ونلاحظ فى هذه المنطقة بعد القرن الخامس عشر التأثير الأوروبي من ناحية الموضوعات ، لا من ناحية التقاليد الفنية ، فالبنادق مثلا نراها مرسومة بالكثرة التى رسم بها غيرها من الأسلحة الوطنية ، وكثيرا ما نرى رسوما لأفراد من الأوروبيين نرى فيها المهارة أكثر مما نرى فيها شيئا من العاطفة نحو أصحابها .

وكان المجتمع الداهومى منظما تنظيما طبقيا دقيقا . ففى أسفل السلم كان يقبع الأرقاء الذين كانوا فى هذه الحالة من الأسرى الأجانب أو من المجرمين . فلم يكن فى داهومى أرقاء وراثيون بسبب وجود قانون قديم ينص على أن كل من يولد على أرض داهومى فهو حر ولكن ذلك لم يمنع من استعباد بعض الرعايا الداهوميين اذا ما اقترفوا بعض الأخطاء ، وهو اتجاه شجعه وجود تجار الرقيق من الأوروبيين . ولم يستعبد المجرمون فقط ، بل ان بعض أعضاء البيت المالك الذين كان الملك يشك فى مطامعهم السياسية كان يقبض عليهم ويصبحون رقيقا ويباعون فى الخارج . ولهذا فان أجداد الزوج الأمريكين كانوا ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة وما أشبههم فى ذلك بالمعتقلين فى أى معسكر من معسكرات الاعتقال .

وبين طبقة الأرقاء وطبقة الأحرار توجد طبقة أخرى وهى طبقة رقيق

الأرض أو خدامها وهم أبناء الرقيق المملوكين للملك الذين يعملون في الضياع الملكية . ولم يكن يسمح ببيع هذه الطبقة ولكن في الوقت ذاته لا يسمح لها بمغادرة الأرض . أما العامة الذين يكونون غالبية الشعب فكانوا ينتظمون في أربعين عشيرة لم يفرض عليها أن تعيش في أماكن معينة في البلاد . وكان لكل من هذه العشائر زعيم مسئول عن تسوية النزاع الذي ينشب بين أعضاء العشيرة ، كما كان يشرف أيضا على ما يحدث بين أفرادها من زواج ، ولما كانت مهور الزوجات كلها تمر من بين يديه فإن المنصب كان مريحا للغاية . وكان من حقه أيضا أن يأخذ الدخل الذي يأتي من استغلال الأملاك المشتركة للعشيرة ، كما كان له الحق في استدعاء أعضاء العشيرة للعمل . وكان يستمد أهميته من الدور الذي يلعبه ككاهن أعظم لعبادة أسلاف العشيرة ، وكان يدين بسلطة لاتصاله الوثيق بأرواح الأسلاف . وكانت المتقدمات في السن من نساء العشيرة يتمتعن بسلطات عظيمة لأنهن سيصبحن عاجلا أو آجلا من أرواح الأسلاف .

كان أعضاء العشيرة متفوقين في أنحاء المملكة ، ولكنهم كانوا يحافظون على التضامن عن طريق عقد اجتماعات سنوية يعبد فيها كل الذين ماتوا من أعضاء العشيرة بجانب الذين وقعوا فريسة للاسترقاق وتركوا وطنهم . وكانت الوحدة الاجتماعية الرئيسية في داخل العشيرة هي العائلة المترابطة التي كان رئيسها يدير أملاكها ، وكان يعامل هذا الرئيس باحترام عظيم أثناء حياته ويؤله بعد وفاته . وكانت غاية ما يطمح إليه كل رجل أن يؤسس عائلة مترابطة وأن تنمو هذه العائلة حتى تصبح عشيرة فرعية . وتتجت من هذا النظام عادة أخرى وهي أنه طالما كان في مقدور النساء أن يعملن في التجارة وأن تكون لهن ثروات مثل الرجال ، فقد تطور النظام الاجتماعي وأصبح للنساء الحق في تأسيس عائلات مترابطة . كان في مقدور المرأة التي تجمع لنفسها ثروة كافية أن تشتري أرضا ، وأن تبني مقرا ، وأن تشتري زوجات تعرضهن لشبان

تختارهم بفرض انجاب الأطفال . وكانت « الزوجات » يناديها بلقب « الزوج »
بينما كان الأطفال الذين أصبحوا فرعا جديدا ينادونها على اعتبار أنها
« الأب » ، ويظهرون لها شعائر الاحترام الرسمية الواجبة نحو الأب الحقيقي
وفى الجيل الذى يعقب هذا كان أبناء مثل هذا الفرع يشتركون الزوجات
ويحضروهن الى مقر الفرع كالمعتاد ، ولكن البنات كن لا يغادرن المقر ، بل
كن يحضرن أزواجهن اليه . وكانت الفروع التى تقتصر الى الأبناء تلجأ الى
الزواج من سلالة الأم ، ولكن مثل هذا الأمر كان يحدث عند الضرورة فقط .
والفروع التى تؤسسها النساء هى التى كانت تستمر جيلا بعد جيل ، وكانت
النتيجة التى تربت على ذلك هى أن هذه الفروع أخذت فى النمو السريع
وكانت متعددة ومزدهرة أكثر من المعتاد .

وكان الملك يندق الضياع على العامة كمكافأة على خدماتهم . وكانت
هذه الضياع تورث للبكر من الأبناء ونجم عن ذلك وجود طبقة نصف نبيلة
عرفت بين الأوروبيين باسم ال « كابوسير » Caboccer ، وكان هؤلاء
الكابوسير يدعون للخدمة العسكرية مثل كل أحرار الداهوميين ، وكونوا
نواة فرقة الفرسان الوطنيين . وكان لجميع الأفراد من سلالة الملوك الداهوميين
الحق فى التمتع بمرتبة الامارة ، ولم يحل القرن التاسع عشر حتى كان هؤلاء
الأمراء قد أضحووا من الكثرة بحيث أصبحوا عشرة فى المائة من مجموع
الشعب . ولم يحرم الزواج على نساء هذه المجموعة ، ولكن بما أن أزواجهن
كانوا فى العادة من العامة فقد كانت لهؤلاء النساء السلطة المطلقة فى المنزل ،
وكن مشهورات بالتهور فى سلوكهن من ناحية علاقاتهن الجنسية . وكان
يسمح للملك بالزواج من أميرات عندما تكون رابطة الدم الحقيقية بينه
وبينهن بعيدة ولكن كان أبناؤه من الأميرات ممنوعين من تولي العرش لأنهم
كانوا يعتقدون أن شرعية ذلك موضع شك . وكان المفروض ألا يشتغل
الأمراء والأميرات بالتجارة أو بأى نوع آخر من الأعمال اليدوية ، كما كانوا

عموما ممنوعين من تولي أى نوع من المناصب الادارية . أما دخلهم فقد كان يأتيهم من الضياع التى يتوارثونها ، ومن الهبات التى يقدّمها عليهم الملك . كانت رابطة القربى فى داهومى رابطة قوية الى أبعد الحدود . وكانت واجبات الفرد تجاه الأقارب العديدين تعوق حرّيته الشخصية فى كل ناحية . ولعل الفكرة الخاصة بالصدىق الوفى التى اختصت بها داهومى نشأت كرد فعل لهذه العادة . فقد كان لكل رجل داهومى أو امرأة داهومية صديق من جنسه يشترط ألا يكون من أقاربه أو أقاربها ، ويكون هذا الصديق الوفى موضع الثقة الكاملة ، وقد اعترف بهذه العلاقة كل من القانون والعرف . حتى الملك نفسه كان له صديق وفى يختاره من العامة . وكان هذا الصديق الوفى محل ثقة صديقه التامة أثناء حياته وكان عليه أن يساعد فى كل ما يفعله سواء أكان ذلك قانونيا أو ضد القانون . فإذا ارتكب أحد الناس جريمة وهرب كانوا يلقون القبض على صديقه الوفى ويعذبونه لأنه متى سمع صديقه بذلك فإن ولاءه سيحتّم عليه بكل تأكيد أن يسلم نفسه فورا . ومن الجائز أن يتقدم الصديق الوفى لمساعدة صديقه بتزويده بالمال اللازم لشراء زوجة وفى مثل هذه الحالة كان من المفهوم أنه عندما تبلغ الابنة الأولى من هذا الزواج سن الزواج كان للصديق الوفى الحق فى أن يتخذها زوجة له دون أن يدفع مهورا لها . وقد أيد القانون الداهومى هذه العادة التقليدية تأييدا قويا . فلو هربت الفتاة أو فقدت بكارتها بسبب صلتها برجل آخر فإن جميع نساء عشيرة الصديق الوفى المتزوجات من رجال ينتمون الى عشيرة الرجل الذى تسبب فى هربها أو فقد بكارتها يصبّحن فى الحال بصورة آلية مطلقات من أزواجهن . وكانوا يهينون للسيد الذى أسىء اليه الفرصة لاختيار عروس له من بين كل بنات عشيرة الخطيئة الخاطئة اللائى بلغن سن الزواج دون أن يدفع مهورا أو ابداء أى اشارة الى أى ارتباط سابق بترتيبات الزواج من أى شخص آخر . وعندما يموت الرجل كان المتوقع من صديقه الوفى أن يشرف على جنازته

وأن ينفذ وصيته ، وكان المعتاد أن يفضل الشخص صديقه الوفي للافضاء اليه بالوصية ويفضله على أى شخص من أقاربه . وكانت هذه العلاقة بين الأصدقاء ذات أهمية كبرى لدى الداهوميين جعلتهم يتخذون لأنفسهم صديقا ثانيا وثالثا من الأصدقاء الأوفياء الذين كانوا يأخذون مكان الصديق الوفي الأول في حالة وفاته .

وكان في المقر الملكي في أبومي (Abomey) حوالى ثمانية آلاف شخص ، كلهم من النساء تقريبا . وكان لدى الملك أربعون زوجة من عشيرة الفهد كن يقمن على خدمته وذلك عدا عدة آلاف أخرى من الزوجات لم يتصل أكثرهن بالملك ، ولم تكن لهن علاقة به كزوج . فمثلا كان الألفان والخمسمائة فارسة أمازونية اللاتي كن أفضل فرق الجيش الداهومى من بين زوجات الملك وذلك بالرغم من أن معظمهن كن عذارى ، اذ كانت العلاقات الجنسية محرمة عليهن تحريما كاملا ، ومن خالفت ذلك كان نصيبها القتل . وكانت بعض أولئك الزوجات يعملن كآرشييف حى ويحفظن في ذاكرتهن أمور الملكة المعقدة . فقد كان يخصص لكل موظف ابتداء من الوزير الأول الى القاضى المحلى زوجة من زوجات الملك تعتبر « أما » له . وكان مفروضا أن تكون هذه المرأة حاضرة في كل المناسبات عندما يقوم بعمله كموظف حتى تستطيع معرفة كل ما يحدث وتبقيه في ذاكرتها وتنقله الى الملك .

وكان للملك وزياران عظيمان ينتخبهما من بين العامة . واحد منهما هو « المينجان » (Mingan) الذى كان فى الأصل يعمل جلادا لدى الملك ، ثم ازدادت بعد ذلك واجباته الى أن أصبح وزيرا أول يصرف أمور الملكة . وكان دائما يتزوج ابنة الملك الكبرى ويقف على يمين العرش فى المناسبات الرسمية . أما الوزير العظيم الآخر وهو « الميهو » (Mehu) فكان مسئولاً عن الاشراف على القصر الملكى ، كما يقوم بالاشراف أيضا على جميع أعضاء مجموعة الأمراء ، وكان يتزوج من ابنة الملك الثانية ويقف على شمال العرش.

وبالإضافة الى هذين الوزيرين كان يوجد موظفون عديدون يشتغلون في ادارة المملكة ، وبالرغم من انهم كانوا من العامة الا أنه كان هناك اتجاه قوى لجعل مناصبهم وراثية . وكان يعين لكل موظف يحتل منصبا كبيرا أحد الأمراء كملازم له ، وكان هؤلاء الملازمون يتمتعون ببعض امتيازات المنصب ولكن لم تكن لهم أى سلطة .

وكان الملك يختار في حياته ولى عهده الذى يكون في العادة أكبر أبناء الزوجة الأولى التى اختارها له أبوه الملك الراحل ، ولكن الصلاحية للمنصب كانت توضع أيضا موضع الاعتبار . وكان يعطى لولى العهد ضياع كثيرة وزوجات عديدات ، وكان يشترك مع أبيه في الحكم قبل وفاته .

وكانت المملكة مقسمة لاعتبارات ادارية الى اثنتى عشرة مقاطعة يحكم كل منها حاكم وراثى . وكانت كل مقاطعة تضم قرى عديدة يرأس كل منها زعيم وراثى أيضا . وكان لكل زعيم منهم الأدوات الخاصة بمظهر وظيفته وهى عصا مزخرفة وكرسى كان شكله يختلف باختلاف المنصب ، كما كان ارتفاعه يتناسب مع أهمية المنصب أيضا . كما كان من بين تلك الأدوات غليون للتدخين ومظلة تشر فوق رأسه في المناسبات الرسمية وكانت المهمة الأساسية لهؤلاء الزعماء هى اقامة العدل . وكانت مالية الدولة تسير على أساس سليم ومنظم . وكانت الضرائب التى تجبى من المبيعات أكثر مصادر الدخل أهمية ، وكانت الضرائب تفرض أيضا على التراكات كما كان الملك يستولى على ضياع المجرمين بعد مصادرتها ، وكثيرا ما كان يحدث لأحد العامة الذى يتفاخر ويزهى دون وجه حق بثروته ، أن يحكم عليه بعد تلفيق تهمة له . وكان هناك عدد كبير من صغار الموظفين . وكان الموظفون جميعا تحت رقابة جهاز سرى منظم تمام التنظيم متغلغل في جميع الادارات .

وكان القيام بعمل الاحصاء احدى المميزات الخاصة بنشاط الدولة الداهومية . فقد كان يجرى في كل عام احصاء دقيق لعدد سكان داهومى

يتضمن تقارير عن المواليد والوفيات . وكان لكل شخص يمثلونه بحصوة ، وكان بعض الموظفين المختصين يكلفون بإحصاء العبيد وأسرى الحرب وقتلى المارك . وكان هذا الإحصاء بطريقة الحصى يقسم الى خمس عشرة وحدة . واحدة منها كانت للذكور البالغين ، وأخرى للنساء البالغات ، وثالثة للأطفال من الجنسين الذين لم يبلغوا الثالثة عشرة من عمرهم . وكانت آكياس الحصى توضع في منزل خاص في العاصمة وتعتبر مرجعا دائما لمعرفة ما اذا كان عدد الشعب في ازدياد أم أنه أخذ في النقصان ، ورسم السياسة اللازمة تبعا لذلك . ويعتبر وجود جيش دائم ظاهرة أخرى مميزة للدولة الداهومية فقد كان يتوقع من الرجال الأحرار ذوى الأجسام القادرة أن يقدموا أنفسهم للتجنيد السنوى الذى كان يحدث في بداية الفصل الجاف ، أى في الوقت الذى تكون فيه فترة راحة من العمل في الزراعة . ولكن هذا التجنيد العام لم يكن ذا أهمية عسكرية كبيرة ؛ إذ أن الجنود لم يكونوا مدربين أو مسلحين تسليحا كافيا ، ولكن قوة الدولة كانت تكمن في جيشها المنتظم ، وكان هذا الجيش يتكون من حرس القصر ورجال البلاط وأبناء الزعماء وطبقات معينة من المجرمين وفرقة الأمازونيّات . وكانت القوة كلها منتظمة في شكل فرق عسكرية، كان على رأس كل منها ضابطها ولكل منها لباسها الخاص بها . وكان الرجال يكونون جناحى الجيش . أما الأمازونيّات فكانت في القلب . وكان عدد الأمازونيّات حوالى ألفين وخمسمائة أمازونية مقسمات الى خمس مجموعات. المجموعة الأولى هى مجموعة حاملات البنادق. وكان عددهن كثيرا ويكون القوة الرئيسية ، ثم المجموعة التى تحمل القرينات أو البنادق القصيرة وكن من النساء المحنكات المتقدمات في السن ، ثم صائدات الفيلة ، وهن أعظم النساء جراءة واللاتى كن يصاحبن الملك في رحلات الصيد ، ثم مجموعة حاملات الأمواس ، وهن مجموعة صغيرة مسلحة بأمواس مستقيمة يبلغ طول سلاحها خمسة وأربعين سنتيمترا مصممة خصيصا للإطاحة برقاب الزعماء من الأعداء ،

وأخيرا ، كانت هناك مجموعة من الشابات حاملات الأقواس واللاتى كن يشتركن فى الاستعراضات ، ولكن لم يشتركن فى الممارك الا قليلا . وكانت النساء الأمازוניات دائما مسلحات ، ويداومن على التدريب ، وذلك عن طريق المناورات الكثيرة ، وقد أثبتن همتن وحميتهن ابان حروب الفزو الفرنسية ، وربما كن أفضل الجنود الوطنيين فى افريقية .

وكان ملك داهومى يشن الحرب بانتظام فى كل عام ضد جار من جيرانه . وكانت البواعث على هذه الحروب اقتصادية فى معظم الحالات ، اذ كانت الأسلاب وبخاصة الرقيق ، الذين كانوا يحصلون عليهم من هذه الحملات موردا هاما من موارد الدخل الملكى . وكان الكثير من أساليب الحرب فى داهومى يشبه الأساليب التى كانت تستخدمها الدول الأوروبية ذات الحزب الواحد . كانوا يرسلون الجواسيس الى المنطقة التى يراد مهاجمتها متكرين فى زى التجار ويرشون الموظفين فى ذلك البلد كلما أمكن ذلك . وكانوا يقومون بحملة منظمة لاثارة روح الحرب بين مواطنيهم اذ كان عملاء الحكومة يذهبون الى الأسواق لنشر الاشاعات عن الأعمال العدائية الشنيعة التى ترتكبها الدولة التى ينوون الهجوم عليها ، وكان كل شئ يدبر لكى يظهر أن العدو هو المعتدى ، وأن داهومى قد اضطرت اضطرارا أن تخوض غمار الحرب رغم ارادتها .

والدين الداهومى منظم حول مجموعتين من الكائنات ذات القوى فوق الطبيعية وهما أرواح الأسلاف والآلهة الوطنية . كانت فكرة الداهوميين عن طبيعة الرجل الروحية أكثر تعقيدا من فكرة الأوروبيين عنها . فكل شخص داهومى كان يضم الى نفسه كائنا ذا قوة فوق قوة الطبيعة وهى روح أحد الأسلاف . وكان هذا الكائن يقدم المادة التى يتشكل منها جسد الفرد ، ثم يقوم بعد ذلك على خدمته كحارس ومعين له . وكان لكل فرد قضاؤه وقدره الخاصان به اللذان يكشف له عنهما أحد المنبئين بالغيب . وبالرغم من أن

القضاء والقدر لم يكن لهما شكل معروف فانه يجب أن يسترضوها بتقديم القرابين ثلاث مرات في العام على أقل تقدير . والى جانب هذه الكائنات الخارجية ، كان هناك ثلاث كائنات داخلية . كانوا يعتقدون أن الروح الشخصية للفرد هي التي شكلت الجسد من المادة التي قدمت الروح الحارسة . وكانت هذه الروح الشخصية تسكن في الرأس وتتحكم في تفكير الشخص ، وكانت تترك الجسد مؤقتا أثناء النوم ، وليست الأحلام التي يراها الشخص أثناء نومه الا التجارب التي تعرضت لها الروح أثناء ذلك . أما القوة الحيوية الأساسية في الفرد فانها كانت تتمثل في « أفعى » ساووا بينها وبين جبل السرة . فاذا أحسن الفرد معاملة هذه الأفعى وكسب ودها فانها تغدق على صاحبها الثروات التي يأخذها من الرجال الآخرين الذين أهملوا « الأفعى » الخاصة بهم . وأخيرا ، كان لكل فرد شرارة الهية ، قطعة من الالهة « ماوو » (Mowu) التي تزوده بقوة الالهام .

وعند الوفاة كانت هذه الكائنات تتفرق ؛ فكانت الروح الحارسة تبحث لها عن آخرين لتحميمهم الى أن ترجع الى الأرض ست عشرة مرة . أما عن القوى الحيوية فانها لو عبدت كما يجب أن تعبد أثناء حياة الفرد ، فانها تنضم الى قوى العشيرة وتقويها والا فانها تهرب وتذهب بعيدا نحو الجبال وتثير المتاعب ، فأما الشرارة المقدسة فانها تعود الى الالهة « ماوو » ، وأما الروح الشخصية فتصبح شبعا يضرب في الأرض حتى تقام لها جنازة مناسبة يتحتم أن تقام في وقت لا يزيد عن ثلاث سنوات . فاذا لم يقيموا هذه الجنازة فانها تصبح شبعا دائما شديد العداء للأقارب الذين أهملوا شأن قريبهم . وبعد الجنازة كانت الروح تذهب الى الالهة « ماوو » وتقدم لها الحساب عن حياتها ، وتصابها الشرارة المقدسة لتشهد عما اذا كانت الروح قد قالت الحق . وفي النهاية كانت تصل الى أرض الموتى حيث كانت تعيش حياة مماثلة تقريبا لحياتها التي كانت تعيشها على الأرض ، ولكنها كانت تهتم اهتماما كبيرا بما يفعله أقاربها

كما كانت في العادة تصبح حارسا لواحد منهم كما ذكرنا آنفا ، وكانت طقوس عبادة الأسلاف توجه بصفة رئيسية لهذا الجزء من طبيعة الفرد الروحية .

وكانت كل عشيرة تعبد أسلافها في حفلات عظيمة تقام سنويا كما كان الملك يقدم فروض العبادة للأسلاف الملكية مرة كل سنة نيابة عن الأمة كلها . وكان ينتهي هذا الاحتفال الوطني الذي كان يعرف باسم « العادات » ، والذي كان يستمر عدة أيام تقام فيها الولائم ويظهر فيها كل شخص مدى ثروته وغناه ، وكان ينتهي باستعراض فخم يقام في الميدان العام الكبير أمام القصر . كان جلاد الملك ، وممثلون لكل من تولى هذا المنصب قبله يقفون تحت منصة عالية كانت تلقى منها الحيوانات التي يطيحون برؤوسها . وفي ختام هذا الاحتفال كانوا يرمون عشرين أو ثلاثين رجلا اليهم فيطيحون كذلك برؤوسهم ، ويعرضون أجسادهم بعد ذلك وهي معلقة على نصبات تقام لهذا الغرض في الميدان . وفي حفلة « العادات » العظيمة التي تقام بمناسبة موت الملك وجلس خلفه على العرش كانوا يقتلون الكثير من حراس الملك وزوجاته وموظفي القصر ومئات من الضحايا ليكونوا في صحبته في العالم الآخر .

وكانت القرابين البشرية تقدم أيضا حينما يرغبون في ارسال رسائل مهمة لأرواح السلف ، وكانوا يسلمون الضحية رسالة ليوصلها لهؤلاء الأسلاف ثم يعدم . وبالرغم من هذا كله فإن عادة تقديم الضحايا البشرية كانت أقل أهمية وأقل استخداما في داهومي عن مملكة أوغنده . وإن المرء ليشك في أن قيمة الإنسان مها كان نوعه وما يمكن أن يأتي من مكسب من بيعه لتجار الرقيق كان هو السبب المباشر للاقلال من ذلك في داهومي .

وجنبا الى جنب مع عبادة الأسلاف ، انتشرت عبادة الآلهة الذين لم يكونوا من أصل انساني في يوم ما ، وكان هؤلاء الآلهة في ثلاث مجموعات وهم آلهة السماء وآلهة الأرض وآلهة الرعد . وعلى رأس مجموع آلهة السماء كانت تربع الآلهة « ماوو » الهة القمر التي كانوا ينظرون إليها على

أنها أم لكل الآلهة ، وبالرغم من أنهم لم ينظروا إليها على أنها كائن أعظم أو حتى على أنها خالق . وكان رقيقها هو « ليزا » Lisa إله الشمس . وكان أفراد مجمع إلهة الأرض كلهم من الرجال باستثناء معبود واحد فقط ، وعلى رأسهم كان يتربع توأمان هما أول أبناء ماوو وليسا . أما الآلهة الأخرى في هذا المجمع فقد كانوا أحفادها . أما مجمع آلهة الرعد فقد كان على رأسه الابن الثاني لماوو الذي كان يتحكم في الرعد والمطر والنار والبحر . وكان لكل من المجموعات الثلاث طقوسه الدينية وعبادته الخاصة ، ويكون عابده طائفة دينية خاصة ، وكانت هذه الطوائف الدينية تشبه في نواح كثيرة الجمعيات السرية التي كانت موجودة في البلاد الأخرى في غربى إفريقيا ، ولكن وجودها كان ممنوعا متعابا في داهومي .

وكان لكل إله معبد ، أو أكثر ، يتكون من منزل دائرى الشكل مشيد من القش ويحتوى على تمثال له يضعونه فوق منصة مبنية من الطين . وكانت هيئة المعبد تتكون من زعيم الكهنة يعاونه عدد من المساعدين يؤخذون من أعضاء الطائفة القدامى وعدد من الأعضاء المدنيين غير الكهنة الذين قد تمت احاطتهم بأسرار الديانة وعدد من الأعضاء الجدد الذين كانوا في دور التمرين للاحاطة بهذه الأسرار ، وكانت المجموعة الأخيرة تعيش في مبنى خاص يقام داخل حرم المعبد . وكان لكل طائفة طقوس تختلف اختلافا بسيطا عن بعضها البعض ولكنها كانت كلها تسير على أسلوب كان من أهم مبادئه حلول الإله في جسد الكاهن واستحواذه عليه ، وكانت الرقصات الدينية التي يقوم بها العابدون أثناء الطقوس تؤدي هي الأخرى إلى حلول الإله في جسد بعض هؤلاء العابدين . وكانت مطالب الناس من الآلهة يصاحبها تقديم القرابين لكي تجاب ، وقد ينضم الأفراد إلى مثل هذه الطائفة الدينية إما بالوراثة وإما وفاقا لنذر .

وعندما يموت أحد أعضاء الطائفة يأخذ مكانه عضو آخر من نفس

العشيرة . وكان الأطفال يندرون لاحدى هذه الطوائف ، وكان عليهم أن يمروا بسلسلة طويلة من حفلات الارشاد لتعليمهم الأسرار . وفى خلال هذه المراحل كان من المفروض أن يقتل الاله العضو الجديد ثم يعيد اليه الحياة بعد ذلك ، وكان يمر هذا العضو بتجارب مختلفة وامتحانات قاسية فيها الكثير من التعذيب حتى تحل فى جسده روح الاله ، وفى النهاية تفتديه عائلته بدفع مبلغ كبير من المال . وكان أعضاء الطوائف الدينية المختلفة يقصون شعورهم على طريقة خاصة ويلبسون أدوات زينة تميزهم عن غيرهم . ودراسة هذه الطوائف الدينية فى داهومى ذات أهمية كبرى للأمريكيين لأنها هى أساس عادات الفودو voodoo عند الزوج الأمريكين التى أسىء فهمها . فان هذه الطوائف الدينية ، وكل ما تفرع عن الفودو ، كانت فى جوهرها طيبة المقصد والغاية ، ويجب ألا نخلط بينها وبين السحر الشرير الذى كان أعضاء هذه الطوائف الدينية يعارضونه ويحاربونه محاربة شديدة .

واضحلت أهمية داهومى بعد الغاء تجارة الرقيق ، وفى نهاية القرن التاسع عشر عندما اتجهت أوروبا لتكوين المستعمرات ، وقعت داهومى من نصيب فرنسا التى احتلت مقر الحكم فى أبومى وأرسلت بآخر ملك للبلاد الى المنفى فى عام ١٨٩٢ . ولكن بالرغم من أن الداهوميين قد خضعوا لقوة الجيوش الفرنسية فانهم لم يفقدوا الأمل أبدا فى نيل استقلالهم والعودة الى نظامهم الملكى . ويقال انه يوجد مرشح معين لكل منصب فى المملكة ، وعندما يأتى اليوم الذى ينسحب فيه الأوروبيون فان النظم القديمة للحكومة يمكن أن تعود بين يوم وليلة .

ومجمل القول أن التنظيم الاجتماعى والسياسى للممالك الزنجية كلها يحتوى على ظواهر عديدة مشتركة بينها . ويبدو أن نظمهم الأساسية جميعها كانت تحتوى تجديدات مختلفة ولكنها مستمدة جميعها من نفس الأسس تقريبا . ففى هذه النظم كلها كانت طبقة المشتغلين بالزراعة منظمة فى مجموعات

من الأقارب المترابطين ، وعلى رأس كل منها يتربع زعماء يعملون على تسوية الخلافات بين الأعضاء كما كانوا في الوقت ذاته كهنة لعبادة الأسلاف . وقد ظل هذا التنظيم العائلي منفصلا تماما عن تنظيم الوظائف التي تعتمد عليها الدولة في ادارة دفة الأمور في البلاد . وحتى عندما كانت المناصب وراثية في هذا النظام البيروقراطى فان زعماء العائلات المترابطة كان يحرم عليهم أن يتولوها ، وكانت الممالك الزنجية جميعا ممالكا أوتقراطية وكان للملك فيها سلطة منح الحياة والحكم بالموت ، كما كان الملك أعلى السلطات التي تستأف إليها القضايا لأن تحقيق العدالة كان من أعظم مهام منصبه . وبينما كانوا ينظرون الى رحمة الملك بعين الرضى ، فانهم كانوا يعتبرون عدم استخدامه لسلطته بشيء من الاستبداد ضعفا ووهنا . وكان شخص الملك مقدسا دائما ، كما كانوا يعتقدون أن حالة الملك الجسمانية لها أثرها على رفاة الدولة ، ولضمان ذلك فكثيرا ما كانت توجد نصوص رسمية تنص على قتل الحكام المرضى أو الذين أنهكتهم الشيخوخة .

وفي كل مكان ، كان الأسلاف المملكون موضع عبادة وطنية عامة ، وكانوا يقومون بالسهر على حراسة المملكة . وكان المقر الملكى دائما فخما وعلى نطاق كبير ، ولهذا كان يتلج الكثير من الدخيل الوطنى . كان يشمل الحراس وعددا كبيرا من موظفى البلاد ومئات من الزوجات . وبالرغم من أنه كان من النادر أن يتم عزل زوجات الملك عزلا تاما ، فقد جرت العادة بحراستهن لمنع الزنا . ولم يكن لدى أى مملكة من الممالك الزنجية هيئات تشريعية أو أى هيئة أخرى لتمثيل الشعب في ادارة الحكومة . وبالرغم من أنه كان للملك دائما مجلس ، فان أعضاء هذا المجلس كان يختارهم الملك بنفسه وكانت مهمتهم استشارية بحتة . وكما كان الحال مع زعماء العائلات المرتبطة بروابط القربى فان أقارب الملك كانوا يبعدون عن تولى الوظائف . وكانت نساء المجموعة الملكية يتمتعن

في كل مكان بدرجة كبيرة من الحرية في علاقاتهن الجنسية ، وكان محرما عليهن انجاب الأطفال ، واذا ولد لواحدة منهن أى طفل فانه كان محرما عليه الانتساب الى المجموعة الملكية .

ويبدو من غير المحتمل أنه عند بحث الحضارة الافريقية ، وهو الأمر الذي يتوقع حدوثه في خلال القرن القادم ، فان الأفريقيين سيتجاهلون هذه النظم القديمة التي مرت عليها قرون طويلة . ومن الأمور المشكوك فيها بنوع خاص أنه سيكتب النجاح لأى محاولة لفرض الحقيقة الواقعة وادخال المظاهر الخارجية للحكومة الديمقراطية على الحضارة الافريقية .

القسم السابع

الشرف الأقصى

الفصل الثانی والثلاثون

الهند في عصر ما قبل التاريخ

تدين أوروبا بمرکزها كفارة من القارات للتحديدات الاغريقية ، بعكس الهند التي حرمت من مثل هذا المركز لنفس النظرة المحدودة . وتتساوى شبه جزيرة الهند من حيث الحجم تقريبا بأوروبا اذا ما استثنينا منها روسيا ، وعدد سكانها خمس مجموع سكان العالم . أما مناخها فيتدرج من القسم الثلجية الى الغابات الاستوائية المتكاثفة ، الى صحارى قاحلة لا تدانيها في قحولتها غير الصحراء الكبرى . وما من منطقة نعرفها على مدى العصور التاريخية تماثل شبه جزيرة الهند في الحجم وفيها هذه المجموعات الكبيرة ، والمختلفة ، من الأجناس واللغات والحضارات ، ولا يزال ذلك كله باقيا حتى الآن ، ففيها قبائل ما زال أفرادها يعيشون على الصيد وجمع الطعام ، وهي لا تبعد أكثر من مائتين أو ثلاثمائة ميل من المدن الكبيرة الحديثة ، كما أن أكبر مصانع الصلب في العالم تقع على مقربة من قرى يعيش فيها صناع يصنعون بأيديهم ما تحتاج اليه القرية ، توارثوا هذه الحرف عن جدودهم وما زالوا يزاولونها بأساليب كانت تعتبر أساليب عتيقة عندما أغار الاسكندر المقدوني على اقليم البنجاب . ولا يمكننا أبدا أن نصف مثل هذه البلاد وصفا كافيا في مجلد واحد ، فما بالك اذا ما حاولنا ذلك في فصول قليلة . ولهذا فإن الضرورة تقتضي أن نقصر مناقشتها الحالية على عناصر الحياة الهندية التي تساعدنا على وضع هذه الحضارة في مكانها اللائق بها بين حضارات العالم ، والدور الذي لعبته في أخذها وعطاؤها للعناصر الحضارية .

وتعتبر الهند من الناحية الجغرافية أكثر عزلة من أى جزء آخر فى أوراسيا . فقد عزلتها جبال الهملايا الهائلة من ناحية الشمال عن بقية القارة وأصبحت لها حصنا ضد الغزو شبيها بخط ماجينو . ويقع الطرف الغربى من هذا الحصن فى صحارى وجبال بلوخستان (Baluchistan) ، فى حين نرى غابات ومستنقعات آسام المنيعة قد دعمت طرفه الشرقى . وكأى خط دفاع لا يدخله التجديد لم يستطع هذا الخط أن يصمد فقد تمكن الغزاة من اختراق جبال هملايا أكثر من مرة . وبصرف النظر عن هذه التحصينات التى على الحدود أثبتت الهند ، باتساع رقعتها وعمقها ، انها كانت خط دفاع آخر أكثر مناعة . وقد كتب قائد مغولى أغار على وادى السند يقول « ان هذه بلاد شريرة . فماؤها ردىء وشمسها تقتل الرجال » . وقد وجدت الموجات المتعاقبة من المغيرين الشماليين نفسها فى أرض مزدحمة بسكانها الذين عاشوا فيها وقتا طويلا ، وأدركوا أنه رغم مهارتهم الحربية والسرعة التى تم بها غزوهم فى البداية انه ما زالت أمامهم حروب لا تنتهى ضد المناخ وضد الأمراض . وكان السكان القدامى دائما يخرجون أحسن حالا بعد ذلك الصراع البطيء والمستمر من أجل الحياة ، ذلك الصراع الذى كان يعقب كل غزو أو احتلال جديد . ولم يكن أمام الغزاة من فرصة للحياة الا بمزج دمائهم بدماء الشعب المقهور وقبول الكثير من أساليب الحياة الهندية . أما أحفادهم فقد أصبحوا جزءا لا يتجزأ من الهند ، ووجدوا لأنفسهم مكانا فى كل من المجتمع والدين الهنديين اللذين كان لهما كيان محكم ومرن . وبلغ النظام الفيسيفسائى الذى ذكرناه آثما عند حديثنا عن الشرق الأدنى أوج عظمته فى الهند ، حيث حلت مشكلة التشابه الكامل فى الحضارة بالتوفيق بين عدد لا يحصى من المجتمعات الفرعية ذات الأصول المختلفة لتصبح صورة متماسكة لها فى مجموعها شكل واضح ولكن لكل وحدة منها مكائتها الخاصة تحميها القوانين الدينية ووجوه نشاط خاصة بها . ويفضل هذا الأسلوب استطاعت الحضارة الهندية أن تحتفظ بكيانها

كوحدة حضارية مستقلة لها مميزاتا لمدة ثلاثة آلاف سنة . لقد اقترضت هذه المدينة كثيرا جدا من المدنات الأخرى ، وهى تشبه فى ذلك جميع المدنات الأخرى ، ولكنها كانت تختار لنفسها ما تقرضه ثم شكلت ما اقترضته ليتلاءم مع أساليبها ونظمها الخاصة .

ويرجع جزء من السبب فى الاختلافات الهندية الى العوامل البيئية الطبيعية، فشب جزيرة الهند مقسمة الى أربع مناطق جغرافية . ففى أقصى طرفها الشمالى حيث توجد منحدرات جبال الهملايا ذات الغابات الكثيفة لا يعيش الا عدد قليل من السكان . وبين جبال الهملايا وجبال فيندهيا Vindhya الواقعة الى الجنوب منها تقع منطقة وديان أنهار خصبة وسهول ، وهى المنطقة التى يقول عنها الهنود أنفسهم انها قلب وطنهم ، وهى المنطقة التى اتخذت فيها الحضارة الهندية شكلها التاريخى . وحتى « أرض الأنهار الخمسة » (البنجاب) فانها ليست ذات مناخ واحد . ففى الناحية الغربية يقع وادى السند — وهو منطقة كانت تكثر فيها الغابات فى الماضى وكانت مهدا لحضارة عظيمة — ولكن فى عصرنا الحاضر تجردت هذه المنطقة من الغابات ، كما أن سقوط الأمطار فيها لا يسير على قاعدة ثابتة يمكن الاعتماد عليها ، مما جعل الزراعة أمرا مستحيلا فى أماكن كثيرة ، كما جعلها تعتمد على الري فى المناطق الباقية . وفى الناحية الشرقية يقع وادى الجانج بأقطاره الغزيرة ومناخه الشديد الحرارة ، وبين الاثنين نجد منطقة قليلة الأمطار يسودها مناخ موسمى متقلب بين جو استوائى حار وآخر معتدل بارد . وجنوب جبال الفيندهيا تشغل المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة هضبة عالية نسبيا هى هضبة الدكن وتحدها من الشرق ومن الغرب جبال عالية هى جبال غات التى تسير موازية للسواحل ، ثم تتحد فى أقصى الطرف الجنوبى ويصبح اسمها هناك تلال نيلجيري Niligiri وساعد ارتفاع الهضبة على جعل المناخ المعتدل يسود المنطقة وهو أمر ما كان يحدث لولا ارتفاع الهضبة ، اذ لولا ذلك لأصبح المناخ مناخ المناطق الحارة . هذا ، وقد أثر وجود جبال الغات على الرياح الموسمية التى تسود المنطقة

فجعلت نزول الأمطار فيها معتدلا . وكانت المنطقة مغطاة في الأصل بغابات غير كثيفة من الأشجار التي تساقط أوراقها في بعض فصول السنة . وعلى طرف شبه الجزيرة ، بين جبال الغات والبحر سهل ضيق فيه عدة بحيرات داخلية ، وهذه المنطقة من أشد المناطق حرارة وأغزرها مطرا وتشبه من ناحية أثر البيئة على النبات والحيوان شبه جزيرة الملايو وأندونيسيا . فمتحدر جبال الغات المتجه ناحية البحر مغطى بغابة استوائية كثيفة ، وقد نجح بعض السكان الذين يعتبرون من أكثر سكان الهند تأخرا في حضارتهم ، ان لم يكونوا من أكثر سكان العالم تأخرا ، في العيش في هذه المنطقة . وتعيش في السهول الساحلية وعلى هضبة الدكن مجموعات متحضرة يثبت طابعها الجسماني كما تثبت لغتها أنهم من السكان الأصليين . والرياح الموسمية هي أهم ظواهر المناخ الهندي وهي التي تؤثر على القارة بأسرها .

وفي الهند ثلاثة فصول مناخية فقط : فصل بارد جاف يبدأ في أكتوبر وينتهي في فبراير ، وفصل حار جدا وجاف ويبدأ في مارس وينتهي في يونيو ، ثم فصل مطير يستمر من يوليو حتى سبتمبر ، وهي الشهور الأربعة التي تسقط فيها الأمطار التي تعتمد عليها الزراعة في كل أنحاء الهند . وتصل الرياح المشبعة بالرطوبة التي تكونت بعيدا فوق المحيط بين الهند وإفريقيا الى ساحل المالابار في جنوب غربي الهند حوالي منتصف مايو ، ومن هناك تسير بانحراف عبر شبه الجزيرة الى أن تصل الى خليج البنغال حيث يزداد تشبعها بالرطوبة وتسقط أمطارا غزيرة جدا على بورما وعلى أقاليم البنغال وأسام في شمال شرقي الهند .

وتسبب جبال الهملايا في تغيير اتجاه الرياح الى ناحية الشمال الغربي حيث تمر ببطء عبر شمال الهند ثم تقل الأمطار كلما اتجهنا الى الغرب . وتصل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الى هذه المنطقة عادة بعد مضي ثلاثة أسابيع من بدء هبوبها على الجنوب ، ثم تنتهي حوالي أول سبتمبر حيث تبدأ الرياح

الموسمية الشمالية الشرقية في الهبوب ، وهى الرياح التى تهب من داخل أوراسيا وتمر فوق الأراضى الجرداء ، ويصاحبها هواء بارد مع قليل من الأمطار أو لا تصاحبها أمطار على الإطلاق ، وهذه الرياح هى التى تسبب الشتاء المعتدل فى شبه جزيرة الهند . أما الطرف الجنوبى من الهند فهو المكان الوحيد الذى لا يسقط عليه الا القليل من الأمطار . وبسبب طول فصل الجفاف ، كان الرى معروفًا فى الهند منذ عصور ما قبل التاريخ . ومع ذلك ، فإن كلا من المحصولات والسكان يعتمد اعتمادا كبيرا على هبوب الرياح الموسمية ، وقد أظهرت التجربة أن سقوط الأمطار فى معظم أجزاء الهند يكون غير كاف بمتعدل سنة كل خمس سنوات تقريبا بينما يكاد ينعدم سقوط الأمطار فى عام كل عشرة أعوام ، وهو الأمر الذى يهدد دائما بحدوث مجاعة . وقد كانت هذه المجاعات المتكررة حلا قاسيا وان كان حاسما لمشكلة تضخم السكان فى الهند ، وهى المشكلة التى لا يوجد لها الى الآن حل آخر أرحم من ذلك الحل .

ومن وجهة نظر عالم الأجناس الاجتماعى فإن الهند بلد لا يعانى من مشكلة الأجناس لأن الطابع الجسمانى قلما يدل بمفرده على المركز الاجتماعى . وبالرغم من أن كلمة فارنا (Varna) التى تعنى اللون هى الكلمة التى تدل فى اللغة السنسكريتية على التقسيمات الأربعة الرئيسية فى نظام الطبقات ، وان التفسير القديم لوجود الطبقات هو أن ذلك النظام وضع ليحمى المجموعة الآرية الحاكمة من اختلاطها مع غيرها بالزواج بمن هم أقل منها ، فإن البراهمة ذوى اللون الداكن فى جنوب الهند الآن ليسوا بأقل أرستقراطية بسبب لونهم ، كما أن بعض المنبوذين ذوى الجلد الأبيض والعيون الرمادية فى بعض مناطق شمال الهند لا يرفعهم لون بشرتهم الى فوق مستواهم الاجتماعى ، ومع ذلك فاللون القاتح للجلد هو مقياس الجمال بين الهنود كما هو الحال بين الزوج الأمريكين .

ومن ناحية التطورات الجسمانية فى دراسة علم الأجناس نجد أن الهند

تمدنا بعدد غير قليل من المشاكل المدهشة . فان التطورات الحديثة في دراسة الأجناس ، وهى التى تميل الى الأخذ بنظرية التغير السريع بدلا من النظرية القديمة التى تقول بالبقاء طويلا دون تغيير ، قد زادت من التعقيدات بدلا من أن تنقصها . فقد كان من الصعب تفسير الاختلافات العنصرية الهندية عندما كانت الأجناس تعتبر ذات كيان محدد . أما الآن وفى ضوء النظرية الحديثة التى تقول بأن الأجناس يمكن أن تتغير عن طريق عدد كبير من التأثيرات البيئية التى لا نعرف عنها الا الشيء القليل ، وان أنواعا بشرية جديدة يمكن أن تأتى الى الوجود عن طريق تثبيت الخصائص التى تنتج من اختلاطها بالتزاوج يفتح مجالا واسعا للدراسة لا حدود له ، فان الأحوال الاجتماعية فى الهند تناسب تمام المناسبة ايجاد عدد كبير من السلالات الانسانية . ومن بين الأشياء التى لم يتحول عنها نظام الطبقات فى الهند هو ضرورة الزواج من داخل الجماعة . وفى نفس الوقت كانت أى جماعة جديدة تأتى الى الهند تتحول الى نظام الطبقات فى الحال .

أما الغزاة الذين دخلوا الهند وهم على جمل بنظام الطبقات واتخذوا لأنفسهم محظيات من السكان المحليين ، فقد تحولوا خلال أجيال قليلة واتبعوا العادات التى كانت سائدة هناك فى نظام الطبقات ، وساعدوا دون أن يشعروا بذلك على ادخال بعض مميزات سلالتهن الى الهند . كما أن جماعات العصابات المغامرة التى فرضت سيطرتها على بعض المقاطعات فى عصور القوضى والاضطراب ادعت لنفسها حقوقا طبقية دون أى اعتبار لاختلاف أجناسهم الأصلية . وأخيرا ، كان كل مصلح دينى يظهر فى الهند يبدأ باتكار نظام الطبقات ويرحب بالمؤمنين بتعاليمه من كل المناطق ومن كل طبقات المجتمع ثم لا تلبث طائفته الدينية حتى تتحول الى طبقة أخرى بعد أجيال قليلة . زد على ذلك أنه لما كان لكل طبقة مبادئها الخاصة بالماكل ، ولها ملابسها وتقاليدها الاجتماعية الخاصة بها بما فى ذلك قواعد الزواج ، فان فرص التبادل والاتحاد فى المؤثرات

الوراثية والبيئة كانت ممكنة الحدوث الى أبعد حد ممكن . وما يشاهده الانسان في الوقت الحاضر ، لو أراد دراسة نظام الطبقات الهندي كمجموعات محلية ذات أثر فعال قام على أساسها ذلك النظام ، فانه يجد بين أفراد أى طبقة من هذه الطبقات ، حتى ولو لم تظهر الا من قرون قليلة ، يجد بينهم شيئا من الشبه العائلى .

ولا شك أن الهند يمكن أن تكون أحسن ميدان في العالم لدراسة الطرق الفعالة في التطور الانساني لو عرف المرء بالضبط العناصر الجنسية التي شاركت في تكوين السكان الحاليين . ولكن لسوء الحظ ، فان جميع المحاولات التي بذلت لمعرفة حقيقة تاريخ الأجناس في الهند يقوم أكثرها على الفروض ، ويبدو أن الأمر سيظل على ذلك في المستقبل . فعادة حرق جثث الموتى عادة قديمة بكل تأكيد في معظم أنحاء الهند ، وبالرغم من أن لها مميزات ذوقية وصحية الا أنها لا تساعد على الاطلاق أى مشتغل بدراسة الاتربولوجيا وتاريخ الأجناس في أى منطقة هناك .

ولن يمكننا أن نصور لأنفسنا التاريخ القديم لأجناس الهند الا على أساس المعلومات الحضارية وأوجه الشبه في الناحية الجسمانية بين الهنود في الوقت الحاضر ، وبين غيرهم الذين يعيشون في مناطق أخرى .

ولو عملت في الهند بحوث باليوتولوجية على نطاق واسع مثل تلك التي قام بها العلماء في أوروبا ، لأصبح من المحتمل العثور على أقدم الأجناس التي عاشت هناك ، وليس هناك ثمة شك في أن شبه الجزيرة كانت عامرة باستمرار منذ الوقت الذي لم يكن فيه الناس قد عرفوا عادة احراق الجثث أو أى طقس آخر من طقوس التخلص من جثث الموتى .

فمنذ العصر الميوسيني كانت الهند موطنًا لجماعات كثيرة العدد من القرود الشبيهة بالانسان ، من بينها ذلك النوع الكبير الحجم الذي كان يعيش على الأرجح على الأرض ويسمى « دريو — ييثيكوس (Dryopithecus) »

والذى كان يعتبر خير المرشحين حتى ظهرت الاستكشافات الافريقية الحديثة ، لأن يكون ذلك النوع من الرئيسيات الذى كان له الشرف أن يكون الفرع المباشر الذى تنتسب اليه طلائع الانسان أو ما يسمى تحت الانسان . ان بعض الحوادث الجيولوجية مثل حالة ارتفاع جبال الهملايا قد سببت الاضطراب فى الحياة العامة لتلك القرود الشبيهة بالانسان ، كما يحتمل أيضا أن تكون قد أثرت على تطورها ، ولكن ليس هناك ما يشير الى أن تغييرات بيئية حدثت فى شبه الجزيرة وكانت من السعة بحيث تقضى على سكانها من الرئيسيات .

وحتى اذا فرضنا أن الهند لم تكن من بين المناطق التى تطور فيها جنسنا الانسانى فانها دون شك كانت من أولى المناطق التى احتلها أسلافنا من الانسان الذى يسير على قدميه ، وحتى فى وقتنا الحاضر ما زالت توجد فى جنوب الهند جماعات لا تختلف فى طابعها الجسمانى الا اختلافا ضئيلا عن ذلك الطابع الذى يتميز به انسان آل « وادجاك » (Wadjak) فى جاوة وهو أقدم نوع أمكن التعرف عليه من جنسنا البشرى . وما زالت أجناس عديدة لها نفس مميزات الانسان الذى يسمى عادة ما قبل الأسترالى أو الأسترالى الأقدم (Proto-Australoid) ، تعيش فى معظم المناطق الجنوبية فى الهند . هذا ويجدر بنا أن نذكر أن « بداءتهم » الجسمانية لا ترجع بحال الى تأخرهم الحضارى ، إذ أنهم فى حقيقة الأمر ، أتجوا وخلدوا مدنيات يمكن أن نقارنها بحق مع أى مدينة أخرى حققها القوقازيون الآريون فى شمالى الهند ، الذين اشتهر أمرهم .

وبما أن الهند تفتقر تماما الى وجود بقايا الهياكل العظمية القديمة ، فنحن مضطرون الى الاتجاه نحو التوزيعات الحالية للسكان كأساس لإعادة بناء تاريخ الأجناس فيها . ففي جنوب الهند نرى أن الكثرة العظمى من السكان لهم نفس الطابع المسمى ما قبل الأسترالى أو الأسترالى الأقدم الذى

سبقت الإشارة إليه ، أما في شمال غربى الهند فان الطابع الرئيسى هو الطابع القوقازى الذى يتميز به سكان البحر الأبيض المتوسط وهم لا يختلفون عن الطابع الغربى من هذا الجنس الا فى أنهم أطول منهم قامة بعض الشيء وأكثر منهم سمرة ، ومن الممكن أن تعلل هذه الاختلافات على أنها من نتائج الإقامة الطويلة فى بيئة استوائية أو شبه استوائية ذات شمس قوية . وفى نفس المنطقة وفى مناطق أخرى ممتدة على الساحل الغربى للهند ، يوجد عنصر ذو رأس مستدير لا يبدو أنه يرتبط بالمقاييس الجنسية الأخرى ، غير أن وجوده قد يرجع الى غزو من خارج الحدود الشمالية الغربية وهى منطقة لا زالت الرؤوس المستديرة فيها شائعة .

وهناك فى سفح جبال الهملايا يعيش عنصر مغولى قوى يمكن تفسيره بسهولة على أنه نتيجة لقودم بعض الشعوب عبر الحواجز الجبلية ومن آسام من ناحية الشرق . ويوجد المرء فى شمال شرقى الهند طابعا جسمانيا خاصا يمتاز بالجمع ما بين استدارة الرأس وسمرة اللون والملامح المغولية . ويمكن تفسير ذلك بأنه نتيجة للاختلاط بين الجنس الأوستراالى الأقدم والجنس المغولى .

وامتزجت هذه الأنواع المختلفة لتنتج أنواعا لا حصر لها من السلالات المحلية . وعلى وجه العموم ، فان الأوستراالى الأقدم هو أقوى العناصر فى جنوب الهند ، ثم تتجه بعد ذلك ناحية الشمال على طول الساحل الشرقى . وتعتبر العناصر المغولية أقوى العناصر فى وادى السند ، ويلوح انها انتشرت من هناك فيما يبدو ناحية الشرق وناحية الجنوب . وما من شك فى أن العنصر الأوستراالى الأقدم هو الذى كونا السكان الأصليين فى كل أنحاء شبه جزيرة الهند ، أما القوقازيون الذين من جنس البحر الأبيض المتوسط ، فقد كانوا على الأرجح أول الغزاة الذين غزوا هذه المنطقة ، لأننا نعرف من دراسة بقايا أقدم الهياكل العظمية التى كشفت هناك أن هذا الطابع قد اتصل بمدينة

وادى السند التى نرى فيها كثيرا من أوجه الشبه بمدنيات بلاد الرافدين والمناطق الأخرى الواقعة الى الغرب منها .

ويعتبر العنصر المغولى ، على ما يرجح ، آخر من دخل الهند من العناصر الهامة وقد استقر هنا عن طريق الهجرات التدريجية وليس عن طريق الغزو على نطاق واسع . وبالإضافة الى هذه العناصر الرئيسية ، توجد عناصر أخرى ثانوية لا حصر لها من الدم الأجنبى التى وفدت الى تلك المنطقة . فقد دخل الاغريق والساسانيون والمغول والفرس الزرادشتيون والفرس المسلمون والعرب والسوريون وأهالى الملايو والصينيون الى الهند ، وأسهموا بجيناتهم فى هذا المزيج العنى المختلف الأنواع .

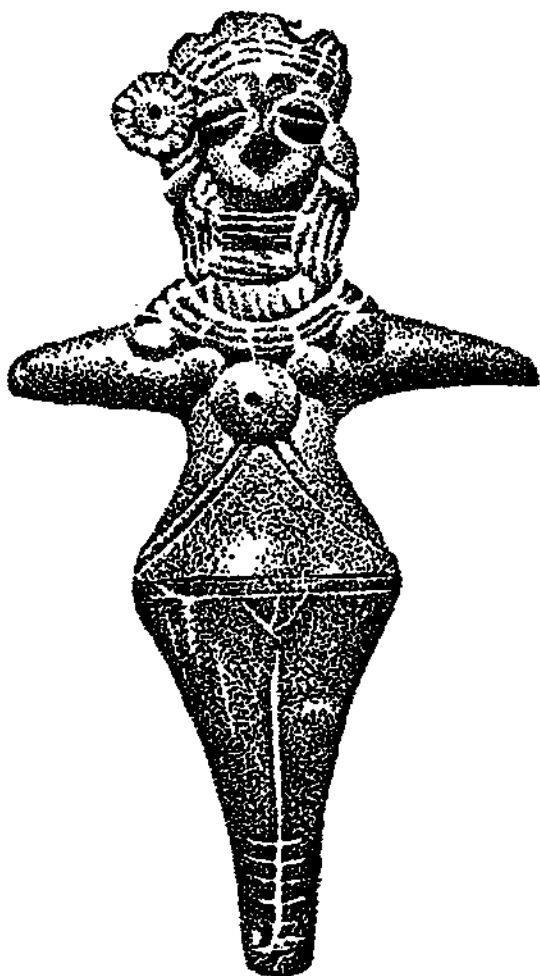
وما يثير العجب حقا ان العنصر الجنى الذى أدخله الآريون الفزاة لا يمكن التعرف عليه . فمن المفترض عادة انهم كانوا من الجنس الشمالى (Nordic) ذوى الشعر الأشقر ولكن من العبث أن يبحث المرء عن أى فئة باقية بين السكان تحمل مثل هذا الطابع ، اذ أن الحرارة والشمس فى الهند تجعلان البيئة غير ملائمة لذوى الشعر الأشقر ، فلو فرضنا أن هذه المجموعة الجنسية قد غزت الهند على نطاق واسع ، فقد اختفت دون أن تترك وراءها أى أثر .

أما موضوع اللغات فى الهند فهو بدوره موضوع معقد يشابه فى تعقيدِهِ موضوع الأجناس ولكن فى استطاعتنا اختزال المجموعات المحلية التى لا نهاية لها الى أصول رئيسية قليلة كما حدث فى موضوع الأجناس ، فأقل الجماعات ، وفى نواح معينة أكثرها أهمية ، هى جماعة الأوسترية (Austic) . فان لغات هذه الجماعة ما زالت منتشرة فى جنوب شرقى آسيا وفى المحيط الهادى . فالجماعات التى تتكلم بها فى الهند ، هى — دون استثناء — جماعات ذات حضارة بسيطة تعيش فى مناطق نائية مما يوحي بأن هذه الجماعة قديمة جدا فى شبه الجزيرة . فلغات المجموعة الدرافيدية منتشرة فى كل أنحاء الهند جنوب

نهر جودافارى باستثناء ال « براهوى (Brahui) » فى أقصى الشمال الغربى .
وجود بعض الكلمات الدرافيدية وأصوات المقاطع فى اللغات الهندو —
أوروبية المنتشرة فى شمال الهند يوحى بأن اللغات الدرافيدية كانت منتشرة
فى معظم أنحاء شبه الجزيرة . وأخيراً ، فإن اللغات الهندو — أوروبية أى اللغات
الآرية يستخدمها السكان فى أنحاء شمال الهند .

ويشير انتشار اللغات الدرافيدية بصفة خاصة الكثير من المشاكل الهامة
ويؤكد مرة أخرى أنه ليس من الضرورى أن يكون للطابع الجسماني واللغة
صلة فيما بينهما . فلو أن اللغات الدرافيدية كانت فى الأصل متصلة بالجنس
الأوسترالى الأقدم ، كما يوحى بذلك التوزيع الحالى ، فانه يبدو من المرجح
جدا أن السكان القوقازيين من سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط الذين
استوطنوا شمال غربى الهند قد تحولوا الى استخدامها خلال الفترة التى
تفصل بين وصولهم الى الهند ووصول الغزاة الآريين حوالى ١٥٠٠ ق . م .
ولو أن اللغات الدرافيدية ، من ناحية أخرى ، قد جلبها الغزاة من جنس منطقة
البحر الأبيض المتوسط الى الهند ، فإن المرء يجد نفسه وقد واجه مشكلة
أكثر صعوبة وهى كيفية تحول كل جنوب الهند الى استخدام هذه اللغة مع
العلم بأن ذلك المنصر الجنى لم يكن ذا أهمية كبيرة فى تلك المناطق فى أى
وقت من الأوقات .

وما زالت المعلومات التى لدينا عن الهند فى عصر ما قبل التاريخ معلومات
قليلة وغير واضحة على الاطلاق ، ومبنية على أساس أشياء أثرية عثر عليها
فوق سطح الأرض أكثر من قيامها على أساس نتائج حفائر منظمة . ومع ذلك
فهى تشير الى أن الهند منذ أقدم العصور ، كانت الأرض التى يتلاقى فيها
نوعان مختلفان من الحضارة تمام الاختلاف . ففى العصر البابليولىتى القديم
كانت شمال غربى الهند مركزاً لحضارة من حضارات بلطة اليد التى تنتمى الى
التقاليد المشتركة بين افريقيا وغرب أوراسيا . أما شرقى وجنوبى الهند فقد



احدى المبودات من وادى السند - ٢٠٠٠ ق . م .

كانت تنتشر فيهما تقاليد حضارات المهشم والشطفة التى كانت شائعة فى جنوب شرقى آسيا . ولا يمكننا فى الوقت الحاضر التعرف بدقة على الحد الفاصل بين الحضارتين اذ من المرجح جدا أن هذا الحد كان يتغير مع تغيرات الطقس ابان الحقبة التى تبلغ فى مداها عدة آلاف من السنين ، والتى عاشت فيها هاتان الحضارتان معا فى شبه الجزيرة . وربما يتوقع الانسان أن يكون توزيع كل منهما مرتبطا بأحوال بيئية معينة كأن تحتل حضارات بلطة اليد المناطق التى تشابه فيها البيئة الطبيعية مع البيئة التى تسود جنوب غربى آسيا ، وتحتل

حضارات المهشم والشطفة المناطق التي تشبه بيئتها بيئة جنوب شرقى آسيا أو أندونيسيا . لقد عثر على بقايا من العصر الباليوليتى الأعلى والعصر الميوليتى فى مناطق عديدة فى الهند ، ولكن لم يعمل حتى الآن الا القليل من البحوث حتى تيسر معرفة توزيعها أو مدى صلاتها الخارجية .

ونرى بوضوح فى بقايا العصر النيوليتى استمرارا للتأثير المزدوج لكل من حضارتى جنوب — شرق وجنوب غرب آسيا . فان الأدوات النيوليتية التى عثر عليها فى جنوب الهند وشرقها تمتاز بوجود أعداد كبيرة من أشكال مختلفة من القدوم والفأس مع ندره وجود أدوات حجرية مشطوفة ، ومعظم أشكال المطرقة تشابه نظائرها فى جنوب شرقى آسيا وفيها كل خصائصها ، كما نرى فى الأدوات النيوليتية التى عثر عليها فى شمال غربى الهند ، بما فيها من الأدوات الحجرية وبعض الأشكال الخاصة من الأواني الفخارية ، ارتباطا كبيرا بغربى آسيا . فمنذ وقت غير بعيد عثر فى مقاطعة مدراس فى جنوب الهند على مصنع أدوات نيوليتية ، واتضح من دراسة تلك الأدوات امتداد تأثير الحضارة النيوليتية الغربية الى الجنوب الشرقى . فبالإضافة الى المطارق والبلط والأزاميل قد احتوت أدوات مدراس على مجموعة كبيرة من الأدوات المشطوفة الصغيرة مثل السكاكين والمقاشط ورؤوس السهام وغيرها . والواقع أن هذه الأدوات لا تناسب التقاليد المشتركة فى جنوب شرق آسيا مع ما تمتاز به من اعتمادها الكبير على الغاب الهندى فى عمل القاذفات التى تقذف فى الهواء ، وفى عمل الأدوات القاطعة .

ويعتبر التقدم الكبير فى تشييد المنشآت الميجاليتية الظاهرة البارزة فى تكنولوجيا جنوب الهند إبان الفترة التى تبدأ من العصر النيوليتى حتى فجر العصر التاريخى ، فهناك مواقع ميجاليتية عديدة فى هذه المنطقة . ويقال انه يوجد فى منطقة هضبة الدكن وحدها حوالى مليون موقع تحتوى على دوائر وأحجار قائمة منتصبه (menhirs) وأخرى منبسطة تشبه المنضدة ومقابر

محفورة في الصخر ، ونلاحظ فيها انها مشيدة بأحجار بعضها قد سويت جوانبه والبعض الآخر على طبيعته . وتحتوي المقابر على هياكل عظمية ، الأمر الذي يدل على أن عادة حرق الجثث لم تكن قد بدأت بعد . هذا ، وكان الطابع الجسماني للسكان القدماء مثل طابع السكان المحليين في المنطقة حتى الآن وهو الطابع المسمى قبل — الأوستراي ووضعا مع الموتى بعض الأواني الفخارية الخشنة الصنع ، ومن الواضح أنها كانت أوعية للطعام المقدم كقرايين كما وضعوا معهم أيضا مجموعة من أدوات الزينة المصنوعة من الحجر ، وبعض الأسلحة . وفي الجزء الأخير من العصر الميجاليتي وضعت في المقابر بعض الأدوات المعدنية بكميات كبيرة ، وكان النحاس والبرونز والحديد والذهب مختلطة بعضها ببعض في تلك المواقع منذ البداية .

وقد شابهت حضارة جنوب الهند في العصور الميجاليتية حضارة دنج — صن في جنوب شرقي آسيا لأن كل حضارة من الحضارتين كانت مرتبطة بالمنشآت الميجاليتية . ولسوء الحظ يمكننا تحديد تاريخ معين لأى منهما بشئ من الدقة . ومع ذلك ، فمن المرجح أن صناعة الأدوات المعدنية قد وصلت الى جنوب الهند وجنوب شرقي آسيا بعد أن تم تطورها . ولكن حتى اذا صح ذلك ، فمن المرجح أن الهنود من أهالي الجنوب قد أدخلوا تحسينات على طرق من علموهم صنع الأدوات الحديدية على الأقل . وعلى قدر ما نعلم ، فإن جنوب الهند هو المكان الأول في العالم الذي كان يصنع فيه الصلب على حسب طرق معينة للحصول عليه ، كما أن الطرق البسيطة الفعالة التي استخدمت في انتاج هذا المزيج من الحديد والكربون لا زالت تستخدم في تلك المنطقة .

ويوحى عدد المواقع الميجاليتية وحجم الأحجار التي استطاعوا قتلها واقامتها بازدهام جنوبى الهند بالسكان في العصور القديمة . هذا ويبدو أن الزراعة كانت تمارس منذ أقدم العصور ، وقد أمكن التعرف على الأرز بين القرايين التي كانت توضع في المقابر الميجاليتية ، ويظهر انه كان من المحصولات

الرئيسية . ونظرا للاتصالات الحضارية مع جنوب شرقى آسيا فانه يبدو من المرجح أن أولئك الذين أقاموا المنشآت الميجاليتية قد زرعوا المحاصيل الجذرية والفاكهة التى كانت تزرع فى مركز حضارة جنوب شرقى آسيا ، والتى يصعب التعرف عليها من الناحية الأثرية ، كما كانوا يعرفون أيضا نظام الري واستخدامه . وليس لدينا من الشواهد ما نستدل منه على أنهم قد عرفوا المحراث أو أنهم قد استأنسوا الجاموس الذى بدونه لا يكون للمحراث الا أهمية محدودة عند العمل فى الحقول المروية .

ويعتبر وجود المدافن الجماعية هو الطريق الوحيد الذى يدلنا على شيء من تنظيمهم الاجتماعى أو السياسى ، إذ أن استخدام الجبانات ذاتها لفترات طويلة ، بالإضافة الى الانشاءات الميجاليتية ، وما كانت تحتاج اليه من يد عاملة منظمة ، يدل على وجود مجموعات كبيرة من المتصلين بصلة القرى ، نرجح انه لم تكن هناك دول مركزية ذات حكومات أوتوقراطية فى ذلك العصر . وبينما نرى فى جنوب الهند أن ما عثر عليه من الآثار يورثنا الحيرة والارتباك ، فان البحوث الأثرية فى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة يعطينا صورة متماسكة ذات اطار واضح دقيق . ونظرا الى أنه لم يمكن التعرف على وجود حضارات وادى السند الا منذ قرابة ثلاثين سنة فقط ، فانه ما زالت هناك ثغرات كثيرة فيما عثر عليه حتى الآن ولكن أعمال التنقيب القائمة الآن ، أو تلك التى ستنفذ فى المستقبل ، كميلة بأن تسد هذه الثغرات . فحوالى عام ٣٣٠٠ ق . م على أقل تقدير ، ان لم يكن قبل ذلك ، كانت فى وادى السند حضارة عظيمة تطورت فى القاعدة النيوليتية فى جنوب غربى آسيا ، وليس هناك دليل مباشر كاف على وجود جذور أصيلة لهذه الحضارة فى وادى السند نفسه لأن أعماق المستويات فى المناطق التى أجريت فيها أعمال الحفر كانت تحت مستوى الماء . ولكن الأشياء الأثرية الكثيرة التى عثر عليها فى جبلى بلوخستان وسيستان اللذين يجاوران وادى السند تدل على وجود

حضارات نيوليتية في هذه النواحي تشبه تلك التي عثر عليها في بلاد ما بين النهرين في العصور السابقة لنشأة المدن . وحتى لو فرضنا أنه ليس هناك أمل في كشف الدليل على أصل حضارة وادي السند والاتجاهات التي سارت فيها أثناء تطورها فإن هذه الحضارة نفسها تقيم الأدلة الكافية على اتساقها لحضارات جنوب غربي آسيا فانها على نمط هذه الحضارات في مرورها بالمرحلة المتعاقبة التي بدأت باستخدام النحاس ثم البرونز ولكنها زالت قبل معرفتها لمعدن الحديد . وكان القمح والشعير المحصولين الرئيسيين المستخدمين في الطعام ولم يثمر حتى الآن على الرز . وتوحي الرسوم العديدة للماشية ، وبينها بعض رسوم تمثلها وهي تستخدم في أعمال الجرب بأن الأساس الاقتصادي لحضارة هذه المنطقة كان مزيجا من الزراعة وصناعة الألبان . ويبدو أن العجلة والمغزل كانا معروفين لديهم منذ أقدم العصور ولكن يستحيل علينا أن نحدد ما اذا كان المحراث قد استخدم أو لم يستخدم لديهم ، اذ لم يعرف حتى الآن أى شيء يماثله أو رسوم تثبت وجوده ، وهذا على تقيض العربات الصغيرة العديدة المصنوعة من الطين أو من البرونز بطريقة الصب والتي كانت على ما يبدو للعبات المفضلة لدى أطفال وادي السند القدماء . وكانوا يطحنون الحبوب في أجران ، وقد عثر في أحد المواقع الأثرية على دوائر رصفت أرضيتها بالطوب المحروق الذي صقلته أجيال كثيرة من الأقدام العافية ، وكانت توضع في وسطها الأجران الخشبية .

ومن المحتمل أن يكونوا قد زرعوا القطن اذ عثر على ملابس قطنية . كما شكلوا من حجر الصوان والنحاس ثم البرونز بعد ذلك أشكالاً مختلفة ، ومن بين تلك الأدوات المطارق والبلط والمناشير التي تثبت فيها الأسنان ، ومن أهم ما عثر عليه هناك جزء من قطعة من مسطرة مصنوعة من البرونز عليها تقسيمات محددة بدقة مما يثبت أن سكان وادي السند كانوا على علم تام بالمقاييس

المضبوطة ، كما كانت هناك صنجات للموازين مصنوعة من البرونز مرتبة على أساس معقد .

والأواني الفخارية كثيرة العدد ، وحتى ما عثر عليه منها في أعماق المستويات في الحفائر كان مصنوعا على آلة الفخار ، وقد أجادوا احراقه . ومعظم الأواني الفخارية كانت أواني للطهى خشنة الصنع ، ولكن الأواني الجيدة الصنع منها كانت تدهن باللون الأسود فوق أرضية حمراء ثم تصقل بعد ذلك حتى يكاد سطحها يحاكي « اللاكيه » في صقله . أما الرسومات فإن أكثرها يمثل رسم الأزهار ، ولكنه قلما كان يظهر فيها شيء كثير من الابتكار أو الحيوية .

وكانت هناك تماثيل صغيرة لا حصر لها مصنوعة من الطين وأغلب الظن أنها كانت لعبا للأطفال . وقد عثر على معظم هذه التماثيل في منطقة واحدة ، مما يدعو الى الظن بأن ذلك المكان كان مركزا لصناعتها لأجل تصديرها . وقد عثر على كثير جدا من التماثيل النسائية غير المتقنة ، وهى عارية تماما ولا تلبس الا بعض أدوات الزينة ، وهى على الأرجح تماثيل للالهة الأم التى كانت مرتبطة بمعتقدات الاخصاب المنزلية . ومن الظواهر الغريبة في هذه الحضارة ندرة وجود الأشياء المنحوتة ، ومما يزيد الدهشة أن الأمثلة القليلة التى عثر عليها تدل بوضوح على مهارتهم الفائقة وبأسلوبهم الناضج المتقدم ، فمن بين ما عثر عليه جزء علوى من تمثال لرجل مصنوع من الحجر الرملى الأحمر وهو أكثر اتقاناً ومحاكاة للطبيعة حتى من التماثيل المصرية التى صنعت في ذلك العصر . وكان الرأس منفصلا والرقبة مجوفة مما يوحي بأنه كان لهذا التمثال رؤوس متعددة مما يذكرنا بالآلهة ذات الرؤوس والأذرع العديدة التى ظهرت بعد ذلك في الهند . ومن المحتمل أن معظم أعمال النحت الكبيرة الحجم كانت تصنع من الخشب ولهذا السبب لم تبق الى الآن .

وأهم الأعمال الفنية التى بقيت من تلك الحضارة هى تلك الأختام المسطحة

ذات الشكل المستطيل التي كانت تصنع من حجر جيرى أبيض سهل نحته ، وكانوا ينقشون فيها صورا لحيوانات أو كائنات ذات قوى فوق قوة الطبيعة ، اتقنوا صنعها بمهارة وحيوية فائقة . وجميع الحيوانات المنقوشة عليها هندية ، ولكن في الوقت الحالى لا توجد كلها في وادى السند . هذا ويعد الشكل الذى يمثل فيلا وفوق ظهره غطاء ذا أهمية خاصة ، اذ أنه يعتبر أول دليل على استئناس ذلك الحيوان ، وذلك الى جانب ذكر الفيل الذى يعلوه الغطاء ، الذى ورد ذكره في قصيدة جلجامش البطولية وهناك رسوم عدة تمثل أشجارا وحيوانات تنفياً بظلالها مما يشير الى عبادة الأشجار ، كما يحتمل أن يكون شكل الانسان ذى الوجوه الثلاثة الذى يجلس متأملا على نمط احدى طرق التمدد الهندية هو أصل شكل الاله سيثا (Siva) لذى ورد ذكره في العصور التاريخية فيما بعد . وعلى كثير من هذه الأختام نرى كتابات قصيرة مكتوبة بحروف لا تشبه أى حروف أو علامات معروفة مستخدمة في أى مكان آخر . وان الدقة التي رسمت بها هذه العلامات وعددها ، وهى أكثر من أن تكون حروفا أبجدية وأقل من أن تكون علامات مصورة ، تدل على أن حضارة وادى السند قد استخدمت المقاطع في الكتابة . ولم يمكن العثور حتى الآن على أى كتابات أخرى ، ومن الأسلم أن نفترض بأنهم كانوا يدونون كتاباتهم على مواد قابلة للفناء . وان الاناء الذى عثر عليه منذ وقت قريب وعليه نص مكتوب بحروف سومرية قديمة ، يبعث على الأمل في امكان العثور على نقوش مكتوبة بلغتين ، ومالم يتحقق ذلك فلن يكون لدينا أى مفاتيح لمعرفة اللغة التي كانوا يتحدثون بها .

والمدن الباقية من حضارة وادى السند ترينا مستوى عاليا من الحضارة أكثر مما توضحه لنا فنونها . فان هذه المدن كانت تخطط على صورة طرق مستقيمة متقاطعة منها طريق أو عدة طرق رئيسية متسعة توصل بينها طرق ضيقة . وليس هناك أى شك في أنها كانت تخطط أولا ثم تشيد المنازل بعد

ذلك ، وهو الأمر الذى استمر متبعا طيلة أيام التاريخ الهندى . ومن أهم ما كشفت عنه أعمال التنقيب تلك الظاهرة الغريبة وهى عدم وجود أى مبنى يمكن أن يقال عنه انه معبد أو قصر . وفى « موهنجو دارو » عثر من قاموا بالحفائر فيها على بقايا منطقة متسعة ومسقفة فوق أعمدة كثيرة ، ولكن لا توجد بها جدران داخلية ، مما يحمل على الظن بأنها كانت سوقا ، كما عثر أيضا على مبنى كبير يضم حجرات عديدة من المحتمل أنه كان مركزا اداريا . وعثر أيضا على حوض للسباحة واسع وجيد البناء تحيط به حجرات صغيرة تشبه حجرات تغيير الملابس . ومن المحتمل أن هذا الحوض كان يستخدم فى أحد طقوس الطهارة الدينية وهو يشبه ما يفعله الآن الهندوس الحاليون . ومن الصعب علينا أن نتصور أن مثل هذه الحضارة الفنية كانت تخلو من وجود المعابد ، ولعلمهم فى ذلك العهد البعيد كانوا يفعلون ما فعله الهنود فى العصور التالية ، اذ أن الهنود كانوا دائما يحترمون المتعبدين المتوحدين أو الذين يلجأون الى الغابة ليتعبدوا بعيدا عن الناس ، ولهذا ربما كانت تقام طقوس العبادة فى هياكل على حافة المناطق الآهلة بالسكان .

لم تكشف حتى الآن الا منطقة واحدة لدفن الموتى وهى تحتوى على أوان بها رماد أجداث الموتى وبعض أجزاء العظام ، مما يدل على أن عادة الاحراق كانت تمارس فى ذلك الوقت . ومما يثير الدهشة أيضا خلو المدن التى حفرت من القصور ، الأمر الذى يصعب تفسيره ، وخير تفسير لذلك هو أن يفترض أن ما عثر عليه من مدن حتى الآن وأجريت فيها أعمال الحفر والتنقيب هى من مدن الأقاليم ، وأن عاصمة تلك الحضارة ، التى كانت تسمى امبراطورية بحق ، ما زالت لم تكشف بعد .

وكانت المنازل تتألف من طابقين عالين مبنيين بالطوب المحروق جيدا ، وكانت الجدران تغطى بطبقة من الملاط أو ترش بالجير ، ولكنها تفتقر تماما

الى الزخرفة ، وربما كانت الجدران الداخلية تغطى بالستائر ، أما الأثاث فقد كان لديهم الكراسى وربما أيضا بعض النضد والأسرة .

وكانت أول مدينة تجرى فيها الحفائر من مدن هذه الحضارة هى مدينة « موهنجودارو » التى خلت تماما من التحصين ، كما أن الكشف الذى دفع الكتاب القدامى الى عليها خلت أيضا من وجود الأسلحة ، الأمر الذى دفع الكتاب القدامى الى رسم صورة مجتمع مسالم مثالى . ولكن الحفائر التى أعقبت ذلك أظهرت بوضوح أن بعض المدن كانت مسورة ، وأن مدينة واحدة على الأقل كانت قلعة محصنة ، بل أن مدينة « موهنجودارو » نفسها عثر فيها على ما يشهد أن المدينة كانت قد هوجمت وتعرض سكانها للقتل .

ولم تقتصر حضارة وادى السند على وادى السند وحده ، بل عثر على أماكن أخرى من هذه الحضارة فى بلوختان وفى سيستان ، بل وامتدت جنوبا حتى كافيواز كما ظهرت بعض الأدوات التى تنتمى أصلا الى حضارة وادى السند فى وادى الجنح ، ولكن لم يعثر هناك حتى الآن على أى مناطق أثرية يمكن أن نقول انها تابعة لحضارة وادى السند ، الأمر الذى يوحي بأنه حتى فى ذلك الوقت البعيد كان التقسيم الثنائى القديم فى التقاليد المشتركة بين جنوب شرقى آسيا وجنوب غربى آسيا ، معروفا فى ذلك العهد .

وفى معظم مدن حضارة وادى السند نجد أن أعماق المستويات أصبح الآن تحت مستوى المياه الجوفية ويتعذر اجراء الحفائر فيها . ومع ذلك فإن هذه الحضارة ترجع فى تاريخها الى عام ٣٣٠٠ ق . م دون شك وذلك بمقارنة تاريخها بتاريخ مدينة بلاد ما بين النهرين . لقد أظهرت هذه الحضارة شيئا كثيرا من علامات الاستقرار ، ويلوح أنها وصلت الى أوج تقدمها فى العصر الذى وصلت اليه هذه المعلومات عنها . وأعقب ذلك تدهور تدريجى فى هذه الحضارة وانخفاض فى عدد السكان كما أن السكن فى معظم تلك المدن قد قارب نهايته بل وانتهى حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م . وهناك من الأسباب ما يدعونا

الى الاعتقاد بأنه قد حدثت تغييرات مهمة في المناخ في الفترة التي تفصل بين بدء تطور هذه الحضارة وبين زوالها . فان الطوب المحروق الذي كانت تبني منه جميع المباني ، حتى المساكن العادية ، يتطلب الكثير من الأخشاب اللازمة للوقود ، على حين نرى في طريقة تشييد المنازل ، وعمليات تصريف المياه في الشوارع الكبيرة ، أن عملية تصريف مياه الأمطار الغزيرة كانت مشكلة من مشاكل أولئك الناس . ولهذا فمن المرجح أن الطقس في العصر القديم كان أكثر أمطارا مما هو الآن ، كما أن الغابات كانت دون شك أكثر اتساعا وقد أسهمت عمليات اقتلاع أشجار الغابات واجهاد الأرض عن كثرة الري وعدم الصرف ، فان هذه العوامل بالإضافة الى تغير المناخ جعلت هذه المنطقة من العالم منطقة لا يستحب السكن فيها .

وتدل أعمال النهب والقتل التي وقعت في « موهنجودارو » على أن الضربة القاضية التي أصيبت بها جاءت على أيدي غزاة من الهج المتوحشين . ولكن اذا سلمنا بذلك ، فهناك اختلاف هام في التاريخ بين ذلك الغزو المفترض وبين عام ١٥٠٠ ق . م . وهو الزمن التقريبي الذي يذكر عادة كوقت الغزو الآري . ولا يوجد بين الشعوب التي غزت الهند شعب كثرت عنه الأقوال أكثر من الشعب الآري ، وأصبح الكثير من الناس يعتقدون بشأنهم اعتقادات يؤمنون بها كما لو كانت معتقدات دينية . والرأى المسلم به هو أنهم وفدوا الى الهند حوالي عام ١٥٠٠ ق . م . وأنهم قتلوا أو استرقوا السكان الوطنيين ، وأقاموا نظام الطبقات حتى يضمنوا لقاء دمهم ، ثم تحولوا بعد ذلك من الحرب الى التصوف الدينى وأحدثوا تلك المجموعات من الآلهة ، وتلك النظريات التي قامت عليها جميع نظم الفلسفة الهندية التي ظهرت فيما بعد ، وأصبحوا أسلافا لأعظم المجموعات الثلاث التي تحتل أرفع مكانة في هذا التقسيم الطبقي ، كما انتشرت لغتهم في معظم أنحاء الهند .

لقد قامت هذه الآراء على أساس الدراسة التي تؤمن بصحة كل ما ورد

فى الآداب السنسكرىتية ، ولىس على أساس الدراسة النقدية . لقد أعطى
 الآريون لغتهم لشرق ووسط الهند ولكن فيما عدا ذلك يجب أن توضع تلك
 الآراء على بساط البحث لمناقشتها وقدها . فالآدب نفسه يحتوى على الكثير
 من المتناقضات ، وأصبح فى مقدورنا الآن أن نعيد النظر فى تلك الصورة على
 أساس ما وصل إلينا من معلومات كثيرة عن الهند قبل الغزو الآرى وعن
 الآريين أنفسهم عندما وفدوا الى الهند . فالغزو الآرى للهند ، هو قبل أى
 شىء آخر واحد من سلسلة الهجرات التى قامت بها الشعوب التى تتكلم اللغة
 الهندو — الأوروبية من شرق أقاليم الاستبس الى مناطق أكثر حضارة من
 منطقتهم الأصلية . لقد كان لأولئك الغزاة فى كل مكان آداب كثيرة ، وكانوا
 يتداولونها عن طريق الرواية اللفظية ، وإن هذه الآداب المختلفة تنفق على
 إعطائنا صورة لحياتهم ، فيها ملامح مشتركة مما يجعلنا نكون فكرة عن
 حضارتهم الأصلية بقدر كبير من الدقة . والصورة التى يمكننا أن نصور بها
 ذلك المجتمع هى أنه مجتمع يتكون من قبائل تحيا حياة شبه بدوية ، ويغيرون
 على الآخرين لسرقه ما لديهم من ماشية ، وكثيرا ما كانوا يغيرون على غيرهم
 وهم يمتطون عربات السباق . وكانوا يدمنون الشراب والميسر ولا يفكرون فى
 الكائنات ذات القوى الخارقة للطبيعة الا وقت الحاجة فقط . وحتى فى هذه
 الحالة كانت تملكهم الشكوك فى جدوى عباداتهم وكانوا يلجأون الى التسليم
 بالقضاء والقدر تسليما يكاد يكون آليا ، يتمثل فى قول « بيولوف » الذى
 كانوا يرددونه كثيرا : « ان القدر يذهب الى أى مكان يتحتم ذهابه اليه »
 ومن السهل أن تتصور أن هؤلاء الناس يمكن أن يستقروا ويصبحوا مزارعين
 قانمين ، كما تصورهم الآداب الآرية على مثل هذه الحالة فى الهند ، ولكن
 من العسير أن تتصور أنهم يستطيعون أن يتحولوا الى قوم يميلون الى
 المناقشات الفلسفية العميقة أو تنشأ بينهم أساليب حياة النسك والتقشف

واحترام النساك الذين يلتجئون الى الاعتزال في الغابة منصرفين الى حياة التأمل .

ان الأساس الذى يجب أن يقوم عليه تصورنا للحياة الآرية هو التناقض المباشر بينها وبين ما وصل اليها من حضارة وادى السند ؛ فقد تركت لنا حضارة السند ثروة كبيرة من الآثار التى ما زالت باقية ولكن لم تصل اليها أى وثائق مكتوبة ، ولكن الآريين فى الهند لم يتركوا لنا الا الشئ القليل جدا من الآثار ، ومع ذلك فقد خلفوا لنا ثروة كبيرة من الآداب . انها حالة قرينة من القرائن العرضية ضد دليل قاطع . فقد عثر على قليل من الأوانى الحجرية التى ربما كانت تستخدم فى طقوس تقديم القرابين التى جاء ذكرها فى القيدا ، ولكن لم يعثر حتى الآن على أى منطقة أثرية عاش فيها الآريون أو على أى جبانة دفنوا فيها موتاهم . أما الآداب التى بنينا عليها تصورنا للحياة الآرية فهى مكونة من أربع مجموعات تعرف باسم القيدا . فال « ريج قيدا » (Rig Veda) التى يجب أن تكون أقدمها جميعا استنادا الى دراسة اللغة التى كتبت بها ، تتكون من أناشيد ، كان بعضها يعنى والبعض الآخر يتلى عند تقديم الأضاحى والقرابين . وال « اثارفايدا » (Atherva Veda) هى أكثرها جميعا فى البدائية ولكن لها أهميتها فى الناحية اللغوية ، وهى كتاب للسحر أكثره تعويذات ورقيات ووصفات طبية . وال « ساما قيدا » (Sama Veda) مجموعة من الأغاني تستخدم عند تقديم القرابين ، وتشمل كثيرا من الأشعار التى وردت فى الريح قيدا ، مضافا اليها اشعار أخرى من عصور أحدث . أما ال « يا جوج قيدا » Yajung Veda فتتكون من مجموعة من ال « ماترا » (Mantra) أى صلوات وعبارات رمزية .

وسواء أكانت الكتابة التى كانت تستخدم فى حضارة وادى السند قد اختفت نهائيا أم أنها كانت الأصل الذى تفرعت منه الأبجديات الهندية التى ظهرت فيما بعد — وهو موضوع ما زال موضع نقاش بين العلماء — ففى

الحالتين يلوح أنه مرت على شمال الهند فترة طويلة لم يكن فيها الناس يعرفون القراءة والكتابة . وفى خلال هذه الفترة كان الناس يتناقلون الآداب القيدية عن طريقة التلقين الشفهي . وفى العصور التى تلت ذلك كانوا يصرون اصرارا قويا على نقل هذه الآداب قولا صحيحا ، وكانوا يعتقدون أن أى خطأ فى الأداء أو دس على النصوص الصحيحة الأصلية ، يسبب الموت لمن يقتطفه اذ يصيبه الموت من أسباب فوق قوى الطبيعة . وعلى أى حال ، فليس هناك ما يثبت أن مثل هذه التعليمات الشديدة كانت متبعة فى العصور المبكرة ، فضلا عن أن مرور ألف سنة على الأقل بين وضع الأناشيد القديمة فى الـ « ريج قيدا » وبين وقت تدوينها مدة كافية يهيم الفرصة لادخال بعض التغييرات . بل ان الـ « ريج قيدا » نفسها يجب أن يكون تم تأليفها فى مدى زمن طويل لأتنا نجد فى ثناياها نوعين مختلفين من الاقتصاد . فجزء من هذه الأناشيد يعكس أمامنا صورة من حضارة تقوم على اقتصاديات الالبان لقوم يحيون حياة شبه بدوية ، وتشبه هذه الحضارة شبا كبرا حضارة شعب منطقة الاستيس الشرقية ، فى حين يعكس البعض الآخر من هذه الأناشيد صورة حضارة تعم فيها الحضارة الزراعية والحياة المستقرة فى القرى ، ويميش أهلها فى بيئة غابات لم يكن فيها للماشية الا نصيب ثانوى من الأهمية . وخير تفسير لذلك هو أنه فى خلال الزمن الذى استغرقه وضع أناشيد الـ « ريج قيدا » كان الغزاة الآريون يلائمون أنفسهم للحياة الهندية وان الأناشيد المختلفة تعكس لنا حاجاتهم ونظراتهم تجاه المراحل المختلفة فى تلك الملاءمة .

فلا شك أن الغزاة الآريين عندما استقروا هناك دخلت عليهم عناصر كثيرة من الدم والحضارة من سكان البلاد القدماء ، ولكن يلوح أنهم لم يجبوا الاعتراف بذلك بل ويرفضونه فى صورة غير عادية . فمن أغرب ما فى القيدا أنهم كلما أشاروا الى السكان الأصليين يسمونهم الـ « داسيوس » (Dasyus) يصفونهم بأنهم ذوو لون أسود وأنوف فطساء . فاذا كان مثل هذا الوصف

ينطبق على بعض سكان جنوبى الهند من الجنس البروتو — أوستراالى
فلا يمكن أن ينطبق على سكان شمال غربى الهند ، وهم من جنس البحر
المتوسط الذين يتحتم أن يكونوا أول من التقوا واصطدموا بهم على ما نظن .
ويصفون الداسيوس فى بعض تلك الأناشيد بأنهم كانوا همجا متوحشين ، وفى
أناشيد أخرى نراهم يتهلون الى الآلهة لكى يساعدهم للاستيلاء على مدنها
وحصونها ذات الأسوار المشيدة من الحجر .

وما من شك فى أن حضارة السند كان لها فضل كبير على تطور المدنية
الهندية فى العصور التالية ، بل يستطيع الانسان أن يرى بوضوح كثيرا من
أوجه الشبه بينها وبين المدنية الهندية فيما بعد ، أكثر مما نراه بين هذه المدنية
الأخيرة وبين حضارة منطقة الاستيس التى أتى منها أولئك الغزاة . فحضارة
الاستيس تعتمد على تربية الماشية لقوم يحيون حياة شبه بدوية ، وهذا
ما يجعل الباحث يميل الى الظن بأنه فى خلال الفترة بين وصول الآريين واتمام
وضع القيذا حدث امتزاج بين الغزاة وبين من ظل باقيا من أهل حضارة السند .
ومن الأمور التى يحتمل حدوثها أنه فى وقت نمو الفولكلور المختلط يمكن
حدوث الخلط بين الصراع الذى كان بين أجداد من ظل حيا من حضارة السند ،
وبين السكان الأصليين من الجنس البرو — أوستراالى الذى كان فى شمالى
غربى الهند عند قدومهم ، وإن ذلك الصراع اختلط بالمعارك التى حدثت بين
الآريين وبين من بقى من سكان حضارة السند الذين كانوا عند قدوم الآريين
على حالة كبيرة من الضعف والتدهور الحضارى . ومن الممكن أن ألفاظ
« أسود » و « ذى الألف الأفتس » وغيرها أصبحت أوصافا مجازية تطلق
على الأعداء مثل التعبير بلفظ « الهون » (Huns) الذى كان يستخدمه
الأوربيون والأمريكيون عند اشارتهم الى الألمان أيام الحرب العالمية الأولى .
وربما كان هذا الافتراض افتراضا بعيدا ولكننا نرى شيئا شبيها له فى
الجزر البريطانية حيث صار شعب الـ « پكت » (Picts) موضوعا لكثير من

القصص الفولكلورية . فنحن نعرف من المصادر المعاصرة أن ال « پكت » كانوا في حقيقة الأمر من ال « جويدل » (Goidels) وكانوا من ال « كلت » (Celts) الذين كانوا في الأصل فرعا من حضارة ال « هليستات » (Helstatt) الذين وفدوا الى اسكتلندة من ايرلندة في عصر القوضى في آخر أيام احتلال الرومان لبريطانيا ، واستمروا بعد ذلك كجماعة مستقلة من الناحيتين السياسية والحضارية حتى القرن الخامس أو السادس بعد الميلاد . فمن ناحية المظهر الجسماني يلوح انهم كانوا يشبهون الاسكتلنديين من سكان السهول الواطئة ، اذ انهم كانوا طوال القامة ، ذوى شعر أحمر وفي وجوههم نقش . ولكن بالرغم من ذلك نراهم يوصفون في الفولكلور بأنهم قصار القامة ذاكنو الجلد متهورون يعيشون في الخفاء ، ويمارسون طقوسا مليئة بالقبح ، ويصنعون شرابا سريا ولكنه قوى المفعول جدا ، وهو جعة من نبات الخلنج . ولا يكاد يوجد شك بأن هذه التفاصيل ليست الا ذكريات شعبية عن سكان اسكتلندة الأصليين في العصر النيوليتي الذين تم التغلب عليهم منذ قرون كثيرة ، قبل أن ينفذ الى تلك البلاد الكلتيون الذين كانوا يستخدمون الأسلحة المصنوعة من المعدن .

لقد سبق أن وصفنا حياة الآرين الأوائل (انظر الفصل التاسع عشر) ، أما حياة الآرين في الهند في ختام العصر القيدي فانها كانت ، على ما يظهر ، شبيهة بالحياة الريفية في قرى الهند الشمالية في العصور التاريخية . لقد تضائل شمال غربي الهند حتى أصبح لا يعمل الا سكانا قليلي العدد متأخرين في حضارتهم . حتى وادي السند نفسه كان ينظر اليه كمنطقة اقلية فحسب وتحول مركز كثافة السكان ومركز النشاط الحضاري الى أعلى وادي البنج . وكان القمح والشعير المحصولين الرئيسيين ، وكانوا يربون الماشية ويحلبون لبنها ، ولكن أهميتها كانت ترجع الى كونها حيوانات تستخدم في الجر . كان المحراث والمجلة يستخدمان هناك منذ عهد بعيد ، وكانوا على علم بأكثر

المعادن المعروفة ويستخدمونها . وأصبحت الخيل حيوانات تستخدم في مظاهر الأبهة ، ولا تستخدم الا في القتال فقط . كانت كل عربة يركبها اثنان ويجرها جوادان ، ولكنهم لم يركبوا الخيل على الأرجح . وكانت الحروب بين الجماعات الآرية المختلفة مباشر بخفة ونشاط ولكنها بدأت تصبح حرفة يتخصص فيها صاحبها وتسير على أساليب خاصة للفروسية .

وفي القيدا المتأخرة نرى صورة مثالية لما يجب أن تكون عليه القرية ، فمن الواجب أن تشيد القرية في مكان في الغابة أزيلت أشجاره ، ويجب أن يكون تخطيطها مستطيلا ومحاطة بسور من قوائم خشبية ، ولها بوابة محصنة في منتصف كل ضلع من السور ، ويوصل بين كل بوابتين أمام بعضهما طريق واسع مستقيم بحيث يتقاطع الطريقان في وسط القرية . ويقوم في مكان تقاطع الطريقين مكان مرتفع يظله سقف من القش أو شجرة كبيرة ليكون ظلها مكانا لاجتماع الهيئة الحاكمة للقرية . وكانت هذه الهيئة مكونة من خمسة شيوخ يعرفون باسم « پنشيات » (Panchayar) . وفي داخل السطور طريق واسع يدور حول القرية كلها ، وكان يستخدم في المواكب . وكانت منازل القرية تبنى من الأغصان الملطوسة بالطين أو من الغاب الهندي (البامبو) ، وكانت سقوفها من القش المضفور . كانت الحقول المزروعة تنتشر حول المدينة في مساحات طويلة غير عريضة ، يعطى كل واحد منها لعائلة من العائلات . أما الأراضي التي كانت ترعى فيها الماشية فكانت مشاعا بين الجميع . وظل تخطيط المدينة على شكل مستطيل أمرا له قداسة دينية بين الهندوس فيما بعد ، وما زلنا نراه حتى الآن في بعض المدن الهندية التي توجد فيها معابد كبيرة .

ان الفارق الرئيسى بين العصور القيدية المتأخرة وبين العصور التاريخية هو فيما يتعلق بتكوين المجتمع والدين . لم يكن نظام الطبقات قد عرف بعد ، ولكن كان تقسيم السكان الى محاربين ومزارعين وصناع وكهنة معروفا بينهم وكان هناك تقسيم مشابه لذلك كان سائدا بين أقدم السكان الفرس الذين

كانوا متصلين بصلة القربى بالآريين الهنود القدماء ، ولكن لم يوجد في كل من النظامين طبقة تشابه طبقة المنبوذين التي ظهرت فيما بعد ، بل ان الكهنة أنفسهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت قد أصبحوا طبقة تختلف عن الطبقات الأخرى اختلافا واضحا . كان رئيس كل عائلة يقوم بدور الكاهن عند تقديم القرابين التي كانوا يكثرون في تقديمها طبقا لما تطلبت الديانة القيدية . كان براهمة ذلك العصر جماعة قليلة من المتخصصين الذين كانوا يقومون بدور المرشدين الدينيين للعائلات الأرستقراطية المحاربة الذين كانوا يحتاجون الى خدماتهم في المناسبات التي تتطلب أداء الطقوس الصعبة أداء صحيحا اذ كان الكهنة حتى ذلك الوقت يعتمدون على الطبقة الأرستقراطية المحاربة وكانوا يعتبرون أنفسهم أتباعا لهم .

وكان النساك يوجدون أيضا في آخر العصر القيدي . كانوا أفرادا يتجنبون الاتصال بالمجتمع العادي ولا يزاولون أى نشاط ، ووجدوا لهم مكانا يحقق لهم وحدتهم في الغابة ، وهناك كانوا يمطون الارشادات لأولئك الذين كانوا يشدون الوصول الى معرفة طبيعة الكون وطبيعة الانسان ، فمنذ أيام ذلك العهد البعيد كان الانسان نفسه هو موضوع الدرس والتأمل . فالفكرة الهندية المجردة التي ظهرت فيما بعد ، تلك الفكرة التي تقول بأن الحياة المادية ليست الا سرا با خادعا كانت فكرة معروفة لهم ، على الأقل ، في صورتها الأولى التي لم يكن قد تم تكوينها بعد . وكان القرويون المحليون يعملون النساك عن طيب خاطر ، اذ كان يسعد أولئك القرويين أن يمدوا أولئك النساك بالطعام ، والشئ القليل الذي عساهم يحتاجون اليه من مستلزمات الراحة في مناخ كمناخ الهند ، وذلك في مقابل القوائد السحرية التي تعل على تلك الجماعة بسبب وجود ذلك الناسك على مقربة منهم ، بل لقد وصل بهم الأمر الى الاعتقاد بأن مجرد لمس يده عندما يمدها لأخذ هدية منهم كان يغدق جزءا من قوته الروحية على مقدم الهدية .

كانت القرية الهندية في ذلك العهد مكونة من عدد من العائلات التي يتصل بعضها ببعض بصلة القرى عن طريق الاتساب الى فروع الذكور . وبالرغم من أن نظام العائلة الممتدة الكبيرة قد بدأ يظهر ، فإن مثل هذه الوحدات العائلية كانت قليلة العدد ، ولم تكن تستمر الا وقتا قصيرا . كانت العائلة القيدية النموذجية تقتصر على زوجة واحدة للرجل بالرغم من أن تعدد الزوجات كان مسموحا به ، وكان يزاوله من تسمح به حالته المادية . وكان الزواج في سن الطفولة غير معروف بينهم ، كما كان يسمح للأرملة أن تتزوج مرة أخرى . ولم يكن هناك مهر يدفعه الرجل لعروسه بل كانت الزوجة تحضر معها بائنة ذات قيمة الى العائلة الجديدة ، وكانت العادة أن يتزوج أبناء القرية من خارج قريتهم كما هو الحال في الهند في الوقت الحاضر .

كانت العشيرة تتكون من سكان بضع قرى يتحدثون فيما بينهم ، وكانت القبيلة تتكون من بضع عشائر . واستنادا الى ما ورد ذكره في الآداب القيدية كانت هناك في الأصل خمس قبائل آرية ، ولكن بعد وصولهم الى الهند زاد عددهم زيادة كبيرة . كانت العشائر المختلفة التي تتكون منها القبيلة مرتبة حسب أهميتها ، وكان من بينها عشيرة أو عشيرتان يتمتع أفرادها بأرفع مركز في القبيلة . وكان نظام الحكم في القبيلة نظاما ديموقراطيا في جميع مظاهره ، اذ كانت السلطات التشريعية والادارية في يدى مجلس من رؤساء العائلات . فاذا كان ال « پائشيات » الأصلي ، وهو مجلس الخمسة الذي جاء ذكره في ال « ريج فيدا » قد وجد حقا فقد اختفى لتحل محله جماعة أكثر عددا . ونظرا لأن الاجتماعات كانت علنية ، وليست لها صبغة رسمية ، فقد كان لدى القرويين فرص واسعة ليعبروا عن آرائهم ازاء جميع الموضوعات التي تهمهم ، فقد كانت التقاليد الديمقراطية قوية حتى في داخل النظام القبلى .

وكان الملك على رأس القبيلة ، وكانت الواجبات الملقاة على عاتقه هي الواجبات الملقاة على عاتق زعيم الحرب والمنفذ للقانون . كان المنصب في العادة

وراثيا في عشيرة معينة ، ولكن الشخص المفروض اختياره كان ينتخب من بين أعضاء رجال القبيلة . كانت الاتجاهات الديمقراطية ما زالت قوية ، وفي عدد قليل من القبائل كان الملك ينتخب في فترات معينة ، وظلت اتحادات القبائل وما فيها من مجالس للحكم باقية بينهم حتى القرن الرابع أو القرن الخامس قبل الميلاد . كانوا يسمحون للملك بأن يجمع ضريبة خاصة لنفسه في مقابل الواجبات الملقاة على عاتقه ، ولكن هذه الضريبة لم تتجاوز أبدا سدس المحصول . وعلى أى حال فقد كان الملك يحتفظ بمنصبه طالما كانت القبيلة راضية عنه ، فإذا أساء التصرف كان من حقهم عزله من منصبه . وبالرغم من أن نفوذ الملك زاد زيادة كبيرة فيما تلا ذلك من عصور فإن النظم الديمقراطية التقليدية ظلت متبعة في عدد من المناطق ، ومن الأمور المثاقفة التي تستحق الذكر أن الملكيتين اللتين جاء منهما كل من « الجوتاما بوذا Gautama Buddha » و « فاردامانا Vardhamana » مؤسس الديانة الجينية كانت كل منهما حتى وقت ظهورهما تدير على النظام الديمقراطي . ولما كانت محتويات كتب الفيدا تكاد تقتصر على الأمور الدينية فإن معلوماتنا عن هذا الموضوع في الوقت المبكر من الحضارة الآرية وافية الى حد كبير . كان مجمع المعبودات يسير بوجه عام على الأسلوب الهندو — أوروبى . وكان أعظم أولئك المعبودات هو المعبود « اجنى » (Agni) . إله النار الذى كان يقوم بدور الرسول بين الناس والآلهة والمعبود « اندرا » (Indra) إله السموات الوسطى وسحب العواصف ، الذى كان في الوقت ذاته إله الحرب ، وهو الذى كان يقود الآريين أثناء حروبهم مع الداسيوس . كان اندرا ، على ما يظهر ، هو المثل الأعلى للمحارب الآرى في أقدم العصور الفيدية . كان يقتحم حومة الوغى بقلب منشرح ويتمنطق بزردية من الذهب ، وفي استطاعته أن يأكل لحوم ثلاثمائة ثور ، ويشرب ثلاث بحيرات من شراب ال « سوما » دفعة واحدة وكانوا يعبدون الشمس في مظاهر مختلفة ، وتحت خمسة أسماء على الأقل .

كان « فشنو » (Vishnu) ، الذى أصبح فيما بعد فى الديانة الهندوسية أحد الآلهة الرئيسية الهامة ، من آلهة الشمس ولكنه لم يحتل إلا مكانة بسيطة فى مجمع الآلهة القيدية . وكانوا يعبدون السماء المترامية الأطراف تحت اسم « ديوس — يتر » (Dayous - Pitar) (قارن ذلك باسم جوبتر) : وكان معبودا خيرا رحيمًا ، أما المعبود « رودرا » (Rudra) الهه الموصف فقد كانوا يخشون بأسه أكثر مما كانوا يحبونه ، وفى المصور التالية وحدوا بينه وبين « سيفا » (Siva) أحد آلهة الثلاث الهندي .

وأخيرا ، كان « فارونا » (Varuna) وهو اله آخر للسماء ، ويتمثل فيه كل الفضاء الواسع ، هو أقوى الآلهة القيدية ، وكان يمتاز باقتراده من بينهم فى اهتمامه بسلوك الانسان ، وكانت الصلوات ترفع اليه لينفذ ذنوب المبتلهين اليه . كانت الأجرام السماوية عيونه التى بوساطتها يراقب أعمال الناس على الأرض ، ولم يكن يخفى عليه أى عمل من أعمالهم . كان الآلهة يطلبون تقديم القرابين اليهم من الحيوانات التى توضع فى النار ومن شراب ال « سوما » التى بالرغم من ذكرها المستمر فى الطقوس القيدية ، وإن كلا من الآلهة والناس كانوا يحبونها ويقبلون على شربها فإن كل ما نعرفه عنها انها كانت شرابا مسكرا يستخرجونه من عصير نبات لم يعرف نوعه حتى الآن . وكان المتعبدون يعتقدون أن الآلهة يأكلون القرابين وانها تغذيهم غذاء ماديا وكان « أجنى » رسول الآلهة يحمل اليهم وهم فى السماء خلاصة تلك القرابين فى دخان النار التى توضع فيها لاحتراقها .

لا يوجد فى كل ما ذكرنا حتى الآن سواء عن العقائد الدينية القيدية أو عن العقائد القيدية ما يخالف فى أى صورة من الصور حضارة أى شعب من الشعوب التى تتكلم اللغات الهندو — أوروبية التى خرجت من منطقة الاستبس الشرقية الى ضوء التاريخ ، ومع ذلك فإن عنصرا جديدا يظهر حتى فى ال « ريج فيدا » . ففى الكتاب العاشر توجد بعض أناشيد مجردة وفلسفية

ذات طابع يميزها ، نرى فيها فكرة ال « پوروשא (Purusha) ، وهو كائن عظيم يحيط بالكون من كل ناحية ويوجد متخللا في ثناياه . انه هو الكل ، ما كان وما سيكون ، وجميع الأكوان ، كما هي ، ليست الا جزءا من كيانه . وهذه الآراء المتعلقة بالوهية الكون نراها في أسس جميع الديانات والفلسفات الهندية التي ظهرت فيما بعد . ومن الصعب أن نعتقد أنها نشأت من عقول أولئك الناس القبلين غير المجربين ، قليلي التصور ، الذين يقولون في نشيد آخر في القيدا « ان اندرا يغور كالثور طالبا ال « سوما » الخاصة به » .

ونحن لا ندرى حتى الآن مدى فضل الآرين على الديانة الهندية فيما تلا ذلك من عصور ، ولكن فضلهم عليها أقل بكل تأكيد مما نسب اليهم الكتاب البراهمانيون . ولم يبق من جميع المعبودات الشيدية معبود ذو نشاط في الديانة الهندوسية المتطورة الا المعبود « قشنو » ، ومع ذلك فان صفاته تغيرت تغيرا يكاد يجعلنا لا نعرفه . ان عقيدة تناسخ الأرواح — وهي عقيدة أساسية في الديانة الهندوسية — يلوح أنها لم تكن معروفة للآرين الأوائل ، وكذلك أساليب النسك ، ووجود جماعة من الكهنة الذين يتوارثون مهتهم ، ويكونون جماعة تتحكم في غيرها بعلمها ومهارتها في صلتها بما هو فوق الطبيعة ، كانت كلها أمورا لا تتلاءم أبدا مع القيم الآرية القديمة . كما نعرف تلك القيم في حضارات أخرى خارج الهند . واذا اتجه الانسان مباشرة الى الدليل الأصلي متجاهلا التعليقات العقلية ، والتفسيرات التي قدمها الكتاب المتأخرون ، فانه يرى نفسه مضطرا للقول بأن غزو الآرين للهند سار على نفس الطريق تقريبا الذي سارت عليه معظم الغزوات الأخرى التي جاءت بعد ذلك . فقد كان يحدث عند كل غزو أن السيطرة السياسية والعسكرية تكون في يد الغزاة في مبدأ الأمر ، ثم يتبع ذلك استيعاب أولئك الغزاة ، وتظهر في الوقت ذاته نهضة جديدة للحضارة القديمة . ومن المحتمل أنه مع مرور الزمن لم يكن الغزو

الآرى أكثر من حادث من الحوادث التى حدثت فى ذلك العهد الطويل من حياة المدنية الهندية ذات الطابع الخاص .

والشئ الوحيد الذى يمكن تقديمه ضد هذا الرأى هو انتشار اللغات الآرية فى معظم بلاد الهند ، ولكن هذه المشكلة ليست مشكلة خاصة بالهند وحدها . ففى جميع المناطق التى غزتها الشعوب التى تتكلم اللغات الهندو — أوروبية نجح الغزاة فى نشر لغاتهم بالرغم من أن حضارتهم ، بل وحتى مظهرهم الجسمانى ، اختفى بعد وقت قليل . والمنطقة الوحيدة التى لم يحدث فيها ذلك هى منطقة بلاد ما بين النهرين حيث وجدت اللغات الهندو — أوروبية منافسا لا يقل عنها قوة ، وهذا المنافس هو اللغات السامية التى كانت هى الأخرى غريبة عن البلاد . أما عن السبب الذى يجعل بعض اللغات تستمر فى فترات تغير الحضارات بينما لا يستمر بعضها الآخر فان ذلك مشكلة من ألطف مشاكل القوى المحركة للحضارات ، وهى من بين المشاكل التى لم نعرف لها حلا حتى الآن .

الفصل الثالث والثلاثون

الهند في عصرها التاريخي المبكر

يصطدم أى باحث في التاريخ الهندى بحقيقة واضحة وهى عدم اهتمام الهنود أنفسهم بالتاريخ . ان تلك النظرة العامة الى الكون بأنه ليس إلا سرايا خادعا وان الحوادث تحدث فى دورات متتابعة لا يمكن الا أن تحيل صاحبها الى شخص لا يهتم بالتفاصيل الدقيقة عن الزمان أو المكان .

فالبراهمانيون الذين كانوا يحتكرون التعليم ركزوا اهتمامهم فى الفلسفة والدين أكثر من اهتمامهم بما يحدث أمامهم . زد على ذلك أنهم كانوا يقولون ان ما كانوا يقومون بعمله عادة ليست الا أشياء تمارس منذ القدم فأصبحت لها قداستها تبعاً لذلك ، ولهذا لم يهتموا أبدا بالتقدم الحضارى . ونتيجة لذلك يتحتم علينا أن نعيد كتابة تاريخ الحضارة الهندية اعتمادا على المادة العرضية التى نجدتها فى الآداب الرومانتيكية ، وللدينية ، ومن المبادئ الأثرية ومما كتبه الزوار الأجانب .

بل ان تاريخ الهند السياسى غامض فى كثير من النواحي ، ولا يحقق ما يتطلبه مستوى الدقة التى ينشدها علماء الغرب فى كتابة التاريخ الا بعد الغزو المسلم الأول . ان أسماء الأسرات الهندية ، وأسماء العدد الذى لا يحصى من الملوك الذين حكموا خلال الألفين والخمسمائة سنة ، وظهورهم واختفاءهم ، أمور لا معنى لها فى أكثر الحالات لمن يكون غير متخصص فى هذه الدراسة . ولهذا السبب فان الحوادث السياسية التى اقتصرنا على ذكرها هى الحوادث التى كانت ذات دلالة حضارية باقية ومستمرة .

واستنادا الى المصادر التي وصلت اليها من أقدم أيام العصر التاريخي يمكن تقسيم الهند كلها الى ثلاث مناطق . لقد اتصل شمال غربي الهند بالحضارة الغربية في القرن السادس قبل الميلاد عندما ضم الملك دارا الأول البنجاب والسند الى الامبراطورية الاخمينية الفارسية . وتلا ذلك غزو آخر لم يكن في حقيقة الأمر أكثر من هجوم للاستيلاء على الثروة ، وهو الغزو الذي قام به الاسكندر الأكبر ، وما حدث بعد ذلك من تأسيس أسرات متعاقبة من الغزاة الذين أتوا من الجبال الشمالية الغربية ومن منطقة الاستبس ، الذين سرعان ما اقتبسوا عناصر الحضارة الهلنستية . ويبدأ وصف الأوروبين لتلك البلاد بما كتبه «سكيلاكس» (Skylax) وهو اغريقى أرسله دارا لاستكشاف وادي السند حوالي عام ٥٠٠ قبل الميلاد (لم يصل اليها ذلك الوصف كاملا وانما عرفنا مقتطفات منه في مؤلفات الكتاب الذين جاءوا فيما بعد) .

وبقيت هذه الأسرات حتى نهاية الممالك الهلنستية في القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد ولا شك أن أهم ما وصل اليها من الوثائق عن ذلك العهد هو ما كتبه « ميجاستينس » (Megasthenes) وكان سفيراً للامبراطورية السلوقية التي كانت في الشرق الأدنى ، والذي ذهب الى الهند عام ٣٠٢ قبل الميلاد وقضى أعواما طويلة في بلاط الامبراطور الماوري « تشاندراجوبتا » (Chandragupta) .

أما عن شمال غربي الهند فليس لدينا مصادر أجنبية مبكرة ، ولا تكاد توجد أى كتابات تاريخية محلية . ولكن بالرغم من ذلك وصلت اليها اشارات كثيرة الى الحضارة المعاصرة في الآداب والأساطير البوذية القديمة . ويرجع تاريخ هذه الاشارات الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو وقت احتلال الفرس لشمال غربي الهند . وما وافى القرن الثاني بعد الميلاد حتى أصبح الفن البوذي يمثل حياة « المستير » ، وهو يقوم برسالاته ، تحيط به مناظر من الحياة اليومية التي نخرج منها بالكثير من المعلومات .

أما في جنوبى الهند فالوثائق الخاصة به تبدأ في عصر أحدث ؛ لأن أقدم الكتابات فيها لا يرجع تاريخها الى أبعد من قبيل بداية العصر المسيحى . وعلى أى حال ، فإن هذه المنطقة كانت على صلة مستمرة بغيرها من الحضارات القديمة ، وكثيرا ما وردت اشارات اليها في الآداب الاغريقية ابتداء من القرن الأول الميلادى . وهناك أيضا اشارات كثيرة اليها في الآداب الصينية ، وهى اشارات لا يمكن أن تصبح بسهولة في متناول للعلماء الغربيين . ان جنوب الهند منطقة يحيطها البحر ، ولهذا لم تتعرض للغزو حتى جاء المسلمون واحتلوا شمال غربى الهند في القرن التاسع الميلادى . ولكن منذ القرن الثامن ، أو السابع قبل الميلاد على أقل تقدير ، كانت التجارة تصل الى موانئ جنوب الهند من جهة الغرب . وما حل القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد حتى كانت تجارتها مع كل من الشرق والغرب تجارة مزدهرة . كانت سفن جنوبى الهند تمر عبر باب البحر الى بلاد العرب ، والى الشاطئ الشرقى من افريقيا ، والى اندونيسيا وجنوبى الصين ، ووصلت صلة هذه المنطقة بالحضارات الغربية الى أعظم وأزهر درجاتها حوالى بداية العصر المسيحى . فقد كان الرومان يتلفنون لهفة شديدة على الحصول على الجواهر والتوابل الهندية ، وعلى الأخص الفلفل . ولما لم يكن لديهم الا القليل من المحصولات التى يمكن أن يأخذها الهنود في مقابل ما يحصلون عليه منهم ، فانهم كانوا يدفعون ثمن تلك الواردات بالعملة الذهبية ، وكانت هذه العملة الذهبية الرومانية تستخدم في مناطق كثيرة في جنوبى الهند . وكان هناك جنود من اليونان والرومان يخدمون ملوك جنوبى الهند كجنود مرتزقة ، كما كان في جنوبى الهند أيضا جاليتان رومانيتان ، وفي واحدة منهما اقيم معبد للامبراطور أوغسطس ، وكان من بين الأجانب الآخرين الذين استقروا في جنوبى الهند يهود ومسيحيون سوريون وصلوا الى هناك في القرن الأول الميلادى ، ومسيحيون من الفرس أتوا في القرن الرابع الميلادى ، كما جاء اليها أيضا عرب ما زال أحفادهم الى

اليوم يكونون عنصرا هاما من عناصر سكان منطقة الملابار ، كما كانت لهم تجارة واسعة مع الصين ظلت مستمرة ، وكانت مزدهرة في أيام الرحالة « ماركوپولو » .

وفي فجر العصر التاريخي في كل منطقة من هذه المناطق الهندية الثلاث نرى كثيرا من العناصر الحضارية المتشابهة فيها كلها ، ولكننا نرى فيها أيضا بعض الاختلافات المحلية الواضحة . كان كل من شمالي وجنوبي الهند يختلفان في اللغة اختلافا صريحا ، فقد ورث سكان الشمال الذين كانوا يستخدمون اللغات الهندو — أوروبية كثيرا من التقاليد الآرية . أما سكان الجنوب الذين كانوا يستخدمون اللغات الدرافيدية فقد احتفظوا فيما بينهم بعادات كثيرة وهي غير آرية بكل تأكيد . وكانت هناك أيضا اختلافات واضحة في شمال الهند بين شرقها وغربها . كان الغرب معرضا للغارات ، وكان الباب الذي تتسلل منه القبائل الجديدة التي تأتي الى شبه الجزيرة منذ أيام فجر التاريخ . أما شمال شرقي الهند ، وهي منطقة وادي الجنج ، فكانت أقل تعرضا للغزو ، وحتم مناخها ومواردها الطبيعية أن تستمر حضارتها الأصلية وقتا غير قصير . فان الغزاة الذين دخلوا الى بيئتها الاستوائية الرطبة من الشمال أو من الغرب وجدوا أنفسهم مضطرين ، لكي يحيوا ، أن يقتبسوا وسائل الحياة المحلية . كان جنوبي الهند في مركز يسمح له بأن يتقبل وينقل العناصر الحضارية دون أن يقع عليه ضغط خارجي . ويلوح أنه كان يلعب دور المعطى أكثر من دور المستعير ، اذ كان يوفد المبشرين والمغامرين الذين نشروا المدينية الهندية في اندونيسيا والبلاد القريبة منها في أرض القارة ، أما ما استعارته من مصادر خارجية فانها اختارت ما كان يروق لها ، وعدلته ليلائم نوع الحياة التي كانت سائدة فيها .

وليس لدينا الا القليل من الأدلة المباشرة عن التأثيرات الحضارية لغزو الأخمينيين لشمالي غربي الهند . فقد أطلق دارا الأول على البنجاب والسند

اسم السترية العشرين في امبراطوريته ، التي كانت أعظم امبراطوريات العالم في ذلك الوقت . ويذكر هيرودوت وجود جنود من الهنود بين تلك الجيوش المكونة من أجناس مختلفة التي سيرها الفرس ضد الاغريق ، ولكن الأهم من ذلك هو أن سترية الهند كانت تقدم جزية سنوية مقدارها عشرة أطنان من تبر الذهب أى ما يقرب من ثلث الايراد الكلى للامبراطورية الفارسية . ويمكننا أن نقول ونحن مطمئنون ان الفرس الذين أثنوا فن تنظيم البلاد ، وأول فاتحين في العالم أدركوا أن حكم الرعية بالموظفين خير من حكمهم بالجيوش ، قد عنوا بتنظيم الادارة في مثل هذا الجزء النفيس من ممتلكاتهم . ومن المحتمل جدا أنهم قدموا الى الحضارة الهندية نظما جديدة من التنظيم السياسى ، بل ربما أعطوها فكرة الامبراطورية نفسها . فمن الأمور التي تسترعى النظر أنه عند انتهاء الاحتلال الفارسى نجد أن بعض الولايات في وسط الهند تتجه نحو الفتح ، على حين نجد أن شرقى وجنوبى الهند في الوقت عينه مقسم الى ممالك شبه بدوية . ونستطيع من دراسة ما خلفه لنا « مجاستينس » وما كتبه « أرثاسترا » (Arthsastra) ، وهو هندى من « كاوتيليا » (Kautilya) الشئ الكثير عن تكوين الامبراطورية الماورية ، وفيها الكثير مما يشبه النظم الفارسية . وكان هناك أيضا تأثير فارسى على الفن في شمالى الهند ، نراه واضحا في بعض الآثار مثل الأعمدة التي أقامها الملك « أسوكا » (Asoka) ولكن هذا التأثير سرعان ما انتهى تحت وقع أساليب الفن الهلينيستى .

لم يكن غزو الاسكندر الأكبر للهند أكثر من غارة قام بها . أما الحاميات الاغريقية التي تركها هناك فقد زالت نهائيا من الوجود بعد خمسين عاما من رحيله . كانت الامبراطورية الماورية التي ظهرت بعد الغزو الفارسى مباشرة ، وهى أولى الامبراطوريات الهندية ، امبراطورية وطنية الى أبعد الحدود . ولا ترجع التأثيرات اليونانية في الحضارة الهندية الى الاسكندر وحده بل تدين بأكبر قسط للملوك الهج غير المتحضرين من « الاسكيذيين » (Scythians)

و « الكوشان » (Kushans) بنوع خاص ، فقد كونوا أسرات مالكة عديدة في شمال غربي الهند حوالى ظهور المسيحية . أحس أولئك الهمج غير المتحضرين بتفوق الحضارة الهلينستية فأقبلوا على محاكاة أساليبها الظاهرية . وبالرغم من أن الصلة بالغرب المتأثر بالحضارة الهلينية قد استمرت لعدة أجيال ، فإن الحضارة الهندية لم يدخل إليها الا القليل من العناصر الاغريقية الأصل كان أبناء القارة من اليونانيين ضعافا دائما في ميداني الادارة والتنظيم الاجتماعى ، وكانوا في المصور الهلينستية يقتبسون دائما نظم الولايات التى كانوا يفزونها . فالأساليب الفنية فى الصناعة ، رغم ما أخرجته من أعمال فنية ممتازة ، كانت على الأكثر مساوية ان لم تكن أقل ، مما كان فى الهند . أما فلسفة الاغريق وعلومهم فقد كانت غريبة عن الروح السائدة فى البوذية والهندية المنتشرة بينهم . ولكن نجد فى ناحية واحدة فقط ، وهى ناحية فن نحت التماثيل ، ان تأثير الاغريق يتخذ طابعا مستمرا فعلا . فان اعتناق ملوك الكوشان للديانة البوذية واستخدام الفنانين المحليين من الاغريق فى صنع تماثيل لا حصر لها لم تلبث حتى أصبحت عنصرا من عناصر هذه الديانة ، وقد ترك ذلك أثرا خالدا على أسلوب الفن البوذى فى جميع بلاد الشرق .

ولم يأت القرن الخامس قبل الميلاد حتى نجد شمالى الهند وقد استكمل كثيرا من المميزات الثقافية التى ما زالت باقية فيه حتى الآن ، فان حياة سكان القرى العاديين يلوح انها لم تتغير الا قليلا بين ذلك العصر البعيد والعصر الحاضر ، وما فيه من ثورة سببها استخدام الراديو وسهولة الانتقال . فلو أن شخصا من العصر الحاضر استطاع أن يطوى صفحات الزمن ويعود الى ذلك الوقت البعيد فسيذهل من اتساع وانتشار الغابات وكثرة استخدام الخشب فى البناء ، فان بعض المدن الكبرى مثل « پاتاليپوترا » (Pataliputra) التى كانت عاصمة الامبراطورية الماورية كانت مشيدة كلها من الخشب بما فى ذلك قصورها ومعابدها وكان يحميها سور خشبي وخندق يحيطان بها .

وفي معظم بقاع المنطقة ، في الوقت الحاضر ، لا يكاد أهلها يجدون خشبا يصنعون منه عروقا لحمل سقوف منازلهم ، ويستخدمون في انضاج طعامهم حلقات من روث الأبقار . وسيدهش أيضا لقلة الملابس التي كان يلبسها سكان الجزء الشرقي من المنطقة . فقد اقتصرت ملابس الرجال على قطعة قماش واحدة صغيرة من القطن تلف حول الوسط ، أما النساء فكن يلبسن ثوبا قصيرة . وكان الأغنياء يعوضون أنفسهم عن رخص هذه الملابس بعملها من نسيج أحسن ، وبالجواهر التي كانت كثيرة الى درجة أن النساء كن يعتبرنها حملا ثقيلا ولكن من نوع فريد . والفوارق الاجتماعية نفسها التي يدهش لها المسافر في الهند في الوقت الحاضر كانت موجودة على الأرجح في ذلك العهد . فبالرغم من أن مركز الفلاح الاقتصادي كان خيرا منه الآن فانه كان يدفع سدس محصوله كضريبة مباشرة كما كان مستغلا استغلالا سيئا لاحتكار الدولة للملح ، كما كان يدفع ضريبة أخرى على كل ما يبيعه ، وغير ذلك من المظالم .

وعلى أى حال ، فإن الفارق في الدخل بين الأفراد في ذلك العهد كان يتضح في المظاهر أكثر من اتضاحه في مستوى المعيشة . كانت أعمدة قصر « تشاندراجويتا » (Chandragupta) مغطاة بصفائح الذهب ، ولكنه كان ينام فوق حصير وكان يأكل نفس الطعام الذي يأكله الفقير العادي ولم يختلف عنه الا في اضافة كمية أكبر من التوابل . ولهذا ، فانه عندما اجتزل الناس وعاش متوحدا في الغابة بعد أن أدركته الشيخوخة لم يضح الا القليل جدا مما يمكن أن يقال عنه انه من ملذات الحياة .

وكانت المحصولات ذاتها ، وهي القمح والشعير في الغرب والرز في الشرق ، تزرع بالطريقة نفسها التي تزرع بها الآن . وكانوا يسوقون الماشية لحلبها عند « ساعة غبار الأبقار » ، ولكنهم لم يكونوا يقدسون تلك الأبقار

كما يقدها الهندوس في الوقت الحاضر ، وكانوا يذبحون الحيوانات قربانا .
للمعبودات في احتفالات طويلة تتكلف الكثير من المال .

أما عن التنظيم الاجتماعي فقد كان نظام العائلة المترابطة ، ونظام القرية
من النظم التي مضى عليها وقت طويل وكانا الأساس في بناء المجتمع ، ومن
المحتمل أن سكان كل قرية كانوا يتزوجون من خارج قريتهم كما يفعلون الآن .
وكان السواد الأعظم من سكان كل قرية من فلاحى الأرض ، ومعهم بضع
عائلات من المتخصصين ، وهم غالباً حداد ونجار وفخار وكاهن يسدون
حاجاتهم الضرورية . وكانت توجد بينهم الأقسام الأربعة الرئيسية للطبقات
وهم البراهمانيون (Brahmans) والكشاتريا (Kshatriya) والفايسيا (Vaisya)
والسودرا (Sudra) في شمالى الهند ولكننا لا نملك أى دليل على وجود
الأقسام الفرعية التي لا حصر لها التي يمتاز بها نظام الطبقات الحديثة ، أو تلك
التعاليم الشعائرية الكثيرة التي تحدد الآن العلاقات بين الأفراد المنتمين الى
طبقات مختلفة . ولا يذكر « مجاستينس » تلك الطبقات . ولو كان لها وجود
في شمالى غربى الهند في القرن الثالث قبل الميلاد لما خفيت على مثل هذا
الشخص الحصيف الذى امتاز بقوة الملاحظة .

وفي الوقت الذى عاش فيه « بوذا » ، أى في القرن السادس ق . م . كانت
توجد جامعات حقيقية يقصدها شبان من العائلات الكبيرة ، يذهبون ليتلقوا
دروسا في المؤلفات المقدسة كجزء من التعليم الذى يناسب مكائهم . وكانت
احدى تلك الجامعات في « تاكسيلا » (Taxila) في غربى الهند عاصمة
الستيرية الفارسية القديمة . كان جميع الرجال المنتمين الى الطبقات العليا
الثلاث يتلقون تعليما في الفنون والشعائر المقدسة ، وكان ذلك يتمشى مع
الأساليب الآرية القديمة التي تتطلب من رئيس العائلة أن يقدم القرابين بدلا
من عائلته ، وأن يقدم الحاكم القرابين بدلا من رعاياه . وعلى أى حال ، فهناك
أدلة عديدة على أن البراهمانيين كانوا يفتصبون لأنفسهم بصفة مستمرة مزيدا

من القوة والسلطان . وكانت هذه الحركة أقل أهمية في شمالي غربي الهند حيث تسببت الغزوات المستمرة لشعوب غير هندية في تركيز السلطة في يد طبقة الكشاتريا ، وهي الطبقة الحاكمة من المحارين التي كانت لا تمنع في أن ينتمى إليها الآخرون وتستوعب المحارين الغزاة . وفي شمالي شرقي الهند لم يكن التنازع على السلطة بين البراهمانيين والكشاتريا قد بدأ يظهر في ذلك العهد . لم يكن البراهمانيين قد خصصوا أنفسهم لدور الناصحين للملوك ، أو عرفوا قيمة الفوائد الكثيرة للسيطرة دون تحمل المسؤولية ، وأن الكشاتريا تنازلوا عن جميع مطالبهم نحو العلم أو الوصول المباشر لمعرفة ما فوق الطبيعة . ومما يستحق الذكر أن وجوه نشاط الكشاتريا كانت أكثر شبها بأخلاق وصفات الغزاة الأوائل من الآرين ، بينما لم يتوافر ذلك في البراهمانيين .

وهناك دائما رابطة قوية بين آلهة أى شعب مغلوب وبين البلد الذى كانوا يسهرون عليه . فمن المنتظر منهم أن يكون موقفهم غير ودى نحو الوافدين الجدد ، وكثيرا ما يجد الانسان أن بعض الغزاة يعترفون بالقوى السحرية للمغلوبين ويلجأون الى كهنتهم ورجال الطب فيهم ليتوسطوا من أجلهم الى أرباب البلد القدماء . وقد سبق أن ذكرنا أن الآلهة الهندوسيين المتأخرين لم يكونوا هم أنفسهم آلهة الآرين القديدين ، كما ذكرنا أيضا أنه حتى المعبودات التى بقيت أسماؤها مثل « فيشنو » فإن الصلة بين صفاتهم القيدية القديمة وصفاتهم البراهمانية المتأخرة لم تكن الا مهارة فلسفية . وربما كان ازدياد أهمية البراهمة في ذلك الوقت ليس الا رجوعا الى الحالة التى كانت سائدة في الهند قبل الآرين .

وما حلت بداية العصر التاريخي حتى أصبح للعقائد الدينية والعادات في شمالي الهند عدد من الميزات الخاصة بها ، وأهمها الاعتقاد في تناسخ الأرواح وعقيدة الـ « كرما » (Karma) . وبالرغم من أن الاغريقى « فيثاغورس » كان يدرس تناسخ الأرواح لتلاميذه ، وأن هناك اشارات

اليها في الميتولوجيا الكلتية ، فمن المرجح أن مثل هذه العقيدة لم توجد في القيدا القديمة ، ولم تكن جزءا من الميراث الثقافي للشعوب الهندو - أوروبية بصفة عامة . فنحن نعلم أن نوعا من الاعتقاد في تناسخ الأرواح ، مع تحسينات وتعديلات مختلفة ، ظهر ظهورا مستقلا في كثير من أرجاء العالم ، وربما كانت تلك الصورة الهندية قد تم تطويرها على يد الفلاسفة الذين كانوا قبل الآرين عندما كانوا يحاولون إيجاد حل منطقي للمشاكل التي يخلقها تصميم الانسان على انكار أنه من الممكن أن يفنى نهائيا .

ومهما كان أصل هذا الاعتقاد فإن مصير الروح ، حسب الرواية الهندية ، مقبول عقليا ومناسب منطقيا أكثر من أى مثل له في أى اقتاج حضارى آخر . وبينما نلاحظ أن عقائد الطوائف الهندية المتباينة قد اختلفت بشأن بداية ونهاية رحلة الروح فانها تتفق جميعا فيما بينها في الجزء الأوسط منها ، وهو الجزء الذى يتناول ماضى ومستقبل الشخص . لقد بدأت الروح كشيء كلى ، غير محدد أو معين من القوى الروحانية ، وأمدت الجسد بنوع وضع من الحياة . وعندما يموت جسد صاحبها تنتقل الى جسد آخر حاملة معها الخبرة التى حصلت عليها في حياتها السابقة . وبتجمع هذه الخبرات الكثيرة التى تحصل عليها من حياة بعد أخرى ، تأخذ الروح شكلها وتقوى مع مرور الزمن . وبالإضافة الى الخبرة ، فإن كل روح تحصل لنفسها على رصيد مما يمكن أن نسميه حساب المكسب والخسائر الروحية ، وهو نتيجة الأعمال الحسنة والأعمال السيئة التى اقترفتها أثناء تناسخها المتوالى . وهذه كلها مجتمعة هي الـ « كرما » الخاصة بالشخص وهى التى تحدد المكانة التى يجب أن يولد بها ثانية في المجتمع ، والحظ الحسن أو السيئ الذى يصادفه .

كان الاعتقاد في الكرما ذا أهمية كبرى في سير الأمور في المجتمع الهندى لأنها ساعدت على جعل نظام الطبقات شيئا معقولا . فالشخص الذى يولد في طبقة السودرا أو طبقة المنبوذين يكون قد احتل هذه المكانة التى لا يحسد

عليها ؛ لأنه المكان الذى جعلته الكرما صالحا له فى المجتمع ، المكان الذى يستطيع فيه أن يحصل على نوع الخبرة اللازمة له ، لتقدم روحه وتحصل على الثواب أو العقاب الذى جعلته أخلاقه فى الماضى مستحقا له . وترتب على ذلك أن كل من يحاول ترك طبقته يغامر بقذف نظام تطوره الروحى فى فوضى لا قرار لها ، وبهذا يتسبب فى تنزيل درجته خطوات كثيرة فى تناسخ روحه . كان كل من يحب الحصول على « كرما » طيبة يستطيع أن يصل الى غرضه عن طريق تقديم القرابين ، والمراعاة الدقيقة لتنفيذ الطقوس على الوجه الصحيح وتقديم الحسنات للبراهمانيين والنساك ، وعمل الخير بوجه عام . وعلى أى حال فإن أهم شيء بالنسبة للروح هو ازدياد الوعى والحكمة اللذين يزيدان من تقدمها فى ارتقاءها ؛ فالشخص الذى يخصص نفسه تخصيصا كليا لصالح الأعمال يضيف الشيء الكثير الى حساب حسناته ، وبذلك يستطيع أن يؤخر نفسه مدى عدة مرات من التناسخ الممتع ، ولكن ذلك لا يغير من وضعه حتى يتمتع بالزايات التى سبق أن اكتسبها بفعله للخير .

وأقصر طريق للتقدم الروحانى هو أن يصبح الانسان ناسكا . وقد لاحظ « ميجاستينس » وجود جماعات من الناسكين أعادت الى ذهنه صورة الندوات العلمية الهلينستية التى كانت توجد اذ ذاك فى بلاده . فقد قال بأن مناقشات أولئك الفلاسفة الهنود كانت كلها عن الموت ، ولا بد أن مثل هذا الشاغل القوى قد بدا غريبا فى نظر ذلك الاغريقى المحب للحياة . ومنذ أيام بوذا نفسه كانت عقيدة تناسخ الأرواح أصبحت ثابتة تماما فى الهند ومن المحتمل أن المناقشات التى ذكرها ميجاستينس كانت تتعلق بدور الكرما ووظيفتها والأدوار المتتابعة فى تطور الروح .

ففى أيام « ميجاستينس » كان الناسكون قد أصبحوا منذ قرون كثيرة شيئا عاديا فى الحياة الهندية . وعلى ختم عثر عليه فى « موهنجو — دارو » نرى شخصا فى جلسة كانت توصف بأنها جلسة الناسكين فى العصور التالية

وما من شك في أن نظام النساك نشأ في الهند ومن المحتمل جدا أنه كان معروفا فيها قبل مجيء الآريين ، وعلى أى حال ، فهو شيء لا مثيل له بين حضارات الذين يتكلمون اللغات الهندو - أوروبية خارج الهند . وربما كان النساك الهندي في بدايته شبيها من الناحية السيكولوجية بالبحث عن الرؤيا والالهام لدى هنود شمالي أمريكا . فقد كان طالب الرؤيا يصوم ويوقع على نفسه بعض أنواع التعذيب ليستدر بهذا العمل عطف إحدى الكائنات ذات القوى التي فوق الطبيعة . فاذا نجح فإن ذلك الكائن يظهر أمامه ويعدده بالمساعدة ويذكر له في الوقت ذاته أشياء معينة يحرم عليه فعلها ، وعلى الانسان مراعاة ذلك مراعاة تامة حتى يحتفظ بصلته مع هذا الكائن . يكون الانسان أثناء قيامه بذلك في شبه غيبوبة مغناطيسية ، كما أن الصوم المستمر والآلام التي يوقعها على نفسه تجعل ذلك الشخص يرى ما يشبه الأحلام ويسمع أصواتا ، يستطيع اذا فكر فيما مر به في ماضى حياته من خبرة ، أن يجعل منها تجربة منتظمة من تلك التجارب الخاصة بما فوق الطبيعة والتي تساعد ثقافة الشخص على أن يتوقع حدوثها . وهذا يشبه الى حد كبير ذلك الانسان الذي تجرى عليه تجارب التحليل النفسى الحديث ، فانا نراه يقص بأمانة أحلاما فرويدية اذا كان القائم بالتحليل النفسى ممن يتبعون مدرسة فرويد ، وأحلاما يونجية اذا كان المحلل النفسى من مدرسة يونج .

ولو صرفنا النظر عن موضوع أصل النساك فانه منذ الوقت الذى بدأ فيه بالنساك الهندي يظهر في التاريخ كان القيام بأشياء قاسية شديدة يحمل في ثناياه التحدى ضد القوى التي فوق الطبيعة . وكان النساك يصوم ، وكان صومه في الواقع تحديا للمعبودات لأن ذلك يزيد من قواه الروحانية . وفي أسطورة من أقدم الأساطير ، قرأ عن ناسك استطاع أن يقوم بالكثير من كرامات التوبة حتى أصبح له من القوة ما جملة يجبر المعبودات على طاعته . وعندما تقدمت الآراء الخاصة بوحدة الوجود ، أى وحدة الله والكائنات ، تضاءلت

هذه الفكرة وحلت محلها فكرة أخرى اتجهت فيها أعمال النسك نحو إخضاع الجسد ليحرر العقل ، ويحرر ذلك الكيان الأساسي الذي يطلق عليه الأوروبيون اسم الروح ، يتحرر من تلك التضييقات التي يفرضها الجسد . ولا يمكننا أن نذكر على وجه التحديد الوقت التي حدثت فيه تلك التغيرات ، ولكن خلال الألف عام الأخيرة على الأقل كان الهدف الأساسي للنسك الهندي هو معاونة الروح في محاولتها الوصول الى الاتحاد مع السرمدية التي لا نهاية لها ، وأن تمر بحالات الاستفراق والنشوة الروحية التي تدرك أثناءها معنى هذا الكون . كان الناسك يصل الى هدفه بعد عدة مراحل : أولاها قطع الصلة بكل ما يربطه بالدنيا بما في ذلك ما يربطه بعائلته أو ثروته ، والاعتزال في مكان بعيد في الغابة حيث يتفرغ للتأمل ، ولتمرينات رياضية مختلفة تستهدف حصوله على السيطرة التامة على جسمه ، ويعنى فيها عناية كبيرة بالتنفس وأوضاع الجسم . ونظرا لوجود اهتمام شعبي متزايد بهذا الأمر ، فإن نساكا كثيرين استطاعوا ، بكل تأكيد ، أن يتحكموا في مراكز الأعصاب تحكما يدعو الى الدهشة . وأدهشت الأعاجيب التي كانت تحدث من جراء ذلك العوام من الناس ، وساعدت النساك دون شك على ملء آنية الطعام التي يحملونها للاستجداء ، ولكن هذا التمرين لم يكن هدفا في حد ذاته فان الغرض منه هو منع الجسد من أن يتطفل على وجوه نشاط العقل والروح .

وبعد أن تم السيطرة على الجسد تبدأ الخطوة الثانية وهي السيطرة على العقل . ويصل الانسان اليها عندما يتمكن من أن يخلى عقله أخلاء تاما من القناعة المتعمدة ، ويسيطر على سير التفكير ، وبهذا يحرر الروح ويعدها لغرض تجربة أعرق ، وتستطيع الروح المنطلقة (المحررة) أن تمر بلحظات من الاتحاد مع الروح الدنيوية وتعود من تلك اللحظة بحكمة وقوة علويتين (فوق طبيعة البشر) . فاذا كان الشخص خيرا محسنا احسانا كافيا فيمكنه أن يعطى جزءا من قدرته ومعرفته الرفيعة الى أولئك الذين لم يملوا بتلك

التجارب ، وبهذا يعين الـ « كرمـا » التى لديهم على ارتقاها وتطورها . وحتى اذا لم يعطهم أى ارشاد أو تعليم فإن القوة والفائدة الروحانية يمكن أن ينالهما الناس اذا لمسوه ، ولهذا السبب فإن الشخص التقى الذى يملأ له اناء طعامه يحصل بذلك على جزائه ومكافأته .

ومهما كان رد الفعل الذى ينتاب الفكر الغربى الذى يساوره التشكك فى هذه الآراء ، فانه يجب أن يعترف بقيمة النسك الهندى فى النظام الاجتماعى . فالكتب المقدسة التى تم تأليفها حوالى بداية العصر التاريخى تقول بأن حياة النسك كانت مفتوحة أمام أعضاء الطبقات الثلاث التى تحتل أعلى مكانة ، لكنها كانت محرمة على طبقة السودرا وعلى طبقة المنبوذين بطبيعة الحال . كان هذا النظام يهىء مخرجا للذين لم يحالفهم التوفيق فى الحياة ، ويؤدى ما أداه نظام الجماعات الدينية فى العصور الوسطى الذى كان يقبل عليه أولئك الذين يؤمنون بالآراء الصوفية الغامضة ، والذين لم يقدروا على مجابهة متاعب الحياة الدنيوية . ولم تقتصر حياة النسك على الباحث فى الروحانيات بل شملت الأمير الذى تعب من منصبه ، والزوج الذى لم يعد يطبق معاشرته زوجته ، أو التاجر الذى يلاحقه دائئوه ، فإن أى واحد من هؤلاء كان باستطاعته أن ينضم الى صفوف الرجال المقدسين . كان يذهب الى الغابة ويعتزل الناس ، ويحيا حياة بسيطة طاهرة ، وفى أكثر الأحيان كان يتلمذ على أحد الرجال المقدسين ذوى الشهرة ، فيعمل خادما له ويتلقى فى مقابل ذلك ارشاداته . وفى بعض الأماكن أقامت جماعات من المتوحدين الذين كانوا يقضون الوقت فى مناقشات فلسفية وفى دراسات للآداب المقدسة ، وفى التأمل . وخلال العصر التاريخى المبكر كان كثير من هذه الآداب ما زال ينقل عن طريق التلقين الشفهي ، وكان يتحتم معرفته وحفظه بطريق الصم حفظا غيا .

ومنذ بداية العصر التاريخى كان يوجد تفرق واضح بين البراهمانيين والنسك . فالبراهمانيون يستطيعون أن يصبحوا نساكا ، ولكن أكثرهم لم يفعل

ذلك : كان البراهمانيون مهرة فيما يتعلق بما فوق الطبيعة ، وكانوا كهنة محترفين يرفون الطقوس المعقدة الطويلة التي تتطلبها الديانة الهندوسية : وفي خارج نطاق واجباتهم الدينية كانوا يحيون حياة عادية اللهم الا تلك الحدود التي تفرضها عليهم تعليمات طبقتهم : كان كثيرون منهم يحبون الحصول على الثروة أو السيطرة الاجتماعية ، ومن الأمور الواضحة أنه خلال العصر التاريخي المبكر كانوا يستهدفون تهوية سلطانهم دائما في شمالي الهند ، ومحاولة اجتذاب أفراد القبائل الأصلية الى اعتناق الديانة الهندوسية .

وكان ازدياد ادعاءات البراهمانيين ، وازدياد الطقوس الطويلة التي تكلف الكثير من المال ، والتي لا يستطيع أن يقوم بها سواهم ، سببا في قيام ثورات دينية ضدهم في القرن السادس قبل الميلاد ، دعا اليها زعيمان عظيمان وهما « الجواتاما بوذا » و « فاردامانا ماهافيرا » مؤسس الديانة الجينية . ولد كل من هذين الزعيمين من طبقة الكشاثريا ، وأصبح كل منهما فاسكا مؤمنا بمقيدة التناسخ والكرمادون أن ينكر منها شيئا ، ومع ذلك كانت تعاليم كل منهما موجهة ضد الطقوس البراهمانية . وما زال بعض أتباع الجينية يعيشون حتى الآن في الهند كطائفة قليلة العدد يتنازون باتباعهم طقوسا معقدة ، ويراعون مراعاة تامة دقيقة عدم قتل أي روح في أي صورة من الصور . يقوم الكاهن الجيني عند أداء عمله بكس الطريق أمامه بمكنسة ليزيل ما عساه أن يكون فيه من حشرات حتى لا يطأها بقدميه ، ولا يشرب ماء في مكان مظلم حتى لا يتلغ أي شيء حتى يمكن أن يكون في ذلك الماء حتى لا يتسبب في قتله . ولكن أهم اعتقاد في مذهبهم هو مراعاتهم التامة لمبدأ « أهيمسا » أي عدم الإيذاء ، وهو نوع من « عدم المقاومة » في جميع الحالات ، وكان المهاتما غاندي قبل موته — بالرغم من أنه كان من غير الجينيين — متأثرا بالعقيدة الجينية .

وبالرغم من أن المبشرين الجينيين استطاعوا أن يضموا الكثيرين في جنوبى

الهند الى عقيدتهم ، فان هذه الديانة لم يقدر لها الانتشار في أى وقت من الأوقات خارج شبه الجزيرة الهندية . أما الديانة البوذية فقد كانت وما زالت قوة في العالم مدى ألفى سنة ، ولهذا السبب سنفرد لها فصلا خاصا .

سبق أن ذكرنا أن الوثائق المكتوبة التى وصلت إلينا من جنوبى الهند لا ترجع الى أبعد من بداية العصر المسيحى ، بل ان المعلومات التى من ذلك العصر لا يمكن أن نقول عنها انها معلومات كافية . فمن المرجح أن الحضارة المادية ونظم الحياة فى القرية فى فجر التاريخ كانت كمثيلاتها فى شمال الهند ، شبيهة جدا بالأوضاع الحالية . كان نظامهم السائد نظاما زراعيًا ، ولكن مع معرفتهم معرفة لا بأس بها لجميع فروع الصناعات الفنية اللازمة لهم . كانوا يزرعون كل محاصيل جنوب شرقى آسيا ، وأهم هذه المحصولات هو الرز المروى . وكانوا يستخدمون المحراث الذى يجره الجاموس فى اعداد حقول الرز ، ونظرا لأنهم كانوا يحلبون هذا الحيوان ، وهذا يخالف ما كان يتبعه سكان جنوب شرقى آسيا مع حيواناتهم ، فمن المحتمل أنهم كانوا يتبعون فى ذلك التقاليد التى كانت متبعة بين الشعوب التى تسكن بعيدا فى الشمال . أما تقدمهم فى النواحي الفنية فقد كان مساويا ، ان لم يكن متفوقا ، على شمالى الهند فى العصر نفسه . كانت المباني الهامة تشيد من الخشب وكانت متسعة ومتقنة التشييد ، وكانت صناعات المعادن متقدمة الى حد كبير ؛ اذ كانوا يصنعون أدوات من الصلب ويصدرونها الى غيرهم . وتشتمل رغبتهم وحرصهم على حب الجمال فى صنع الأدوات العاجية ، وحفر الخشب ، والنسيج ، وصناعات المعادن . واذا حكمنا على أعمالهم الفنية فى تلك المنطقة فيما تلا ذلك من عصور عند انتشار البوذية ، فقد كان فنهم فنا طبيعيا يمتاز بقوة وحركة غير عاديتين .

أما فيما يختص بالتنظيم الاجتماعى وبالديانة فى جنوبى الهند فهما أكثر صعوبة لو أردنا معرفة ما كانا عليه اذ ذاك . وخير مرجع معاصر يمكننا الاعتماد

عليه هو التولكاپيام (Tolkappiyam) وهو مؤلف باللغة التاميلية (Tamil) يرجع تاريخه الى بداية العصر المسيحي . فبالرغم من أن هذا المؤلف مؤلف خاص بدراسة النحو ففيه فصول عن موضوعات أخرى . ولا تقتصر فائدته على ما ورد فيه من معلومات ، بل أن دراسته من ناحية اللغة التي كتب بها أمر هام جدا لأن اللغة التاميلية كانت على ما يظهر أقوى اللغات الدراثيدية التي استخدمها سكان جنوبي الهند ، وأكثر اللغات انتشارا في ذلك العصر ، وما ورد في ذلك المؤلف من معلومات تعبر عن الكثير مما كان في جنوبي الهند . ومن دراسة هذا المؤلف نعرف أن الشعب الذي كان يستخدم اللغة التاميلية كان مقسما في الأصل الى أربعة أقسام : سكان الجبل ، وسكان الغابة ، وسكان السهل ، وسكان شاطئ البحر . كان لكل قسم رئيسه ، وكان لكل قسم وجوه نشاط محددة يتخصص فيها على أساس الموارد التي تنتجها البيئة الطبيعية للمنطقة . كان كل قسم يتكون من جماعات عدة لكل منها عمل يتخصص فيه أفرادها ، وكانوا يتبادلون منتجاتهم مع منتجات الجماعات أو الأقسام الأخرى . فمثلا كان سكان الشاطئ ينقسمون الى صيادي أسماك ، وصيادي لؤلؤ ، وبحارة سفن ، وصناع سفن ، وعمال ملح ، وصناع أصداف ، وتجار يتعاملون مع البلاد الأخرى . ولا تدلنا المصادر المبكرة عما اذا كانت حرف هذه الجماعات الفرعية وراثية أو لم تكن كذلك ، ولكن اذا حكمنا بما نعرف أنه كان سائدا في معظم الحضارات الماثلة في جنوب شرقي آسيا يمكننا القول أنه من المحتمل جدا انها كانت وراثية .

وتدعم الدراسات الانتولوجية الحديثة في جنوبي الهند هذه النتيجة . فمثل هذا التقسيم للحرف ما زال يوجد بين قبائل تلال نيلجيري وهي قبائل غير هندوسية . تسكن احدى هضاب تلال نيلجيري ثلاث قبائل وهي «تودا» (Toda) و «كوتا» (Kota) و «بدجا» (Badaga) فقبيلة التودا تربي وتحلب الجاموس وتعد السمن وهو مادة لا غنى عنها ، ليس في تغذية القبائل

الأخرى وحسب ، بل وفي القيام بشعائرهم الدينية ، وهم لا يزالون أى عمل اقتصادى آخر . أما الكوتا فهم مزارعون يزرعون الحبوب ، أما البدجا فصناع وتجار وموسيقيون أيضا . وتعتمد القبائل الثلاث بعضها على بعض اعتمادا تاما فى الناحية الاقتصادية ، ويسكن بعضها مع بعض فى المنطقة ذاتها ويسود بينها الوئام والصفاء . ولكن فى الوقت ذاته يعيشون فى قرى مختلفة ، وكل قبيلة منها يتزوج أفرادها فيما بينهم ، ولكل قبيلة ملابسها التى يتميز بها أفرادها ، ولهم طريقتهم الخاصة فى الحياة المنزلية وتنظيمهم الاجتماعى والديانة . وهناك أشياء محرمة (طابو) يتحتم عليهم مراعاتها وهى تسيطر على العلاقة بين أفراد القبائل المختلفة ، وعلى الأخص فى المسائل المتعلقة بالأشياء التى تخصص فيها وأتقنها أبناء القبيلة . فمثلا يحرم على أى غريب أن يدخل أى دار حلب للجاموس فى قبيلة التودا عند خض اللبن . وبالرغم فى أن القبيلتين الآخرين تعترفان للتودا بأن أفرادهما هم المالكون الأصليون للمنطقة ويكون لهم شيئا من الاحترام ، لهذا السبب فإن النظام السائد بين الجميع ينقصه ذلك الترتيب الطبقي الصريح بين السكان ، الذى يمتاز به نظام الطبقات الهندى . كما أن المراسيم الدينية لكل قبيلة من هذه القبائل يؤديه أعضاء من القبيلة نفسها .

وليس فى استطاعتنا معرفة ما كان عليه التنظيم الاجتماعى الداخلى للقبائل العديدة التى عاشت فى جنوبى الهند فى مستهل العصر التاريخى . ولكن رغم ذلك فإن الدراسات الحديثة للشعوب الدرافيدية ، وهم من سلالة السكان الأصليين القدماء ، ترينا أنه من المحتمل أن تنظيمهم الاجتماعى كان شبيها بالتنظيم الميلايزى بما فيه من عشائر ، وفروع العشائر ، واشتراطات الزواج المعقدة . والحقيقة الواضحة الوحيدة أن معظم — ان لم يكن جميع — الجماعات التى تستخدم اللغة التاميلية كانت فى الأصل تنتسب الى الأم ، بل كانوا فى بعض الحالات ينتسبون الى الأم التى يجب أن تكون من الجماعة

المحلية نفسها . وكان مركز المرأة ، بل وما زال ، مركزا ممتازا الى حد كبير ، وللنساء المتقدمات فى السن السيطرة على الشؤون العائلية . وبالرغم من أن اعتناقهم للهندوسية أدخل الى مجتمعهم الكثير من الأمور الخاصة بالحياة الجنسية لدى الهندوس ومنها الاصرار الشديد على بكاراة الفتاة عند الزواج ، واستمرار عفة المرأة بعد الزواج ، فإن ما لدينا من معلومات عن بعض القبائل الأصلية التى ما زالت باقية حتى الآن ، وبعض العادات التقليدية بينهم ، توحى الى حد كبير أن بعض النظم الخاصة بالتجربة الجنسية قبل الزواج ، وهى عادة منتشرة فى جنوب شرقى آسيا ، كانت موجودة بين تلك القبائل فى العصور المبكرة . وكان زواج المرأة بأكثر من رجل أمرا مقبولا على الأرجح بين بعض القبائل مثل التودا ، ولكننا لا نجزم بأنها كانت عادة منتشرة بين الجميع لأن هذا الأمر مرتبط دائما بقلّة الموارد الطبيعية ، وقلة عدد السكان نظرا لعادة وأد البنات وهن فى سن الطفولة . وما يدل على اهتمامهم بموضوع الجنس اهتماما كبيرا أنه من بين دواوين الشعر الثمانية وهى التى أبقى عليها الزمن باللغة التاميلية ، نرى أن ثلاثة منها يحتوى كل واحد فيها على أربعمائة قصيدة فى الغزل .

ولا تمدنا الآداب القديمة بوصف يحدد واجبات وظيفه زعماء الأقسام ، ومدى التنظيم السياسى لتلك الأقسام . كانت الممالك التى تجمع أكثر من قسم واحد موجودة منذ أقدم العصور ، وكانت الأعمال الرئيسية فى هذه الممالك هى اعلان الحرب وجمع الضرائب . ويكاد التاريخ المبكر لجنوبى الهند أن يكون سلسلة حروب متصلة الحلقات ، وما يدعو الى الدهشة أن يظل مثل ذلك المستوى الحضارى مستمرا فى مثل هذه الظروف . ولكن تلك الحروب كان يقوم بها ، على ما يظهر ، جنود محترفون وإن عامة الشعب كانوا يستبدلون سيدا بآخر دون أن يؤثر ذلك كثيرا فى حياتهم الخاصة .

ولاحظ « ميغاستينس » أهمية الجمعيات الشعبية فى ادارة جنوبى الهند .

ففى أيامه ، وفى الأيام التى تلتها ، كان هناك تقليد ديموقراطى قوى فى إدارة البلاد . وبالرغم من أن ذلك يظهر لأول وهلة انه يتعارض مع وجود ذلك العدد الكبير من الأسرات الميالة الى الحرب التى تعاقبت فى حكم البلاد فقد كان الملوك أنفسهم يترددون فى البت فى أى أمر خطير دون استشارة ممثلى للشعب . كانت الوحدات الاجتماعية بين الطبقات الدنيا من الشعب من كل حجم ونوع تحكمها لجان تمثل جمعيات ينتخبها أفراد تلك الجماعات ، ولم يكن هذا التقليد مقصورا على القرى والنواحي ، بل كان ساريا أيضا بين قبايات التجار والجماعات الدينية . ومن الأمور الطريفة ما نعرفه عن طريقة تنظيم القرية حسب الوثائق المكتوبة التى وصلتنا من القرن العاشر الميلادى ، وقد قالوا عنه اذ ذاك انه كان تنظيما قديما . كانت القرية تعتبر الأرض الخاصة بها شركة بينها ، وكان استخدام تلك الأرض ، بل وسير الحياة فى القرية ، تديرها جمعية يختار أعضاؤها عن طريق القرعة ، ومدة صلاحيتها عام واحد . كان لجميع الأفراد الذين لهم حقوق الملكية فى القرية ، بما فيهم النساء ، الحق فى أن يكونوا أعضاء فى تلك الجمعية اذا كانوا من ذوى الأخلاق القوية ولديهم بعض المعرفة بالتعاليم الهندوسية . وكانت الجمعية تختار من بين أعضائها من يشرف على الحدائق أو على استخدام الأرض ، أو الرى ، أو مساحة الأراضي ، أو الاشراف على خدم القرية ، أو اقامة العدل ، أو جمع ودفع الضرائب ، أو الاشراف على المعابد ، أو على الصدقات .

ومن المستحيل أن نعرف على وجه اليقين ما كانت عليه ديانة جنوبى الهند قبل عهد البراهمانيين . فمن الأشياء التى نستطيع أن نقول انها تكاد أن تكون مؤكدة انه كانت توجد معبودات عدة فى كل قبيلة . كان بعضها متماثلا مع بعض الظواهر الطبيعية بينما كان بعضها الآخر ، على ما يظهر ، هم بعض الأجداد المؤلهين أو بعض الأبطال الوطنيين . وكانوا يعرفون دون رب عبادة الثعبان كما يلوح أنهم كانوا يكرمون بعض الحيوانات الأخرى . ولا يكاد

يوجد شك في أن الديانة السابقة لعصر البراهمانيين كانت تعنى عناية كبرى بمباداة عضو التناسل وعمل طقوس من أنواع مختلفة لأجل الاختصاب ، وربما كان القيام ببعض الأعمال السحرية أكثر أهمية بين سكان جنوبي الهند مما كان في شمالها .

ولم تستطع الامبراطوريات الشمالية ، التي كانت في العصر السابق على العصر الاسلامي ، أن تمد سلطانها على الجنوب الذي كان يسكنه الدرافيديون وكان « اسوكا » الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد هو الملك الوحيد الذي غزا منطقة الدكن ، ولكن من خلفوه على العرش تراجعوا نحو الشمال . وترتب على ذلك أن الدرافيديين لم يضطروا في يوم من الأيام لقبول حضارة الهندو — أوروبيين الذين كانوا في الشمال ، وإن ما أخذوه منها اختاروه هم بأنفسهم . وقد ساعد على قبولهم للبوذية ، ثم الهندوسية المتأخرة ، ما احتوته هاتان الديانتان من مبادئ كثيرة غير آرية الأصل ، أخذوها على ما يظهر من حضارات درايفية شمالية . تقول أساطير شمالي الهند إن أقدم البراهمانيين الذين زاروا جنوبي الهند ذهبوا الى هناك حوالي عام ٨٠٠ ق . م . وأنه ما وافي القرن الثاني والقرن الثالث ق . م حتى كان عدد كبير من المبشرين البراهمانيين والچينيين يؤدون عملهم في المنطقة . ويلوح أن الدرافيديين رحبوا بالديانات الثلاث لاهتمامهم بالقوى السحرية التي ادعتها لنفسها كل واحدة من تلك الديانات ، فاعتنق الجنوب كله الديانات الشمالية ، اللهم الا بعض القبائل المتأخرة التي تعيش بين الجبال . وربما كانت عملية التغلغل الحضاري الشمالي شبيهة بما حدث في اندونيسيا في عصر لاحق لذلك العصر . فنحن نعلم أن أمراء من الهندو ، وبعض الكهنة البراهمانيين ، وطردوا مراكزهم بين القبائل الوطنية بفضل ما كانوا يملكونه من حضارة متفوقة ، وإن أولئك الأمراء والبراهمانيين وثقوا صلاتهم مع العائلات الحاكمة بالمصاهرة ، أو بقيامهم ببعض المناصب المربحة مثل وظيفة رئيس الوزراء ، أو كوسطاء بين المعتنقين

الجدد للديانة والآلهة الهندوسية . ومما يستحق الذكر أنه ما وافى القرنان الثالث والرابع الميلاديان حتى كان هناك ملوك براهمانيون في جنوب الهند . ويرجع أن اقبالهم على الديانات الشمالية كان اقبالا حماسيا ، وأن الملوك كانوا يعدقون على المبشرين كثيرا من الهدايا ، وأن عددا من أهم المباني الأثرية التي شيدت أثناء العصر البوذي في الهند توجد في الجنوب ، حيث نرى حتى الآن كثيرا من المستويات التي يرجع تاريخها الى القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد .

الفصل الرابع والإثلاثون

البوذية

ان أهم ما قدمته الهند لمدينة العالم هى الديانة البوذية التى كادت أن تختفى نهائيا فى موطنها الأصلي ، ولكنها أصبحت احدى الديانات الرئيسية فى الدنيا . وتحتوى هذه الديانة على فرق لا يستطيع الانسان حصرها ، ويبلغ عدد أتباعها نصف عدد جميع الطوائف المسيحية مجتمعة . ولا تقتصر أهمية البوذية على أنها دين من الأديان ، ولكن أهميتها الكبرى هى أنها تعبير صادق عن الفلسفة الهندية الأصلية . كان « سيدذارتا » (Siddhartha) الذى يعرف أيضا باسم « الجواتاما » (Guatama) وباسم « ساكياموني » (Sakeyamuni) وباسم بوذا شخصية تاريخية . ولد عام ٥٦٣ ق . م ومات عام ٤٨٣ أو عام ٤٨٦ ق . م . وربما سببت هذه الأسماء الكثيرة شيئا من الارتباك للباحث الأجنبى ، ولكن اسم « سيدذارتا » كان اسمه أيام طفولته ، واسم جواتاما اسمه الخاص بالعشيرة التى ينتمى إليها ، وساكيامونى ليس الا لقبه كناسك ، أما اسم البوذا فهو التسمية الالهية له . وقد ظل بوذا حيا حتى علم كثيرا من تلاميذه ، وأشرف على تنظيم الديانة التى أسسها . ومن المرجح أن يكون ما نسب اليه من أقوال ، وما حدث له فى حياته من حوادث كان صحيحا رغم أنه مر نحو قرن من الزمان ، على أقل تقدير ، والناس يتناقلون هذه الأقوال والقصص عن طريق الرواية الشفهية . وعلى أى حال ، فقد حدث لبوذا ما حدث لغيره من مؤسسى الديانات الكبيرة ، اذ أصبحت الأساطير التى حيكت حوله أهم شأنا من الحقائق .

وهناك عقيدة هندوسية قديمة تقول بأن روح الاله تحل في أحد الأشخاص عندما يظهر شر كبير يتهدد العالم فيأتى هذا الشخص لينقذه وذلك لأن الاله « قشنو » ، وهو المكلف بالمحافظة على العالم ، كان له « افااتارات » (Avatar) متعددة . لم يكن « ساكيامونى » — حسب البوذية الأصلية — الا واحدا من سلسلة من ال « بوذا » الذين ظهروا في أزمنة مختلفة في الماضى والذين سيظهرون في المستقبل . لقد مرت به تجارب لا حصر لها بسبب تناسخ الروح وهى مدونة في ال « جاتكا » وهى مجموعة قصص شعبية تأخذ بلب قارئها . وبعد أن وصل الى أعلى درجات التطور الروحانى ، وهى درجة ال «بوذيساتفا» (Bodhisattva) استراح مع الآلهة في أعلى السموات ، ولكن عطفه على الجنس الانسانى جعله يأخذ على عاتقه عبء آخر تناسخ روحى ، فدعا جميع الآلهة وعلمهم قانون البوذية ، وقدم اليهم خليفته « البوذيساتفا مايتريا » الذى يعتقد البوذيون فى العالم أن وقت ظهوره قد اقترب . وبحث « الجواتاما » عن أم تلائمه لكى يولد مرة أخرى واختار « مايا » (Maya) زوجة أحد حكام ال « ساكياس » فى نيبال على الحدود الشمالية الشرقية للهند . وعندما أعلن قراره أظهرت الدنيا ابتهاجها فحطت غمامة من الطيور المفردة فوق القصر ، وأزهرت الأشجار فى غير أوقاتها ، واعتكفت « مايا » فى حجرات القصر الخاصة بالنساء حيث ظهر لها البوذيساتفا فى صورة فيل أبيض لونه كاللؤلؤ له ستة أنياب حمراء ، وهو بكل تأكيد زائر أبهى مظهرا من الملاك الذى أتى للبشارة فى الديانة المسيحية . فلما جاء وقت الولادة ذهبت مايا الى حديقة « لمبىنى » (Lumbini) خارج بوابة المدينة وولد بوذا من جنبها الأيمن وهى واقفة على قدميها ، وتلقف الالهان « اندرا » (Indra) و « براهما » الطفل الوليد على ذراعيهما وأرسل ملكا الناجا (Naga) ، وهما الهان من آلهة الهند الأصلية على صورة الثعبان ، فأرسلا جدولين من الماء الحار والماء البارد

لأجل غسل الطفل . وفي لحظة ولادته خطا السيذارثا سبع خطوات نحو كل جهة من الجهات الأربع ، وبذلك استولى على الدنيا كلها .

ووصلت الأم والطفل الى القصر في عربة يجرها الملائكة ، وماتت الأم من شدة فرحها بعد ولادة الطفل بأيام سبعة ، ثم ولدت في الحال مرة أخرى في السماء بين الآلهة . وقامت خالة « السيذارثا » بتربيته ، وكانت تسمى « مهايچاياتى » (Mahaprajapati) . وتروى الأسطورة أن الطفل ولد وفيه علامات تدل على التوفيق وحسن الطالع ، فكانت أصابعه متصلة بنشاء جلدى بينها ، وفي أعلى رأسه تنوء ، وله أذنان كبيرتان تمتدان الى أسفل ، وعلى أخمص قدميه علامة ساقية « القانون » . وعندما رآه أحد كبار الحكماء تنبأ له بأنه اما أن يصبح ملك الدنيا أو مخلص الجنس البشرى . وعندما ذهب الطفل لأول مرة الى المعبد خرت تماثيل الآلهة ساجدة أمامه ، وكان يناقش الحكماء ومن كانوا يقومون بتعليمه فيدهشون لحكمته . وعندما كان في الثالث عشرة أو الرابعة عشرة من عمره ، وجلس لأول مرة يتأمل تحت ظل احدى الأشجار ، بقى ظل الشمس ثابتا في مكانه ليحميه حتى لا تنقطع تأملاته .

ولما بلغ الحلم اختار له والده الملك فتاة لتصبح زوجة له ، ولكن والدها شك في أن ذلك الشاب الحالم الجميل الصورة يستطيع أن يصبح زوجا قديرا وحاكما لشعبه . ولهذا السبب التجأ الى حيلة ، طالما وردت في جميع أساطير العالم ، وهى التنافس بين الخطاب ، فقال الوالد بأنه سيزوج ابنته للشاب الذى يستطيع أن يشد أقوى الأقواس ويرسل سهمه الى أبعد مسافة . وتفوق « السيذارثا » بطبيعة الحال وأرسل سهمه الى مسافة أبعد من جميع منافسيه . وتزوج بعد ذلك « يوسودارا » (Yosodhara) وعددا من الزوجات الثانويات اللاتي آتين معها . وعلى أى حال ، فإن ملذات الحريم لم تنجح في ارضائه ، وأخذ يتأمل فيما يحتويه هذا الكون من أحزان وشرور . وحدث في يوم من الأيام أنه قابل شيخا طاعنا فى السن ، ورجلا مريضا ، وجثة ميت ، فأكد له

سائق عربته أن هذه الأشياء الثلاثة هي مصير كل انسان ، فكان ذلك الحادث سببا في وضع حد لما كان يحس به من عدم الاطمئنان . ذهب الى أبيه ورجاه أن يسمح له بأن يصبح ناسكا ، فرفض أبوه رجاءه وسمى لتحويل أفكاره الى مباحج ومسررات جديدة . وولد له ابن ، واحتقوا بذلك باقامة احتفالات كبيرة ، ولكن السيدارثا قال عندما أبلغوه مولد الطفل « هذه رابطة أخرى يجب فصمها » . وفي ليلة الاحتفال فر من القصر ومعه سائق عربته « تشانداكا » (Chaudhaka) وحمل الآلهة خوافر جياده في أيديها حتى لا يسمع الحراس صوتها عندما تمر بهم . وعند حافة الغابة ودع السيدارثا جياده وسائق عربته ، ثم قص شعره الطويل وتبادل ثيابه مع أول فلاح قابله ، وقد كان بطبيعة الحال أحد الآلهة في ثياب التخفى . وزار جماعات متعددة من القديسين الناسكين وفي نهاية المطاف أصبح تلميذا لـ « أرادا كلما (Arada Kalma) » ، وبعد أن قام بما تفرضه التعاليم المعتادة في التأمل والتمرينات على النسك أصبح قديسا . وأخيرا استقر في « بيهار » (Bihar) الجنوبية التي اختارها لجمال مناظرها الطبيعية ، وجمع حوله جماعة مكونة من خمسة من تلاميذه ، وقام بأعمال من التقشف الشديدة وانتشر صيته في كل مكان .

وزاد تقشف السيدارثا زيادة كبيرة حتى خشي الآلهة على حياته ، وأرسلوا أمه من السماء لترجوه أن يكف عنه . وأخيرا استقر رأيه على أنه لن يصل الى ما يشده عن طريق التقشف فأخذ يأكل ويستحم ، وأعلن عن قراره في العدول عن الصوم والقيام بأعمال اليوجا ، فتركه تلاميذه الخمسة في الحال . وأخذ يتجول فترة من الزمن من مكان الى مكان ، وأخيرا جلس في مكان يسمى « بوذ — جايا » (Bodh - Gaya) ، تحت شجرة من أشجار التين الهندي (Pipal) ودخل في دور تأمل رفيع كشف له طريق الخلاص . وأدرك « مارا » (Mara) ملك الشياطين ما تتعرض له مملكته على الأرض من خطر ، وحاول أن يصرفه عن غرضه فأرسل عليه الوحوش لاختافته ولكنه كان

قد أصبح الـ « بوذا » فتجاهل وجودها . وعاد « مارا » فأرسل اليه بناته الجميلات ليقدمن له كل ملذات الجسد ، ولكن بوذا تجاهلن أيضا . وتكشفت له الحقيقة وهي أن جذور كل الآلام تكمن في الرغبة التي تنبع من الأفكار الخاطئة في النفس ، فاذ محيت الرغبة زال الحزن والألم .

وظل بوذا في مكانه تحت شجرة التين الهندي أربعة أسابيع كاملة بعد أن تكشفت له الحقيقة ، وفي الأسبوع الخامس هبت عاصفة شديدة ، ولكن ملك الناجا أتى على صورة ثعبان كوبرا عظيم الحجم ، ونشر درقته فوق « المستتين » ليحميه من المطر . ولم يبق بعد ذلك الا الواجب الأخير وهو نشر مذهبه في العالم ، وعندما طلب منه « اندرا » و « براهما » أن يفعل ذلك شرع في تأدية رسالته .

ومنذ هذه اللحظة أصبحت حياة بوذا ، كما ذكرتها الأساطير ، سلسلة من المعجزات . فاذا تركنا المعجزات جانبا وبخشنا عن الحقيقة الصريحة نجد أنه عاش أربعين سنة بعد استنارته ، وأنه جابه المشاكل الكثيرة التي صادفته أثناء تأسيس دينه الجديد بحكمة وواقعية . وبالرغم من أنه قوبل في بدء دعوته ببعض الشك ، بل وبالعداوة الصريحة من أفراد قلائل ، فانه لم يتعرض أبدا للاضطهاد ، بل خاض بنجاح تلك التجربة المريرة في حياة أى نبي عند رجوعه الى بلده ، وتحويل أفراد عائلته هو الى دينه الجديد . كان يشترط على أتباعه الفقر والطهارة وعمل الخير ، ويطلب منهم أن يلبسوا لباسا يميزهم ، وهو الثوب الأصفر وحلق قمة الرأس . ونظمهم في جماعات من رهبان الأديرة الذين يسيرون في تنظيم جماعتهم على نظام مماثل لنظام الجمهوريات الصغيرة الذي كان سائدا آنذاك في شمالي الهند . وفي خلال الفصول غير الممطرة كان الرهبان والراهبات ، اللاتي قبل البوذا انضمامهن الى تنظيمه الديني بعد شيء من التمتع ، يخرجون للتبشير بالدين الجديد . أما في الفصول الممطرة فكانوا يعودون الى أديرتهم ، ويقضون الوقت في التأمل والدراسة .



بوذا الجالس ، من سرناث

وكانت البوذية في صورتها الأولى ، مثل الديانة المسيحية ، بسيطة وصرحة
وما زال البوذيون يتذكرون الكثير مما قاله بوذا :
« يوجد أمران شاذان يجب تجنبهما . هناك حياة الملذات ، وهي وضیعة
دنيئة وتعارض مع الذكاء ولا تليق بالإنسان وهي عبث باطل . وهناك حياة

التكشف وهى حياة تامة ولا تليق بالانسان وهى عبث باطل أيضا . وظل الانسان الكامل بعيدا عن كل من هذين الأمرين المتطرفين ، ووجد سبيلا وسطا يقود الى الراحة والمعرفة والاستنارة والى النيرفانا (Nirvana) وهى الملجأ الأخير . انظروا أيها الرهبان ، ها هى ذى الحقيقة المقدسة بشأن الألم . ان الولادة والشيخوخة والمرض والموت وفراق الانسان لمن يحبهم ، انها كلها آلام . انها التعطش الى اللذة ، والتعطش الى البقاء والتعطش الى ما هو فان . وها هى ذى الحقيقة عن محو الآلام . انها القضاء على تلك الشهوة بالقضاء على الرغبة » .

وقال أيضا : « ان الحسنات والمعرفة والفضيلة هى المكتنيات التى لا تزول . لأن يعمل الانسان عملا حسنا مهما قل ، أعظم من أن يقوم بأشقى الأشغال . ان الانسان الكامل يصبح كمن لا وجود له اذا لم يفن نفسه فى نفع الكائنات الحية » .

« ان مذهبي هو مذهب الحنان ، وهذا ما يجعل السعداء فى الأرض يجدونه صعبا . ان طريق الخلاص مفتوح أمام الجميع . اقضوا على شهواتكم ، ولكن اعلموا أن من يعتقد أنه يمكنه أن يهرب من شهواته باقامته فى حى دير انما يغش نفسه . ان الحقيقة الكاملة هى العلاج الأوحى الذى يشفى من الشر » .

وخلال الأربعين السنة التى عاشها بعد استنارته كان بوذا يلتقى دروسه على أتباعه ، وأوضح لهم مذهبه شيئا فشيئا . أنكر بوذا فائدة التفريق بين الطبقات ، ولم يكن ذلك فى أيامه أمرا صعبا كما أصبح فيما بعد . كما أنكر مفعول الطقوس والقرايين ، وكان ذلك ضربة شديدة مسددة ضد ما كان للبراهمانيين من مركز ممتاز . ولم ينكر وجود الآلهة ولكنه قال بأنهم لا يستطيعون معونة الناس فى الوصول الى هدفهم النهائى لأنهم أيضا مربوطون الى عجلة الحياة . وأهم من ذلك ، أنكر بوذا فكرة تقمص الأرواح

بالرغم من أنها كانت عقيدة متأصلة جدا في التفكير الهندي ، وبذلك أصبحت أحد الاتجاهات الفكرية الأساسية في الديانة الجديدة . بل وذهب الى أبعد من ذلك عندما أخذ يتشكك في وجود الروح ككائن مستقل قائلا انها ليست الا التراكم الكارمي للأعمال الحسنة والسيئة التي تربط الرغبة بعضها ببعض . وعندما سأله أحد تلاميذه عن بدء الدنيا أجابه بأن ذلك السؤال لا ترجى فائدة من ورائه ، وبهذا أهدأ البوذية انقاذا أبديا من الصراع بين الآراء البدائية عن نظام الكون ، وبين التقدم العلمى في دراسة طبيعة هذا العالم ، وهو الأمر الذى سبب وما زال يسبب الكثير من القلق والمتاعب في الديانة المسيحية .

كان القصد من هذا الانكار هو استبعاد الخرافات ، وترك الانسان حرا لاتباع الطريق الثمانى ، وأولها : الأفكار الصحيحة ، التى يظهر أنها كانت تعنى قبل كل شئ الاصرار على الصدق لأنه يمكن الوصول اليه عن طريق المنطق . أما الثانى : فهو التمنيات الصحيحة التى كان مفروضا أن تحل محل تلك الشهوات الشخصية الوضيعة التى حرماها . ومن هذه التمنيات الصحيحة الحب المجرد لخدمة الآخرين ، وجب العدل ، وما مائل ذلك . والثالث : هو الكلام الصحيح ، والرابع : الخلق الصحيح ، والخامس : الحياة الصحيحة ، والسادس : الجهد الصحيح ، ويعنى بذلك التفكير المتسم بالذكاء والعمل للوصول الى الأغراض المنصوص عليها فى المذهب ، والسابع : هو الاهتمام الصحيح ، ويعنى على ما يظهر التخلص من افتخار الشخص بما عمله ، وذلك بإدراكه بأن لكل شخص نقصا ، أما الثامن : وهو أقلها وضوحا فهو الطرب الصحيح ، الذى يلوح أنه يعنى السرور والفرح الذى يحصل عليه الانسان من التأمل والتفكير ، بدلا من ذلك الطرب الناشئ عن الانغماس فى الملذات . ولا شك فى أن هذه المبادئ كانت بسيطة ، وكانت تدعو الى الكثير من بحث كل فرد عما فى داخل نفسه ، ولهذا فشلت فى أن تروق للشخص العادى . ومع مضي الزمن أضيف الى البوذية كثير من الطقوس ، كما أن المنازعات

المذهبية أدت الى تأسيس عدة طوائف وفرق . أما التحول الى البوذية « المهيانا » (Mahayana) (العربة الكبرى) فقد بشر بها نجارجونا (Nagarjuna) في القرن الأول أو القرن الثاني بعد الميلاد . اقترض مذهب « المهيانا » وجود كائنات يسمى كل منها « بوديساتفا » (Bodhisatva) الذى رفض النيرفانا عن قصد ليبقى على الأرض ويساعد فى الخلاص النهائى للحياة كلها . وهذا المذهب يعارض عقيدة « الهنايانا » (Hinayana) (العربة الصغرى) فى الخلاص كمكافأة لما يبذله كل شخص من جهود . وقد أدى افتراض وجود عدد كبير من الآلهة الى تغييرات فى موقف البوذيين تجاه بوذا نفسه . فبدلاً من أن يكون شخصاً مستتيراً أصبح الها ، كما يفهم الغريون هذا التعبير . وتسبب المذهب الجديد ، بما فيه من امكانيات غير محدودة لاضافات دينية وسحرية ، فى نشر البوذية فى أرجاء الهند والتبت ، ومن التبت وصلت الى الصين واليابان . أما مذاهب « الهنايانا » ، وكانت مذاهب مبسطة نسبياً ، وتسير على تعاليم البوذية الأصلية الى حد كبير ، فقد بقيت فى جزيرة سيلان ، وفى بعض مناطق جنوبى — شرق آسيا ، وحتى هذه المذاهب أيضاً أصبحت ملأى بالطقوس الدينية المتشعبة .

وتدين البوذية فى وصولها الى مرتبة الديانة العالمية بالشيء الكثير لما أظهره بعض الملوك نحوها من عطف . ففى القرن الثالث قبل الميلاد اعتنق « أسوكا » هذه الديانة ، وكان امبراطوراً للأسرة الماورية ، وأول امبراطور يمد سلطانه على جزء كبير من جنوبى وشمالى الهند . ارتاع « أسوكا » لما جلبته الحروب من آلام ، فأوقف غزواته مختاراً ، وخصص سنواته الأخيرة للأعمال النافعة والدعوة الى الدين ، وأمر بكتابة مبادئ الدين الجديد على أعمدة تقام فوق صخور الجبال فى جميع أرجاء مملكته كمراسيم ملكية صادرة منه . وبعد ذلك بثلاثة قرون اعتنق هذه الديانة ملوك الكوشان الذين حكموا فى شمالى غربى الهند ، ويظهر أن مؤسسى هذه الأسرة كانوا من قبائل الترك الرحل الذين غزوا

الهند آتين من مناطق الاستيس في طرق الغزو المتبعة منذ آلاف السنين ، ولكنهم كانوا يحبون الظهور بمظهر المتمدنين فدعا « كانيشكا » (Kanishka) أعظم ملوكهم مجعما دينيا لتوضيح المذهب البوذى ، كمحاولة لازالة ما ظهر من خلافات .

ويرجع الفضل فى دخول البوذية الى التبت الى ملكة تقية من أصل هندى ، أما فى اليابان فقد وصل اليها المبشرون الأول بدعوة ملكية . ومع كل ، فان أقوى الأسلحة البوذية عند غزوها لآسيا كانت المذاهب الدينية والآراء الفلسفية للبوذيين ، وما لديهم من نظام المبشرين التسولين . ولم تكن جامعة « نالاندا » (Nalanda) الكبيرة فى بيهار الجنوبية التى كان يقيم فيها ما يقرب من عشرة آلاف راهب مدرسة يتعلم فيها الرهبان وحسب ، ولكنها كانت المكان الذى يتوق الى الوصول اليه الزوار الأتقياء من البلاد الأخرى ، وقد درس فيها كل من الحاجين الصينيين الشهيرين شوان تسانج (Hsüan Tsang) و « اى تشنج » (I Ching) فى القرن السابع ، وكتب كل منهما أوصافا شائعة لذلك المركز العلمى الذى ما زالت أطلاله المترامية الأطراف باقية حتى اليوم .

أما الاعتقادات المفككة القائلة بأن لكل شىء فى الطبيعة روحا ، وهى الاعتقادات التى كانت منتشرة بين بعض سكان آسيا ، فانها لم تستطع أن تقف على الاطلاق ضد الآراء المنطقية ، والتى تتمشى مع العقل ، التى جاء بها المبشرون الهنود ، وكان للزخارف الدينية بما فيها من التماثيل والصور ، والطقوس الجميلة الوقورة التى صاحبها ، أثر شامل بين تلك الشعوب . وحتى فى الصين نفسها ، حيث ووجهت البوذية بعدد من الأفكار الفلسفية المحددة تحديدا واضحا ، فان المبادئ الميتافيزيقية ورضا الناس عن البوذية اكتسب الى هذه الديانة جزءا كبيرا من السكان خلال الفترة المضطربة التى مرت على الصين بين القرن الثانى والقرن السادس بعد الميلاد . وحدث فيما بعد ، عندما

أخذت البوذية تدخل في دور الاحتضار في الهند ؛ أن ظهرت طوائف جديدة في الصين بفضل الكتب السنسكريتية التي رجع بها من الهند بعض الحجاج المتحمسين . وانتشر المذهب الجديد بعد ذلك من الصين الى اليابان حيث ظلت البوذية حتى اليوم فلسفة حية بين اليابانيين .

كانت الهند أولى المناطق التي ظهر فيها نشاط المبشرين ، ويلوح أنهم بدأوا عملهم كنتيجة مباشرة للفلسفات الهندوسية والبوذية الناشئة . ولم يحاول المؤمن بأن لكل شيء في الطبيعة روحا ، أو من جاء بعده من عبدة الآلهة المحلية أو القبلية ، لم يحاول أن يفرض على الآخرين أن يعتقدوا دينه . فقد كان يعتقد أن آلهته كانوا ذوي قوى محدودة ، وكان مدى اهتمامهم ونشاطهم محدودا أيضا ، ولهذا شعر بأن كل عابد جديد لأحد الآلهة ينقص من القوة التي فيه ويقلل من اهتمام الاله بهذا الشخص نفسه . ولم ينقض هذه الفكرة الا ظهور الفكرة القائلة بأن للآلهة قوة غير محدودة وأنهم قادرون على مساعدة جميع الناس في جميع الأماكن وبهذا اختفت الفكرة القديمة وحلت محلها الفكرة القائلة بأن الانسان يمكنه الحصول على الرضا الالهي اذا جلب الى ذلك مؤمنين جددا . وكانت البوذية في أوائل أيامها تنكر مجرد وجود الآلهة وكانت تصر اصرارا كبيرا على الاحسان وعمل الخير كأحسن الطرق لخلاص الانسان ، ولهذا أصبح للنظم التبشيرية قوة جديدة . وفي أيام بوذا نفسه ، أرسل هو مئات من التلاميذ ليحملوا البشري الجديدة الى جميع أنحاء الهند فاستحق التقدير .

واستقرت أساليب النسك والانسحاب من هذا العالم في عهد بوذا نفسه ، وأضافت عنصرا هاما لنظام التبشير . فالكاهن المتسول يستطيع أن يواصل سيره بين شعوب معادية وممالك يسودها الاضطراب والفوضى ، وهو متمتع بالحصانة ، لأنه أفقر من أن تمتد اليه يد بالسرقة ، كما كان يحمل معه أينما سار غموضا يحيط به لأنه نذر نفسه لخدمة قوى خارقة للطبيعة ، اذ لا يسهل

على انسان ايذاء شخص لا يحصل من وراء قتله أو سرقة على شيء ، فضلا عن أنه في الوقت ذاته يعرض نفسه لغضب القوى العليا بمثل هذا العمل . ولم يفقد الرهبان حصاتهم الا بعد أن مر على موت بوذا أكثر من ألف سنة عندما زاد انتشار الاسلام في الهند . ولكن قبل ذلك الوقت كان في استطاعة الراهب البوذي أن يتجول شرقا وغربا فوق دروب القوافل ، وعلى سفن البحر ، يحمل معه أينما ذهب أبناء الشريعة ، وكان يقابل بالترحيب من سكان القرى ، ومن الملوك على السواء .

وفي بداية العصر المسيحي وصل بعض أولئك المبشرين الى الاسكندرية ، وبالرغم من أن تعاليم البوذية لم تترك الا أثرا ضئيلا لأن فلسفتهم لم تستطع أن تتفوق على ما كان يوجد فيها من النظم والأساليب المتقنة للفلسفة اليونانية فربما كانوا السبب في ظهور كثير من أنواع النسك ، وتنظيم رهبان الأديرة ، الذي امتازت به القرون المبكرة في تاريخ المسيحية في مصر .

الفصل الخامس والاربعون

الهند في العصر السابق للاستعمار

يرجع الفضل في تطور الحضارة الهندية الحديثة الى التأليف بين عناصر مختلفة من مصادر متعددة . فمنذ آلاف من السنين كانت الحضارة الآرية تواصل امتزاجها بما كان في الهند من حضارات أصلية ، ولهذا السبب انتشرت العناصر الآرية شرقا وغربا .

واذا بدأنا بالحديث عن الغزو الفارسي ، أو الغزو اليوناني ، نجد أن شمالي غرب الهند شهد كثيرا من الغزوات التي زال أثرها ، ودارت الحوادث فيها كلها دورات تكاد تكون متشابهة . كان يتلو الانتصارات السريعة للغزاة امتصاص تدريجي لهم ، وأخيرا ينتهي الحكم الأجنبي على يد إحدى الدول الوطنية المجاورة ، ولكن الغزاة المسلمين أدخلوا شيئا جديدا .

ففي عام ٧١٢ غزا العرب اقليم السند في الوادي الأسفل لنهر السند ، ومنذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر كان غربي الهند على صلة وثيقة بالعالم العربي عن طريق التجارة والعلاقات الثقافية والمبشرين الذين نشروا الديانة الإسلامية في الهند التي اشتهرت بالتسامح .

فحوالي عام ١٠٠٠ م . جاء محمود الغزنوي ، وهو تركي من الأفغانستان ، وغزا شمالي الهند ونهبها ، وضم اقليم البنجاب ، ومنذ هذا الوقت ، أصبح الاسلام مرادفا للقوة السياسية . وبعد موت محمود توقفت حملات الغزو حتى نهاية القرن الثاني عشر عندما غزا دلهي أفغاني آخر ، وفي هذه المرة أسس سلطنة استمرت ١٥٠ عاما نشرت سلطانها نحو الجنوب في أعقاب الذين هاجروا الى هناك هربا مما تعرضوا له من ظلم .

وفي هذه المرة ، أخذ الغزاة ، وهم من أحد الشعوب الهندو - آرية القريبى الصلة بالهنود ، يتهندون بعض الشيء عن طريق المزج الحضارى . وقبل نهاية القرن الرابع عشر تعرضت دلهى لهجوم عنيف لا رحمة فيه على يدى تيمور ، أضعف كل الهند الشمالية . وفي عام ١٥٢٦ استولى بابر ، وهو أحد أحفاد تيمور وكان شخصا مثقفا من أصل تركى مغولى ، على مدينة دلهى وأسس الامبراطورية المغولية فى الهند .

لم يكن المغول غزاة من الهمج المتوحشين ، وانما كانوا ممثلين لاحدى المدنات القديمة فى بلاد الشرق الأدنى ، استمدوا الكثير من قوتهم مما أدخلته الحمية الاسلامية . لم تبهرهم الحضارة الهندية فى الشمال اذ كانت فى حالة تدهور وانحطاط فى ذلك الوقت ، وافتقدوا ما كان فى موطنهم فى أواسط آسيا من ترف ، (بابر مثلا هو الذى وضع الرسم التخطيطى لمدينة أجرا ، وابن ابنه شاه جيهان هو الذى شيد تاج محل) ، وفى الوقت عينه لم يعرفوا قدر الفلسفة المجردة التى ظهر فيها تفوق الهنود . وكانت الصلات المستمرة بالغرب ، وسفر الحجاج الى مكة ، سببا لجعل أولئك الغزاة على صلة مستمرة ، لا بذلك المركز الاسلامى فحسب ، وانما بدولة الصفويين فى ايران التى كانت تجتاز فترة من فترات نهضاتها ، واحياء المجد القديم لتلك البلاد . وتختلف نظرة الهندوسية الى العالم عن نظرة الاسلام اختلافا كبيرا ، بل وتفصل بينهما هوة لا جسر فوقها ، ومن الصعب جدا أن نجد مدينتين أكثر تباينا واختلافا .

كان المسلمون الغزاة يعبدون الها واحدا لا شريك له ، ولا يمكن أن يقبلوا نقاشا أو جدلا فى ذلك . أما الهندوس فكانوا مشركين وعلى استعداد للاعتراف بوجود أى عدد من الآلهة لأنهم كانوا يرون فيهم أنهم ليسوا الا مظاهر من دنيا مبهمه للأرواح (العقيدة البراهمانية) . ويكره المسلم جميع أنواع عبادة التماثيل كرها شديدا ، ولكن الهندوس كانوا معتادين منذ

آلاف السنين على أن يتعبدوا لآلهتهم بوساطة أشياء مادية تمثلهم ، ويمكن رؤيتها . ويؤمن المسلمون بأن جميع المؤمنين اخوة ، وسبحوا في حياتهم الشخصية بالكثير من التقدم الاجتماعى للفرد ووصوله الى أعلى المراتب مهما كان مولده . وقرأ فى كتاب ألف ليلة وليلة عن ذلك النوع من التقدم الاجتماعى فى قصة المتسول الذى أصبح بين يوم وليلة صاحب ثروة كبيرة ، ويشغل وظيفة ذات نفوذ سياسى كبير . وعلى عكس ذلك ، فإن النظام الاجتماعى الهندوسى بأكمله يقوم على عدم المساواة الاجتماعى ، وأن يبقى كل شخص بقاء أبديا فى الطبقة الاجتماعية التى ولد فيها وورثها . وأهم من هذا وذاك ، نجد أن القيم الاسلامية قيم ديناميكية متحركة ، فكلمة الاسلام تحمل معنى التسليم لارادة الله ، ولكن فى واقع الأمر ليس ذلك التسليم الا القبول المقرون بالاعتزاز بأمر لا بد من وقوعه ، ولا يمكن ايجاد مخرج آخر ، ولكن الهندوس كانوا يعظمون من شأن الاستسلام السلبي ، والاهتمام بأمور الدنيا الأخرى .

وكان فقد الهندوس للسلطان السياسى بعد الغزو الاسلامى سببا لازدياد اتجاههم نحو السلبية وانكار حقيقة العالم الظاهر ، واحتسوا فى رداء من الاقتصار والازواء ، لعل ذلك يحميهم . فتبلور نظام الطبقات ، وامت واتشرت انتشارا سريعا عادة عزل النساء وحجبهن عن الأنظار (Purdab) كما حدث نفس الأمر مع المنبوذين . ولكن الازواء والسلبية والاهتمام بأمور الدنيا الأخرى كانت كلها معروفة وسائدة قبل وصول المسلمين . ونظرا لأنها ، كما قلنا ، غريبة عن الديانة القيدية القديمة فربما كانت من أصل درايفدى زاد أثرها عمقا بين الهنود خلال العصر الطويل الذى كان فيه نجم البوذية آخذا فى الصعود .

ومن المستطاع الوصول الى شئ من التفاهم وبعض التوفيق بين هاتين الناحيتين المتنافرتين كما حدث فى الموسيقى واللغة (الأوردو) ، ولكن لم

يحدث أى امتزاج حقيقى بينهما . وبعد الغزو الاسلامى حاول بعض الزعماء الروحانيين ومن بينهم « الامبراطور أكبر » نفسه ، أن يحققوا التوحيد الدينى ، ولكن أتباعهم — اللهم الا فى حالة واحدة وهى حالة الشيخ — وجدوا أنفسهم فى النهاية فى أحد المعسكرين .

وبالرغم من أن الغزاة اقتبسوا كثيرا من عناصر التكنولوجيا الهندية ، بل واقتبسوا مع مرور الزمن عناصر معينة فى نظام الطبقات ، فقد ظلوا فى معظم الجهات جماعة مستقلة كانت صاحبة النفوذ السياسى فى البلاد .

ولما كان المسلمون يعتزون بمسكاتهم كمفاتيح فقد كان يزعمهم دائما قواعد تجنب الآخرين التى تلتزمها طبقة الهندوس ، وقد ساعد على هذا الشعور أن الكثيرين من الذين اعتنقوا الديانة الاسلامية من الهنود كانوا من الطبقات الدنيا . ولم يكن جميع الهندوس ممن يحبون السلم بالرغم مما تأمرهم به عقيدتهم فقد حافظ ال « راجپوت » الذين يقطنون فى اقليم « راجپوتانا » على استقلالهم قرونا عديدة ، ويرجع ذلك الى مقدرتهم الحرية من ناحية ، ومن ناحية أخرى الى أساليبهم التى جعلت غزو بلادهم أمرا غير مجد . فعندما يصبح سقوط احدى المدن على وشك الحدوث كان المدافعون يوقدون فيها النار ، وبذلك يقضون على كل ما يطمع المهاجمون فى أخذه . وكانت النساء والأطفال ينتحرون ، أما الرجال فكانوا يرتدون ثياب الزفاف ويخرجون للحرب . وفى عصر الامبراطورية المغولية أصبحوا حلفاء أكثر من كونهم رعايا ، فقد كان الأباطرة المغول يتخذون من بنات البيوت النبيلة زوجات لهم ، وكان يرجع جانب كبير من قوتهم الحرية الى الفرق الحرية الراجپوتية التى كانت تنضم الى جيشهم .

وحتى فى الحالات التى كان فيها الغزو الاسلامى سريعا وكاملا ، ووصلت الأمور فى البلاد الى نوع من الاستقرار ، فإن الفتن ظلت مستمرة بين أتباع الديانتين ، بل وكانت هناك دائما مغريات تقليدية على الفتنة . فالهندوس الذين

يريدون البدء بعمل اضطرابات كانوا يعزفون الموسيقى أمام أحد المساجد أثناء تأدية فريضة الصلاة ، أما المسلمون الذين كانوا يرغبون في مثل ذلك فكانوا يلجأون الى ذبح بقرة في الطريق ، وما يستتبع ذلك من التعليقات المناسبة . وربما كان وجود حكام المسلمين ذا أثر مباشر في تطور الحضارة الهندوسية وتقويتها حتى وصلت الى صورتها الحالية . فقد لاحظ عدد من الكتاب الذين كتبوا عن الهند ملاحظات مقرونة بالدهشة لأنه بالرغم من وجود الآثار البوذية والچينية الكثيرة ، التي يرجع تاريخ بعضها الى القرن الثالث قبل الميلاد ، لا توجد الا آثار هندوسية قليلة يرجع تاريخها الى ما قبل القرن الخامس الميلادي أى من عصر ال « چوپتا » (Jupta) المتأخر ، وهو العصر الذى يعرف عادة بأنه العصر الكلاسيكى للمدنية الهندية . فلدينا من هذا العصر كتابان كتبهما « كاليداسا » (Kalidasa) الشاعر القصصى ومؤلف ال « شاكنتالا » (Shakuntala) ولدينا صور وتماثيل المعابد المنحوتة في الصخر في « أچنتا » (Ajanta) في شمالى الدكن . كما أن هيكلا « ديوجاره » (Deogarh) وهو من أقدم الهياكل الهندية الباقية وأجملها ، يرجع تاريخه الى هذا العصر أيضا . ولدينا أدلة على أن هياكل « فيسنافا » (Vaisnava) و « سايفا » (Saiva) كانت موجودة قبل ظهور المسيحية ، بل ان عددا قليلا من العملة وبعض التماثيل المصنوعة من الحجر التي وصلت الى أيدينا يرجع تاريخها الى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد . كما أن الاعلاء من شأن « سيفا » حتى على عملة الفزاة الأجانب (الكوشان) يدل على انتشار عبادة سيفا في ذلك العهد . ومع كل هذا ، فلا يوجد شيء يمكن أن تقارنه سواء من ناحية الفخامة أو العدد بتلك المباني المشيدة من حجر واحد التي خلفها ال « موريا » (Muaryas) أو ما صنعوه بعد ذلك من الآثار المنحوتة في الأحجار من أعمال البوذيين أو الجينيين .

وقد فسر بعض الباحثين ذلك على أنه من المصادفات التي تقضى على بعض

المنشآت وتحافظ على البعض الآخر ، ولكن هناك تفسيرات أخرى محتملة الوقوع . فالبراهمانيون ، الذين لا يمكن أن تفصل بين نشاطهم وبين الهندوسية ، كانوا على الأرجح شديدي المحافظة ، وكانوا يصرون على إقامة معابدهم وتماثيلهم من الخشب بعد أن رأوا أن الحجر قد أصبح المادة التي يستخدمها البوذيون والچينيون المارقون . ومن المحتمل أيضا ، أنه بعد أن أصبحت البوذية والچينية مسيطرتين على الحياة الدينية في الهند استمر البراهمانيون ، الذين أخذ نجمهم في الأفول في بلاط الملوك ، على عكوفهم على الدراسة وتحصيلهم للآداب المقدسة في الأماكن التي التجأوا إليها داخل الغابات ، يقيمون طقوسهم الدينية للجماعات القروية المحافظة . ونجد شيئا لذلك في استمرار بعض العادات الوثنية بين سكان القرى في أوروبا الغربية مدى قرون عديدة بعد أن أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية لتلك البلاد . ومن أهم المبادئ التي تحوّلها الديانة البوذية مبدأ احترام الآثار المقدسة . لقد اعتنق الامبراطور الماوري « أسوكا » هذه الديانة عند ندمه على تخريب اقليم كالينجا (أوريسا) الذي ضمه الى ملكه . وكان « أسوكا » حريصا على جعل شعبه يعتنق هذه الديانة ، ولهذا كان يهتم اهتماما شخسيا بتشييد مبان خالدة لهذه العقيدة الجديدة . ومن المرجح أنه استعان بالصناع المهرة المدربين على نحت الحجر على الطراز اليونانى الفارسى ، لأننا نجد التأثير الأخمينى واضحا جدا في تلك الأعمدة المقطوعة من حجر واحد التي أقيمت في عهده ، وقد كانت هذه الرعاية الملكية هي الباعث على بدء عصر ذهبي للفن الدينى ، استمر رغم ما طرأ من تغييرات على حظ كل من البوذية والبراهمانية منذ عصر « الجيتا » ، واستمر حتى تأسيس سلطنة دلهى وادخال عنصر اسلامى جديد يختلف اختلافا تاما في جماله ، سواء في العمارة أو في الزخارف . لقد غيرت القباب الكبيرة والصغيرة ومآذن المساجد والمقابر الاسلامية المنظر الخلوى في الهند ، ومع ذلك فإن الطراز الاسلامى حدث فيه كثير من

التعديلات ترجع في معظم الحالات الى المعرفة التكنولوجية والمهارة التي أحرزها النحات الهندي خلال القرون الطويلة التي كان يقوم فيها بتشيد المعابد . وأصبحت تلك المهارة في الفن ، التي قامت بعمل التماثيل والصور في المعابد الهندوسية ، تستخدم الآن في نحت الزخارف العربية والكتابات العربية ، وفي استخدام الأحجار المنحوتة بدلا من الطوب للمغطى بطبقة من الملاط الذي كان شائعا في الشرق الأدنى .

وفي الوقت الذي حدث فيه الغزو الاسلامي في القرن الثامن كانت البوذية قد أخذت في الأفول ، اللهم الا في اقليمى ييهار والسند ، وقد قضى عليها نهائيا تغريب الأديار والمكتبات وقتل الرهبان الذي صاحب غزو محمود الغوري ، ففر كثير ممن بقى من الرهبان الى نيبال والى التبت . وفي تلك الأيام هدم كثير من المعابد الهندوسية ، وكثيرا ما حطم المسلمون بعض المعابد والتماثيل واستخدموا أحجارها في تشييد أقدم مساجدهم وذلك لحرصهم على سرعة تشييد دور العبادة الخاصة بهم . ولكن حدث فيما بعد ، حتى في الأزمنة التي كان الحكام المسلمون ذوي شعور ديني قوى ، أن تلك الحماسة لمحو الديانة الهندوسية كان يخففه عليهم بأن الشريعة الاسلامية كانت تعفى المسلمين من ضرائب متعددة تفرض على غير المسلمين ، ولهذا السبب نعلم أنه خلال الغزوات الاسلامية المبكرة في الغرب كانوا يحذرون الولاة المسلمين حتى لا يشجعوا اعتناق الشعوب المهضومة بأكملها للدين الاسلامي حتى لا يؤثر ذلك على دخل الخلافة .

ومن المستحيل أن تتبع الخطوات المتعاقبة التي بواسطتها وصلت الديانة الهندية والمجتمع الهندي الى ما كانا عليه في الوقت الذي اتصلت فيه الهند بأوروبا . فقد كان الهنود ، كما سبق أن أوضحنا ، ينفردون بنوع غريب من عدم الاهتمام بالتاريخ والعلوم التطبيقية ، وكان البراهمانيون يقولون عن كل شيء يفضلونه بأنه قديم منذ عهد بعيد ، وانه فيدي الأصل . وعند بداية

عصر استثمار الهند كان كل من المجتمع الهندي والديانة الهندية قد وصلا بوجه عام الى حالة من الجمود ، الذى لا يمكن أن يذوب أو يتحلل ، وأصبحت الحياة اليومية والصلات الاجتماعية خاضعة الى حد كبير لطقوس خاصة أكثر مما يوجد فى أى مدينة أخرى من مدنات العالم ، وكان كل أمر تفصيلى منها مدعما بعقوبات تأتى من القوى التى فوق قوى الطبيعة . حتى نظام الطبقات نفسه قد برروه بنظريات معقدة من التطور الروحاني ، وقد وصلت كل من الديانة الهندية والفلسفة الهندية بفضل ما بذله كثير من الحكماء ، خلال القرون الكثيرة ، الى درجة جعلتها مقبولة فى مجموعها .

ويلوح أن الدراويدين كان لهم آلهة محليون لا يحصى عددهم ، على عكس الآلهة الكونيين الذين كان يؤمن بهم الآريون القديون . وبفضل عقيدة وحدة الوجود التى كان يؤمن بها البراهمانيون وبفضل مذهبهم الخاص بالتجسد وحلول الروح فى جسد آخر مرة بعد مرة ، أصبح ميسورا لهم أن يساوا بين الآلهة المحليين والأبطال ، وبين كائنات من آلهتهم المركزيين ، أى انهم لم يكتفوا بادخال الناس الى دينهم بل كانوا يدخلون معهم آلهتهم أيضا . وكان من السهل تفسير الاختلافات فى صفات أولئك الآلهة الجدد ، وما فى أساطيرهم من متناقضات ، بالفكرة القائلة بأن الآلهة مثل الأشخاص كانوا يولدون من جديد مرة بعد أخرى ، وأن القصص التى تختلف عن بعضها انما تشير الى « أفاثار » مختلفين (إعادة التجسد مرة بعد مرة) . وأصبح لكثير من الآلهة ذوى النفوذ الشعبى المحلى فى الجنوب بين الدراويدين شعبية كبيرة بين الناس ، وانتشرت ديانتهم فى معظم بلاد الهند الهندوسية . وكانوا ينظرون الى كل من البوذية والچينية بأنها هرطقة من البراهمانية الصحيحة . وكانت البوذية ، وخصوصا فى مراحلها الأولى كما رأينا ، ديانة فلسفية فى أساسها وتقوم على الرهبة ولهذا ربما كانت فى صراع مستمر مع الايمان الشعبى بالآلهة المحلية ، بالرغم من أن كثيرا من أولئك الآلهة قد أصبحوا من الآلهة

البوذية . فلما بدأت البوذية في التدهور لعدم حماية الملوك لها ، عاد أولئك الآلهة الأصليون الى الظهور في الديانة الهندوسية التي بعثت مرة أخرى ، وأخذت منذ حوالي القرن السادس الميلادي تضعف من سيطرة البوذية على الهند .

وكان المعبودان الرئيسيان في هذه الديانة الهندوسية المتأخرة هما « سيفا » (Siva) و« فيشنو » (Vishnu) أما الالهان الرئيسيان في العصور القديمة وهما « اندرا » (Indra) و « براهما » (Brahma) فقد آل أمرهما الى النسيان كان « فيشنو » في الأصل أحد أشكال « سوريا » (Surya) (الشمس) ولكنه أصبح الآن الاله المسئول عن العالم ، ويثبت ما له من « أفتار » عديدين كيف يتجمع آلهة مختلفون في شخص اله واحد . حتى « بوذا » قالوا عنه بأنه « أفتار » لفيشنو أما « سيفا » فيلوح انه كان من الآلهة الذين كانوا يعبدون قبل العصر القدي وكان موطنه في جبل « كيلاسا » (Kailasa) في الهملايا ، وتعكس أشكال معظم المعابد الهندوسية هيئة مسكنه الجبلى . وبالرغم من أن الديانة الهندوسية في تطبيقها العام ديانة تبيح تعدد الآلهة فانه يمكن القول بأنها ديانة توحيدية ؛ لأن جميع الآلهة كان ينظر اليهم كمظاهر لقوة كونية واحدة .

وتحدد الفلسفة الهندوسية ثلاثة كائنات عظيمة أو مظاهر للقوة الأساسية في العالم وهي : براهما الخالق و فيشنو الحافظ وسيثا الملك ، ويتفق ذلك مع الأسلوب الهندو — أوروبى الذى نجد فيه أن الرقم ٣ هو أعظم الأرقام قداسة وأن عنصر المذكر له الأفضلية والأسبقية دائما على عنصر المؤنث . ولكن حسب ما ورد في ال « سايثا » فان الكائنات الثلاثة انما تتجلى في « سيفا » نفسه ، كما يقول الكثيرون بأن « سيفا » « فيشنو » ليسا الا مظهرين من « الاله الواحد » . وقد أدى هذا الموقف الفلسفى الى التسامح التام بين الطوائف المختلفة ، بل ان بعض الأعمال التى تختلف اختلافا تاما عن



الاله سيقا ذو الازرع الاربعة - القرن العاشر، تانجور

بعضها البعض ، وبعض طرق التفكير المتباينة ، كانت تجد قبولاً في الدين الواحد . كان لعبادة القوى الحيوية المقام الأول في ال « سايفية » (Saivism) بينما كانت هناك طوائف أخرى تخص بولائها وعبادتها ال « ساكتي » (Sakti) (عنصر المؤنث) . وفي خلال القرنين السابع والثامن أصبح مذهب ال « فاكتي » (Bhakti) (وهو الولاء لاله شخصي) هو المذهب الأكثر

شيوعا . وبعد ذلك بقليل أسس الفيلسوف المبشر « شانكار » (Shankar) أول نظم الرهينة البراهمانية ، ودعا أثناء أسفاره التي تدعو الى الاعجاب في جميع نواحي الهند ، الى توحيد العقائد . وتبين لنا آلاف المعابد الهندوسية التي شيدت أثناء حياة « شانكار » وبعد موته ، تلك الحماسة القوية لتلك النهضة الهندوسية .

والمصدر الأكبر للكثير مما نعرفه عن العقيدة الهندوسية هي ال « فاجافاد جيتا (جيتا) » (Bhagavadgite (Gita) ، وهي قصيدة تمثيلية خلابة يتحدث فيها شخصان ، أخلاقية في تعاليمها . انها تدم الكسل والجمود وتحدد ثلاث طرق للخلاص (مكشا Moksha) : العمل « كرما » (Karma) والمعرفة « چنانا » (Jnana) والولاء « فاكتي (Bhakti) لقد كتبت الجيتا في وقت ما في القرنين السابقين على ظهور المسيحية وهي قسم من « المهاباراتا » (Mahabarata) وهو عمل يسكن وصفه بأنه مستودع جامع للميتولوجيا الهندية والتاريخ الأسطوري والتأملات الفلسفية القديمة . أما القصيدة البطولية الأخرى وهي « الرامايانا » (Ramayana) فقد كانت مصدرا للإلهام الكبير للهندوس ، وعلى الأخص في صورتها الدارجة التي كتبت في العصور الوسطى . وفي خلال قرون عدة كانت قصصها عن الآلهة والآلهات والأبطال والبطلات ذات أثر كبير على حياة الناس ، ومنها اختارت طوائف متعددة آلهتها سواء الآلهة الرئيسية أو الآلهة الصغرى .

وهناك كثير من طوائف ال « فايشنافا » (Vaishnava) و ال « سايفا » (Saiva) وفروع الطوائف ، اتجهت كل منها نحو عبادة « افاتار » خاص . زد على ذلك ، انه توجد عبادات متنوعة لآلهة صفار مثل ال « ناجا » (Naga) (الحية) وال « ياكشا » (Yaksha) (اله الشجر) التي لا تعتبر عادة « افاتار » للآلهة العظيمة فحسب ، ولكنها مرتبطة بها ميتولوجيا في شكل من الأشكال . وكان لكل « افاتار » معابده الخاصة به ، يمثل فيها بتمائيل

أو رموز ، وفي هذه المآبدا كانوا يقومون بطقوس دينية ترجع الى عصور موعلة في القدم . وحتى في أيامنا الحالية نجد أن المعبود يعامل في معبده كما لو كان يسكن فيه ملك أو ملكة وتقدم الطقوس كتمثيل لما يحدث في القصر الملكي خلال اليوم بأكمله . ويجب على كل هندوسي ولد مرتين ، أى أعضاء الطبقات العليا الثلاث ، أن يقوم بأداء طقوس يومية . وهذا هو الوصف الذى كتبه س . بھاتشاريا (S. Bhattacharya) ⁽¹⁾ « وبالرغم من أن المآبدا قد أقيمت لعبادة آلهة كثيرة مختلفة فإن ما يحدث يوميا في المآبدا يسير على أسلوب عام . انهم يبدأون باحتفال المصباح الذى يجلب الحظ الحسن في الثمن الأخير من الليل ، عندما يوقظون الآلهة . وبعد ذلك يفسلون الآلهة ويتعبدون اليه ، وعند الظهيرة يقدمون اليه الطعام المطبوخ ، ويتبعون ذلك باحتفال المصباح . ثم يستريح الآلهة بعد ذلك حتى قبيل المساء اذ يقومون في ذلك الوقت باحتفال تمطيره وتزيينه . وفي المساء يقومون أيضا بعمل احتفال المصباح على نطاق كبير وبعد ذلك يقدمون الطعام مرة ثانية الى الآلهة ، ثم يلي ذلك الاحتفال الأخير الذى يذهب بعده الآلهة لينام أثناء الليل . والى جانب هذه الاحتفالات اليومية توجد طقوس أخرى مطولة تستمر دائمة بضعة أيام وذلك أثناء الأعياد الهامة . ويجب أن نضع في أذهاننا أنه في الوقت الذى تعتبر فيه هذه الاحتفالات اليومية الخمسة فرضا واجبا على الهندوسى ، فليس هناك ما يضطره الى الاشتراك في الاحتفالات التى تقام في المعبد ، وقلبا يذهب بعض الهندوسيين المتسكين جدا بالولاء لدينهم الى المعبد بل ان كثيرين منهم لا يذهبون اليه على الإطلاق » ⁽²⁾ .

(1) "Religious Practices of the Hindus" in Religion of the Hindus. Edited by K.W. Mawgan, New York: The Ronald Press co; 1953 pp 156-157.

(2) يشبه هذا كل المشابهة ما كان يحدث في المآبدا المصرية القديمة في الدولة الحديثة وما بعدها . فقد كان الآلهة يعيش في معبده كما يعيش الملك ويقوم الكهنة بخدمته ، وكانوا يقومون عند الفجر على ضوء المصابيح بإيقاظه وغسله وتغيير ملابسه ثم تقديم وجبة الافطار له ، ويكررون ذلك عند الظهر وعند حلول المساء .
(المترجم)

وترك الفلاح الهندي التأمّلات الفلسفية للبراهمانيين ، وقام بأداء الطقوس المقررة لكي يجنى الفوائد العملية . فالى جانب الاله الخاص بطائفته كان الفلاح يعبد الأرواح المحلية ، والأبطال الأسطوريين الذين كانوا يرتبطون بطبقته أو بمنطقته ، وفي بعض الأحوال كان يتعبد لأرواح أسلافه . وكان يحاول ، على الأقل مرة في حياته ، أن يحج الى أحد المعابد الكبيرة المقامة لالهة الذي يحرسه ويحميه . وكانت أعياد الآلهة المختلفة تقام في أزمنة وأماكن مختلفة ، وكانت هذه الاجتماعات تساعد على اتصال أعداد كبيرة من المتعبدین بعضهم ببعض ، وكانت في الوقت ذاته فرصة ممتعة ، فيها ترويح للنفس من حياة القرية التي تسير على وتيرة واحدة . وكان يصاحب مثل هذه السوق الدورية احتفالات دينية . وبين فترات الحج يستطيع الفلاح أن يعبد الهة الذي يفضلها في هيكل محلي ، ولكنه لا يهمل هيكل القرية المقام لعبادة أحد الآلهة المحلية . وكان أحد الكهنة المقيمين فيه يقوم بالسهر على مثل هذا الهيكل ، وكانوا يلجأون اليه لأداء بعض الطقوس الكبيرة اذا احتاجوا اليها ، ولم يكن ضروريا أن يكون هذا الكاهن من البراهمانيين . زد على ذلك ، أن الهندوسى يمكنه أن يلجأ الى أى اله يمكنه أن يساعده اذا كان في حاجة الى معوته . فالتاجر يتعبد الى « جانش » (Ganesh) وهو الاله الذى له رأس فيل ليساعده في أعمال تجارته ، وفي وقت انتشار وباء الجدري تقدم القرابين الى « د رجا » (Durga) الهة الجدري ، وهى إحدى زوجات سيثا غير المحبوبات . ولم يشك الهندوسى العادى ، سواء أكان من الفلاحين أم من البراهمانيين في وجود عدد لا يحصى من الآلهة ، وكان يتسامح ازاء الطوائف الأخرى كتسامح أتباع أحد القديسين المسيحيين ازاء أتباع القديسين الآخرين .

وكان المعبد الهوسى مركزا للثقافة الهندوسية . ففيه يتعبد الناس ويتعلمون ويحصلون على المعونة الطبية وعلى الصدقات ، وفيه يشجعون الفنون الجميلة مثل الموسيقى والشعر والنحت والرقص . أما الأموال اللازمة

لما يقوم به المعبد من نشاط فكان مصدرها من الهبات العامة والهبات الخاصة .
وفي أثناء الحكم الاسلامى ، الذى قل فيه العطف على الحياة الهندوسية ،
زادت الأعباء وقلت الموارد التى كانت تتلقاها تلك المعابد من القرى ، وكانت
النتيجة أن الحياة الثقافية العامة للجماعات الهندوسية أصابها نكسة
أثرت عليها .

ويمكننا أن نقول بوجه عام ان الأسلوب الديموقراطى للقرية الهندية
الذى كان يسود فيها منذ أيام الآريين لم يتغير الا قليلا . ففى أيام الحكم
الاسلامى أبقوا على نظام الفصل بين الدولة والشئون السياسية ، وظل مجلس
القرية يحكم فى الشئون المدنية ، وظل للبراهمانيين سلطانهم على جميع الأمور
الدينية والاجتماعية . وظل الأساس الاقتصادى للحياة فى القرية فى العصر
السابق للاستعمار هو اقامة توازن دقيق بين الزراعة والصناعة . كانت المدن
قبل كل شىء مراكز ادارية ودينية ، وكافت فى العادة صغيرة ، اللهم الا المدن
الواقعة على الشواطىء ، أو على ضفاف الأنهار اذ حل النقل على صفحة الماء
مشاكل مدها بما يلزمها من مؤونة . ومن الظواهر التى تلفت النظر تشييد مدن
محصنة ، وتقدم فن تخطيط المدن سواء بين الهندوس أو بين المسلمين . كان
الحاكم الذى يريد أن يهرب من مسئوليات حكم من كان قبله يختار موقعا
جديدا ، ويبنى مدينة ذات تخطيط خاص ، ثم ينقل اليها السكان سواء
باستخدام القوة أو بالاغراء ، وكان يتوقف استمرار مثل هذه المدن الى حد
كبير على حسن اختيار موقعها . بيد أنه فى معظم الحالات لم يطل عمر مثل
هذه المدن الجديدة وقتا طويلا ، وفى كثير من المناطق نرى عددا من المدن
القديمة والجديدة وقد تجمعت الى بعضها فى منطقة محدودة .

وسكن السواد الأعظم من الهنود فى قرى ريفية يبلغ متوسط عدد سكانها
أربعمائة شخص . وكثيرا ما كانت تتحد مجموعات من تلك القرى وتكون لها
مجلس مقاطعة له السلطة القضائية الأخيرة فى الأمور المدنية ، كما كان الكثير

من تلك المجموعات يعيش مستقلا لا تكاد تربطه صلة بغيره . وكان نظام تلك الأراضي يسير على الأسلوب السائد منذ أقدم العصور في بلاد الشرق الأدنى، وهو وجود الحقول المزروعة أمام القرية والمراعى خلفها . وكانت الملكية المشتركة والتوريث المشترك ، اللذان يسيان أيضا على أساليب الشرق الأدنى مانين لتجزئ الملكيات الى أجزاء صغيرة اذ كانت العائلة المشتركة تقوم بسد حاجيات كل من يعمل ، أو لا يعمل ، من أعضائها ، كما استمر النظام الذى يحتم تخصيص جزء من محاصيل الحبوب في كل قرية (چاچمانى jajmani) ليكون مصدرا لتقديم كمية محددة من المحصول الى نجار القرية ، والى الحداد ، والى الفخار والكاهن والحلاق ، الى آخر ما هنالك مقابل خدماتهم التى يقومون بها طيلة العام . وظلت الأساليب الاقتصادية مستقرة على أوضاعها ، ولم يدخل على التقدم الميكانيكى فى الصناعة الا الشيء القليل . كانت طرق العمل فى الحرف تنتقل بالوراثة فى جماعات خاصة من طبقة معينة يحتفظون بأسرار مهنتهم ، وربما كان التأخر المادى راجعا الى هذه الاحتكارات المهنية التى حدثت من التنافس ، ولم تشجع على الاختراع .

وتتنازع الحضارة الهندية بأنها وصلت الى آخر حدود التمسك بالأوضاع القائمة مما جعلها أكثر الحضارات المعروفة سكونا وتوازنا ، وأشدّها اكتفاء . ويقوم أساس المجتمع فيها على أركان ثلاثة : وهى حكم القرية لنفسها ، ونظام الطبقات ، والعائلة المشتركة . وكان يعزز نظام الطبقات سلسلة من العقوبات من كائنات لها قوى فوق القوى الطبيعية ومبررات مستمدة من نظام دينى وفلسفى وصل الى أكبر درجات التعقيد والتمسك بالشكليات . والطبقة ليست الا جماعة منظمة تنظيما دقيقا لها تقليد عام ، واعتزاز بنفسها . ولكل طبقة رئيس ومجلس يجتمع أعضاؤه عند المناسبات فى جمعية لها سلطة تكاد تكون مطلقة ، ويجتمع أعضاء المجلس عند احتفالهم ببعض الأعياد ، ولهم حق الحكم على أفراد الطبقة ، ولهم سلطة توقيع العقوبات ، وأشدّها الطرد من الطبقة .

وبالإضافة الى قوانين الزواج التى ينص عليها نظام الطبقة فإن القرية الهندية ، اللهم الا فى حالات استثنائية قليلة ، تعتبر وحدة يتزوج رجالها من خارجها . وكانت مجموعات القرى تتزاوج من بعضها ، وبهذا كانوا يرتبطون مما برابطة الدم . وازداد زواج الأطفال ، وهو غير عام بين الجميع ، ازديادا كبيرا فى هذا العصر وأصبح أمرا عاما ، ويرجع السبب فيه الى مجموعة من العوامل . كان محتما على الأب أن يحصل على زوج لابنته قبل أن تصل الى سن البلوغ ، وكانت السلطة التامة فى أى منزل هى سلطة الأب ولهذا كان من السهل على أى طفلة تنتقل لتميش فى عائلة مشتركة فى مكان آخر أن تنسجم فى الحياة بينها ، أكثر مما لو كانت وصلت الى مرحلة البلوغ . وكان زواج الأطفال يعنى الأب من حمل مسئولية سلوك ابنته ، ويلقيه على عاتق عائلة زوجها . وفى معظم الطبقات التى انتشر فيها زواج الأطفال كان الزواج يتم وهما فى دور الطفولة ، ولا يباشران حقوق الزوجية الا بعد أن يكبرا ، أى بعد أن تكون الزوجة قضت بضع سنوات فى بيت عائلة زوجها ، وأصبحت على استعداد لتأخذ مكانها كأحد أفراد هذه العائلة .

والطبقة ، فى العادة ، احتكار وراثى لنشاط خاص أو لوظيفة أو حرفة . وفى أى منطقة من مناطق الهند ، نجد أن النشاط الخاص بالطبقات منظم بطريقة تجعل الطبقات المختلفة لا تدخل فى تنافس اقتصادى ، يضاف الى ذلك عامل الاكتفاء الذاتى الذى يتعارض تماما مع الاقتصاد القائم على الاعتماد على الغير . ويهىء نظام الطبقات بوجه عام نوعا من الاحساس بالطمأنينة لأنه يحد من دائرة التنافس الاجتماعى والاقتصادى . وكان التمييز بين الطبقات قبل القرن الثانى عشر أقل صلابة مما هو عليه الآن ، ولم يصل الى ما وصل اليه بعد ذلك الا بعد أن بدأ الهندوس يحمون أنفسهم من اتصالهم بالمسلمين باتخاذ طرق مختلفة ليبقوا فى عزلة . ومنذ ذلك الوقت أصبح الزواج بين أفراد

من الطبقات المختلفة أمرا نادر الحدوث ، بالرغم من أن ذلك الأمر كان قبل ذلك العهد أمرا عاديا .

والشيء المحرم الآخر (الطابو) وهو المشاركة في الطعام بين أفراد الطبقات المختلفة يحتمل أن يكون قد أصبح محرما تحريما تاما في ذلك العهد أيضا . فقد سن البراهمانيون ، لكي يحتفظوا بطهارتهم الطقسية ، القوانين التي تتعلق بجميع أنواع الطعام سواء أكان مطهيا أم غير مطهى ، الذى يمكن لبعض الطبقات من البراهمانيين أن يقبلوه ، وقد أدى هذا الترتيب المنظم القاسى للطبقات ، وفروع الطبقات ، ووضع طبقة فوق طبقة الى وجود شمائر ونفوس عامة للصلات الاجتماعية .

ومهما كانت الاختلافات بين الأصول الحقيقية فإن جميع الطبقات من الناحية النظرية مرتبة فى درجات متعاقبة من ناحية أهميتها الاجتماعية ، وهو ترتيب قائم على أساس افتراض تفرعها من جسد براهما . وتنقسم كل من الطبقات الأربع الرئيسية الى مئات من الطبقات الفرعية ، وكل منها فوقها طبقة فى الترتيب الاجتماعى . ولما كان سكان الهند أقواما لا يحبون التغيير ، اذا قيسوا بغيرهم ، فقد استطاع هذا النظام البقاء بينهم . وفى الوقت الذى يستحيل فيه على أى فرد أن يرتقى الى طبقة أعلى من طبقته فمن الجائز أن ترتفع طبقة بأكملها الى درجة أعلى ، ويمكن تحقيق ذلك باتباع التعاليم الدقيقة الخاصة بالصلوات والنظافة الطقسية وغيرها ، اتباعا شديدا حازما . ولا يستطيع شخص من « السودرا » أن يصبح من « الكشاتريا » ولا يمكن لأى فرد من أى طبقة من الطبقات أن يصبح براهمانيا ، ولكن من الممكن أن ترتقى طبقة فرعية درجة أو درجتين بهذه الوسيلة .

ويصلح نظام الطبقات صلاحية تامة لأى حضارة متقدمة ، ولكنها لا تريد أن تتغير أو يحدث فيها تعديل ، وذلك فى مساعدة هذه الحضارة على تأدية وظيفتها بنجاح . وأصبح نظام الطبقات نظاما أساسيا فى الحياة الهندية ، وفسر

الهنود أى عنصر اجتماعى جديد وحوروه ليصلح للعمل به فى داخل نظامهم . ولم يقتصر ذلك على الهندوس بل نرى أن الهنود المسيحيين والهنود المسلمين بالرغم من عدم قبولهم لسلطان الهندوس فانهم منقسمون الى طبقات فرعية . ومن ناحية أخرى ، فان كثيرا من المنبوذين قد اعتنقوا الاسلام كما اعتنقوا المسيحية بعد ذلك ليهربوا من حالتهم التمتعة .

أما فى ناحية التنظيم الاجتماعى فان الفوارق بين الشمال والجنوب مازالت واضحة . فقد كان البراهمانيون وحدهم هم الذين استطاعوا أن ينفذوا الى الجنوب ، وحتى فى الوقت الحاضر لانجد هناك الا طبقتين اثنتين فقط على شئ من الأهمية وهما البراهمانيون والسودرا ، وكان المنتظر أن بعض الجماعات مثل النيار (Nayars) الذين تؤهلهم وجوه نشاطهم كحكام ومحاربين محترفين أن يكونوا طبقة مساوية للكشاثريا ، ولكنهم معتبرون من السودرا . وفى الوقت ذاته ، نجد أن الجماعات التى لا حصر لها من المتخصصين المحليين ، الذين يكونون الأساس الفعال الحقيقى فى نظام الطبقات ، يتضاعف عددهم الى حد كبير فى الجنوب وفى الشرق أكثر من الشمال الغربى ، وان الطابوات التى تتحكم فى العلاقات التى بين بعضهم البعض أكثر عددا وأشد مضايقة . ونرى فى الجنوب بنوع خاص انهم قد أوجدوا طبقة أقل من طبقة السودرا ، وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم اسم المذلولين أو الطبقات المرقومة ؛ لأن هذا الصنف مقسم أيضا بدوره ، ومنظم على غرار نظام الطبقات ، وقد سماهم غاندى « هاراجان » (Harajan) أى أطفال الله .

ان القوانين التى تسير على مقتضاها الصلات بين أعضاء الطبقات المختلفة فى الجنوب وفى الشرق أكثر احكاما منها فى الشمال الغربى ، والنظام كله أشد قسوة وصلابة . وفى جنوب الهند نجد أن أعضاء الطبقات الدنيا يمكن أن ينجسوا براهمانيا أو مكانا مقدسا اذا اقتربوا منه الى مسافة يختلف مقدارها باختلاف مكاتهم ودرجتهم فى ذلك النظام . فبعض الطبقات فى الجماعات

المرقومة تنجس الأرض بمجرد سيرهم فوقها ، ولهذا يتحتم عليهم أن يستخدموا طرقا خاصة وأن يتجنبوا السير في الطرق الرئيسية التى يحتل أن يسير فيها أفراد من الطبقات الأعلى ، بل وصل الأمر ببعض هؤلاء التمساء الذين في أسفل القائمة ، أن مجرد وقوع نظر أى انسان عليهم كاف لتنجيسه .

ان القيود المفروضة على الطبقات الهندوسية تختلف في الدرجة أكثر من اختلافها في النوع ، ولكنها كثيرة ومتعددة في جميع درجات تلك الطبقات . ويمكن القول بوجه عام أنه كلما ارتفعت الطبقة زادت القيود على سلوك أفرادها . وهناك استثناءات مختلفة لذلك ، مثل جميع التقسيمات الخاصة بالطبقات ، ولكننا نجد البراهمانيين في جميع الحالات تقريبا يخضعون لقيود وقوانين كثيرة تحد من حرية تصرفاتهم أكثر من الطبقات والجماعات التى دونهم ، ولا يمكن أن يتصور الانسان أن مثل هذا النظام يمكن فرضه بالقوة أو أن تأمر به سلطة عليا . ومما يجدر ذكره أننا نلاحظ أن أقرب مثال للنظام الهندوسى الذى يفرض تجنب الآخرين نجده في « پولينيزيا » فيما يتعلق بالطبقات (الأشياء المحرمة) المستمرة تمييزا لها من الطبقات التى تفرض من آن لآخر . فالقوانين البولينية تهدف ، قبل كل شيء ، الى ما فيه خير الجماعة وسلامة الأفراد المتضمن الى طبقات دنيا ، وقد نشأت هذه القوانين من العقيدة البولينية الخاصة بالمانا (Mana) . كان الزعيم ، بصفته رمزا للقبيلة يملك أعظم « مانا » بينما يملك أعضاء القبيلة الآخرون نفس المادة (المانا) ، ولكن بدرجات أقل . وكان الاتصال بين فرد يمتلك مانا كبيرة وبين فرد آخر يملك مانا قليلة ينتج عنه حدوث خسارة للأعلى ، وفي الوقت ذاته كان ضارا بالشخص الأدنى الذى يتعرض بسبب ذلك لاصابته باضرار مهلكة . وقد رأينا أن القبائل الدرافيدية التى ما زالت باقية حتى الآن ، والتى لا تنتمى الى أصل هندوسى ما زالت تمارس بعض عادات التجنب ، ولديها طبقات مختلفة باقية من بعض قوانين نظام الطبقات كما قلنا أيضا . انه من المحتمل أن

جنوبى وشرقى الهند يشتركان فى التقاليد المشتركة لجنوب شرقى آسيا التى تعتبر الحضارة البولينية فرعاً منها . ومن الجائز جداً أن قوانين الطبقات وضعت فى الأصل لتكون حامياً للاقتدار والفعالية الروحية التى للأفراد والجماعات ، ولمنع الضرر عن لا يملكون إلا فعالية أقل ، وذلك لجعل الجماعات الدنيا تدرك قوائمه الاجتماعية .

كان نظام الفئات الأربع ، كما رأينا ، مظهراً من مظاهر المجتمع الفارسى القديم وربما يكون قد وصل الى الهند مع الفزاة الآريين الذين يتصلون اتصالاً كبيراً بقدما الفرس . كان نظام جماعات الحرف الوراثية الذى يميل الى اتباع نظام الزواج من داخل الجماعة مظهراً من المظاهر الدائمة الحدود فى مجتمعات العالم القديم ، ويلوح أنها كانت أكثر حدوداً بين الجماعات المتقدمة حضارياً أكثر من حدودها بين الجماعات المتأخرة وذلك لأن العوامل الاقتصادية المتصلة باحتكار الحرف كانت ذات تأثير فى هذه الناحية ، ومن حقنا أن نعتقد أن أمثال هذه الجماعات كانت موجودة فى الحضارات الدرافيدية المتقدمة فى الهند .

كانت القوانين الكثيرة الخاصة بالسلوك ، والتى تقوم على أساس الخوف اما من فقد المقدرة أو من الاعتقاد فى الخطر الذى ينجم عن الاتصال بقوة أعظم مما يمتلكها الشخص نفسه ، ظاهرة عامة فى التقاليد المشتركة فى جنوب شرقى آسيا . وإن الجمع بين هذه العناصر الثلاثة كاف لايجاد نظام الطبقات الهندوسى اذ كانت الفئات أو الطبقات الآرية الاجتماعية تضع نفسها فى مركز أسنى من مركز الجماعات الدرافيدية المحتلة ، وقد انتظم الجميع فى نظام واحد وضمت فيه كل طبقة فى مركز خاص ، يحدد أسبقيتها أو تأخرها عن الطبقات الأخرى . وأخيراً ، كان التزامهم للزواج من داخل الجماعة ، ووضع قواعد يلتزمون بها فى السلوك ازاء معاملة الأفراد الذين ينتمون الى طبقات أخرى ، كافياً للبقاء على هذا النظام .

وجاء الحكم البريطانى للهند وكان من بين نتائج تسديد ضربة شديدة الى استقلال القرية واكتفائها الذاتى ، وزاد على ذلك فأحدث صدعا فى نظام الطبقات ، واليوم ، وقد حصلت الهند على استقلالها نجد أن كثيرا من الأوضاع الخاصة بالصلوات الاجتماعية قد أخذت تدخل فى دور اصلاح فعال، اذ نجد كثيرا من التغيرات أخذت تدخل على نظام العلاقات بين الطبقات بعد تطبيق القوانين الجديدة ، وبدأت التغيرات أيضا فى نظام ملكية الأرض ، وفى نظام العائلة المشتركة وما زلنا فى انتظار نتائج هذه الاصلاحات ، ولهذا لن نناقشها فى هذا الكتاب .

الفصل السادس والثلاثون

الصين في عصر ما قبل التاريخ

عاش في بلاد الصين شعب ذو ثقافة موحدة فترة متصلة طويلة أكثر من أى مدينة أخرى من مدنات العالم ، بالرغم من أن المدينة الصينية ليست أقدم المدنات بأى حال من الأحوال . لقد وصلت المدينة الصينية الى صورتها المعروفة ، وتبلورت وتحددت معالمها ، بعد المدنات الأخرى مثل مدينة وادى السند ومدينة مصر وبعض مدنات الشرق الأدنى ، ولكن حضارة الصين تكاملت فى عصر مبكر ، وعلى عكس الحضارات القديمة العظيمة الأخرى لم يصبها الانهيار فى يوم من الأيام ، ولكنها استمرت فى تقدمها تتناوب عليها فترات تختلف فى مدى نجاحها منذ وقت ظهورها . وكثيرا ما اتصلت الصين بالحضارات الأخرى ، فقد تعرض الصينيون لغزو بلادهم وحكمها بدول أجنبية ، ولكنهم نجحوا دائما فى فرض حضارتهم الصينية على قاهريهم الهج غير المتحضرين ، وينتهى الأمر باستيعابهم لهم ثم يؤسسون بيتا حاكما جديدا من أنفسهم . كانت المدينة الصينية أول مدينة استطاعت الوصول الى تأسيس نظام حكومى متين وممكن التطبيق ، ويستطيع أن يواجه مشكلات عدد كبير من السكان يتكونون من سكان مدن وسكان مناطق ريفية ، ولم يصبه الانهيار أو الفشل التام فى أى يوم من الأيام .

والتاريخ الصينى ، حسبما قاله المؤرخ الصينى « منكىوس » (Mencius) يتحرك فى دورات تتكرر كل خمسمائة سنة ، والأسلوب الذى يسير عليه هذا التاريخ كما يأتى : غاز أجنبى يغزو البلاد ويحكمها ، ثم استيعاب هذا الغازى ، وتلى ذلك فترة اضطراب وفوضى ، وأخيرا ، يعيد الصينيون تنظيم أمورهم

تحت حكم أسرة صينية ، ويلي ذلك عصر من عصور سياسة الاعتداء الدولي وغزو البلاد الأخرى . فإذا صح أن التاريخ يعيد نفسه فإن الصينيين سيتمكنون من التخلص من النفوذ الروسي ويصبحون قوة عالمية بحق بعد مائتي عام . والرأى الذى يقول ان الصينيين شعب بسيط مسالم ولا يحب الحرب ، رأى بعيد عن الصواب . كانت الصين قوة عالمية بضع مرات أثناء تاريخها الطويل ، ومدت فتوحاتها الى مسافات بعيدة تدعو الى الدهشة .

وأقدم تاريخ صينى يمكننا ذكره كتاريخ محتمل الصحة هو عام ٢٢٥٠ ق . م . ويستند هذا التاريخ الى اشارة فلكية وردت فى الكتاب الصينى القديم المعروف باسم « كتاب التاريخ » . وعلى أى حال ، فإن التقدم كان سرعيا وما جاءت بداية عصر أسرة « شانج » (Shang Dynasty) حوالى عام ١٧٥٠ ق . م . حتى كانت المدينة الصينية على قدم المساواة مع المدينتى التى ظهرت فى بلاد غربى آسيا . ومنذ هذا الوقت احتفظت بمستوى حضارى تحسد عليه ، كما احتفظت أيضا باستمرار التقاليد استمرارا لا نظير له فى أى حضارة أخرى . وهناك عوامل متعددة ساعدت على تحقيق ذلك . فالحاصلات الصينية وطرق الزراعة كانت على الأرجح أحسن شئ من نوعها فى العالم قبل ادخال الطرق العلمية الزراعية الحديثة . وبهذا تمكن الصينيون من انتاج ما يكفى لسد حاجات شعب تبلغ كثافة سكانه ما كان فى مصر ، وفى بلاد ما بين النهرين ولكن مساحة أراضيه مساحة كبيرة جدا أكثر من مساحة هذين البلدين . واهتم الصينيون اهتماما خاصا منذ أقدم العصور بنظريات الحكم والتطبيقات العلمية الخاصة ، وقبل ظهور المسيحية بوقت طويل توصلوا الى طرق وأساليب معينة لتجنيد العقول الممتازة لخدمة الحكومة . وكثيرا ما حكم الصين رجالا أشرارا ، ونساء شريرات ، ولكن لم يحكما الا عدد قليل من الأغبياء ، ولم يكتثوا فى الحكم الا فترة قصيرة . وبفضل أساليبهم فى التدريب والاختيار استطاع النظام الإدارى الصينى خلال ألفى سنة من أن يجمع مزايا الخدمة

الحكومية البريطانية مع التوسع في الانتفاع بالموهب الانسانية كما حققه النظام الديموقراطى الأمريكى . وأخيرا ، فإن اختراعهم منذ عصر موغل في القدم لطريقة للكتابة ، مستقلة عن اللغة التى تنطق بها ، مكنهم من أن يضموا في دولة واحدة ، وفي تقليد حضارى متجانس ، جماعات تتكلم لهجات كثيرة مختلفة ، كما ساعدت الكتابة ، أيضا ، القائمين بإدارة البلاد على الانتفاع بخبرة من سبقهم من الحكام بطريقة يستحيل حدوثها في الغرب بسبب التغيير المستمر الذى حدث في اللغات أثناء تاريخ كل دولة من الدول الأوروبية .

وترجع الصفات المميزة للحضارة الصينية ، ولو جزئيا على الأقل ، الى الظروف والعوامل الجغرافية . فالصين تطل على الشرق ويحدها في الجنوب وفي الغرب جبال لا يكاد يمكن اجتيازها ، حتى المواصلات العادية في تلك النواحي كانت دائما على قدر كبير من الصعوبة . وفي الشمال الغربى ينفرج ذلك الحاجز الجبلى ولكن يحل محله سهول قاحلة ، في حين نجد في الشمال أن الغابة القطبية الكبيرة تمتد في منشوريا . ولم يوجد في المناطق الواقعة على حدودها أى منطقة يمكنها أن تعول عددا كبيرا من السكان المستقرين أو منطقة على مستوى حضارى متقدم . والحد الوحيد الذى كان مصدر تهديد لهم هو الشمال الغربى الذى كان يمتد الى منطقة الاستبس الآسيوية التى تقطنها شعوب من البدو المحبين للحروب . وفي حقيقة الأمر ، فإن جميع الغزاة الأجانب الذين نجحوا في قهر الصين وغزوها جاءوا من هذه الناحية ، مع استثناء واحد فقط وهم « المنشو » . وقد سيطرت الدبلوماسية الصينية والحضارة الصينية على الاستبس الشرقية منذ العصور القديمة ، والغزاة من قبائل الهون (Huns) والترك ، والمغول ، كانوا على ادراك لعظمة التقاليد الصينية قبل غزوهم لها . ووجدت الأسرات المختلفة من الغزاة البدو الذين حكموا في الصين عهودا طويلة أو قصيرة انهم ، ان عاجلا أو آجلا ، يتحتم عليهم أن يستعينوا بخدمات الموظفين الصينيين الذين كانوا في الوظائف قبل

مجيئهم ، لأن أتباعهم لم يستطيعوا أن ينافسوا الصينيين عند حلول السلم . وبالرغم من محاولتهم الاحتفاظ بطريقة حياتهم غير المتحضرة فان مرور أجيال قليلة كان كافيا لتحضيرهم تحضيرا كاملا .

وساعدت البيئة الطبيعية على الاكتفاء الذاتى فى الحضارة الصينية . يختلف المناخ فى الأرجاء المختلفة فى الصين مثل اختلافه فى الولايات المتحدة الأمريكية . فدرجة الحرارة فى شمالى الصين تكاد تماثل درجة الحرارة فى السهول الشمالية فى أمريكا ، حين نجد أن الصين الجنوبية شبه استوائية فى مناخها ، ولا يوجد الا عدد قليل من الحاصلات التى لا يمكن زراعتها فى منطقة من مناطق هذه الامبراطورية المترامية الأطراف . وفى بلاد الصين مناطق جبلية كثيرة ، ولكن السهل الساحلى وثلاثة وديان أنهار عظيمة وهى « الهوانج هو » (Hwang Ho) فى الشمال و « اليانجسى كيانج » (Yangtze Kiang) فى وسط الصين ونهر ال « شو كيانج » (Chu Kiang) فى الجنوب تمد البلاد بمساحات شاسعة من الأراضى المزروعة . ويوصل بين نهري « الهوانج هو » و « اليانجسى » القناة الكبرى التى يبلغ طولها ٨٥٠ ميلا ، والتى تمتد من مدينة « هانجشو » (Hangchow) الى مدينة « تينتين » (Tientsin) وقد بدأ هذا المشروع « فوتشاي » (Fu Ch'ai) ملك دولة « يه » (Yüeh) فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ولكن أقدم الأجزاء التى توصل بين الهوانج هو و « اليانجسى » تم عملها فى حكم الامبراطور « يانج » (Yang) الذى حكم من عام ٦٠٥ الى ٦١٧ ميلادية ، أما الباقي بما فيه امتداد هذه القناة الى بيكين ، وهو مردوم الآن ، فقد تم عمله فى أيام أسرة « ييان » (Yüan) التى حكمت بين أعوام ١٢٧٩ ، ١٣٦٨ ميلادية .

وهكذا كان من الميسور فى بداية القرن السابع الميلادى الوصول الى معظم أجزاء الامبراطورية بواسطة السفن وتبادل حاصلات المناطق البعيدة نفقات قليلة . وكانت كميات خامات المعادن كافية لسد حاجات حضارة كانت

ما زالت على مستوى الصناعة اليدوية . والموارد الصينية من الفحم والحديد قليلة اذا قسناها بالمقاييس الحديثة . ومن الأمور المشكوك فيها اذا كانت تصبح هذه الموارد في يوم من الأيام كافية لمد الصين بما تحتاج اليه الصناعة الثقيلة من النوع المعروف في أوروبا . ومهما يكن من أمر ، فإن الصينيين استثمروا هذه الموارد المعدنية بنجاح زهاء ألفى عام ، وعرفوا استخدام الفحم قبل أن يعرفه الأوروبيون .

ويلوح أن معظم جهات الصين كانت مغطاة بغابات عظيمة في العصور القديمة ، وكانت تلك الغابات كثيفة جنوبى « اليانجتسى » إذ أن هذه المنطقة على درجة كافية من الحرارة تجعلها صالحة تماما لنمو الغاب الهندى ، وهو من أنفع وأفيد الحاصلات الطبيعية . وجميع مناطق الصين بأكملها أراض صالحة كل الصلاحية ليستقر فيها الانسان ، ويعيش فيها ، وهى من البلاد القليلة التى تستطيع أن تسد حاجة سكان كثيفى العدد ، وعلى درجة كبيرة من التقدم الحضارى دون الاعتماد على تجارة خارجية ، فقد كان فى استطاعة الصينيين انتاج جميع السلع الضرورية فى مناطق داخل حدود بلادهم . أما تجارتهم مع الغرب سواء أكان ذلك بطريق البحر أم عن طريق دروب القوافل التى يرجع تاريخها الى أقدم العصور مجتازة أواسط آسيا ، فكانت تجارة فى السلع الكمالية . كانوا يبعثون بالحرير غربا ويحصلون فى مقابله على سلع كمالية أخرى مثل الخرز والأوانى السورية المصنوعة من الزجاج ، وبعض الأشياء الجميلة الصنع من المعادن النفيسة ، وفى العصور المتأخرة كانوا يستوردون أيضا الفتيات الراقصات والخيول سريعة العدو .

وعلى عكس الهنود ، نجد أنه كانت للصينيين عقلية تاريخية ، وما خلفا الصينيون من كتابات تتعلق باحداث الماضى شئ كثير ، ولكن مما يدعو الى الأسف أن رغبتهم فى استخدام الحوادث الماضية لاستخراج العبرة وتلقهم بالتنظيم المنسق كان سببا فى اعادة كتابة المؤلفات القديمة مرات كثيرة . ولهذا

السبب ، نجد أن كتب الغاب الهندي (البامبو Bamboo Books) التى تذكر حوادث قديمة فى نفس العصر الذى وصلت اليها منه بعض الكتب الكلاسيكية الصينية الهامة التى تصور لنا مجتمعا أقل مثالية مما نجده فى تلك الكتب الأخرى . ولكن بالرغم من ذلك ، فإن كثيرا من المعلومات الحضارية التى جاء ذكرها عرضا فى جميع تلك الكتب تقوم دون أى شك على أساس سليم صحيح ، وهذا من حسن حظ المشتغل بأصول الحضارة الصينية لأنه لا توجد منطقة فى العالم لها اتساع الصين وأهميتها الحضارية ، ولا نكاد نعرف الا القليل عن نتائج الدراسات الأثرية فيها كما هو حادث فى الصين . ولهذا السبب فإن المناطق القليلة والعصور التى أمكن دراستها لقيت من عناية الباحثين ما يحتمل أن يثبت فى المستقبل انه بولغ فيه ، وما زال فى حاجة الى التمهيد .

وعلى مقربة من مدينة بيكين حفر العلماء موقعا واحدا وعثروا فيه على أشياء هى من أقدم الآثار المادية والحضارية للإنسان ، ويرجع تاريخها الى آخر الفترات بين العصور الجليدية . وبعد ذلك تمر فترة لا نعرف عنها شيئا لا يقل طولها عن ٢٠٠٠ سنة ، ولكن ابتداء من عام ٣٠٠٠ أو ٣٥٠٠ ق . م . على أكثر تقدير ، كان يعيش فى الصين عدد من الحضارات النيوليتية المختلفة التى عثر على مواقعها فى جهات عدة فى شمالى وشمال غربى الصين ، وكانت تلك الحضارات مقدمة لذلك الازدهار الحضارى الفجائى فى « أسرة شانج » (Shang Dynasty) حوالى عام ١٥٥٠ ق . م . ، وبداية مدنية يمكن التعرف عليها فى الحال بأنها مدنية صينية . ومنذ هذا الوقت يمكننا أن نتبع التطور الحضارى فى شمالى الصين عن طريق النقوش والوثائق المكتوبة الأخرى التى كانت تزداد كثرة بتقدم الزمن .

ومن ناحية أخرى فانا لانعرف جنوبى الصين الا عند ظهوره فى ضوء التاريخ نتيجة لوصول حضارة الصين الشمالية اليه ، وغزو الأسرات الصينية الشمالية له مرة بعد أخرى .

ولم تقم حتى الآن أى بحوث أثرية هامة فى جنوبى الصين ولسنا نعرف عنه شيئا ، ولكن يتضح لنا مما يثر عليه من آن لآخر فوق سطح الأرض أن هذه المنطقة كانت تشارك منطقة جنوب — شرقى آسيا فى تقاليدھا المشتركة. فبعض الأدوات الحجرية تشبه الى حد كبير أدوات جنوب شرقى آسيا ، كما أنها تشبه تلك المنطقة أيضا فى عدم وجود الأدوات المشذبة ذات الأطراف المدببة ، أو السكاكين ، وربما كانت الملحوظة الأخيرة أمرا ظاهريا أكثر منه حقيقة واقعة ، لأن الأدوات الحجرية التى من هذا النوع قلما يمكن التعرف عليها والاحتفاظ بها ، مثل الأدوات الحجرية الأكبر حجما . وهناك أيضا تلك النتيجة المثيرة الهامة التى توصل اليها فافيلوف (Vaviloff) ، وهى أن جبال الصين الجنوبية كانت مركزا هاما لتدجين النبات ، وأن عددا كبيرا من الحاصلات الجذرية والحاصلات الورقية بدأ تدجينها هناك . ولا يشك أحد فى أنه كانت توجد فوارق حضارية بين شمالى الصين وجنوبها منذ العصر النيوليتى على الأقل ، بل ان مثل هذه الفوارق ما زالت موجودة حتى الآن . ولنعد مرة ثانية الى البحوث الأثرية . فمن الأمور الواضحة أن بدء حياة الانسان فى الصين يرجع الى أزمنة موعلة جدا فى القدم . فقد كان انسان الصين « سين — اثروپوس » (Sinanthropus) يعيش فى شمالى الصين خلال آخر الفترات التى تخللت العصور الجليدية ، وكان هذا النوع من الانسان المبكر يشبه فى أكثر النواحي انسان جاوة المسمى « بيثك — اثروپوس » (Pithecanthropus) ، ولكنه كان أقرب الى الانسان الحديث من ناحية تطوره . واذا حكمنا عليه من ناحية مظهره الجسمانى فان أى كائن حى يشبهه يجوز أن يكون من نصيب احدى حدائق الحيوان .

ومهما يكن من أمر ، فان سلوك السين — اثروپوس كان أكثر شبها بالسلوك الانسانى منه بسلوك أشباه الانسان . فقد استخدم النار وصنع أدوات من الحجر تدل على الكثير من المهارة مثل صنع الشطافات التى نجد

أن بعضها كان حسن الصنع ، مما يرجح أنهم صنعوها عن قصد لتكون أدوات تؤدي أغراضا خاصة ، مثل السكاكين والمقاشط والقذائف المدببة . كما أن أولئك القوم مارسوا العادة الانسانية ألا وهى عادة أكل لحوم البشر ، التى ثبت وجودها فى ذلك الموقع الفريد الذى تم حفره من ذلك العهد . فانهم كانوا على الأرجح يأكلون من يموت منهم ، وذلك لأنه لم يعثر على مدافن أو على أى دليل يثبت أنه كانت لديهم أى طقوس لدفن الموتى . وعادة أكل لحم الموتى كانت عادة شائعة بين كثير من الشعوب فى العصر التاريخى ، ولم يكن الباعث عليها هو الجوع ولكن الرغبة ، التى يمكن ادراكها وفهمها ، للاحتفاظ بمزايا الموتى فى العائلة .

وإذا حكمنا بما وصل الى أيدينا من الآثار التى عثر عليها بطريق الصدفة فإن هذه الحضارة تلتها حضارة أخرى استخدمت من أدوات حجرية ذات شطافات أكبر حجما ، ومدقات تشبه فى نواح كثيرة ما أنتجه العصر الباليوليتى فى جنوب شرقى آسيا . وفى عصر أحدث من العصر الذى عاش فيه انسان الصين القديم (سين — انثروپوس) ، وفى منطقة تقع الى الشمال الغربى من موطنه على مقربة من بيكين ، كانت هناك حضارة أخرى من العصر الباليوليتى القديم استخدمت شطافات أكبر حجما وأدوات حجرية مدببة تذكرنا بمشيلاتها فى أوروبا ، وبفؤوس اليد الأفريقية . وعلى أى حال ، فهناك فجوة من الزمن لا تقل عن ١٠٠.٠٠٠ سنة تفصل بين هذه الأدوات القليلة من العصر الباليوليتى وبين أقدم القرى النيوليتية فى شمالى الصين . وبالرغم من العثور على بعض الأدوات التى يرجح أنها من العصر الباليوليتى الأعلى فى الكهف العلوى فى الموقع الذى عاش فيه السين — انثروپوس فإن هذه الفجوة ما زالت شاغرة . ويمكننا أن ندرك ما كانت عليه الناحية الحضارية فى شمال الصين خلال أواخر العصر الباليوليتى الأعلى ، أو فى العصر الميسوليتى ، مما عثر عليه فى منغوليا . فقد عثر على سطح الأرض فى منغوليا

على عدد كبير من الزلط الذى شظفت منه بعض النصال الرفيقة كما عثر على بعض النصال نفسها ، ولا يكاد يوجد شك فى أنها كانت مثبتة فى أدوات من العظم أو الخشب لتكون حدها القاطع . ويمكننا أيضا أن نذكر ونحن واثقون أنهم استخدموا العظام وقرون الوعل بكثرة ، وبالرغم من أنه لم يعثر حتى الآن الا على أداة أو أداتين من هذه المواد ، فانه يجب ألا تنسى أن أمثالها يصعب بقاؤها وهى معرضة للعناصر الجوية ، ملقاة فوق سطح الأرض . ويمكن القول بوجه عام ان اقتصاد القوم الذين عاشوا فى ذلك العهد ، وكانوا أصحاب تلك الحضارة ، كان قائما على أساس تجمعهم ، دون أن تكون لهم محلات سكنية دائمة ، وان حالة البيئة كانت أكثر ملاءمة لهم مما هى عليه فى الوقت الحاضر . وعثر أيضا على قطع من الفخار وعلى قطع حجرية ذات شكل اسطوانى يرجح استخدامها كمدقات أو أحجار لطحن الحبوب ، وقد عثر عليها فى بعض المواقع الميسوليتية ولكن من المرجح انها من عصور أحدث .

وأقدم ما ظهر من العصر النيوليتى فى شمالى الصين ليس الا جزءا من حضارة المنطقة المحيطة بالقطب الشمالى . ففى المواقع النيوليتية نجد حفرا مستديرة يشار اليها عادة بأنها حفرات للسكنى ، ولكنها صغيرة وربما كانت صوامع غلال توضع تحت الأرض ، أو أنها مخازن ، واذا عاش فيها أحد على الإطلاق فربما كانت تستخدم فقط للنوم خلال الفصل الشديد البرودة . واستخدموا أدوات مصنوعة من الحجر من الأنواع المعتادة ، كما عرفوا أيضا السكاكين المصنوعة من الحجر ، وقاذفات مدببة من الحجر ، وقاذفات مدببة من العظم ، والمخارز . ولكثير من تلك الأدوات المصنوعة من الحجر والعظم أشكال خاصة ، وهى بلا شك أصل بعض الأدوات الصينية التى صنعت من المعدن فيما بعد .

وعثر على كثير من الفخار وهو شبيه بفخار المنطقة التى حول القطب الشمالى وينتمى الى الحضارة نفسها ، وهو على شكل الأقداح ومصنوع من

الطين المخلوط بالرمل . وكثيرا ما كان يزخرف سطحه بلف حبل حوله قبل أن يجف ، وهو على أى حال خشن الصناعة . ومن بين الأواني الفخارية عدد غير قليل من أوان للطبخ مثلثة الجسم صنعت على هيئة ثلاثة أقداح ضمت الى بعضها ولها قم واحد ، وهى تدل على أنها أصل الأواني ذات القواعد الثلاث التى كانت كثيرة الانتشار فى العصور الصينية التالية .

ويرجح أن أقدم الحاصلات التى كانت لديهم نوع من الدخن (الذرة المويجة) الكبير الحجم ، وهو ذو ساق قوية وهو « الكوليانج » (Kaoiang) الذى ما زال يزرع فى المنطقة . وقد أراد بعض الباحثين أن يفسر بعض ما على سطح بعض الأواني الفخارية من زخرفة بأنها عملت بواسطة نبات الرز ، ولكن اذا صح ذلك فان وجود هذا النوع من الحبوب فى شمالى الصين حوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد على أقل تقدير يخلق مشكلة تثير الحيرة . والى جانب معرفتهم للدخن والرز (؟) فى حضارتهم ، كان أولئك الناس يربون الكلاب والخنازير لأجل أكل لحومها . وقبل انتهاء تلك المرحلة النيوليتية ظهرت أيضا الماشية والأغنام ولكن ندرة وجود عظام الخيل فى المواقع التى بحثت حتى الآن يدل على أنهم كانوا يصطادون هذا الحيوان ولم يكونوا قد استأنسوه بعد .

وحوالى نهاية ذلك العصر ظهر نوع جديد من الفخار فى اقليم « كانسو » (Kansu) فى شمال غربى الصين وهو فخار أحمر وأسود وأبيض مزخرف بزخارف حلزونية ، وزخارف ذات خطوط متقوسة . والآنية التى تتميز بها هذه المنطقة هى جرار كبيرة الحجم مزخرفة بخطط عريض حول كتف الجرة ، ولكن توجد أيضا صحاف وأوان أصغر حجما . أما أواني الطبخ فظلت كالنوع القديم ، وهو القدحى الشكل المصنوع من الطين المخلوط بالرمل .

ويشبه هذا الفخار الملون الفخار النيوليتى الذى عثر عليه فى ايران ، بل وفى وادى الدانوب شبا كبيرا . ولا يكاد يوجد شك فى أنه قد أتى الى

« كانسو » من الغرب ، ولكن عدم العثور على أى عناصر حضارية جديدة أخرى تكون قد ظهرت معه فى الوقت نفسه يحتم علينا أن نرجح أنه وصل الى « كانسو » عن طريق الانتشار وليس عن طريق هجرات لقبائل وصلت من ناحية الغرب . ويطلق على هذه الحضارة كلها بما فيها الأوانى الملوثة اسم حضارة « يانج شاو » (Yang Shao) وهى تؤرخ تاريخا تقريبا بأنها كانت بين أعوام ٣٠٠٠ و ٢٥٠٠ قبل الميلاد .

وفى شمال — شرقى الصين فى اقليم « شانتونج » (Shantung) توجد حضارة أخرى نيوليتية أهم من حضارة « يانج شاو » (Yang Shao) ، وقد التقت الحضارتان فى المنطقة التى حول منحى النهر الأصفر (الهوانج هو) . وفى المواقع القليلة التى بحثت فى منطقة التقاء هاتين الحضارتين نجد مخلفات حضارة « لنج شان » (Lung Shan) فوق مخلفات حضارة اليانج شاو ، مما يدل على أنها أتت بعدها وربما تكون قد بدأت بين أعوام ٢٣٠٠ و ٢٠٠٠ قبل الميلاد . ولسنا نعرف شيئا واضحا عن أصل حضارة اللنج شان ولكنها تحتوى على عدد من العناصر الجديدة وتمثل أعلى مستوى وصلت اليه أى حضارة أوراسية (أوروبية — آسيوية) قبل معرفة المعادن .

بنى شعب « اللنج شان » مدنا كبيرة محصنة لها أسوار من الطين المدهوك ، وهى مادة ما زالت مستخدمة للبناء فى المنطقة نفسها . وظلت حفرات السكنى التى يرجع تاريخها الى العصر النيوليتى معروفة الاستخدام بينهم ، ولكنهم بنوا أيضا منازل واسعة مستطيلة عملوا أساساتها من الطين المدهوك فوق مرتفع من الأرض . ومن دراسة ترتيب جوانب المداخل نستطيع أن نقول ان تلك المنازل القديمة تشبه المنازل التى ما زالت تبنى حتى اليوم فى شمالى الصين . وتشبه الأدوات المصنوعة من العظم ، ومن الحجر ، مثيلاتها فى حضارة اليانج شاو ولكنهم استخدموا أيضا الأصداغ على نطاق واسع فى صنع الأدوات والحلى على حد سواء . أما الفخار الذى تمتاز به حضارتهم

فقد كان رقيقا جدا ، وكان محروقا جيدا ، وذا لون أسود ومصنوعا على عجلة الفخار ، وإذا صح أنهم عرفوا هذه الآلة فلا يكاد يوجد شك في أن شعب اللنج شان عرفوا أيضا العربة والمركبة^(١) . وكانوا يزرعون الدخن وربما الرز أيضا ، كما يرجح أنهم زرعوا فول الصويا بالرغم من أنه لم يوجد له أثر في أى موقع من المواقع التى خفرت حتى الآن ، أما الحيوانات المستأنسة فكانت الخنازير والكلاب والماشية والأغنام والخيول .

ويلوح أن حضارة اللنج شان وضعت الأسس التى قامت عليها أسرة « شانج » . فبالرغم من استخدام أسرة شانج للبرونز ، وبالرغم من المهارة الشديدة التى أظهروها فى صناعته ، فإن الفلاحين من سكان البلاد ظلوا يعيشون كما عاش أجدادهم فى العصر النيوليتى لمدة بضعة قرون . وما يستحق الذكر أننا نجد فى القسم المسمى « جزية ال يى » (Tribute of Yü) من « كتاب التاريخ » ، الذى يرجع تاريخه على الأرجح الى نهاية أسرة شانج (١٠٢٧ ق . م .) نجد فيه ذكرا للسهم المصنوعة من الحجر بين الأشياء التى كانت تأتى كجزية من اقليمين من أقاليم الامبراطورية ، ولكن الاشارة غامضة والعلامة التى استخدمت فى كتابتها ربما تعنى الطران أو أى حجر آخر يسهل عمل شطافات منه ، وكان يندر وجوده فى المنطقة المحيطة بعاصمة أسرة شانج^(٢) . ولا توجد كتابات من أى عصر قبل عصر شانج وان كتاب التغييرات

(١) لا يكفى معرفة شعب من الشعوب لعجلة الفخار واستخدامها فى عمل الاوانى لتأكيد أو ترجيح معرفتهم للعربات، فقد عرفت مصر عجلة الفخار منذ عصور موغلة فى القدم ، ولكنها لم تكد تعرف العربات حتى انت اليها من آسيا بعد عصر يقرب من الف وستمئة سنة أو يزيد .
(المترجم)

(٢) ان كلمة « يى » فى الصينية تعنى أيضا حجر اليشم أو الجمار (Jade) ، والمتفق عليه بين علماء الدراسات الصينية أن رؤوس السهام المشار اليها كانت من اليشم وقد عثر على كثير منها فى المواقع النيوليتية .

(المترجم)

(Eckhof Changes) الذى يتحدث عن أصل الأشياء الصينية يذكر أنه قبل اختراع علامات الكتابة كانت الوثائق تدون ، والرسائل ترسل ، بواسطة حبال تعمل فيها عقد ، وان استخدام سكان بيرو القدماء لهذه الوسيلة (كويوس Quipus) يثبت أنها تؤدي الغرض تماما . ولكن كتاب التغييرات نفسه روجع وأعيد نشره مرات عدة ، ولهذا فإن ما جاء فيه من معلومات يجب عدم قبوله الا باحتراس شديد . ومما يزيد في تعقيد هذا الموضوع أن العلماء الفلاسفة الذين مر هذا الكتاب بأيديهم لم يفكروا الا فى كون منظم على أساس المنطق ، وأن نظام هذا الكون وضعه حكام العصور القديمة الذين اعتبروهم شبه آلهة ، وأن هؤلاء الحكام بدأوا أولا بوضع الأمور الضرورية لتقوية وحفظ نظام الكون ، وبعد أن أنموا ذلك استخدموا مواهبهم فى اختراع الأجهزة النافعة للناس .

ومن أوائل الأشياء التى اخترعها أحد أنصاف الآلهة الأزليين تلك العلامات السداسية وعددها أربعة وستون ، وهى أشكال تتكون من خطوط متوازية بعضها متصل ، والبعض متقطع ، ومرتبعة فى اتجاهات مختلفة . ولكل شكل من هذه الأشكال الأربعة والستين معنى مختلف عن الآخر ، ولكل واحد منها معنى سحرى . واستخدموا هذه الأشكال — وما زالوا يستخدمونها حتى الآن — فى الانباء بالغيب وذلك لمعرفة ما اذا كانت الظروف ملائمة للقيام بأى نشاط أم أنها غير ملائمة .

ويذكر « كتاب التغييرات » أن الأباطرة الأوائل توصلوا الى اختراع الأشياء المفيدة عن طريق التأمل فى هذه الأشكال ، وأن الحكام الثلاثة « هوانج تى » (Huang Ti) و « ياو » (Yao) و « شن » (Shun) « استأنسوا الثيران (لجر العربات) واسرجوا الخيل (فى المركبات) وبهذا أمدوا العربات بما يساعدها فى جر الأشياء الثقيلة ولأجل الرحلات البعيدة ، وبهذا أفادوا كل من يعيش تحت السماء » ، وان فكرة ذلك أتهم على الأرجح

من صورة الشكل « سوى » (Sui) ومعناه المتابعة أو السرور بالحركة .
وبالرغم مما دخل عليه من تعديلات واهتمامه الأصلي بالشعائر الدينية والقوى التي فوق الطبيعة فإن كتاب التغييرات يمدنا بمعلومات ثينة عن العصر السابق على حضارة شانج في شمالي الصين فالاله « شن ننج » (Shen Nung) هو في نفس الوقت مخترع الزراعة ورب النار ، وهذا يدل على أن الزراعة كانت تمارس في البداية بطريقة القطع والحرق . ويحتوى الكتاب على اشارات متعددة للحروب التي كانت بين « الشيا » (Hsia) كما كان الصينيون يسمون أسلافهم ، وبين « المياو » (Miao) ، وهم جماعة من سكان البلاد الأصليين الذين كانوا يقطنون جزءا من شمال الصين على الأقل . وفي الكتابات القديمة نجدهم يربطون بين المياو وبين البحر ، وكانت حيواناتهم الطوطمية من الحيوانات البحرية والوحوش البحرية ، والمخلوقات المجنحة ، أما طواطم الشيا فكانت النمر والفهود ونوعين من الدبة .

ولم تساعد البحوث الأثرية في شمالي الصين كثيرا على تفسير هذه الأساطير . وأهم نتائجها هو اثبات وجود حضارات مستقلة ومعاصرة جزئيا لبعضها البعض في العصر النيوليتي ، وانها كانت في المناطق الشرقية والغربية من شمالي الصين . ومن المحتمل جدا أن نفس الشعوب التي تفرعت من الحضارة المشتركة في جنوب شرقي آسيا ، والتي حملتهم أسفارهم الى اليابان وكوريا نزلوا أيضا على شاطئ الصين ، بل وساروا الى داخل البلاد منحدرين مع النهر الأصفر ، ولكن ما زال ينقصنا الدليل على صحة هذا الرأي .

وكان مجتمع ال « شيا » مقسما الى « قبائل الحاكم التسع » و « المائة عشيرة » و « جم غفير من شعب ذوى الرؤوس السوداء » . والتسمية الأخيرة تدعو الى الدهشة لجماعة تعيش في منطقة لا يعرف فيها أى لون آخر للشعر ، ولكن الشعر الأحمر والعيون الرمادية أو الخضراء ليست غريبة أبدا بين السكان القدماء في المنطقة المتجمدة . كان « جنجيس خان » (Ghengis Khan)

ينتمى الى عشيرة مغولية تسمى « عشيرة ذوى العيون الرمادية » وكان « سوباتاي » (Subatai) أعظم قواده شهيرا بشعره الشديد الحمرة . وفي العصور المتأخرة لم ينظر الصينيون الى تلك المميزات الجنسية بحماسة ، أو رغبوا فيها ، بل نسبوها في واقع الأمر الى شياطينهم . وعلى كل حال فمن المحتمل أنه كان بين شعب الشيا عدد من الأشخاص الذين تنطبق عليهم تلك الصفات . أما المياو فقد كانوا يوصفون دائما بأن لون جلدهم أذكى من لون جلد الشيا ، وكانوا على ما يظهر ذوى شعر أسود . وما زال يعيش حتى الآن في المناطق البعيدة في جنوبى الصين جماعات مختلفة من السكان الأصليين ، وما زالوا يسمون « مياو » ، ويقول العلماء الصينيون انهم من سلالة القبائل الشمالية الذين فروا هربا من الشيا . ولكن الأرجح هو ان اسم « مياو » كان يطلق على قبائل متعددة لم تكن من الشيا ، وكانت تعيش في شمالى الصين وأن معظم تلك القبائل تمدنت بالتدريج ، وتم استيعابها في الشعب الصينى في العصور التاريخية .

ومن دراسة ما احتواه كتاب التغيرات يلوح أن المياو كانوا شعبا فيه للأمر السلطة الكاملة على المنزل ، بينما كان الشيا على عكس ذلك ، ولكن سلطة الأب بينهم لم تكن في القوة التى أصبحت عليها بين الصينيين فيما بعد . وقد احتار كثير من العلماء الأوروبيين في تفسيرهم لما ورد في كتاب التغيرات خاصا بذلك الموضوع لأنهم كانوا يؤمنون بنظرية خاطئة في التطور الحضارى وهى أن سلطة الأم تسبق دائما سلطة الأب في كل مجتمع من المجتمعات ، ولكن الحقيقة هى أن عادة الانتساب الى الأب ، ووجود المجتمعات التى تؤمن بسلطة الأب المطلقة ، من مميزات جميع الشعوب الأوراسية التى يقوم اقتصادها على الصيد أو تربية الحيوان . وان وجود المرأة في رسم العلامة الصينية التى ترمز الى « العشيرة » ووجودها أيضا في أسماء جميع العشائر التى ورد ذكرها ، لا يمكننا أن نقصره على أنه ذكرى لمرحلة ثورية بل يدل ،

على الأرجح ، على الأهمية التي كانت لعنصر المياو في المجتمع الصيني قبل عصر شانج .

ومن الصعب محاولة معرفة التنظيم الاجتماعي والسياسي لمجتمع الشيا وذلك لقلة المصادر وتغييرها الكثير في أيام أسرة « شو » . كان هناك فلاحون وأرستوقراطية حربية تحارب أعداءها وهي فوق العربات ، كما كان هناك زعيم لجميع شعب الشيا من الأرجح انه كان كاهنا أكثر منه ملكا . والعلاقة بين هذه التقسيمات وبين « قبائل الحاكم التسع » و « العشائر المائة » و « شعب ذوى الشعر الأسود » غير واضحة ، والتفسير المرجح هو أنه كانت هناك قرى يسكنها « شعب ذوى الشعر الأسود » وأن تلك الجماعة كانت تستغلها عائلات من الجماعات الأخرى بصورة غير منظمة أو محدودة من نظم الاقطاع . وما يلفت النظر أن الجماعة الحاكمة لم تتبع نظام العائلة الكبيرة الممتدة التي كانت تمتاز بها الأرستوقراطية الصينية في العصور المتأخرة .

وأهم واجبات الكاهن — الملك هي التوسط بين الأمة وبين الكائنات السماوية . وهو يذكر من آن لآخر في الآداب الصينية ، وهو يقود شعبه في حرب ضد المياو أو ضد ثوار ، كانت جريمتهم الكبرى هي محاولتهم استخدام تقويم يتعارض مع التقويم الذي يؤمن به . ومع كل ، فمن الأشياء الواضحة أنه لم يكن له الا القليل من السلطة السياسية ، ويلوح أيضا أنه لم توجد عاصمة ثابتة للبلاد في ذلك الوقت ، بل كان الملك يذهب حيث يكونون في حاجة الى خدماته .

وكان هناك عدد لا حصر له من الكائنات ذات القوى التي فوق قوى الطبيعة ، تسكن في أماكن كثيرة ولها وجوه نشاط متعددة ، ولكن يلوح أن عبادة الأسلاف كانت أقل شأنًا مما أصبحت عليه فيما بعد . وتنقسم الكائنات ذات الأهمية الخاصة التي جعلتهم يطلقون عليها اسم الآلهة الى قسمين : الآلهة السماوية ، وآلهة العالم السفلى . والقسم الأول كان في العادة آلهة

خيرة تسهر على فصول السنة ، وعلى النشاط الزراعى ، وعلى الجو . وقد اتخذ أحدها عرشا له فى النجم القطبى ، وكان أعظمها جميعا وله من الأهمية ما يجعله الكائن الأعلى . وكانت عبادة أولئك الآلهة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدراسات الفلكية ، وكان الكاهن — الملك يقوم بأداء الطقوس التى تقام تكريما لهم فى كل عام فى أيام خاصة ويقصد منها تأكيد عودة الفصول فى مواعيدها ، ونمو الحاصلات . وكانت تلك الطقوس تقام فى الهواء الطلق ، وكانت ذات طابع رسمى دقيق منذ أقدم العصور ، وكانت القرابين التى تقدم والأوانى التى تستخدم فى كل طقس من الطقوس يتحتم أن تكون من نوع خاص لا يسمح بتغييره أو عمل بديل له .

أما آلهة العالم السفلى فلم تظهر أسماؤها الا قليلا فى الوثائق ، لأنهم ربما كانوا يخافون منها . كان أولئك الآلهة يمشون تحت الأرض ويقرنون بالظلام والموت والشر ، ولا نعرف الا شيئا قليلا عن عبادتها ولكننا نعلم أن ملقوسهم كانت تعقد فى الليل أو فى الأماكن المظلمة . وفى عصر متأخر عن هذا العصر كانت الحيوانات التى تقدم قربانا لهم تحرق حية فى حفرات ، ولا يكاد يوجد شك بأنهم كانوا يتقبلون القرابين الآدمية أيضا . كان تقديم الضحايا ظاهرة هامة فى جميع الشعائر القديمة ، وهناك ما يسوغ الاعتقاد بأن أهم تلك الضحايا ، والتى كانت لا تقدم الا عند حلول المصائب الكبرى ، هى الكاهن — الملك نفسه . وكانت العادة حتى عصر شو (١٠٢٧-٢٢١ ق.م)^(١) انه فى وقت حدوث الجفاف كان الامبراطور يدعو السماء أن تنزل خطايا الشعب على رأسه ثم يقطع الجزء الأمامى من شعر رأسه ويربطه على جبهة ثور أسود يضحي به بدلا عنه .

(١) تتفق أحدث المؤلفات عن تاريخ الصين على أن أسرة شو تمتد من ١٠٥٠ الى

وهذه الثنائية الصينية في العصور القديمة تذكرنا كثيرا بالصينية التي كانت سائدة بين الشعوب السييرية ، بما فيها من آلهة للصيف وآلهة للشتاء ترتبط بالنور والظلام ويقوم على خدمتها جماعات مختلفة من الشمان (Shaman). ومن حين لآخر توجد اشارات الى بعض أعمال الوساطة الروحانية وهي تشبه في ذلك سييريا الأصلية وأقصى شمال أمريكا ، كما أن الرقم السحري الصيني في ذلك العهد كان رقم أربعة كما هو الحال بين هنود أمريكا الشمالية .

ويتبدى العصر التاريخي بأسرة شانج (١٧٦٦ - ١١٢٢ ق . م .) (١) ، وبالرغم من ذكر هذه الأسرة كثيرا في المؤلفات الصينية القديمة الرئيسية فقد كان الباحثون في التاريخ الصيني ينظرون إليها كقصة أسطورية الى ما قبل سنوات قليلة عندما عثر على عظام عليها مخربشات بعلامات قديمة عند الانحناء الكبيرة لنهر الهوانج هو . وعثر بعد ذلك على المقابر الملكية لهذه الأسرة وحفرت حفرا عليها ، وعثر في النقوش المعاصرة على أسماء معظم أباطرة « شانج » الذين وردت أسماؤهم في « كتاب التاريخ » . وإذا ضمنا الأشياء المكتشفة الى النقوش المعاصرة ، والى الأخبار التي وردت في المؤلفات القديمة ، يمكننا أن نحصل على صورة أفضل لما كانت عليه الأحوال في أيام تلك الأسرة أكثر من معرفتنا لبعض العصور التي بعدها . لقد تركت لنا أسرة شو التي خلفت أسرة شانج ثروة من الوثائق المكتوبة ، ولكن لم يحفر موقع هام واحد من عهد أسرة شو حفرا علميا منظما حتى الآن . وساعد تهافت الراغبين في الحصول على القطع الأثرية الصينية على شدة الطلب على الأواني البرونزية الصينية ، وعلى الأحجار المنقوشة ، كما أن سرقة المقابر كانت شيئا عاديا ، ولو أنها حرفة ممقوتة منذ بداية العصر المسيحي على الأقل . لقد عثر على كثير

(١) المتفق عليه هو أن أسرة شانج حكمت من ١٤٥٠ الى ١٠٥٠ ق . م .

(المترجم)

من التحف الفنية ، ولكن مجرد الحصول على قطعة أثرية عن طريق الشراء لا يكفي لمسدنا بما نريده من معلومات متعددة ، وحفر المقابر الملكية في « أن - يانج » (An-Yang) ما زال حادثا فريدا في تاريخ البحث العلمى في آثار الصين ، ولم يعثر بعد تلك الحفائر على أى شىء ، له أهمية عظام التنبؤ من عهد أسرة شانج . فى لقاء الضوء على الحياة اليومية للطبقات العليا من السكان .

ويتضح من دراسة كل اللقايا الأثرية والقسم المسمى « الفكرة العظمى » فى « كتاب التاريخ » ان حكام عصر شانج كانوا يهتمون اهتماما كثيرا بالتنجيم ، وانهم مارسوه بطرق متعددة . ومن بين تلك الطرق أنهم كانوا يعرضون قطعة من ذيل غطاء السلحفاة للحرارة ، ويحييون على سؤال السائل من دراسة التشققات التى تظهر فيها . وفى طريقة أخرى كانوا يحفرون عددا من الحفرات البيضاء الصغيرة فى أحد جوانب قطعة من العظم ، وكانت فى العادة من عظم كتف شاه ، ثم يحمون قضيبا معدنيا فى النار حتى يحمر ويضعونه فى تلك الحفرة ، ثم يحييون على سؤال السائل من تفسيرهم للتشققات التى تظهر على الجانب الآخر لقطعة العظام . والتنجيم بوساطة عظام الكتف (Scapulimancy) كان ذائع الانتشار فى المناطق الشمالية من أوراسيا ، وفى أمريكا ، أما التنجيم بوساطة غطاء السلحفاة فيلوح أنه من أصل جنوبى ، وكان حكام شانج يستوردون ويربون السلحفاوات التى يأتون بها من الجنوب حتى تكون عظام غطاءاتها من النوع المطلوب . وفى طريقة التنجيم بوساطة عظام الكتف كان المنجمون فى عهد شانج يحفرون على العظمة نصوص الأسئلة المطلوب الاجابة عليها قبل تعريضها للنار وربما كان السبب فى ذلك هو الاعتقاد الذى كان سائدا ومعروفا فى الصين فى العصور المتأخرة بأن الآلهة صماء ، وانها لا تفهم المطالب التى ترفع اليها الا اذا كانت مدونة كتابة ، وهو اعتقاد لم يجد الكتاب انه من مصلحتهم تشكيك الناس فيه .

وكانت الأسئلة تتعلق قبل أى أمر آخر بشئون القصر الملكى ، يسألون عن الأوقات المناسبة لتأدية الشعائر ، والتناجى المحتملة للحروب التى يقومون بها ، وعما ينتظر المحاصيل . وكانت بعض عظام الكتف مسطحة تماما ، وكان بعضها مرقما مما يدل على أنها كانت تحفظ للرجوع إليها . وعلى احدى العظام نقرأ شيئا يدعو الى التسلية ويدلنا على تصريف المنجمين . فقد كان السؤال كما يأتى :

إذا خرج الملك للصيد فى التلال الشرقية (فى يوم كذا) فهل ستسقط الأمطار ، وإلى جانب التشققات التى دلت على الجواب بأنها ستمطر نجدهم أضافوا كتابة الجملة الآتية « وقد أمطرت حقا » .

كانت العلامات المستخدمة فى الكتابة فى عهد شانج رسوما لأشياء معروفة ، وكان بعض تلك العلامات يرسم رسما قريبا جدا من الشكل الحقيقى ثم أصبح له بعد ذلك معنى تصويرى ، وهى الأصول المباشرة للكتابة الصينية الحديثة التى ترسم فى علامات ذات شكل مستطيل . وتختلف تلك العلامات عن مثيلاتها فى عهد أسرة شو ، وفى العصر المبكر من أسرة هان . وقد تطور شكل العلامات الحالية بسبب كتابتها بالفرشاة فوق الورق أما الكتابة فى عصر أسرة شانج فقد كانت ذات أسلوب اصطلاحى متقدم ، ولا بد أنه مرت عليه أجيال كثيرة قبل أن تصل تلك العلامات الى الأشكال التى ظهرت فيها لأول مرة . وعلى أى حال فهى لا تشبه أى كتابة أخرى عرفت خارج الصين ، ومن المرجح جدا أنها نشأت فى هذه البلاد فى العصر النيوليتى .

كان الناس فى أيام أسرة شانج يعيشون فى قرى ، وكانت توجد على الأقل مدينة واحدة وهى العاصمة التى كانت المكان المعترف به كمقر للأسرة الحاكمة . وفى الآداب القديمة ، وعلى الأخص مؤلف شعري وهو ال « شيه تشنج » (Shih Ching) اشارات كثيرة الى حياة عامة الشعب ، وكانوا على ما يظهر يشبهون من سبقهم فى حضارة « لنج — شان » فى العصر النيوليتى .

كان الرجال والنساء يغطون أجسامهم كلها بالملابس اذ كانوا يلبسون سروالا وفوقه معطف طويل ذو أكمام . وكانت المنازل مكونة من غرفة واحدة مشيدة بالطين ، ولها باب في الناحية الشرقية ، ونافذة في الحائط الغربى . وكان موقد النار في وسط الحجرة وفوقه فتحة السقف لتصريف الدخان وتجديد الهواء . وكانت العائلة تام في الركن الجنوبي الغربى من الحجرة ، وهو الركن المقدس فيها ، وكانوا يضعون فيه الحبوب التى يخترنونها ، وفيه كانت تقدم القرابين لكل من الاله « أو » (Ao) اله المنزل والاله « تساو » (Tsao) حارس الموقد . وكان على النساء تصريف شئون المنزل والقيام بكل الأعمال داخله وعلى الرجال القيام بالزراعة والعناية بالحيوانات المستأنسة . وكانوا يقضون الشتاء في الغزل والنسج اذ كانوا يستخدمون منذ أقدم العصور ألياف القنب ، والجوت ولكنهم استوردوا دود الحرير من الجنوب في بداية عصر شانج ، وكانت العناية بها أحد الواجبات الملقة على عاتق النساء .

وكانت جميع العائلات في القرية متصلة بعضها ببعض بصلة القرى عن طريق الأب، وكانت ادارة القرية قائمة على القرابة ، والواجبات المفروضة على جيل أمام جيل آخر ، ويحكم الناس الشيوخ من الرجال الذين كانوا رؤساء للعائلات . ومن الأشياء الجديرة بالذكر أنه كان لكل قرية بيت عام يجتمع فيه مجلسها ، ويقومون فيه بعض الاحتفالات العامة . وكان هذا البيت يستخدم من آن لآخر كناد يجتمع فيه الرجال ، ليشربوا الخمر معا أو للاستمتاع بالمرات الأخرى . وفي خارج القرية كانت هناك غابة مقدسة وعلى مقربة منها ترعة جارية . وكانوا يحرسون كلما استطاعوا أن تكون كل من الغابة والترعة الى الجنوب من القرية حتى تكونا حائلا ضد التأثيرات الشريرة التى تأتى من تلك الناحية . وكانت تقام في الغابة طقوس الربيع والخريف ، ويقصد من طقوس الربيع ازدياد الخصب ، وكان يحتفل بها الشبان والشابات ، وكان لها طابع التهتك ، أما احتفالات الخريف فكانت لتوديع فصل الشتاء ، وتقديم

الشكر على ما أتى اليهم من محصول ، وكانت تشمل رقصا يؤديه رجال يلبسون أقنعة تمثل رؤوس الحيوانات ويصحبها الاسراف في الأكل وشرب البجعة ، ويشرف عليها رجال متقدمون في السن ، وكان للموسيقى الورتية التي ينسبون اليها قوى سحرية دور كبير في كل تلك الاحتفالات . أما الكائنات التي كانوا يستهدفون رضاها بالاحتفالات التي تقام في القرية فكانت الأرواح الطبيعية المختصة بالمكان ، والحيوانات التي كان أهم ما فيها الحية والدب والثعلب الماهر الذي يستطيع تغيير شكله . وكان هناك أيضا نوع من عبادة الأسلاف من النوع الذي يتناسب مع حياة الفلاحين . والأرجح ، أن الطقوس كانت تقام لأجل أسلاف القرية كلها ، أما الطقوس التي كانت موجهة الى الكائنات العظيمة فكان يقوم بها الملوك والنبلاء .

وعاش الأرستقراطيون في عهد شانج حياة ترف ورفاهية ، كما نستدل على ذلك من القبور الملكية لتلك الأسرة ، لأنهم كانوا ينظرون الى تلك القبور كمنازل للموتى ، وكانت تؤثث بالأثاث اللائق بالقصور . كانت حجرة الدفن تبنى بناء متينا من الكتل الخشبية ، وتوضع في أسفل بئر عمودية عمقها أربعون قدما أو أكثر ، وكان يوصل الى القبر ممر غير مستقوف . وبعد أن ينتهوا من عمل الجزء السفلي يملأون ذلك الممر والبئر بالتراب . ومن الأسف أن طريقة عمل القبور ساعدت على معرفة مكان المقابر ، وكانت المبالغ الكبيرة التي تدفع ثمن الأثاث التي يرجع تاريخها الى عهد شانج باعثا على نهبها وسرقتها على نطاق كبير . وكان الخدم الشخصيون والنساء المحبيات الى الحاكم يقتلون ويدفنون معه ، وعندما يردمون الممر يرمون بالرؤوس المقطوعة حديثا في التراب فتدفن وتترك شكلها مطبوعا فيه . وأكثر الرؤوس التي عثر عليها كانت تلبس خوذات برونزية مما يدل على أنها كانت لبعض حراس الحاكم ، ولم تكن رؤوسا للأرقاء أو الأسرى .

وكانت الجدران الداخلية للقبور مزخرفة برسوم تقليدية . وكان أثاث

القبر يحتوى على أوان برونزية لأجل استخدامها في الطقوس ، كما يحتوى أيضا على أسلحة وأحجار منقوشة ، وكثير من الأدوات المصنوعة من حجر اليشم .

وقد عثر أيضا في هذه القبور على تماثيل كبيرة من الرخام لها قيمة فنية عظيمة بالرغم من أن أسلوب صناعتها أسلوب مجمل ، ولهذه التماثيل أهمية خاصة لأنها لم يرد لها ذكر في المؤلفات القديمة ، وبالرغم من أن الكراسى والطاولات لم تستخدم في ذلك العهد فقد كانوا دون شك يستخدمون أشياء أخرى مصنوعة من الخشب والمواد الأخرى التي تفنى بسهولة ، كقرايين الطعام والملابس ولفات الحرير . ومهروا في نحت الأحجار ، ويلوح أنهم كانوا يصنعون الأشياء من اليشم ومن الرخام بطريقة النشر لا بطريقة التكسير والتسوية والصقل التي كانت الطريقة المألوفة في العصور النيوليتية . وكانت طريقة عمل التماثيل بواسطة النشر مستخدمة أيضا في بعض الحضارات القديمة في جنوب شرقى آسيا ، وفي اليابان ، وبين الاسكيمو في الاسكا ، والهنود في كولومبيا البريطانية ، عند صنعهم للأدوات من حجر اليشم ، وهذا يصرف أذهاننا مرة أخرى الى تأثير ذلك الشعب الذى يخفى علينا أمره ، وهو شعب البحر الذى سبقت الإشارة اليه .

وكانت الأسلحة مصنوعة من البرونز ، وكان السلاح المفضل عند الالتحام هو السلاح المعروف باسم « كو » (Ko) وهو نوع من «التوماهوك» (Tomahawk) فأس الحرب لدى الهنود الأمريكيين ، الذى استمد شكله من أحد أنواع المناجل البدائية التى كانت تستخدم في الصين الشمالية في العصور النيوليتية لحصاد الحبوب . ونعلم من المصادر الأدبية أن نبلاء شانج كانوا يركبون عربات يجرها جوادان ، وأن جيش « شانج » كان مكونا من راكبي العربات ، ومشاة لا يحملون الا أسلحة قليلة ، وأن سلاحهم المفضل هو القوس ، وكان على الأرجح من النوع المركب . وكانوا يلبسون خوذات من

البرونز ، وربما دروعا مصفحة فوق الجسم ، يصنعونها بطريقة خياطة قطع صغيرة من المعدن أو العظم فوق قماش أو أى مادة أخرى ذات مرونة .

وأهم ما عثر عليه فى المقابر هى الأواني البرونزية التى كانت تستخدم للطقوس الدينية اذ نرى فيها قوة وبراعة فى التصميم ومهارة فى صب المعدن لم تستطع أى حضارة من الحضارات فى أى زمن ، وفى أى مكان فى العالم ، أن تتفوق عليها . كان الاناء كله على شكل طير أو حيوان ، وكانوا فى أغلب الحالات يزینون سطح الاناء برسوم صغيرة لبعض أنواع الحيوان التى استفدنا كثيرا من دراسة موضوع اختيارهم لها . فبالرغم من أن المنطقة التى عاش فيها الشانج كانت فى شمالى الصين ، وبالرغم من الاعتقاد السائد بأن مؤسسى أسرة شانج أتوا من الغرب عن طريق الاستيس فاننا لا نرى الا عددا قليلا من حيوانات الشمال . كما أن الدور الكبير الهام الذى يلعبه الدب فى الطقوس الدينية فى جميع بلاد شمالى أوراسيا ، وأن طوطم أسرة شيا كان لنوعين من أنواع الدببة ، فان غياب هذا الحيوان بالذات من بين الحيوانات التى وردت فى زخارف الأواني أمر يثير الدهشة اذ كانت الحيوانات المحببة اليهم فى الزخرفة هى النمر والجاموس والكباش والثيران . وكانوا يرسمون أجزاء منها فى زخارف هليدية تعرف باسم « تاو — تيه » (Tào-t'ieh) ولهذا فان ذلك الاختيار يحملنا على الاعتقاد بأن فن شانج لم يتطور من فن رسم الحيوان فى الاستيس ، وانما جاء أصلا من الجنوب ، ولم يأت من الغرب . وفى الوقت ذاته فان أشكال الأواني البرونزية ، اللهم الا القليل منها ، يرجح انها مستمدة من أصول صنعت من الخشب والفخار وقرون الحيوانات . فالأواني التى على صورة الحيوانات ذات سطوح مزخرفة بزخارف غائرة جدا يجعلنا نرجح أن الأصول التى نهلت عنها كانت من الخشب المنحوت . ومن المستحيل أن نجزم اذا كانت الزخارف التقليدية التى تغطى سطوح تلك الأواني زخارف للزينة فقط أو أنها ذات معان رمزية ، وذلك بالرغم من أن

الاهتمام الشديد الذى أظهرته شانج نحو الشعائر والطقوس يجعلنا نرجح
الفرض الثانى . ولا يوجد فى أى حضارة أخرى خارج الصين أى شبيه لهذه
الرسوم الزخرفية ، ولكنى أحس شخصا بأن لها بعض الصلة بزخارف حضارة
« دنج سون (Dcng Son) » ولها علاقة أيضا بالفن فى خلال العصور التاريخية
فى بعض المناطق التى اتصفت بشدة التمسك والمحافظة على حضارتها فى
اندونيسيا وميلانيزيا ، ولها علاقة أيضا بفنون جزر الماركساس بيولينيزيا
والماورى . وبالرغم من أن هذا الافتراض لا يمكن اثباته فلن يدهشنى اذا
كانت البحوث الأثرية فى المستقبل ستثبت وجود أسلوب فنى فى منطقة جنوب
شرقى آسيا فى العصور القديمة ، تفرعت منه جميع تلك الرسوم الزخرفية بما
فى ذلك زخارف شانج نفسها .

والكمال الفنى للأوانى الطقسية البرونزية يدعو الى الدهشة والاعجاب
وان الانسان ليجد نفسه عاجزا عن تصديق ما يراه ، لأن أعظم وأمرر المشتغلين
بصب المعادن معرضون لأن يصادفهم سوء الحظ فى عملهم بين حين وآخر .
ولكن يجب أن نضع فى أذهاننا أن الأوانى التى فى متناول أيدينا للدراسة
انما هى أوان اختيرت بعناية وتدقيق ، لأن أحسن الأوانى البرونزية التى
وصلت الى السوق التجارية عن طريق لصوص المقابر نسبها الدارسون الى
عصر شانج ، ومن الجائز جدا أنه عندما تصل الى أيدينا البيانات الكاملة عن
جميع ما عرف من تلك الأوانى البرونزية فسيظهر من بينها بعض الأوانى غير
المتقنة الصنع ، لأن كمال الصناعة الفنية لا يمكن أن نزوه فقط الى مهارة
الصانع ولكن يجب أن نزوه أيضا الى الفرض الذى من أجله صنعت تلك
الأوانى ، وذلك لأن الأوانى القربانية غير الكاملة ربما كانت تسبب غضب
الآلهة تماما كالاهمال فى أداء الشعائر . وفى أيام أسرة شانج كان البرونز نادرا
جدا ، ولا بد أنه كان يحتل المكانة التى يحتلها الذهب فى حضارتنا الحالية ،
وان أى قطعة تظهر فيها تشققات أو عيوب فى صناعتها كانوا يعيدون صهرها

ويصبونها مرة بعد مرة حتى يحصلوا على اناء كامل الصنع . وعرفوا صب المعدن بطريقة الشمع المفقود ، وبطريقة قوالب من الفخار ، وقد عثر على قطع منها في موقع العاصمة القديمة لشانج . ولسنا نعرف حتى الآن مصدر البرونز الذي استخدموه . ففي منطقتين من المناطق التي ذكرت في كتاب « جزيرة الي » (انظر الفصل ٣٦) يشيرون الى أنها كانت تنتج ثلاثة أنواع من المعادن مما يرجح أن النحاس والقصدير من أصل صيني . وعلى أى حال ، فإن الأهالي كانوا يستغلون مناجم القصدير الغنية في شبه جزيرة الملايو في وقت كان فيه أهل الملايو أنفسهم ما زالوا يستخدمون الأدوات النيوليتية ، وهذا يدل على التجارة في المعادن في ذلك العهد . وعلى أى حال ، فإن التحليل الكيموي لبرونز شانج سيظهر دون ريب اذا كانوا جلبوا أى قصدير من ذلك المصدر . ويلوح أن تكون امبراطورية شانج كانت وسطا بين دولة تسمى لاختضاع ما جاورها ، وبين نظام الدولة الاتحادية . فالمقاطعات المختلفة التي تكونت فيها الامبراطورية كان لها استقلالها السياسى الداخلى ولم يكن هناك ما يشبه المجلس الامبراطورى أو جمعية عمومية للنبل . فكل مقاطعة من المقاطعات كانت تحكمها عائلتها النبيلة الوراثية التي كانت تخضع للامبراطور ، وتشارك في الاستفادة من الطقوس الدينية التي يقوم بها . وكانت قوة السلطة المركزية تعتمد أكبر الاعتماد على شخصية الامبراطور ، فاذا كان الامبراطور ضعيفا حارب النبلاء بعضهم البعض . وفي جميع الأزمان كانت الامبراطورية تحارب جارا من جيرانها غير الصينيين . وفي عظام التنبؤات تتكرر الاشارة الى قبيلة وصفوا أهلها بأنهم « رعاة » كانوا يعيشون الى الغرب من بلاد شانج ، وكانوا يغيرون عليهم دائما لأجل الحصول على الرقيق ، وخصوصا لتقديمهم كضحايا آدمية ، وفي الاثبات التي ورد فيها ذكر القرابين والأضاحي يجد الانسان « الرعاة » على قدم المساواة مع الحيوانات المستأنسة الأخرى التي كانوا يقدمونها .

ولسنا نملك الا معلومات قليلة عن التنظيم الداخلى للمقاطعات ، ولكن من الأمور الواضحة انه كان يوجد فارق كبير بين النبلاء والعامّة . ولا نعرف شيئا عن التنظيمات المالية ، ولكن من المحتمل أنها كانت فى أيام شانج مماثلة لما كان فى أيام تشو فيما بعد ، اذ كان الفلاحون يعملون لسادتهم ، يزرع حقول معينة تخصص لهم ، وكان القرويون يمدون سيدهم بمشاة قليلى السلاح كلما ذهب الى الحرب . ويجب ألا ننسى أن النبلاء أنفسهم فى أيام شانج كانوا قليلى السلاح اذا قيسوا بالمقاييس الأوروبية فى عصر الاقطاع ، وكان الفلاحون مدربين على استخدام القوس المركبة التى كان فى استطاعتها أن ترمى بالسهم فيخترق أى درع كانوا يستخدمونها فى ذلك العهد . وقد استمرت هذه الحالة فترة طويلة من الزمن بعد زوال أسرة شانج ، وقد قيل على سبيل التهكم ان ذلك الاهتمام الشديد برفاهية الفلاحين التى كان ينادى بها فلاسفة الصين ، وكانوا هم أنفسهم من الطبقة العليا ، ربما كان راجعا الى هذه الحقيقة .

وكان لحضارة شانج اتجاه قوى غير عادى نحو الدين والسحر ، ولكنه كان فى الوقت ذاته خاليا من الغموض والتصوف . كانت كل قرية تقوم بعمل احتفالاتها الخاصة المتصلة بنشاطها على مدار السنة ، وكانت تبعد أسلافها ، أما نبلاء المقاطعة فكانوا يؤدون طقوسا أخرى لصالح المقاطعة . ويلوح أنه كان لكل مقاطعة عدد من الآلهة الثانوية ، كما كان لها أيضا أرواح للجبال والقنوات المحلية . وأخيرا ، كان الامبراطور نفسه يؤدى طقوسا معينة لتكريم أعظم مجموعة من الآلهة ، وعلى الأخص الكائنات السماوية ، وبذلك تستفيد الدولة كلها من عمله هذا . وكانت الطقوس التى يؤديها الملك والنبلاء طقوسا ذات طابع رسمى شديد التمسك باشتراطات معينة اذ كانت هناك قوانين صارمة يجب اتباعها فيما يختص بنوع أوانى القرابين التى تستخدم فى كل مناسبة ، والقرابين التى تلائم هذه المناسبة ، كما لا يوجد شك فى أن كيفية

أداء تلك الطقوس كان يسير أيضا على تقاليد دقيقة لا تقل في ضرورة اتباعها عن اختيار الأواني والقرايين .

وكانوا يقدمون الحيوانات دائما كقرايين في احتفالاتهم ، كما كان تقديم الضحايا الآدمية في عهد شانج أكثر منه في أي وقت آخر في التاريخ الصيني . ولم تقتصر عبادة الأسلاف على أرواح الأسلاف كمجموعة ، ولكن كانت هذه الظاهرة ظاهرة عامة في الطقوس التي يقوم بها النبلاء أو الملك . وتدل الصرامة في الطقوس على أنها طقوس سحرية في أهدافها ، كما كانت طقوسا دينية . وقد سلفت الإشارة الى أهمية التنجيم ، على حين كان المنجمون فئة خاصة على ما يظهر ، فقد كان يتحتم على الحكام أن يقوموا بتلك الطقوس بأنفسهم وأن يجمعوا في شخصهم جميع الوظائف التي كانت مقسمة في المجتمعات الأخرى بين الحكام المدنيين والكهنة .

ولكى يقوم النبلاء بأداء ما عليهم من واجبات كان يتحتم عليهم أن يتلقوا التعليم الكافي ، وكان أكثرهم يعرفون القراءة والكتابة ، وهم يختلفون في هذه الناحية اختلافا كبيرا عن النبلاء الاقطاعيين في البلاد الغربية . كانت هناك مراسلات رسمية كثيرة ، وكانوا يفخرون بالمهارة في تحرير الخطابات والمذكرات . وكان الاحساس بالخوف من نقد الآخرين وضرورة عمل كل شيء على الوجه الأكمل من الظواهر الهامة في الحضارة الصينية في عهد أسرة شانج وظل مستمرا فيما بعد مصحوبا برغبة قوية في أن تبقى تلك الأعمال الأدبية ليراها من يأتي بعدهم . وبالرغم من أن النبلاء كانوا يقولون انهم هم الذين يكتبون مراسلاتهم الرسمية ، فمن المحتمل جدا أنه كانت توجد في ذلك العهد فئة من الكتاب المحترفين الذين كانوا يعملون كمستشارين وناصحين للحكام ، وكانوا يلعبون دورا هاما في ادارة الحكومة .

وما زالت أصول نشأة الشانج من الأمور الغامضة . فقد أتى أسلافهم الى الصين ، على ما يظهر ، من الشمال الغربي من الطريق الذي أتى منه الغزاة

في جميع عصور التاريخ الصيني . زد على ذلك ، ان بداية الأسرة ، وهي حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . تتفق الى حد كبير مع غزو الآريين للهند وغزو بلاد الشرق الأدنى بجماعات مختلفة من شعوب الاستيس الذين كانوا يربون الخيل ويستخدمون العربات ، والنظرية المقبولة من جميع الباحثين بوجه عام هو أن الشانج هم الذين أدخلوا الى الصين عددا من العناصر الحضارية التي ترجع الى أصل غربي أى من غربي آسيا ، وبخاصة زراعة القمح والشعير واستخدام الخيل وحرب العربات وصب البرونز والكتابة . فالقمح والشعير يظهران لأول مرة في هذا العهد ، وهما بدون شك يرجعان في أصلهما الى الغرب ، ولكن الخيل والماشية والأغنام كانت معروفة في حضارة شعوب اللنج شان . وليس هناك أى دليل على أن تأسس أسرة شانج كان سببا في زيادة تربية الحيوانات . زد على ذلك ، أنهم لم يستخدموا اللبن ، وهي ظاهرة لا يمكن تفسيرها اذا كانت حضارة شانج مستمدة من إحدى الحضارتين اللتين كانتا معروفتين في منطقة الاستيس .

ووجود الفخار المصنوع بوساطة عجلة الفخار في حضارة اللنج شان دليل على معرفة العجلة قبل عهد شانج ، كما أن « كتاب التغيرات » يذكر أن المركبة وعربة الحرب كانتا معروفتين في أيام الشيا . وصناعة أمثال هذه الأشياء بأدوات مصنوعة من الحجر عمل مضمّن صعب ولكنه ليس مستحيلا كما نعرف من دراستنا لحضارات شعوب أخرى مثل الشعب البولينيزي وشعب المايا . أما صب البرونز والطرق التي استخدموها في صب المعدن فهي دون شك من أصل غربي ، ولكن أشكال معظم أسلحة شانج وأوانيتهم لا تشبه شيئا عثر عليه في حضارات غربي آسيا حتى الآن . وكذلك شأن الزخارف التي عليها فهي فريدة في نوعها ، أما فيما يختص بكتابة شانج فلا يوجد ما يشبهها في أى مكان خارج الصين ، كما تجدر الإشارة الى أن غزاة الاستيس الذين كانوا يثرون الفرع بين المدينيات التي تقع في المناطق الواقعة

الى الغرب من الصين كانوا يجهلون تماما القراءة والكتابة . ثم ان ذلك الاهتمام الشديد بالطقوس الدينية والتنجيم ، وذلك الاحساس القوى بالاعتماد على قوى عليا ، وهى الظواهر التى تمتاز بها حضارة شانج ، تختلف اختلافا تاما عن الحضارتين اللتين كانتا سائدتين فى منطقة الاستبس .

وربما كان أكثر التفاسير احتمالا هو أن مؤسسى أسرة شانج كانوا جماعة قليلة العدد نسبيا وكانوا يمارسون الزراعة وتربية الحيوان كما كانت تفعل شعوب الاستبس قبل أن تصبح من البدو والرحل . وعرف هؤلاء المؤسسون الأوائل البرونز من صلتهم بالغرب ، اذ كان هذا المعدن معروفا وشائع الاستعمال فى تلك البلاد حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . ، كما تعلموا الاعتماد الكبير على عربات الحرب التى ساعدتهم على صنعها معرفتهم لهذا المعدن الجديد . وساعدتهم المامهم بهذه الأشياء ، وجعلهم يتفوقون على غيرهم ، وكان هذا التفوق مع الاحتمال الكبير لوجود تنظيمات عسكرية لديهم باعثا على نجاحهم فى قهر السكان النيوليتيين فى شمالي الصين . وعلى أى حال ، فانهم ساروا فى نفس الطريق الذى سار فيه كل من غزا الصين . فقد أضافوا الى الحضارة المحلية بعض عناصر غريبة قليلة فساعد ذلك على ايجاد تطورات جديدة فى التقاليد الصينية ولكنهم لم يكونوا سببا فى خلق أى ثورة حضارية . وبصرف النظر عن أصل شانج فان منطقة شمالي الصين عند ظهور هذه الأسرة كانت منطقة تسكنها قبائل مستقلة ذات حضارات نيوليتية مختلفة ، وعند انتهاء أيامها كانت هذه المنطقة بالذات يسكنها شعب له حضارة واحدة ، لها طابعها الصينى الذى يميزها . وكان عصر شانج ، فى نواح متعددة ، صورة لمجرى التاريخ الصينى فيما تلا من عصور . لقد بدأ بغزو أجنبي تلاه تحضير الغزاة . وشهد عصر شانج رفع شأن الكتابة الى المكانة التى ظلت تتمتع بها فى الحضارة الصينية فيما بعد ، كما شهد نشأة احترام العلم ، وشهد أيضا وضع الأشكال والصيغات النهائية للطقوس الدينية ، وانتصار الأسلوب الفنى على

الانفعال العاطفى فى الصلة بين الانسان وبين القوى التى فوق الطبيعة . وتبلورت طرق تحديد معظم الواجبات المدنية والدينية لكل فرد . وقد سبب وجود ارسوقراطية متملمة من الكهنة والمحاربين والحكام امتزاجا كاملا لا ينفصم بين السلطة الدينية والدولة .

وفضلا عن ذلك ، فان النتيجة لم تكن خلق حكومة لرجال الدين بأى صورة من الصور . فسلوك الصينيين كان دائما سلوكا عمليا جدا ، فجعلوا الدين أداة مكتملة للحكم . وقد ظلت هذه الأساليب متبعة فى جميع عصور التاريخ الصينى وأنقذت البلاد من الصراع بين الكهنة والحكام ، ذلك الصراع الذى مزق كثيرا من المدينيات الأخرى . حتى سقوط أسرة « شانج » ذاته نراه يضع أسلوبا للدعاية التى اتبعها فيما بعد كل من جاء بعدهم . فقد صور الغزاة من أسرة « شو » الذين قضوا على آخر أباطرة « شانج » ، صوروا هذا الامبراطور بأنه مثال للرذيلة والقسوة ، وأنهم لم يأتوا الا كمحررين أرسلهم كائن علوى رحيم ليعاقب أسرة « شانج » على جرائمها ، وليعيد الأمن الى الناس .

الفصل السابع والثلاثون

الصين في عصرها التاريخي المبكر

تدخل الصين عصرها التاريخي الصحيح بإبتداء أسرة شو ، وتستكمل الحضارة الصينية معظم طابعها الذي تمتاز به . وكان جزء كبير من هذا الطابع موجودا بالفعل في أيام شانج ، ولكن أثناء عهد أسرة شو تكامل ذلك الطابع . وفي الحقيقة يمكننا القول بأن شو كانت عهدا من العهود أكثر منها أسرة حاكمة ، وبالرغم من أن اثبات أسماء ملوك الأسرات تقول بأن أيام شو استمرت من حوالي ١٠٠٠ ق . م . حتى عام ٢٢١ ق . م . فإن الحكم الحقيقي لأباطرة هذه الأسرة انتهى حوالي عام ٧٧٠ ق . م . عندما انتقلت العاصمة نحو الشرق الى مدينة « لو — يانج » (Lo-Yang) . ولكن حتى قبل ذلك الحادث بدأت القوى المخربة التي لا يمكن تجنبها في أى نظام اقطاعي في اضعاف السلطة المركزية . وأهم عمل قامت به أسرة شو هو وضع نظم اجتماعية متكاملة ونظم سياسية ودينية استطاعوا في داخل حدودها أن يسموا وينظموا الأساليب التي كانت موجودة فعلا في الصين ، وما استعارت من الحضارات غير المتمدنة التي كانت الى الغرب منها . ومن الصعب أن نذكر الى أى مدى كان مؤسسو الأسرة مسئولين شخصيا عن ذلك ، ولكنهم كانوا أو كان مستشاروهم مسئولين دون شك عن تحويل الأساليب الحضارية التي كانت موجودة قبلهم الى نظام متكامل . وكان الملوك الأول من أسرة شو في مركز ملائم يسمح لهم بعمل ذلك ، لأنهم كانت لديهم الخبرة في مزج عناصر من حضارة شيا مع عناصر من حضارة شعوب الاستيس غير المتحضرة .

ومع أن العلماء الصينيين في العصور المتأخرة اصطنعوا نسبا من ملوك شيا القدماء يربطهم بأسرة شو ، فمن الجائز أن يكون مؤسس هذا البيت كان نبيلاً من سلالة شيا ، وكان يسمى « ليو » (Liu) الذي كان يعيش على الحد الشمالي الغربي لمنطقة شيا في القرن الثامن عشر ق . م . ، وربما كان القوم غير المتحضرين الذين صادفهم هناك وأخضعهم لسلطانه ، كانوا على الأرجح من الشعب الذي كان يسميه الصينيون « الرعاة » الذين كانوا معرضين دائماً لهجمات الشانج واستغلالهم لهم . وربما كان أولئك المقهورون على أمرهم ينظرون الى حكامهم من أسرة شيا نظرتهم الى الحامى لهم لأن شعار البيت المالك في شو كان : « الاحسان هو أفضل سياسة » . وفي القرن الرابع عشر ق . م . كان ضغط القبائل الزاحفة من الغرب سبباً في اضطرار الشو ومن كانوا يوالونهم الى الاتجاه نحو الصين فاحتلوا المنطقة التي تعرف الآن باسم « فنج سيانج » (Feng Siang) ، وأصبحوا من موالى أباطرة شانج . وكانت حضارتهم عند وصولهم الى تلك المنطقة حضارة فيها أثر كبير من حضارة الاستبس . كانت السلطة المطلقة في العائلة للأب كما كانوا ينتسبون أيضاً اليه . وكان للخيل على ما يظهر أهمية كبرى في اقتصادهم ، وكانوا في البداية يركبونها قبل أن يستخدموها في جر العربات ، وان ميل الشو الى استخدام العربات الحربية بمجرد حصولهم على المعلومات الضرورية يدل على أنهم لم يكونوا قد أنموا بعد معرفتهم لأساليب استخدام الخيل في الحرب أو للادوات اللازمة لك .

وتاريخ حكام شو ، كما هو مسطر في كتب الغاب الهندي (البامبو) ، يدل على أنهم جمعوا بين عزيمة لا تكل للحصول على القوة ، وبين الحب الشديد للنظام ، وبين الاحترام العميق لعمل ما يعملونه حسب الأصول الواجب اتباعها . والى آخر وقت من أوقات تبعيتهم لأباطرة شانج كانوا يعاملون أولئك الأباطرة بجميع مظاهر الاحترام في الوقت الذي كانوا يضمنون اليهم بعض

الولايات الصغيرة واحدة بعد الأخرى حتى أصبحت الامبراطورية كلها تحت سيادتهم . وعندما تمكن الملك « ون » (Wen) من خلع آخر أباطرة شانج وأسس أسرة شو ، فعل ذلك مع جميع مظاهر الألف المتسم بالأدب ، وبدأ في الحال في تنظيم المجتمع والدولة على أساس ما كان مسطرا في الورق ، أو على الأصح مسطرا على البامبو كنظام دقيق . وكما ذكر المؤرخون الصينيون الذين كانوا دائما من المخلصين لنظرية « الرجل العظيم » ، كان من أثر تغيير العائلة الحاكمة تغيير في نظام العائلة . كما يرجح أنها غيرت أيضا في قواعد النسب بين النبلاء . وعلى أى حال فإن تغيير كيان العائلة في أى مجتمع عمل من أعظم الأعمال ، ومن المحتمل أن الذى حدث بالفعل أن العائلات النبيلة التى بقيت من أسرة شانج لقيت تشجيعا لتغيير القليل من عاداتهم ليجعلوا نظامهم العائلى متلائما مع النظام الذى كان متبعا بين نبلاء شو . أما عن الفلاحين فمن المرجح جدا أن الأسرة لم تحاول تعديل عاداتهم التى كانوا يمارسونها لأن أهم وظيفة لهم هى دفع الضرائب .

كان نبلاء شو منتظمين في عائلات متحدة تشبه الى حد كبير الأرستوقراطية الصينية في جميع العصور التالية . وكانت النواة لتلك العائلات جماعة من الذكور الذين ينتسبون الى سلف يجمعهم ، يعيشون معا في منزل واحد يخصهم جميعا ، ويعملون متعاونين تحت سلطة أكبرهم سنا . وكانت هذه العائلات المتحدة والجماعات الأكبر منها التى تضم جميع الذين يحملون اسما واحدا ، والتى كانت العائلات تنتمى اليها ، تسير كلها على نظام الزواج من خارج العائلة . وكانت السلطة المطلقة للأب ، وكانت النساء اللاتى يولدن في العائلة المتحدة لا يعدوهن تابعات لها . انهم لا يقدموهن لأرواح الأسلاف ، ولكن عند زواجهن كن يقدمن الى أرواح أسلاف أزواجهن ، ويصبحن بذلك أفرادا في جماعة عائلته . وكان الزواج من الناحية النظرية مقصورا على زوجة واحدة ولكن عندما كانت تذهب عوس من النبلاء الى ست زوجات كانت تصحها

أخت أصغر منها ، وبعض الخادmates ويصبحن كلهن بصورة آلية محظيات للزوج . كانت المرأة تتبوا مركزا عاليا وبالرغم من أن النساء النبيلات كن يعشن في عزلة عن الرجال فانهن لم يحين حياة الحریم المعروفة ، وكانت النساء في ذلك الوقت البعيد يتعلمن القراءة والكتابة ، وهناك أدلة كثيرة على أن الأزواج كثيرا ما كانوا يستشيرون زوجاتهم حتى في شئون الدولة .

وفي تنظيم امبراطورية شو ، ساروا على نسق العلاقات الوطيدة التي توجد بين الأفراد الذكور في العائلة ، وكان أهم تلك العلاقات هي العلاقة بين الأب والابن . وكان المفروض أن هذه العلاقة يجب أن تكون الأصل للعلاقة بين الامبراطور والكائن الأعلى من ناحية وبين الامبراطور وشعبه من ناحية أخرى . وفي هذا العصر نشأ اللقب الامبراطوري « ابن السماء » فقد كان الامبراطور في مركز الابن للكائن الأعلى ، ولكنه في الوقت ذاته كان في مركز الأب بالنسبة الى شعبه ، وكان المفروض أنه يقوم ازاءهم بواجب الأبوة المزدوج وهو تربيتهم واعالتهم في رحمة ورفق ، واجبارهم على التحلى بالخلق الحسن . وكانوا يصرون أيضا على وجود علاقة عائلية ثابتة اصرارا قويا ، وهي العلاقة التي تخلقها فوارق السن بين الأجيال المختلفة وبين الأخ الأكبر والأخ الأصغر ، فعلى الصغار أن يحترموا ويطيعوا من هم أكبر منهم ، ونرى انعكاس ذلك في سلوك وواجبات المراتب المختلفة من النبلاء تجاه بعضهم البعض . وأخيرا ، كانت هناك صلة أخرى وهي صلة لا شأن لها بالعائلة وهي صلة المعونة المتبادلة والثقة التي تفرضها الصداقة التي يمكن اتخاذها كأساس للولاء بين الحاكم الاقطاعي وأتباعه من النبلاء .

وزاد عدد المدن في عهد أسرة شانج وكانت تنشأ واحدة بعد أخرى وقد استمر ذلك الاتجاه في عهد أسرة شو . كان نبلاء شو يسكنون المدن ، وكانت المدن محصنة ، ومركزا للإدارة ومكانا لتخزين الضرائب العينية التي يدفعها الفلاحون . وأصبحت المدن أيضا مراكز للتجارة ولصناعة الأدوات التي تحتاج

اليها حياة البلاط . وكان البلاط الاقطاعى مكونا من عائلة السيد ومن أتباعه الأرسوقراطيين ، ومن مستشاريه وموظفيه ، ولم يكونوا كلهم من أصل نبيل . وأصبحت تلك المدن مراكز للعلم والترف ، وكانت عوناً وباعثاً جديداً على تقدم المدينة .

ولم تتغير نظم حياة الفلاحين حتى تحت حكم أسرة شيو على الأرجح الا قليلا عما كانت عليه في أيام شانج . ولكن التنظيم النظرى لدولة شو شمل أيضا قرى الفلاحين ، ووضع لها تنظيمات وتحديدات معينة . وليس في استطاعتنا أن نقول آكان نظام العائلات الثمانى الذى ورد وصفه في المؤلفات قد نفذ بالفعل أو لم ينفذ ، ولكنه كان بكل تأكيد مثلاً أعلى لهم . ويقضى هذا النظام بأن ثمانى عائلات من الأقارب تشيد مساكنها حول بئر يتوسطها ، وكانوا يقسمون الأراضى الزراعية التى حول القرية الى ثمان حصص متساوية في مساحتها وقيمتها ، تعطى كل حصة منها الى عائلة ، وكانوا يتناوبون امتلاك هذه الحصص بين حين وآخر لتكون هناك مساواة تامة في الفرص . والى جانب هذه الحقول الثمانية كان هناك حقل تاسع أصغر مساحة من الحقول الأخرى يزرعه أهل القرية مجتمعين ويعطى محصوله للسيد الاقطاعى . ومن الواجبات الملقة على عاتق الفلاحين العمل في اصلاح الطرق دون أجر ، وكذلك العمل في التحصينات وفي الأشغال العامة الأخرى ، ومن بينها تشييد القصور للسلالة الاقطاعيين . وفي وادى النهر الأصفر ، الذى كان وما زال قلب الامبراطورية ، شملت الأشغال العمومية المشروعات العظيمة الخاصة بالرى وحماية البلاد من خطر الفيضان ، وكانت الحاجة الى التنظيم والتعاون في هذه المشروعات من الأمور التى قوت سلطة الحكام .

وقضى الشو على آخر ما بقى بين الصينيين من نظم سلطة الأم ، وأسسوا نظاما يقضى بأن يرث الابن الأكبر أباه . ففى خلال عهد شانج كان الميراث يؤول الى الأخ من أخيه قبل أن يتحول الى الابن ، وطالما كانت نتيجة ذلك هى

الاغراء بقتل الاخوة ، والمنازعات العائلية . وكان مجتمع شو مقسما الى طبقات ، وكان النبلاء مقسمين الى خمس مراتب حسب أهمية المناطق التي يحكمونها ، وكان النبلاء من جميع المراتب الخمس يحصلون على اقطاعياتهم من الملك مباشرة لا من النبلاء الآخرين الذين كانوا أسمى منهم كما كان الحال في النظام الاقطاعي الأوروبي . وفي التنظيم الأول للامبراطورية حرص أباطرة شو على تسهيل الانتقال من النظام القديم ، وذلك بتشييتهم معظم العائلات الحاكمة في حكم اقطاعياتهم الوراثية ، ولكنهم كانوا يعزلون أى شخص منهم يثبت عدم كفايته أو أن يكون غير أهل للثقة ، ويعطون اقطاعيته الى شخص آخر كان في أغلب الحالات من أقارب الامبراطور .

ويلى النبلاء جماعة من موظفى البلاط والاداريين الذين كانوا يعتمدون اعتمادا مباشرا على الملك لأنهم كانوا يحصلون على دخلهم كمرتبات ، أو من الضياع التي كان يمنحها لهم . ويلى أولئك الموظفين بورجوازية قليلة العدد من التجار والصناع المحترفين المهرة ، في حين يأتى في آخر الصف الفلاحون بجموعهم الكبيرة .

وكان هناك فاصل واضح المعالم بين النبلاء والعامه . فكان النبلاء وجدهم هم الذين يلتحقون بالمدارس العليا ويتلقون تعليما كاملا في الفنون العقلية الستة التي كانت ذات قيمة خاصة في ذلك العهد ، وهى : الشعائر الدينية ، الموسيقى ، الرماية ، قيادة العربات ، الرياضيات ، والكتابة . وبالرغم من أن أباطرة شو افتخروا بفتحهم المدارس للعامه فان التعليم في تلك المدارس كان مقصورا على التعليم الضرورى لحياتهم اليومية . ولكن مع هذا التحديد في اتاحة الفرصة ، فهناك براهين كثيرة على أن كثيرا من الموظفين والقائمين على ادارة البلاد كانوا من العامة ، وقد زاد هذا الاتجاه كلما اتضحت عيوب انتقال الوظيفة عن طريق الوراثة . وأهم ميزة تمتع بها النبلاء كانت الحصانة من قانون العقوبات . ويقول أحد الأمثال التي ترجع الى ذلك العهد : « ان الشعائر

الدينية لا تنزل الى مستوى الشعب كما أن قانون العقوبات لا يرتفع الى مستوى النبلاء . فالنبيل لا يمكن أن يقتل اذا اقترف أى جريمة ، ولكن اذا ثبتت اداته في جريمة كبيرة كانوا يضطرونه لينتحر بيده . أما عامة الشعب فكانوا معرضين لأن يوقع عليهم قانون عقوبات صارم ، ويوقع العقاب عليهم سواء في أشخاصهم أو في ممتلكاتهم .

وفي مقابل ما كان يقدمه عامة الشعب من أعمال السخرة ودفع الضرائب كان النبلاء يتعهدون بالدفاع عن رعاياهم وفي القيام بأداء ما يلزم من العلاقات الودية المنظمة مع تلك القوى التي هي فوق قوى الطبيعة التي يعتمد عليها رخاء ورفاهية الولاية . وكما كان الحال في عهد أسرة شانج كان النبيل من أى فئة من الفئات يقدم القرابين للكائنات التي في منطقتة ولبعض أسلافه هو ، وكان عددهم يتوقف على مركزه . كان الامبراطور يقدم القرابين لسبعة من أسلافه والنبيل الذي ينتمى الى أرفع الفئات يقدم الى خمسة فقط وهكذا . أما القرابين التي تقدم الى السماء ، وهي أعظم أنواع القرابين جميعا ، والتي كانت تتوقف عليها رفاحية الامبراطورية كلها ، فكان الامبراطور وحده هو الذي يمكنه القيام بتقديمها ويتحتم عليه أن يستخدم أدوات طقسية خاصة ؛ وهي الأواني الامبراطورية ذات الأرجل الثلاث .

وفي القرون الأخيرة من عهد شو عندما تضاءلت السلطة الزمنية للامبراطور حتى كادت تتلاشى ، فان امتلاكه لهذه الأواني كان يعطيه الحق في استخدام اللقب الامبراطوري وأن يقوم بأداء وظيفة تقديم القرابين الامبراطورية . واتفق بعد ذلك أنه لا يمكن السير على النظام السياسي المركز الذي وضعه مؤسسو أسرة شو ، ويرجع السبب في انهياره الى عوامل متعددة . فقد وضع النظام الأصلي مسؤوليات أكثر من اللازم على عاتق الامبراطور ، بينما كانت القواعد الصارمة التي تحدد من يخلفه في الملك قد جعلت أمر شخصية

الامبراطور الجديد شيئا في يد القدر ، وكثيرا ما كان هذا النظام سببا في أن يتولى العرش أباطرة ضعفاء أو شريرون .

وكانت الامبراطورية معرضة لهجمات تشنها القبائل غير المتمدنة التي كانت في الشمال الغربي وفي الجنوب . ومع مضي الزمن أصبح نبلاء شو نبلاء عسكريين ينحصر اهتمامهم في الحرب دون شيء آخر . وكانوا شديدي الرغبة دائما في توسيع رقعة ممتلكاتهم على حساب جيرانهم الأضعف منهم ، كما كانوا شديدي الرغبة في حماية الامبراطورية من أي اعتداء أجنبي . وحتى عام ٧٠٠ ق . م . كانت جيوش شو ما زالت تسير على التنظيم القديم وهو أن يسير النبلاء الى الحرب وهم يقودون عرباتهم ويحيط بهم المشاة المسلحون بالأسلحة الخفيفة . ولكن جماعات الفلاحين الاقطاعيين التي كانت تساق الى القتال حلت محلها مع مرور الزمن جيوش ثابتة من الجنود المحترفين . وزاد ذلك من الأعباء التي على عاتق الفلاحين الذين أصبحوا في هذه الحالة مكلفين بدفع نفقات المنظمات العسكرية لسادتهم الاقطاعيين ، كما كانوا مكلفين أيضا بدفع نفقات بلاطهم ، وكان هناك عدد كبير من البلاطات في المدن المختلفة وكان كل منها يتنافس مع الآخر في الفخامة ومظاهر الفخفة . واستخدم السادة الذين كانت اقطاعياتهم قريبة من الحدود كثيرا من الجنود المرتزقة ، فأضاف ما كان يقوم به أولئك الهمج غير المتحضرين ، والذين لا يخضعون تماما للنظام ويميلون دائما الى القيام بأعمال النهب ، شيئا كثيرا الى متاعب عامة الشعب . وتكررت ثورات الفلاحين ، وكان من أسبابها التي ورد ذكرها كثيرا ، ما تحدثه حفلات صيد النبلاء من تخريب للحاصلات وغيرها من الممتلكات ، وفي هذا دلالة على أن نبلاء شو كانوا يمتلكون مناطق شاسعة لأجل الصيد ومطاردة الحيوانات ، مثل أمثالها التي كانت للمغول فيما بعد .

وتحت ضغط الحروب المستمرة مآل النبلاء الى ترك التعليم وتركوا الادارة المدنية في أيدي جماعة ناشئة من « العلماء — الموظفين » المحترفين .

وهكذا أصبح التعليم الذى كان احتكارا لطبقة النبلاء من الأمور المباحة للامة. وافتتحوا فى مدن كثيرة مدارس تعلم جميع العلوم الرفيعة ما عدا الرماية وفن قيادة العربات. وكانت وظيفة المستشار السياسى للحكام الاقطاعيين من الوظائف المربحة ، وكان العامة الذين درسوا التاريخ وتعلموا المهارة السياسية يبحثون عن رعاية أحد الحكام لهم ، وكان مما يتفق تمام الاتفاق مع فكرتهم عن الشرف أن يتركوا ولاياتهم التى ولدوا ونشأوا فيها ، ويقبلوا خدمة أى نبيل يدفع لهم بسخاء. كان فلاسفة القرنين السادس والخامس قبل الميلاد مثل «كونفوشيوس» و «منكيوس» وغيرهما من تلك الجماعة ، جماعة العلماء — الموظفين ، ويمكننا أن نفهم بسهولة ما كان يشغل أذهانهم فى نظمهم الفلسفية ازاء المشاكل الاجتماعية والسياسية اذا وضعنا فى أذهاننا نشأتهم وحياتهم الأولى.

ويلوح أن حالة الحرب المستمرة وعدم الاطمئنان وقبول الكثيرين من غير المتدينين فى المجتمع الصينى أضعفت العقيدة فى مفعول الطقوس القربانية القديمة. ولما كان أداء تلك الطقوس ، من الناحية النظرية على الأقل ، هو العمل الأساسى للامبراطور فقد كان ذلك أيضا من أسباب ضعف السلطة المركزية .

وما وافى عام ٧٠٠ ق. م. حتى انقسمت الامبراطورية الى أربع عشرة ولاية تتنازع فيما بينها ، وأصبح مركز امبراطور شو شيهها بمركز الامبراطور الرومانى المقدس فى أوروبا فى العصور الوسطى . كان له صيت ذائع كبير ولكن ليس لديه الا سلطة فعلية ضئيلة ودخل ضئيل ، وانحصرت السلطة السياسية للامبراطور فى ولاية واحدة ، وكانت ولاية صغيرة نسبيا ، وهى التى كان حاكما لها بحكم التقاليد ، وانحصر دخله فيما يدفعه فلاحو تلك الولاية من ضرائب .

وليس هناك ما يدعونا الى شغل أنفسنا بأسماء تلك الولايات الأربع عشرة ، أو تلك التغييرات السريعة فى مصائر بيوتها الحاكمة . وفى عام ٤٦٨ ق. م .

وهو بداية العصر الذى يعرف عادة باسم عصر « الولايات المتحاربة »^(١) ، لم يبق من الاقطاعات الأصلية لامبراطورية شو الا ثلاث فقط ، أهمها ولاية « تشى » (Ch'i) فى شمال ووسط الصين . استتمت هذه الولاية بعهد من القوة والرخاء تحت حكم ولاة عقلاء أنشأوا نوعا من رأسمالية الدولة وذلك بامتلاك الحكومة لمناجم الفحم والحديد وفرض الرقابة على التجارة . وفى الشمال الغربى كانت توجد ولاية « تشين » (Ch'in) وكانت ولاية جديدة أكثر سكانها من الهج من غير المتحضرين وهى أقوى الولايات ، أما فى الجنوب فقد كانت هناك الولاية التى نشأت حديثا وهى ولاية « تشو » (Ch'u) التى كانت تشغل الجزء الأوسط من النهر الأصفر والتى كانت تمد سلطانها شمالا وتحاول أن تجعل الصين كلها تحت حكمها . وكان فى ولاية « تشو » — شأنها شأن ولاية « تشين » — عناصر أجنبية قوية أتت إليها من القبائل الجبلية الجنوبية .

وفى القرن الرابع ق . م . على وجه التقريب بدأت ظاهرة جديدة . كانت قوة جيوش الصين قبل ذلك الوقت راجعة الى العربات المسلحة ، ولكن الولايات الشمالية الغربية بدأت فى استخدام الخيل ، ومن المحتمل أن هذا العصر شهد فى منطقة الاستبس على الأرجح ، تطور الأساليب الفعالة فى استخدام الخيل فى الحرب . فان الجمع بين السرج الخشبي ، والركاب ، والقوس المركبة ، والفرسان المدربين الذين كان فى قدرتهم الهجوم فى صف واحد وفى الوقت ذاته يحسنون المناورة ، كان الجمع بين كل هذه الأشياء تجديدا فى فن الحرب ، وكان له أثر ثورى مثل اختراع السيارة المصفحة أو الطائرة فى العصور الحديثة ، فغير توازن القوى على طول حدود الصين التى تواجه مناطق الاستبس .

(١) التاريخ الأصح لبداية عصر الولايات المتحاربة هو عام ٤٨١ ق . م . واستمر حتى عام ٢٥٦ ق . م . (المترجم)

كانت العرب الحربية أداة باهظة التكاليف ، وكانت صعبة في صناعتها كما كان الاحتفاظ بزوج من الجياد اللازمين للعربة مشكلة كبيرة في المناطق التي يقوم اقتصادها على الزراعة فقط . كان للولايات الصينية المنظمة جيدا فائض اقتصادي يساعدها على انشاء قوات كبيرة من سلاح العربات والاتفاق عليها ، أما البدو فكانت تنقصهم المهارة والموارد المادية لانشاء مثل هذا السلاح .

كانت العربات المسلحة سلاحا لا يمكن أن يقاومه أو يقف أمامه جنود المشاة أو خيالة غير مدربين ، ولم ينجح الهج غير المتحضرين في غزواتهم الا في أوقات الاضطرابات السياسية . ويمكن للبدو الذين يعيشون على رعى الحيوان أن يقوموا بقليل من المال بصنع الأدوات اللازمة لركوب الجياد ، كما أن حياة الرعاة تتيح لهم فترات راحة طويلة ، ولا تحتاج صناعة الأقواس المركبة والسروج الخشبية الى أى معدات لا يمكن نقلها عند انتقال المعسكر كله من مكان الى مكان . وبعد ظهور معدات ركوب الخيل أخذت شعوب الاستبس تغزو جيرانها المستقرين وقتما شاءوا ، وكانت الصين أول من تلقى الصدمة الناشئة من تلك الهجمات ولكن لم تمض الا قرون قليلة حتى ركمت أوروبا ، حتى فرنسا في الغرب ، على ركبتيها أمام فرسان الهون .

وعندما أخذ الجنود المرتزقة من الشعوب غير المتحضرة يجدون طريقهم الى الجيوش الصينية ، اتخذت الحروب الصينية طابعا جديدا خطيرا وزاد سفك الدماء . كان السكان الذين يقيمون في المدن المحصنة ، وهم الذين كانوا مركز القوة في الدفاع الاقطاعي ، يخشون من المقاومة الشديدة خوفا من المذبحة المنظمة التي كانوا يعاقبون بها المدن التي تشتد في المقاومة ، وذلك بعد استيلائهم عليها . وكذلك كان الشأن مع الجنود المأسورين . كان الأسرى في العصور السابقة يتركون أحرارا في العادة عند نهاية المعركة ولا يصيبهم شيء أكثر من علامة تحقير مثل صلم إحدى الأذنين ، ولكنهم الآن كانوا يقتلون جميعا لاضعاف قوة الرجال المدربين الذين كانوا تحت تصرف العدو . وقد

احتفظت الوثائق الصينية ببيانات دقيقة عن عدد الرؤوس التي قطعت ، ويقال انه بعد الاستيلاء على مدينة « تشا نجينج » (Ch'angping) قطعت رؤوس ٤٠٠.٠٠٠ شخص . وربما كان في هذه الأرقام شيء من المبالغة ، ولكن لا شك في أن الاستمرار في ازهاق الأرواح يحتم القضاء على الكثير من السكان ويفتح الباب أمام تدفق المهاجرين من الجيران غير المتحضرين . ولما كان الاقتصاد الصينى يعتمد اعتمادا كبيرا على وجود عدد كبير من الفلاحين الذين يدفعون الضرائب فمن الجائز جدا أن الحكام الاقطاعيين كانوا يشجعون هذه الهجرات ، وسرعان ما كان يتحضر أولئك المهاجرون الجدد ولهذا لم يكن لذلك أى تأثير ذى قيمة على المدنية الصينية .

وبالرغم من جينج المصائب التي حلت بالبلاد ، أو ربما بسببها ، فإن الوقت السابق مباشرة لعصر الولايات المتحاربة كان وقت ازدهار ثقافى منقطع النظير . فزادوا من انشاء المدارس الخاصة التي كانت تعمل جنبا الى جنب مع المدارس التي كانت ترعاها الدولة ، وفي أحيان كثيرة أخذت كل اختصاصاتها، وسمحوا للعامة بالالتحاق بتلك المدارس فأثمرت مجموعة من المتعلمين المثقفين التي تعتبر بحق أعظم ما ظهر من نوعها في أى مكان في العالم القديم . كان جميع أولئك الجهابذة معينين بالمشكلة العملية ؛ وهى ايجاد وسيلة للتخلص من الآلام التي جلبها سوء الادارة الحكومية ، تلك الآلام التي جعلت الحياة غير محتملة . ووجد كثير من الفلاسفة كثيرا من الحلول ، وأهمها النظم التي وضعها « كونج فوتسو » (K'ung Fu Tzu — كونفوشيوس) و « لاوتسو » (L'au Tz) و « موتسو » (Mo Tzu) . واستطاع الأولان منهما أن يتركا أثرا عميقا في الحضارة الصينية وخصوصا مدرسة كونفوشيوس التي كانت مسئولة مسئولية مباشرة عن تغير كثير من النظم الحكومية بفضل تعصيد الحكام لها . ويصعب على العالم الأوروبى الذى لا يستطيع قراءة العلامات الصينية أن يرى صورة واضحة لهذه الفلسفات ، فان اختصار الجمل اختصارا

شديدا يكاد يجعله شبيها بالمراسلات التلغرافية التى تبدو غير واضحة المعنى فى بعض الأحيان ، وكثيرا ما يجد الانسان تفسيرات مختلفة فيما كتبه العلماء الصينيون أنفسهم لتلك النصوص القديمة .

نشأ « كوفوشيوس » فى شمالى الصين ، وكان مقر مدرسته التى أنشأها فى ولاية « لو » (Lu) التى كان يحكمها فى ذلك الوقت حكام من أسرة شو . كان « كوفوشيوس » أعظم علماء عصره ، وكان يهتم اهتماما كبيرا بدراسة أحداث التاريخ ويعتقد اعتقادا جازما بأن الدولة المنظمة تنظيما صارما التى أسسها أول أباطرة شو كانت العصر الذهبى للبلاد ، فأعاد النظر فى وثائق ذلك العهد وجعلها وثائق مثالية ، وكتبها فى الصورة التى ما زالت حتى الآن بين أيدينا . كانت تعالينه تستهدف ناحية خلقية ، ولكنها خلت خلوا تاما من تأثرها بالقوى التى فوق قوى الطبيعة . ومن الصعب ترجمة آرائه ترجمة دقيقة الى لغات أخرى ، ولكننا نعرف تماما أنه كان يؤمن بأنه توجد جاذبية طبيعية بين الأشخاص ، نجدها واضحة جدا بين أفراد العائلة ، ومن الممكن أنها تمتد حتى تشمل الجنس الانسانى بأكمله . ولكى نضع هذه الجاذبية موضع التنفيذ كان من الضرورى وضع تعريف دقيق صحيح لما سماه « الأسماء » اذ أن هذا التعريف يعنى فى الفلسفة الكوفوشية ما يذكرنا بالأشياء الكاملة فى الفلسفة الأفلاطونية . كانوا ينظرون الى « الأسماء » بأنها حقائق موجودة فى عالم الآراء .

وتقابل هذه « الأسماء » من وجهة نظر عالم الاجتماع الحديث الجمع بين المركز الثابت ودوره المقترن به ، أى ان « الاسم » يتكون من فهم المركز الصحيح لأى جماعة معينة من الأشخاص فى الكيان الاجتماعى ، ومن معرفة ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات تسير جنبها الى جنب مع ذلك المركز . وفسروا الجزء الثانى بأنه قواعد السلوك وبذلك سهلوا تعلمها تعلمًا موضوعيا وبطريقة آلية . فاذا أحسن شخص من الأشخاص فى أداء دوره فان ذلك يقوى

من مركزه الثابت . فرئيس الوزراء الذى يؤدى واجبات وظيفته كما يجب ، هو وحده الذى يمكن أن يسمى رئيس وزراء . وكذلك الامبراطور ، فهو كقرد من الأفراد كان له الحق فى أن يعتبر ابنا للشمس ، ولكن طالما كان قائما بتأدية دوره الامبراطورى على الوجه الصحيح ، فاذا قصر فى ذلك أصبح ، لا من حق الرعية فحسب ، بل من واجبا أن تنحيه من عمله ، وأن تبحث عن شخص آخر ليجلس على العرش الامبراطورى . ولما كانت رفاهية الامبراطورية تعتمد على رضا السماء فان فشل الامبراطور فى أداء واجباته تسبب عنه سلسلة من المصائب التى تلحق بالناس ، وعلى العكس من ذلك فان حق خلفه فى تولى الوظيفة يظهر فى نجاحه فى إعادة النظام والرخاء . والكونفوشية فلسفة فريدة بين الفلسفات التى ظهرت قبل القرن الثامن عشر ، وهو ذلك العصر المستنير الذى حفظ للرعية حقها فى الثورة .

وكان « كونفوشيوس » ، من الناحية العملية شخصا مجبا للتدقيق وصرف معظم جهوده فى ايضاح الأدوار الاجتماعية المختلفة . وكان مجبا للتجوال ، كغيره من العلماء المشتغلين بالادارة فى ذلك العهد ، ويذهب من بلاط الى آخر بحثا عن حاكم يرغب فى وضع نظرياته موضع التنفيذ . وأخيرا عين « كونفوشيوس » فى وظيفة حكومية صغيرة فى ولاية « لو » ، ويقال عنه انه فى أواخر أيامه فى بلاط « لو » صحب حاكمه فى احدى الأسفار وأبدى ملاحظة بأن سير الركب يشل حالة الشئون الدنيوية : فاللباهة والرذيلة (ويقصد بذلك الحاكم ومحظيته المفضلة) فى المقدمة ، والحكمة والفضيلة (أى كونفوشيوس) تسير بعيدا فى الخلف .

ودخلت بعض التعديلات فى تعاليم مدرسة « كونفوشيوس » على يدى اثنين من تلاميذه وهما « منكىوس » (Mencius) - و « شين تسو » (Hsün Tzu) اللذان اتفقا على رأى الأصلى فيما يختص بـ « الأسماء » ولكنهما اختلفا اختلافا تاما فى موضوع الأخلاق ، أهى مطابقة للطبيعة أم لا .

ومن هنا اختلفا على فعالية « الجاذبية » بأنها القوة الدافعة في السلوك الطيب . كان « منكوس » يؤمن بالخير الغريزي في الطبيعة الانسانية ، وكان الفرد ، حسب رأيه ، اذا تركوه وشأنه يتجه نحو الخير بطريقة آلية كما تسيل المياه منحدره على جوانب التل . ولهذا عارض أتباعه بشدة جميع أنواع الاجبار الاجتماعي . أما « شين تسو » (Hsün Tzu) فكان يعتقد أن الطبيعة الانسانية في جوهرها ليست حسنة وليست سيئة ، وكان يعتقد أيضا أن الاستقامة ليست الا عادة يمكن الحصول عليها فقط من تكرير السلوك الحسن ، وبذلك يكون هذا الفيلسوف هو أول شخص نادى بما نقول به مدرسة علم النفس الخاصة بالشخصية عن « نظرية التعليم » . وتنشأ مع هذه النظرية فقد شك « شين تسو » أيضا في أفضلية العصور الماضية . وكان من رأيه أن تقدم المجتمع لم يكن الا عملية تقدمية يستطيع الحكماء المعاصرون أن يفهموها جيدا وأن يقودوها خيرا من غيرهم .

وفي العصر المتأخر من أسرة هان قبلوا الفلسفة الكونفوشية بعد تقلبات مختلفة قبولاً ظاهرياً كمرشد في تنظيم الامبراطورية . وهناك قصة ، ربما تكون قصة لا أصل لها ، وهي أن أحد أباطرة أسرة هان ، وكان قد أحس أن قوة النبلاء الاقطاعيين قد أخذت تزايد ، وأنها أخذت تسبب له المصاعب أثناء حكمه ، بعث في طلب أحد العلماء الكونفوشيين وسأله كيف يتحاشى ضرر هذه الجماعة . ويقال ان العالم أجابه :

« اسمح لهم بأن يقسموا ممتلكاتهم بالتساوي بين أبنائهم » . وأعجب الامبراطور اعجابا كبيرا بما في هذه النصيحة من حكمة الى درجة جعلته يقرر الكونفوشية فلسفة رسمية للدولة .

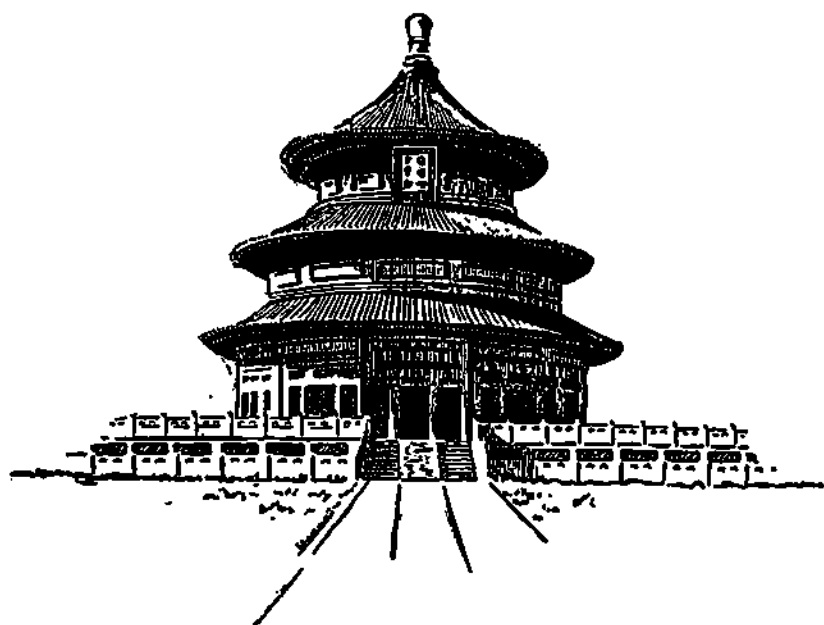
وحتى لو صحت هذه القصة ، فليس في مقدور حادث واحد أو عطف رسمي أن يفسر لنا الطريقة التي جعلت الفلسفة الكونفوشية قادرة على السيطرة على التفكير الصيني قرابة ألفي سنة ، وربما كان مفتاح حل تلك المعضلة

هى تلك الميزة فى الخلق الصينى التى سماها «فرانسيس شو» (Erancis Hsu) «حالة موجبة». فطبقا لهذا التحليل العميق نجد أن الشخص الصينى العادى حريص على فهم معظم الحالات أو المواقف التى يجد فيها نفسه وأن يلائم سلوكه معها ، ورغبته فى أن ينجح فى تلك الملاءمة تجعله يضعها فوق أى قيمة مجردة . والفلسفة الكونفوشية ، بما فيها من تعريف صريح للحالات الثابتة والأدوار التى تتعلق بها توضح المواقف الاجتماعية التى تلعب دورا هاما فى حياة أى فرد ، وتمده بأساليب خلقية جاهزة ليستخدما فى تلك الحالات .

أما فلسفة «لاوتسو» (Lao Tzu) فهى تتعارض مع فلسفة «كونفوشيوس» فى كل نقطة تقريبا . ففى الوقت الذى نجد فيه مدرسة «كونفوشيوس» تركز جهودها على العلاقات الانسانية ولا تمتدح القوى التى فوق قوى الطبيعة الا بمناسبة اصرارها على وجوب أداء الطقوس على الطريقة الصحيحة ، نجد أن مدرسة «لاوتسو» تتجاهل العلاقات الانسانية وتركز جهودها بدلا من ذلك فى فهم الكون ، ويشمل ذلك فهم مظاهره التى يمكننا اعتبارها قوى فوق القوى الطبيعية . وحيشا تبحث المدرسة الكونفوشية بصفة دائمة عن تعريفات أوضح وأسهل لما فيها من آراء ، وكان مثل هذا البحث يحتم الاشارة بالعلم وبخاصة دراسة التاريخ ، نجد أن مدرسة «لاوتسو» تنجح الى التأمل وفحص النفس وتقع بترك أفكارها الأساسية فى صورة غامضة وتبحث عن الرد على المشاكل بطريقة الالهام أكثر من بحثها عنها فى دراسة السوابق .

ومن الحقائق الهامة أن هذه المدرسة ، وتعرف عادة باسم «الطاوية» ، نشأت فى جنوبى الصين وكانت على ما يظهر محاولة لتنظيم الآراء والعقائد التى كانت سائدة قبل ذلك فى تلك المنطقة . ومن المرجح أن الطاوية تطورت عن عبادة الطبيعة التى كانت منتشرة هناك وعن الاعتقاد غير المنظم فى القوى التى فوق قوى الطبيعة ، وذلك فى الوقت الذى سبق ظهور الصين كبلد له وحدة سياسية . ودخلت فى هذه الديانة عناصر شعبية كثيرة كثرة تجعلنا

لا نعرف على وجه التأكيد آكان « لاوتسو » نفسه شخصية حقيقية أو لم يكن .
 فهناك عدد كبير من الآلهة الطاوية وبعضها كائنات ذوات قوى فوق قوى
 الطبيعة مثل ملك السماء والهة الرحمة . وقد ساووا بين الهة الرحمة — وكانت
 تسمى « شى وانج مو » (Hsi Wang Mu) — وبين احدى القديسات البوذيات ،
 كما ساووا بينها فى بعض الجهات التى انتشرت فيها المسيحية ، وبين السيدة
 العذراء . والآلهة الطاوية الأخرى ليسوا الا أبطالاً أسطوريين قدماء . فاله
 الحرب الطاوى هو أحد القادة المشهورين الذى عاش ومات فى القرن الثالث
 الميلادى . ومن الأمور الجديرة بالاهتمام أن يفكر الانسان فيما اذا كانت
 الصوفية الطاوية والصوفية الهندية لا ترجعان الى أصل ما فى الحضارة
 المشتركة فى جنوب شرقى آسيا ، لأن تلك الحضارة كانت ذات أثر على كل
 من الديانتين .



معبد السماء ، فى بكين

والفكرة الأساسية في فلسفة « لاوتسو » أن الكون في حالة مستمرة من التغير والتعديل في داخل ميدان القوة التي كونها عنصران متعارضان وهما الـ « ين » (Yin) (الأتني) والـ « يانج » (Yang) (الذكر) ، ولم ير الحكيم الصيني أن هذين العنصرين كانا في صراع بل كانا متوازنين كقطبين متعادلين في مغناطيس واحد . كان كل منهما مبهما غير شخصي ، ولا يعنى بالمبادئ الخلقية .

وكانت الفكرة التي تنص على أن الكون ليس الا ميدان حرب بين « هرمز » (Ormuz) و « وأهرمان » (Ahriman) أو بين الاله والشیطان لدى المسيحيين ، والمطلوب من كل انسان أن يختار أحد الجانبين ويأخذ مكانه بين الصفوف لمحاربة عدوه ، فكرة غريبة وبعيدة تماما عن الفلسفة الطاوية . كانوا يرون في الين واليانج أنهما كانا عادة في حالة توازن يمكن اطلاقه لفترة مؤقتة ، والرجل العاقل هو الذي يتخذ الطريق الوسط أو « الطاو » ، الذي يمكن أن تتضح معالمة أمام الانسان نتيجة للتأمل ، وعلى الأخص بين أحضان الطبيعة غير متأثر بالنشاط الانساني . والرسوم الصينية النموذجية للمناظر الطبيعية ، بما فيها من جبال ومسقط للمياه وأشجار كبيرة ، وفي مكان منزو منها نجد رجلا مرسوما في حجم صغير وهو جالس يتأمل انما تعبر خير تعبير عن تلك الفكرة الطاوية . فأمام الطبيعة وقواها العظيمة يحس الانسان بأنه صغير حقا ، واذا أراد أن يتخذ طريقا رشيدا فعليه أن يفهم تلك القوى حتى يتجنب الاصطدام بها .

وأدارت الطاوية ظهرها الى النشاط السياسي كنتيجة منطقية لنظرياتها ، ونصحت الفرد بأن يبحث عن سلامته واطمئنانه في عودة تأملية الى أحضان الطبيعة وأن يمتنع عن العمل لئلا يزعج توازن الين — يانج . ولم يهتم المذهب الطاوي الأصلي بالعلاقات الاجتماعية ، ولكن في بلد كالصين حيث كان التفكير الفلسفي يتحول في النهاية الى مشاكل الحكومة وجد الطاويون أنفسهم

مضطرين لتغيير نظرياتهم في هذا الميدان . كانت نظرة الطاوى الى الطبيعة هى الأساس الذى قامت عليه فكرة الرجل الطيىمى ، وبعبارة أخرى الرجل السعيد . كان هذا الشخص رجلا ذا عظام كبيرة وعضلات قوية ورأس فارغ ، وهى صفات مطلوبة فى رعايا أى دولة أوتوقراطية . وكان واجب الحاكم يحتم عليه أن يتأكد من أن رعاياه يطعمون على خير وجه ، ويقومون بالعمل بصفة مستمرة ، وأنهم دائما فى حالة بلادة فائقة . ويجب على الحاكم ألا يعلمهم أو ينبههم من غفلتهم ، وذلك لمصلحته ومصلحة الفلاحين أنفسهم . ويجب ، قبل أى اعتبار آخر ، أن يحرم على ذلك الشخص أن يعمل فى الحكومة أو يفهم كيف تسير دفة أمورها ، وقد لقيت هذه المبادئ بطبيعة الحال معارضة شديدة من المدرسة الكونفوشية .

كانت الطاوية القديمة لا تهتم الا بالعالم الذى تمش فيه ، وكالكونفوشية لم يكن لها قانون واضح عن موضوع الحياة بعد الموت ، ولكن شيئا غير واضح المعالم من عقيدة وحدة الوجود فى تلك الديانة مسح بوجود كائنات ذات قوى خارقة وفوق قوى الطبيعة دون تحديد لصفاتها . ومع كل ، فإن غموض التعاليم الطاوية تركت الباب مفتوحا لتدخلها وتصبح جزءا منها جميع أنواع الخرافات الشعبية ، فدخلتها قوى الطبيعة كما دخلتها بسهولة الأرواح المحلية التى كانت معروفة منذ عصور ما قبل التاريخ . وكان من نتيجة ذلك وجود اعتقاد قوى فى الأشباح والشياطين ، وكانت دائما من الأرواح الشريرة ، واعتقاد بوجود حياة ثانية بعد الموت على نظام حياتنا الحالية . ولعب مبدأ « الحالة الموجهة » فى الخلق الصينى دوره فى الطاوية فى عصورها المتأخرة . فاذا قبل الشخص الصينى عقيدة الين — يانج فقد كان يرغب شديدة فى معرفة الحالة التى يكونان عليها فى أى وقت معين وفى أى مكان معين حتى يلائم سلوكه معها . وكانت النتيجة هى أن الطاوية المتأخرة أصبحت ملاذا للسحرة والعرافين من جميع الأنواع ، وتحت تأثير البوذية دخلت عليها أيضا

المظاهر الضرورية لديانة منظمة باقامة التماثيل ، والمعابد ، والطقوس الرسمية والكهنة بل والرهبان والراهبات .

ويرجع تاريخ مدرسة « موتسو » (Mo Tzu) الى نفس الوقت الذى نشأت فيه مدرسة « كوفوشيوس » ، ومبدؤها الأساسى هو مبدأ الجاذبية ، ولكنها أفكرت التدرج فى الجاذبية الذى يقوم على درجات القرابة التى نصت عليها الكونفوشية نصا قويا ، وأعلنت أن حب الشخص يجب أن يعم سواء بسواء جميع الجنس البشرى . وعلى تقيض المدرستين الآخرين ، كانت هذه المدرسة تؤمن بوجود الله بل تكاد تكون فى حقيقة الأمر مدرسة تقول بوجود اله واحد .

لم يكن القدر هو الذى يحكم الدنيا بل كانت تحكمه ارادة مدركة واعية لكائن أعلى . وفى تلك الديانة وجود لبعض الكائنات ذات القوى التى فوق الطبيعة ولكنها لم تكن ذات أهمية . وكان الموضوع الذى وجهوا اليه اهتماما خاصا هو حقيقة بئس الانسان بعد الموت وحياته مرة ثانية ، ولم يكن حب الانسانية الذى نادت به تلك المدرسة حبا غريزيا أو مكتسبا ولكنه كان واجبا دينيا . أما أتباع المدرسة فكانوا يؤمنون بالتقشف . وكان ينتظر منهم أن يضحوا بكل أنواع الراحة وأن تكون لذتهم هى خدمتهم للانسانية ، وفى الوقت ذاته مزجوا مع تقشفهم سلوكا عمليا وكانوا يقدرون قيمة الأشياء على أساس فائدتها ، ولهذا السبب حرموا تعليم الفنون وبخاصة الموسيقى . وعرف فلاسفة هذه المدرسة بأنهم كانوا شجعانا ومستشارين للأمراء يتفانون فى أداء واجبهم . وكانوا دائما ، حسب ما يقضى به مذهبهم ، على استعداد لتضحية أنفسهم من أجل خير الجماعة . وكان حبهم للسلام مظهرا من مظاهر عقيدتهم ولكنهم كانوا واقعيين وكانوا يفرقون بين حرب من أجل التوسع والاعتداء على الغير ، وحرب من أجل الدفاع عن النفس .

ويمكن عمل بعض المقارنات بين تعاليم هذه المدرسة وبين « الكويكر »

(Quakers) بالرغم من أن أتباع « موتسو » كانوا يعتمدون على المنطق الصريح ولم يعرفوا حالة الثوبات التشنجية التي امتاز بها الكويكريون في مبدأ حركتهم ، ولكن الطائفتين تتفقان في موضوع العلاقات المباشرة بين الانسان وبين الله ، وفي الواجب المفروض على الشخص في أن يهب كل نشاطه لخير الانسانية مع احتفاظه بموقفه الواقعي . ويمكننا أن نرى في موقف كل من الطائفتين تجاه حب السلام بأنه رد فعل طبيعي لما يتعرض له الناس من مصائب وآلام تصيب الأجيال بسبب قيام الحروب . ومما يثير الدهشة أن نتائج تعاليم « موتسو » بعد الفائها رسميا ظلت متبعة في عقائد جماعات بعيدة كل البعد عن حب السلام وهي جماعات الطوائف السرية التي كانت تشتهر من آن لآخر في الصين في أيام الاضطرابات ، وأحدث ما ظهر من هذا النوع كان في ثورة « التاينج » (Tap'ing) وفي ثورة « البوكسر » (Boxer) ، وربما كانت وجوه الشبه بين مذهب « موتسو » وبعض العناصر في الديانة المسيحية عاملا من العوامل التي سببت شك الحكومة الامبراطورية الصينية في المبشرين المسيحيين .

وعاشت الفلسفات الثلاث التي تحدثنا عنها جنبا الى جنب قرونا عديدة ، وكان لها تأثير كبير لا على النظم الصينية فحسب ، ولكن فيما بين بعض هذه الفلسفات وبعضها الآخر أيضا . وولد من اتصالها ببعضها عدد من الفلسفات الأقل شأنًا لم يكن لأي واحدة منها أى تأثير ذى أهمية على تطور الحضارة في الصين ، اللهم الا واحدة فقط وهي مدرسة المتقيدين بالقانون التي كان هدفها الأساسى تغيير الوسائل الفعالة لإدارة الدولة . وجربت مبادئها تجربة تامة في تنظيم دولة « تشن » (Ch'in) التي اتخذت بعد مرور قرون قليلة خطوة ناجحة في توحيد الصين التي أضعفتها حروب لا نهاية لها بين الحكام الاقطاعيين المتواهنين . كانت الفكرة الرئيسية التي يستهدفها المتقيدون بالقانون هي خلق حكومة بحكم القانون مع استبعاد جميع التدخلات والأغراض

الشخصية استبعادا تاما . ووجهوا اهتمامهم الى سن القوانين وتحديد معانيها بدقة حتى لا يجد الرأى الفردى سبيلا الى التدخل فى تطبيقها . وربما كانت هذه الفئة أقدم جماعة ظهرت فى أى مكان فى العالم تصر على مساواة جميع سكان الدولة أمام القانون ، وكان ذلك بدون شك تغييرا ثوريا اذا قارناه بالحصانة التى كان يتمتع بها النبلاء فى عهد أسرة شو حسبما جاء فى القانون الإمبراطورى . ونجح ذلك الحياد المطلق فى رأب ما كان فى ولاية « تشن » من تصدع ، وربط أجزائها بعضها ببعض ، وجعل منها قوة متماسكة فى وقت توسعها . ولكن عندما تم كل شئ وتأسست الأسرة الجديدة اختفت هذه الفئة بصفتها مدرسة بالرغم من أن مبادئها ظلت حية تحت قشرة سطحية من الفلسفة الكونفوشية . ومن الجدير بالذكر أن هذه الفلسفة استمرت بفترة قصيرة من الاحياء فى عهد الجمهورية الصينية فى أوائل القرن الحالى وذلك راجع الى حد كبير الى مشابهتها للمبادئ الأوروبية فى نظام القضاء .

ولم تستطع كل تأملات الفلاسفة أن توقف الفوضى التى أخذت تزداد يوما بعد يوم فى القرون الأخيرة فى عصر شو الاقطاعى . لقد استنفدت الحروب الدامية التى حدثت بعد استخدام الخيل فى القتال الكثير من عدد سكان البلاد ، كما أن عادة قتل الأسرى كانت سببا فى الاطاحة بعدد كبير من النبلاء . ولكن ، ولاية « تشن » التى كانت تقع فى الشمال من الجزء الأوسط من النهر الأصفر ، نجت من تلك الشرور . لقد حمتها سلسلة من الجبال من معظم ما تعرضت له من هجوم حربى ، كما كان يتولى شئونها عدد من الحكام والمستشارين امتازوا بأنهم سياسيون ذوو مقدرة عظيمة . فبالرغم من أن اخضاع الصين كلها لحكمهم فقد تجنبوا الحروب التى شكوا فى نتائجها واتبعوا سياسة ثابتة تستهدف تقوية الدولة باستغلال مواردها الطبيعية الغنية بما فى ذلك سكان البلاد . وكان معظم مستشارى الحاكم من المتقيدى بالقانون فغیرت ولاية تشن بفضل توجهاتهم من ولاية اقطاعية من النوع الصينى

العادى الى دولة تحب التوسع وذات مذهب جماعى فى الحكم من نوع عصرى يدعو الى الدهشة .

وكان أكثر سكان « تشن » من الهون غير المتحضرين الذين انحدروا الى هذه المنطقة من الاستيس ، وقد ساعد ذلك على تنفيذ مشروعات الحكام لاعادة التنظيم الاجتماعى . لقد ألقى ذلك التنظيم العائلة الكبيرة ونظام القرية ذات العائلات الثمان ، ولكن من المشكوك فيه أن تكون هاتان العادتان كانتا راسختين رسوخا كبيرا فى تلك الجهة . ومجوا تماما التمييز القديم بين فئات الناس الذى كان سائدا فى أيام الاقطاع مع تركيز كل السلطة فى الحاكم ومستشاريه . وكانت كل عائلة تعيش فوق حصة أرض معينة وكان عدد الحقول والمنازل والخدم ، حتى عدد الملابس المسموح بها لكل عائلة ، محددا تحديدا دقيقا . وكل عائلة فيها أكثر من اثنين من الذكور البالغين يتحتم عليها أن تنقسم الى عائلتين أو تدفع ضرائب مضاعفة ، وكانت الولاية كلها مقسمة الى مناطق يتولى كلا منها أحد الموظفين . وكانت العائلات فى كل منطقة منظمة فى جماعات اما من خمسة أفراد أو من عشرة أفراد ، فاذا اقترب عضو من الجماعة ذنبا عوقبت كل الجماعة من أجل هذا الذنب ، ولهذا كان كل منهم يراقب الآخر ويبلغ السلطات فى الحال عن أى تقصير أو خطأ .

وتتمتع الجيش بمكانة ممتازة ، وكان كل رجل عرضة للخدمة الحربية طول حياته ، وكان جميع الموظفين ضباطا فى الجيش وكانوا يكافئون بسخاء قواد المارك الناجحة والجنود الذين أظهروا شجاعة فائقة ، وفى الوقت ذاته يعاقبون من يفشل أو يجبن بالحكم عليه بالموت . وحرص المتقيدون بالقانون على أن تنفذ هذه القوانين بكل صرامة ، وكانت نقطة الضعف فى هذا النظام هى أنه لم يكن يكافئ الفلاحين ، بل كان يوقع عليهم العقوبات فقط . وفى استطاعة مثل هذا النظام أن يفرض الطاعة ولكنه لا يفرض الوفاء ، ولا يمكن أن يجلب الولاء . ولهذا فعندما تم لولاية « تشن » فى نهاية الأمر إخضاع

كل بلاد الصين في عهد أعظم حكامها ، وهو المعروف للتاريخ تحت اسم « شيه هوانج تى » (Shih Huang Ti) لم تطل مدة سيطرتها .

جمع « شيه هوانج تى » ما كان لأوغسطس قيصر من حسن ادارة ومقدرة في التنظيم وما كان لهتلر من حب العظمة . ومع مضي الزمن كان ما حققه من تقوية للصين وما وضعه من نماذج للحكم الامبراطورى في العصور التالية مكسبا حقيقيا ، ولكن اسمه ما زال يلعنه الصينيون بسبب افراطه في الملذات ، ولسبب آخر أهم من ذلك ، وهو محاولة تحطيم كل النظام العلمى التقليدى وادارة البلاد بواسطة العلماء . ورث ذلك الحاكم حكم ولاية « تشن » واستمر في التوسع الذى بدأه من سبقه من الحكام ، وكلما أتم اخضاع منطقة اقطاعية كان ينحى نبلاءها الاقطاعيين ويلحق المنطقة بأحد أقاليم الامبراطورية التى كانت تتسع رقعتها من عام الى عام . وعند انتهاء غزواته كانت الامبراطورية مكونة من ستة وثلاثين اقليما ، أضيف اليها أربعة أقاليم فيما بعد . وكان كل من هذه الأقاليم مقسما الى عدة مناطق لأسباب ادارية ، وقد ظل هذا النموذج العام في التنظيم مستخدما في جميع عصور التاريخ الصينى فيما بعد .

وامتاز تنظيم الصين الجديدة المتحدة بالتفريق الكبير بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية . كان شخص الامبراطور يجمع بين السلطتين ولكنهما ظلتا مفترقتين عن بعضهما في كل المراحل التى دون ذلك . كان رئيس الوزراء ، على رأس الادارة المدنية وكان اختصاصه ينحصر في الأمور الداخلية وادارة الحكومة ، وعلى رأس الجيش قائد لا سلطة له خارج الشؤون العسكرية ، وكان لكل اقليم ولكل منطقة عدد من الموظفين من كل من المدنيين والعسكريين وأخيرا ، كانت هناك هيئة ثالثة من الرقباء مستقلة تماما ، كان واجبها الوحيد مراقبة أعمال الموظفين المدنيين والعسكريين . وكانوا ينقلون الموظفين دائما من منطقة الى أخرى حتى يضمنوا اخلاصهم للحكومة المركزية اذ لم يسمحوا لأى موظف أن يبقى في أى مكان مدة طويلة حتى لا تربطه روابط خاصة

بالسكان المحليين ، وكانت السلطة المركزية حريصة بنوع خاص على أن يكون تعيين كل موظف في منطقة تبعد بقدر الامكان عن المنطقة التي تعيش فيها عائلة ذلك الموظف .

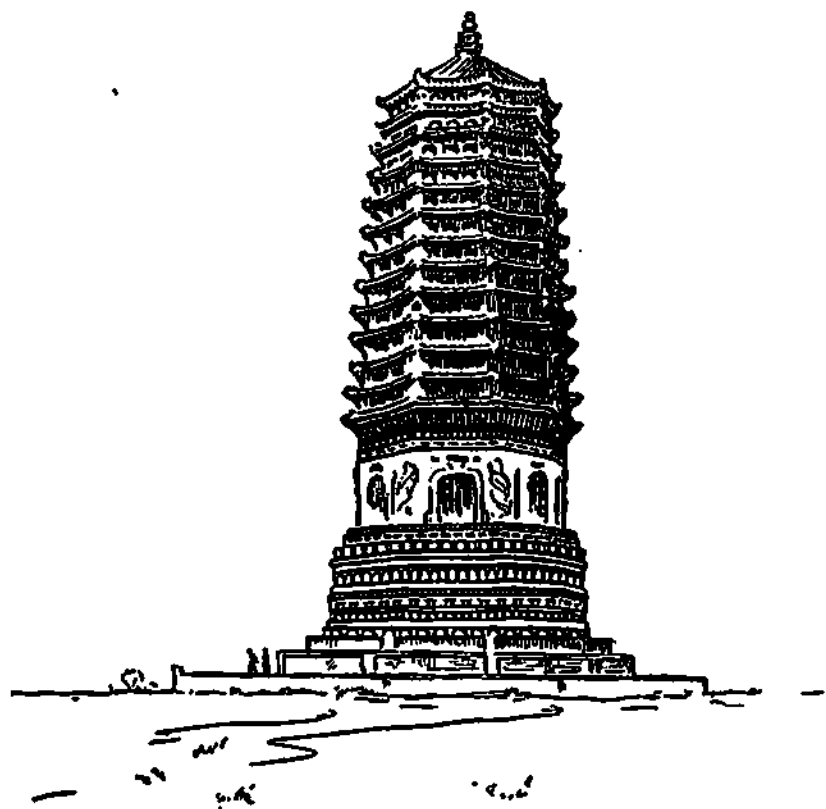
وفي عهد النظام الاقطاعي كانت توجد نظم محلية مختلفة ، كما كان الحال في أوروبا في العصور الوسطى ، اذ اختلفت من مكان لآخر وحدة مقاييس الأراضي ، والموازين والمكاييل ومقاييس العربات ، وكان للاخيرة منها تأثير كبير على النقل الى مسافات بعيدة في بلاد يتحتم نقل سلعها على طرق غير مهيأة ولهذا ترك فيها أثر العجلات حفرا عميقة على الجانبين . وبدأ « شيه هوانج تي » في عمل نظام موحد لجميع تلك الأشياء ، ووضع قانونا امبراطوريا واحدا ليحل محل جميع القوانين المحلية . وفي خلال العهد الاقطاعي تم وضع كثير من طرق الكتابة المحلية ، فاختار « لى سو » (Li Su) وزير « شيه هوانج تي » ثمانية منها وأضاف اليها من عنده طريقة تاسعة وأمر بأن تكون كل واحدة منها هي الطريقة التي تستخدم في كتابة جميع المؤلفات في أحد أنواع العلوم التسعة ، ولكن اختلاف اللهجة في أجزاء الصين المختلفة ، الذي يجعل التفاهم بينها مستحيلا في كثير من الحالات ، كان أكبر من أن تغلب عليه قدرة « شيه هوانج تي » بل وما زال هذا الاختلاف باقيا حتى الآن .

وكانت محاولة « شيه هوانج تي » في توحيد الفكر أقل نجاحا من محاولته توحيد الكتابة . كانت المدارس الفلسفية المختلفة متغلغلة في كل من التعليم والحكومة ، وكانت المدارس التي تدرس فيها تلك الفلسفات هي المراكز التي انتظمت حولها المقاومة . وتنفيذا لاشارة الوزير « لى سو » اتخذ الامبراطور في النهاية تلك الخطوة الخطيرة وهي اصدار الأمر بحرق الكتب . وسمحوا بأن تظل الكتب المؤلفة في الزراعة والفلك والطب متداولة بين الناس ، ولكن الكتب الخاصة بالعلوم التي نسميها الآن العلوم الاجتماعية ، وكتب التاريخ ماعدا تاريخ ولاية « تشن » أمروا باعدامها . واحتفظوا بنسخة من كل كتاب

أمروا باحراقه في مكتبة الامبراطور ليتمكن الأشخاص الحائزون على الصفات التي تؤهلهم لقراءتها من عمل ذلك بعد الحصول على اذن من الحكومة ، ولكنهم منعوا منعا باتا أن تكون ملكا لأحد الأفراد . ولا شك أن الغرض الذي كان يرمى اليه الامبراطور هو السيطرة على الفكر وليس الغاء التعليم ، ويؤيد ذلك أن الامبراطور أنشأ مكتبة عظيمة في العاصمة جمعوا فيها كثيرا من المخطوطات القديمة من كل العلوم ، وقد سبب القضاء على هذه المكتبة ، عندما هوجمت العاصمة وأحرقها المهاجمون ، أضرارا بالغة بالقضاء على الوثائق القديمة أكثر مما اتخذته الامبراطور من خطوات لمنع امتلاك وتداول تلك الوثائق . ومن الأمور التي لاحظها الكثيرون أن أضمن وسيلة للمحافظة على أى عمل أدبي وإيصاله للأجيال الصاعدة أن تحاربه السلطات وتأمّر بأن كل مالك لنسخة يتحتم عليه أن يقدمها لاعدائها ، ففي هذه الظروف ترتفع قيمة هذا المؤلف ارتفاعا غير عادى ويخفى الناس نسخا منه . وقد حدث بعد انهيار دولة « شيه هوانج تى » أن عادت الكتب المحرمة سرىا الى الظهور .

وعلى أى حال فإن هذا المنع تسبب في وجود ثغرة في اعداد العلماء ، لأنه نتج عن التوحيد الجديد للكتابة ، أن الكتب الرئيسية الهامة أعيدت كتابتها ولا شك أنه حدث فيها تعديلات كثيرة أثناء ذلك العمل .

أما عن مذبحة العلماء التي تنسب عادة الى « شيه هوانج تى » فالأرجح أن أكثر ما قيل عنها محض خيال . فقد حدث أن بعض العلماء الذين رفضوا تسليم مكتباتهم حكم عليهم بالموت ، ولكن معظم الضحايا كانوا من جماعة سحرة البلاط الذين أصبحوا غير محبوبين من الناس . كان « شيه هوانج تى » مثل بعض أمثاله من الحكام الجماعيين (أى الذين يحصرون الأمر كله في أيديهم) يؤمن بالخرافات الى أبعد الحدود فأحاط نفسه بمنجمين وسحرة من جميع الأنواع ، فمن فشل منهم في عمل المعجزات أو تنبأ بأشياء غير سارة كان يطرد من البلاط ، وكان يوجد دائما آخرون على استعداد ليحلوا محلهم .



الاجودا ، في بكين

وظهر حب الامبراطور للعظمة في تشييده للمباني ذات الحجم الهائل ،
 ققصره وقبره كانا أعظم مبنيين أقيما في الصين حتى ذلك العهد . كان أمام
 القصر عدد من التماثيل البرونزية الكبيرة الحجم التي صبت من الأواني
 الطقسية التي كانت للولايات الاقطاعية المغلوبة ، كما قيل أيضا ان أرضية
 قبره كانت على هيئة خريطة للصين ، وفيها أنهار تجرى تمثل الأنهار العظيمة ،
 وقد اختفت تلك المباني اختفاء تاما دون أن تترك وراءها أثرا . أما عمله الخالد
 فهو سور الصين العظيم .

أثبتت البحوث الأثرية أن الصينيين في أواخر عهد أسرة شو ، مثل الرومان في العصر الامبراطوري المتأخر ، اهتموا اهتماما كبيرا بتشييد الأسوار على حدودهم . وبالرغم من أن هذه الأسوار لا يمكن أن تكون عائقا جديا لمهاجرين متمدنين يستخدمون الأدوات الميكانيكية الخاصة بالحصار فانها كانت تنجح الى حد كبير في صد غارات غير المتحضرين ، وقللت من فائدة استخدام الخيل التي كانت أهم سلاح لديهم . وقبل أن يصل « شيه هوانج تى » الى الحكم كانت ولاية « تشاو Chao » قد بنت وحصنت سورا على الحدود الشمالية الغربية فكان هذا السور نواة للسور الكبير فيما بعد ، وفي الوقت ذاته كانت ولاية « ين Yen » أقامت سورا مماثلا في الشرق وفي كل من هاتين الحالتين نجد أن كلا من الولايتين قد بنت سورها خلف الحدود الأصلية للولاية لتضم الأراضى التى استقر فيها فلاحو تلك الولاية . وعندما وصل « شيه هوانج تى » الى الملك كانت أهمية الـ « شيونج نو — نو » (Hsiung - nu) الهمج قد أخذت فى الازدياد وأصبحت هجماتهم على الحدود أكثر خطورة . وربما كان أولئك الشيونج — نو ، هم نفس الشعب الذى خرج منه الهون الذين أثاروا الرعب فى أوروبا فيما بعد ، أو على الأقل من قوم متصلين بهم بصلة القربى ، وكانت لهم نفس الأساليب الحربية والقدرة فى القتال . وفى عام ٢١٥ ق . م . سير عليهم « شيه هوانج تى » جيشا قوامه ٣٠٠ر٠٠٠ رجل تحت امرة القائد الأكبر للقوات الحربية وهو أحد اثنين من الموظفين اللذين كانا أعظم موظفى الدولة . ونجح هذا القائد فى صدّهم ، وضم جزءا كبيرا من بلادهم ، ولكن ما جناه من فوائد ، كما فى جميع الحروب مع البدو ، كان أمرا مؤقتا . ولكى يدافع عن المنطقة الجديدة التى حصل عليها أوصل ما بين الأسوار التى كانت قائمة بالفعل ، وكذلك حصون الحدود وجعل منها كلها « السور العظيم » .

وقال البعض ان الغرض من انشاء ذلك السور كان لتحقيق غرضين ، وذلك لمنع الفلاحين من الهرب وبقائهم داخله ومنع الهج غير المتحضرين من دخول الصين وبقائهم خارجه . فاقصاد الصين في ذلك العهد ، كما كان في العصور التالية ، يعتمد اعتمادا تاما على السكان الزراعيين الذين تعتمد الدولة في سد مطالبها على الفائض الاقتصادي منهم ، وهو شيء قليل من كل فرد . وهناك أدلة كبيرة على أنه في العصر القريب من أواخر أيام أسرة هان انضم فلاحون صينيون كثيرون الى الهج . فقد كان الكثيرون من الصينيين الذين يعيشون على الحدود من نسل الهج الذين هاجروا الى تلك الجهات واستقروا فيها واندمجوا في الحياة الصينية في العهد الاقطاعي ، ولكن الظلم الذي وقع على الفلاحين في أيام حكم « شيه هوانج تى » كان سببا قويا لحملهم على الهرب ممن كان يرسلهم لجمع الضرائب وأخذهم للعمل بالقوة . ومهما كان السبب في تشييد السور ، وبصرف النظر عن الأجزاء التي كانت قد شيدت قبل ذلك فان سور الصين العظيم أثر خالد للهمة التي تفوق همة البشر ، وللمقدرة العظيمة في التنظيم ، اللتين امتاز بهما أول امبراطور حقيقى في تاريخ الصين .

وكانت أفانية « شيه هوانج تى » كبيرة جدا فلم يفكر في تأسيس أسرة لأن الرجال الذين من هذا النوع لا يطيقون رؤية أبناء يشبهونهم في جهدهم وقدرتهم . فلما حانت منيته ترك بلادا يعمها التذمر ، ولم يستطع ابنه الضعيف الذى خلفه في الملك أن يبقى فيه أكثر من بضعة أشهر . وحل النزاع بين الحكام محل الأمن الامبراطورى وأخذت جموع من الفلاحين الجائعين تتجول من مكان الى مكان تاركة الخراب يسير في ركابها . ومن هذا العماء والقوضى ظهر أخيرا حاكم قوى أثبت بقدرته في اعادة السلام والنظام أنه هو الذى اختارته السماء . وسار هذا الرجل « ليوپانج » (Liu Pang) على الأسلوب الذى

سار عليه « سادة الحرب » فيما بعد ، اذ لم يكن هو الذى خلق هذا النظام . كان ليويانج فلاحا أميا بدأ حياته كقاطع طريق ثم أصبح حاكما لولاية « پى » (Pei) ، وفى النهاية صار امبراطورا ، وكان جلوسه على العرش بداية أسرة هان التى أصبحت فيها الصين ، لأول مرة فى تاريخها ، قوة فى الشؤون الدولية .

الفصل الثامن والثلاثون

عصر الأسرات المتأخر في الصين

كان الصينيون ، وما زالوا ، طيلة ألفى سنة أكبر شعب في العالم له وحدته السياسية والحضارية . ويذكر التعداد الذى عمل فى عام ١٠٠ ميلادية فى عصر « هان » المتأخر أن عدد سكان الصين ٦٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ولكن يجب ألا تنسى أن الأعداد التى ترد فى تعداد الصين هى دائما أقل من الواقع ؛ لأن الفلاح يستتج عادة عندما يوجه اليه موظف أى أسئلة أنه يريد الحصول على معلومات من أجل فرض الضرائب ، ولهذا يقلل عدد عائلته بقدر الامكان . وظل عدد السكان ثابتا ما يقرب من ألف سنة مما يدل على أنه وصل الى الحد الذى فرضته موارده وتكنولوجيا ذلك العهد . ومنذ عام ١١٠٠ م حتى تعداد عام ١٧٣٦ لم يزد عدد السكان الا قليلا ، اذ كان فى عام ١٧٣٦ مائة وخمسة وعشرين مليونا ولكن بين أعوام ١٧٣٦ و ١٨٨١ زاد فجأة الى ٣٨٠ر٠٠٠ر٠٠٠ وهو يزيد بصفة مستمرة منذ ذلك التاريخ حتى الآن .

وفى هذا الوقت بالذات حدثت زيادة فجائية فى عدد السكان فى جميع بلاد العالم القديم . والسبب غير واضح . فقد عزوا زيادة عدد السكان فى أوروبا الى ظهور التصنيع وفتح أسواق المستعمرات ، ولكن الظاهرة نفسها حدثت فى الصين وفى الهند اللتين لم تكن مستهما الثورة الصناعية فى ذلك الوقت . وعلى أى حال ، فقد كان يقطن الصين منذ عهد طويل جدا عدد هائل من السكان تجمعهم وحدة ثقافية أكثر من أى شعب آخر فى العالم . وحتى فى الأوقات التى كانت تنهار فيها السلطة المركزية ، وتحديث القوضى والحرب

الأهلية ، احتفظ الصينيون بتقاليدهم في الوحدة ، ونظروا الى مثل هذه الأوقات بأنها أشبه شيء بالفترات التي تأتي بين فصول المسرحية الواحدة . وكانت هذه الكثرة الهائلة لعدد السكان ذات فائدة كبرى للصين لأنها جعلت البلاد منيعة مناعة حقيقية ، فان أى غاز يقهر هذا الشعب المتمدن الكثير العدد الموحد الثقافة يجد نفسه وقد اكتسحه التيار ولا يلبث حتى يتحضر بحضارتهم ، وينتهى به الأمر بأن يستوعب نهائيا فيه . ومع ذلك فان مثل هذا العدد الهائل من السكان يكون سببا في وجود مشاكل اجتماعية وإدارية هامة ، وهى مشاكل واجهتها أمم الغرب وما زالت في بداية الطريق نحو إيجاد حلول لها . ووجود أعداد كبيرة من السكان شىء جديد ، حديث العهد في تاريخ العالم . فأكثر أمم القارة الأوروبية حتى القرن الثامن عشر لم تصل واحدة منها الى ٢٥ مليوناً ولم يزد سكان بريطانيا العظمى عن عشرة ملايين ، وتخلق ضرورة حكم مئات الملايين من السكان بحكومة مركزية موحدة مشاكل جديدة لم يتم وضع وسائل عملية ناجحة لحلها حتى الآن .

ولقهم العوامل التي أثرت في تطور التنظيم السياسى للصين يجب علينا أن نلقى نظرة على النظم الاجتماعية العامة في البلاد . فباستثناء القسم الشمالى الشرقى من البلاد حيث تعيش العائلات في مزارع كبيرة بعيدة بعضها عن بعض ، مثل نظام المزارع الأمريكية ، فان نظام اقامة عائلات مستقلة وحدها بعيدة عن الآخرين أمر نادر الحدوث في الصين . فالوحدة الحقيقية هى القرية ، وهى مجموعة من العائلات التي تقيم معا في بيوت قريبة من بعضها ، يحيط بها في الغالب سور من الطين ليحميها من العصابات التي تتجول في البلاد . وعدا القرى يوجد عدد من المدن التي تقوم بمهمة المراكز الادارية وفيها مساكن الأغنياء من السكان ، (وكان أغلبهم في الصين القديمة من طبقة الموظفين) وكانت مركزا للمصانع البسيطة التي تقوم بعمل المصنوعات اللازمة لهم لصناعة أدوات الترف .

واختلفت النظم الاقتصادية في كثير من النواحي عن مثيلاتها في الهند وفي بلاد الغرب ، فليس هناك أثر لنظام الطبقات الهندى بما فيه من توارث الحرف التقليدى ، كما اختلفت أيضا عن النظم الغربية وما فيها من تركيز الصناعة في المدن اللهم الا في حالات قليلة . واستعاضوا عن ذلك بالتركيز المحلى لبعض الصناعات ، اذ كانت تقوم قرى معينة في احدى المناطق بعمل احدى الصناعات المعينة وتبادلها مع منتجات القرى الأخرى ، ويتم هذا التبادل في بلاد تقام فيها الأسواق ، وكان مثل هذا البلد في حجمه وسطا بين القرية والمدينة . كان الفلاحون يذهبون الى هذا البلد ليبيعوا أو يبادلوا على سلمهم بالمواد الخام التى يكونون في حاجة اليها ، أو ليشتروا منتجات مصنوعة . وقضى هذا التنظيم في التخصص المحلى بأن منطقة صغيرة معينة تقوم مثلا بعمل جميع السلال التى من نوع معين وكانت تستخدم في جميع أرجاء الصين ، وتقوم منطقة أخرى بعمل نوع معين من الأدوات المصنوعة من الحديد وهذا يعكس لنا صورة لبلد موحد ، لحكومته سلطة مركزية قوية ، مكنت الناس من الاطمئنان على سلامة التجارة . وحتى في أيام الاضطرابات والفوضى التى استحال فيها اتباع تلك الطريقة ظل ذلك النظام في ذهن الشعب لأنهم يعتبرونه المثل الأعلى .

وكان معظم السكان مالكيين أحرارا للأراضي ويمشون في القرى ، ولكن كان هناك خطان فاصلان في المجتمع الصينى : أحدهما الخط الذى يفصل بين رجل يملك أرضا ، حتى ولو كان حقلا صغيرا ، والرجل الذى لا يملك شيئا على الإطلاق . فمالك الأرض مثل قبطان السفينة سواء آكانت احدى المدرعات الحربية أو سفينة نقل صغيرة فهو قبطان على أى حال ، ويمتاز عن البحار العادى . وكذلك كان الفلاح الصينى الذى يمتلك حقلا صغيرا فانه كان يشعر في قرارة نفسه بأنه أرفع من رجل لا يملك أرضا . أما الخط الفاصل الثانى فهو بين جماعة الفلاحين والصناع الذين يعملون بأيديهم ، وبين جماعة العلماء والموظفين .

ولما كان الفلاحون الصينيون لا يسيرون على نظام توريث الثروة كلها للابن الأكبر (البكر) بل كانوا يقسمون ممتلكاتهم بالتساوى بين أبنائهم فقد ترتب على ذلك تجزىء مستمر للأراضي ، ومعنى ذلك أن قسما من السكان الفلاحين يصبحون فى النهاية بدون أرض ويضطرون الى الهجرة الى المدينة فيصبحون من الدهماء أو يصبحون ، وذلك فى العصور الحديثة ، من المشتغلين بجر العربات الصغيرة التى يستأجرها الناس فى نقلاتهم (الرکشو) .

وتقوم المجاعات والحروب بدور الحد من تكاثر عدد السكان فإذا حدث فى أى وقت من الأوقات أن المجاعات والحروب لم تنتشر فى الصين ، فإن النتيجة هى وجود عدد هائل من السكان أكثر مما تستطيع أن تستوعبه البلاد فى صناعاتها اليدوية ، فتستخدم أولئك الدهماء فى أشق الأعمال ، وفى الأعمال التى لا تحتاج الى خبرة على الإطلاق . ولهذا السبب ، أى وجود عدد كبير من الناس لأداء جميع ما يلزم من أعمال ويقبلون أى أجر يكفى لقوتهم ، فإن الرق لم يثبت أقدامه أبدا فى الصين . ففى منازل الأثرياء من القوم عاشت خدمات اشترتهن العائلة وهن فى سن الطفولة ، ويمكن اعتبارهن من الرقيق ولكنهن فى الحقيقة ينشأن كأفراد فى العائلة ، وعلى سيدهن واجب صريح بأن يجد لهن أزواجا عندما يبلغن سن الزواج . وكان هناك رقيق فى القصر الامبراطورى ، ولكن لم يوجد شئ كنظام الرق الذى كان سائدا فى الغرب ، ولم يقدر لهذا النظام أن ينجح لأن استخدام الدهماء كان أقل نفقة وقطع عند انتشار استخدام الآلات الميكانيكية بدأت ضائرتنا تتحرك ازاء الرقيق ، وذلك لأن الماكينة كانت أرخص من استئجار الانسان ، الذى أصبح عمله أمرا كماليا ويمكن طرد مثل هذا الرجل عندما يتقدم به العمر أو يحدث له ما يجعله عاجزا ، وهذا أرخص جدا من امتلاك رقيق يضطر المالك للعناية به .

وتتكون القرية الصينية عادة من أشخاص ينتمون الى نفس الجماعة الخاصة باسمهم . ففى الصين عدد محدود من أسماء العائلات أكثرهم ينتسبون

أصلا الى أمكنة معينة في الصين ، وربما وصل عدد أفراد بعض هذه الجماعات التي تحمل نفس الاسم ٤٠٠٠ شخص ، ومع ذلك فإن عائلات كثيرة داخل مثل هذه الجماعة لا يمكنها أن تثبت صلة قرابتها بها ، وهو نظام فريد في الصين فقط ، ولا يوجد نظير له في أى مدينة من المدن الغريبة . وتضم كل جماعة من تلك الجماعات أشخاصا من جميع المستويات الاجتماعية ، فمنهم العلماء الذين يحتلون مراكز كبيرة في الحكومة ، ومنهم الفلاحون ومنهم الدهماء ، الذين تجردوا مما كانوا يملكونه من أرض . وعلى أى حال فإن هذه الجماعات تحرص حرصا تاما على أن تتزوج من خارج جماعتها . ويحتم على الفلاح أن يحصل على زوجة له من قرية أخرى وهى عادة توفر على الانسان الكثير من المتاعب التي يسببها له والدها وزوجته ، لأنهم يعيشون في قرية أخرى بعيدة فلا يسهل عليهم التدخل في شئون الرجل وزوجه . وكانوا ينظمون أمور الزواج عن طريق وسطاء ، وهم في الواقع نوع من السماسرة يهمهم جدا في كثير من الحالات أن يعرفوا السوق جيدا ويتأكدوا من نجاح الزواج . ويسبب الزواج كثيرا من الهم والقلق للعائلتين ، فالوالدان يحرصان على أن يتزوج ابنهما ، حتى يستمر اسم العائلة ، ونظرا لأنه لم يكن هناك محل أو مكانة للبنت في المنزل الصيني فإن والديها يحرصان على أن تتزوج في عائلة أخرى حتى يكون لها أسلاف ، ولها ذرية ، ولا تصبح شبحا لا منزل له عندما تموت . ولا تعرف الصين دفع مبلغ من المال نظير زواج البنت ، ولكن هناك تقليد خاص بتبادل الهدايا بين العائلتين .

وسكان القرية الصينية يشبهون سكان القرية الأمريكية في كونهم جماعة متصلين فيما بينهم ، يعرف كل منهم ما يعمله الآخر ، ويراعون الأخلاق وقواعد عدم الاتصال بين الجنسين مراعاة دقيقة ، وبنفس الشدة التي يمكن أن تكون في إحدى القرى الصغيرة في ولاية فرمونت الأمريكية بل ونفس الأسلوب . وكان يسمح للطبقات العليا بالطبع باتخاذ المحظيات ، ولكن لم يكن هناك

بين الفلاحين من تسمح له موارده المالية بأخذ محظية ، وعلى أى حال فلو أنه حاول ذلك لحدث ضغط اجتماعى شديد ضد ما فعله .

وكانت الزوجة تخضع خضوعا تاما لأم زوجها ، ولم يكن لها فى بدء الأمر أى مكانة فى العائلة ، ولكن الزوجة التى تلد أولادا من الذكور ، وتصل الى منتصف العمر تصبح لها مكانة كبيرة ، وذلك عندما يكبر أبنائها ويصبح لها زوجات أبناء تسيطر عليهن بدورها ، وتصبح الرئيسة الحقيقية للمنزل . وتنقسم عائلة الفلاح عادة بعد زواج أبنائه ، وربما كان فى استطاعة الأخوة أن يظلوا متقاهمين ويفضلوا البقاء مع باقى العائلة تحت سلطان الأكبر سنا ، ولكن الزوجات اللاتى آتين من قرى مختلفة يغرن من بعضهن خصوصا عندما يولد لهن أولاد ويثرن الكثير من المتاعب ، ولهذا تسير العائلات الى التفكك فى الجيل الثانى .

ومع هذا ، فهناك نوع آخر من الحياة العائلية يختلف تمام الاختلاف عن النوع السابق وهى حياة طبقة العلماء والموظفين . ففى هذه الطبقة نجد أن المثل الأعلى هو العائلة الكبيرة . ومثل هذه العائلة تستمر أجيالا تحت زعامة أكبر الذكور سنا فى كل جيل . وعندما يتمكن أى شخص من جمع ثروة بأى وسيلة من الوسائل ، فإن ما يطمح اليه هو تكوين عائلة من هذا النوع . فبيت العائلة بيت مجمع يسكن كل ابن وزوجته وأطفاله جزءا منه ، وتمتلك المجموعة ثروة العائلة سواء آكانت الثروة من الأرض أم العمل التجارى أو أى شئ آخر مشترك بينهم ، يعملون فيه متعاونين فيقسم الدخل بين أفراد العائلة المختلفين حسب ما يستحقون . فإذا لم يستطع أحد الأبناء أن يظل على وفاق مع الآخرين أو رغب فى أن يجرب حظه فى مكان آخر يدفعون له ما يخصه ويسمحون له بالذهاب . ويمكن أن تسير العائلات على هذا النظام مدى قرون ، ولكن فى الواقع نجد أنه بالرغم من أن المثل الأعلى هو أن تبقى العائلة مستمرة فى تماسكها مدة غير محددة فإن قليلا من العائلات الكبيرة استطاعت أن تبقى

معا أكثر من أربعة أو خمسة أجيال . وعلى أى حال فبعد مضي تلك الأجيال القليلة يصبح مجموع أفراد هذه الجماعة أكثر من مائة بما فيهم عدد من الأقارب الفقراء ، والمتطفلين الذين يحتلون مركزا وسطا بين أفراد العائلة والخدم . ورئيس العائلة لا يعرف تماما مركز أولئك الأشخاص بالنسبة الى العائلة ، ولكن من مصلحته أن يكون لديه عدد كبير من الأشخاص في هذه الجماعة العائلية الكثيرة العدد .

وتوجد في الصين وحدة عائلية أخرى تتكون من أشخاص يعترفون باتسابهم الى شخص معين ، وتجمعهم شجرة نسب معروفة . فهم يعرفون أنهم مرتبطون معا برابطة القرابة بينما أن جماعة الاسم لا تفعل ذلك ، وأفراد هذه الجماعة لهم جباة مشتركة ولهم معبد . ويصبح هذا المعبد أشبه بمؤسسة ينفق عليها الأغنياء من أفراد التسو (Tsu) — (وهو الاسم الذى يطلق على مثل هذه الجماعة) أموالا أو أرضا يستغلون ريعها في مساعدة المعدمين من أفرادها أو في تعليم صبي ذكى ليصبح عالما أو يصل به الأمر ليكون فردا من طبقة الموظفين ، والواقع أن التسو جمعية مشتركة للمساعدة والاغاثة ولها في جنوبى الصين أهمية تفوق مالها من أهمية في الشمال .

ومن أهم الأشياء في المجتمع الثانى وجود فرص كثيرة حقيقية ليرتقى الفرد وترتفع مكاتته ، لا من الناحية النظرية بل من الناحية الواقعية . وهذا يشبه ما في إنجلترا مثلا ، فانه بالرغم من وجود الفوارق القوية بين الطبقات فقى استطاعة شخص من العامة أن يجمع ثروة ويشتري لقب « سير » . ويكثر وجود التغير في المراكز الأدبية للأفراد والعائلات في بلاد الصين ، وكثيرا ما ترتفع بعض العائلات التى كان أسلافها من الفلاحين ارتفاعا تدريجيا حتى تصل الى طبقة العلماء والموظفين ثم تسقط ثانية من مكانها ، والى ما قبل وقت قريب كان ذلك يحدث على الوجه الآتى :

كان الطريق الموصل الى الوظائف في الصين هو طريق التعليم والمقدرة

على اجتياز عدد من امتحانات المسابقة . ولما كانت طريقة الكتابة الصينية طريقة معقدة فقد كان يتحتم على كل من يريد أن يصبح عالما أن تكون عائلته ذات دخل يزيد عن حاجتها لكي تصرف عليه مدة ست سنوات على الأقل ، لأن ذلك هو الوقت اللازم للامام بالكتب الأساسية (لدى الكونفوشيين ، أربعة كتب خاصة والخمسة كتب المعروفة باسم الكتب الكلاسيكية الخمسة) ، وأن يعرف كتابة النثر والشعر وأن يكون ملما بقواعد الحساب ، هذه هي الأشياء التي كان يتحتم على الشخص أن يكون قادرا على عملها لكي ينجح في الامتحان الأول .

كان للعالم مكانة رفيعة في الصين ، فقد كان أفقر عالم ، وهو الذي يعمل مدرسا في إحدى مدارس القرى مثلا ، يتقدم اجتماعيا على تاجر غنى لا يعرف القراءة والكتابة . ولهذا السبب كانت كل عائلة تستطيع أن تعلم أبناءها ، كانت تفعل ذلك آملة أن يستطيعوا يوما ما أن ينجحوا في الامتحانات الرسمية . وكانت تلك الامتحانات أحد الأشياء القليلة في بلاد الصين القديمة التي ظلت بعيدة عن ابتزاز المال بطريقة غير مشروعة ، لأنهم كانوا ينظرون إليها بأنها هي لب النظام القائم كله . حقيقة ، كان من الميسور في أواخر أيام أسرة « منشو » وفي بعض الأسرات الأخرى شراء بعض الشهادات العسكرية الصغيرة التي تعادل الشهادات الأكاديمية ، ولكن الصينيين أنفسهم كانوا يسمون تلك الشهادة « شهادة عن طريق الباب الخلفى » . وعلى أى حال فلم يحدث أبدا أن شخصا حاصلا على شهادة عن طريق الباب الخلفى تولى وظيفة رسمية في إدارة الحكومة .

ظهر نظام الامتحان وعمل به في أيام أسرة هان حوالي ٢٠٠ ق . م . — ٢٠٠ ميلادية على وجه التقريب ^(١) ، ففي ذلك الوقت حدثت احتكاكات بين

(١) غلى وجه الدقة بين عامي ٢٠٦ ق م و ٢٢٠ ميلادية .

الامبراطور وجماعة العلماء ويقال ان الامبراطور الذي أمر بعقد الامتحانات أعلن قائلا : « الآن قد أوقمت العلماء في شبكتي » . ولكن الذي حدث هو أن العلماء هم الذين أمسكوا بالامبراطور لأن طبقة العلماء هي التي سيطرت على الحكومة الصينية منذ ذلك العهد حتى وقت قريب . وأخذت الامتحانات طابعها النهائي تحت حكم أسرة « تانج » (T'ang) بين عامي ٧٠٠ ، ٩٠٠ ميلادية (١) . وكانت تتكون من موضوعين في الانشاء وأن يكتب المتحضر قصيدة تتألف من اثني عشر سطرا ، وفي كل سطر خمس علامات ، وكان موضوع القصيدة يعلن للطلبة في آخر دقيقة ، وظل هذا النظام ساريا بلا تغيير تقريبا سواء في الشكل أو في الموضوع حتى عام ١٩١٢ عندما أعلنت الجمهورية الثورية في الصين .

وكان يتحتم على أي شخص يتقدم الى وظيفة من الوظائف التي تحتاج الى تعيين أن يكون قد نجح على الأقل في الامتحان الأول وحصل على شهادته ، ولكنهم كانوا يحتاجون عادة الى شهادتين . وكانت هناك أربعة امتحانات ولكن لم يكن يستطيع الوصول الى النهاية ويجتاز الامتحان الرابع الا عدد قليل ، وكانت الحكومة تعني بأمر الذين يتمكنون من ذلك حتى ولو لم يحصلوا على وظيفة في الحال ، وكانوا يربطون لهم مرتبا حتى تخلص لهم وظيفة .

كان جميع الموظفين الاداريين الذين يتولون وظائف ذات مستوى أكبر من مستوى وظائف القرية لا يتولون وظائفهم الا بطريقة التعيين ، وكان المعينون يؤخذون من جداول (اثبات) أسماء الناجحين في الامتحان . وكانت القرية تحكم بطريقة ديموقراطية ، يشرف على شئونها مجلس قرية ، تنفذ أحكامه بدقة لأن المجلس كان مكونا من أعضاء هم رؤساء العائلات الذين كان

(١) حكمت أسرة « تانج » من عام ٦١٨ حتى عام ٩٠٦ ميلادية .

(المترجم)

لآرائهم نفوذ كبير في القرية ، ولكن كل الوظائف التي كانت أعلى من مستوى مجلس القرية ، كانت وظائف حكومية لا يتولاها أصحابها الا بعد تعيينهم من الحكومة .

وكان يصعب على أول جيل من العلماء ، الذين ينتسبون الى جماعات من عائلات الفلاحين أو التجار أن يتولوا مناصبا حكوميا حتى ولو اجتازوا امتحان المسابقة ، وكانت العادة أن ينزوى مثل هذا العالم قانما بما أحرزه من تكريم بحصوله على شهادته ، وتعمل جماعة عائلته وتكد حتى تجمع ثروة تكفي لأن يتعلم أبنائه لكي يصبحوا من العلماء . فاذا نجح أولئك الأبناء في الامتحانات فمن حقهم التطلع الى الوظائف الحكومية التي يشدونها . وكانت المنافسة حادة لأنه كان يوجد دائما عدد من الحائزين على الشهادات الأكاديمية أكثر من عدد الوظائف . ولما كان المتقدمون لتلك الوظائف غير مرتبين في أى كشف من كشوف الأسبقية حسب الدرجات التي حصلوا عليها في الامتحانات فان الحصول على احدى الوظائف الحكومية كان يحتاج الى مساع تبذل مع الموظفين القائمين بالأمر ، ولهذا كان المرشحون ينجذبون الى بيكين حيث ينتظرون هناك باذلين كل المساعي التي تيسر لهم .

وكانوا يمينون المرشحين الناجحين في وظائف في أمكنة في الصين تبعد ما أمكن عن مواطنهم الأصلية ، وكانوا يفعلون ذلك لأنه بمجرد أن يعرف أن واحدا من « التسو » تولى مناصبا حكوميا فان كل فرد ممن ينتمون اليه بصلة القربى يأتي اليه طالبا المساعدة أو طالبا التعمين في أحد الأعمال الصغيرة ، وكانت الطريقة الوحيدة لتجنب هذا الجيش من الأقارب الجائعين أن يذهب الموظف الى مكان بعيد عنهم . وفي العصور الماضية عندما كان السفر صعبا كان الموظف الذي ينتقل الى اقليم بعيد يترك أقاربه بعيدا عنه ، ولكن بعد أن ظهرت وسيلة الانتقال بالأتوبيس والوسائل الأخرى في المواصلات ، ففي الوقت الذي يصل فيه حاكم أحد الأقاليم الى مركز عمله يجد جيشا من أقاربه

الفقراء جالسين على عتبة داره آملين أن يجد لهم عملا وأن يستفيدوا من الولاء للعائلة وما يحس به الشخص من التزامات نحو أهله .

وكانت كل وظيفة في الدولة — ما عدا وظيفة الامبراطور — مفتوحة من الناحية النظرية ، أمام كل رجل له مواهب كافية . كانت هناك بعض الجماعات مثل الشرطة ، وبحارة الزوارق والأرقاء مثلا ، التي لم يكن لها حق التقدم للامتحانات ، ولكن تلك الجماعات كانت قليلة العدد اذا قورنت بمجموع السكان الذين كانوا يعيشون في الصين . فالطالب الذي ينتهي من منهج التعليم العالي الذي يتكون أساسا من دراسة الفلسفة الأخلاقية والتاريخ والآداب يتقدم الى امتحانه الأول . وكانت تلك الامتحانات تعقد في المبنى الحكومى فى المدن فى كل اقليم مرتين فى كل ثلاثة أعوام ، وكان المتحنون هم حكام المناطق ومستشارين علميين تعينهم الحكومة . وعلى المتحن عند تقدمه للامتحان أن يقدم بيانا بعمره والمكان الذى ولد فيه ، وأن يوضح أنه ليس عضوا فى جماعة من الجماعات المحرم عليها دخول الامتحان . وكانوا يفحصون ملابسه ليتأكدوا أنه لا يحمل معه أوراقا تساعد على الغش فى الامتحان ، ثم يتركونه بعد ذلك فى حجرة صغيرة يختنون بابها الخارجى بوضع قطعة من الورق مختومة بالختم الرسمى .

وكانوا يؤدون الامتحانات فى موضوعات مختلفة متشعبة النواحي ، ويقصد منها اظهار ذكاء العالم ومقدرته ، وكان المفروض أن الرجل الذى يصل به ذكاؤه الى النجاح فى الامتحان يكون على قدر كاف من المهارة تؤهله للنجاح فى أى عمل يتولاه ، وهذا يتعارض تماما مع الاعتقاد الأمريكى بأنه اذا كان الرجل حاصلًا على المهارة اللازمة للعمل الذى يؤديه فلا أهمية لأى شئ آخر بعد ذلك ، ويتعارض أيضا مع الفكرة الأمريكية عن الرجل السياسى بأنه هو الشخص القريب جدا من الرجل العادى ، ليس فيما يهتم به فحسب ، بل وفى مقدرته العامة . أما رأى الصينيين فكان يخالف ذلك ، اذ يحتاج الثور

على رجل متفوق حقيقة لأجل العمل في الوظائف التشريعية والادارية الى قدر كبير من الحق. ويعنون بالرجل المتفوق أنه الرجل الأمين الذي لا ينحاز الى ناحية معينة في أحكامه ، والذي يخلص الاخلاص كله للصالح العام . وكان مثل هذا الرجل يلقي التقدير وحسن المكافأة ، وذلك على عكس النظام الأمريكى حيث يستطيع الرجل المدرب أن يحصل على قدر أكبر من المال لو عمل في وظيفة خارج الحكومة مما لو عمل في وظيفة حكومية ، اللهم الا اذا سار على خطة ابتزاز أموال الناس بدون وجه حق لمساعدتهم في الحصول على ما يريدون .

كان النظام الصينى أشبه بنظام الخدمة البريطانية الاستعمارية الذى كان الى ما قبل وقت قريب من أنجح نظم الادارة في العالم . ففي النظام البريطانى كانت امتحانات الخدمة المدنية تهدف الى اكتشاف الرجال المثقفين الذين على قدر عظيم من الذكاء ، وكانت أسئلة الامتحان تجمع بين أسئلة عن كتاب بوكاشيو في أذواق الذين يجمعون الكتب ، وبين أسئلة يطلبون فيها منهم قراءة احدى الخرائط البيانية الخاصة بتقلب الطقس . وكذلك كان الموظف الصينى . فقد كان رجلا يحسنون اختياره ، رجلا ممتاز الذكاء ، وكان كل موظف أوروبى يضطره علمه الى الاتصال بالحكومة الصينية عندما كانت أسرة منشو في أيام قوتها كان يدرك في الحال ما كان لأولئك الموظفين من القيمة العظيمة والمقدرة الفائقة . وفي بعض الأحيان كان ذلك النظام يقود الى عكس ما قصد منه ولنضرب لذلك مثلا بأحد الموظفين الصينيين الكبار ، الذى كان من الطبقة الرابعة ، وهى أعلى الطبقات ، الذى تولى قيادة الأسطول الصينى في الحرب الأولى بين الصين واليابان بالرغم من أنه لم يركب البحر في حياته . وبطبيعة الحال انتهى الأمر بالقضاء على الأسطول الصينى . ولكن هذا الموظف الكبير اتبع خير تقاليد العلماء ، فكتب قطعة أدبية ممتازة يشرح فيها كل ما حدث ،

ورفعها الى الامبراطور ، ثم انتحر . ولكن بصرف النظر عن مثل هذه الحوادث النادرة فان النظام الأصلي نجح نجاحا كبيرا في تطبيقه .

وكان يتقدم للامتحان الاول ستة آلاف أو سبعة آلاف طالب لا ينجح منهم عادة الا أقل من عشرة في المائة . ويسمح لأولئك الناجحين بدخول امتحان مسابقة آخر ، وهكذا فلا يحصل على الشهادة الأولى الا أقل من واحد في المائة أى نحو ستين من كل ستة آلاف ، ويذهب أولئك الناجحون الى عواصم الولايات ويدخلون الجامعات ويحضرون للامتحان الثانى . وكان الرجل الذى يحصل على الشهادة الأولى لا يحصل هما لشيء . فهو مطمئن كل الاطمئنان من الناحية المالية ، وذلك لأنه اذا لم تستطع عائلته أن تساعد على الاستمرار فى الدراسة ، فان الجماعة التى ينتسب اليها تدفع ثقاته على أمل نجاحه وحصوله على الدرجة الثانية وتعيينه فى منصب حكومى . والصينيون محبون دائما للمقامرة ، وهم يقامرون بما يدفعونه مقابل أن يكون لهم صديق فى الحكومة فى استطاعته مساعدة الجماعة بأكملها .

كان النجاح فى امتحان الدرجة الأولى حادثا عظيما ، وكان اسم المرشح يكتب على لوحات أسلاف عائلته ، وقبل أن يدخل التلغراف الى الصين تخصص بعض الناس فى أن يكونوا رسلا لبلاغ مثل هذه الأخبار ، وجعلوا ذلك مهنة لهم . كانوا ينتظرون خارج حجرات الامتحان حتى تعلق أسماء المرشحين الناجحين ثم يجرّون ليبلغوا الأخبار السارة الى العائلات فى القرى البعيدة ، وفى مثل تلك الحالة كانت الغبطة تملأ نفوس العائلات فيكافئون أولئك الرسل بسخاء .

وكان الامتحان الثانى يعقد فى عاصمة الاقليم تمتحنهم لجنة يعينها الامبراطور . وتشبه اجراءات الامتحان الثانى اجراءات الامتحان الأول ، وكانوا يطوقون أعناق الناجحين من بينهم بقلادة ، وزهرة ذهبية . وكان الحاصلون على الدرجة الثانية فى الأيام السالفة يذهبون الى العاصمة فى

يكن لأجل الامتحان الثالث فمن يحصل منهم على الدرجة الثالثة يبقى في العاصمة حتى يدخل الامتحان الرابع ، ويصح أوراق هذا الامتحان الامبراطور نفسه ، يستخدم الحبر الأحمر في هذا الغرض . وكان الناجحون في أعلى درجة ، وهي الدرجة الرابعة ، يقسمون الى أربع فئات : احداها يرتب لصاحبها مرتب ويبقى تحت الطلب ليملا ما يخلو من وظائف هامة ، وفئة ثانية تصبح أعضاء في المجلس الخاص بالامبراطور ، وفئة ثالثة تعين في وظائف في مكاتب الحكومة ، أما الفئة الرابعة فكانت ترسل الى الاقاليم ليكونوا حكاما لها .

ولا داعي للقول بأن مناصب الفئة الأخيرة كانت هي المناصب التي يشدها الجميع ، لأن حاكم الاقليم كان في مركز يساعده على ابتزاز الأموال من الناس لأن ذلك كان جزءا متما لنظام الحكومة في الصين . ونظرا لقلة عدد الوظائف فان الحصول على وظيفة حتى بعد اجتياز الامتحان النهائي كان يتطلب مزيجا من المهارة والنفوذ . والموظف الصيني الذي يجتاز كل تلك المراحل يكون دون أى شك شخصا شديد الذكاء ، وطالما كانت حكومة الصين متروكة بين أيدي أولئك العلماء ، الذين عرفوا كيف يعدونهم ، فقد سار كل شيء على خير وجه . ولكن النقطة الضعيفة في النظام الصيني هي أنهم لم يكن لديهم مثل هذا النظام الدقيق للحصول على الأباطرة .

ولم يتبع الصينيون عادة توريث الابن الأكبر بالرغم من أنه كان يوجد اتجاه واضح نحو هذا التقليد في البيت الامبراطوري . كان الامبراطور يختار في العادة أحد أبنائه ليخلفه على العرش . ونظرا لأن الامبراطور كان يتزوج من عدة نساء ، يختارهن من العائلات الصينية الكبيرة ، فمن السهل أن يتصور الانسان مدى الألاعيب والدسائس التي تسببها هذه الطريقة في اختيار الوريث . فاذا تم اعلان اسم الشخص الذي سيتولى العرش تبدأ أمه في التأثير عليه ليجد وظائف لجميع أفراد العائلة ، وكانت العلامة التي تنبئ بقرب انهيار أى أسرة

مالكة هي بدء خروج ادارة البلاد من يد العلماء الحقيقيين الذين وصلوا الى مناصبهم عن طريق الامتحانات ، ووضعها في يد المقرين من القصر .

ولعب خصيان القصر دورا كبيرا في القضاء على الأسرات الصينية ، ويختلف أولئك الخصيان اختلافا تاما عن خصيان البلاد الاسلامية الذين كانوا في العادة من الأرقاء ، أما في الصين فانهم كانوا متطوعين ، وفي كثير من الحالات كانوا رجالا في متوسط العمر أدوا واجبهم نحو العشرة بالزواج وانجاب الأبناء ، ثم يتطوعون بعد ذلك لتجرب لهم تلك العملية ويدخلون في خدمة القصر حيث يتيسر لهم تولي منصب رفيع . ولكن الخصيان ، رغم حالتهم التي لا يستطيعون معها انجاب الأطفال ، كان لهم عائلات في خارج القصر ولهذا للسبب كانوا ينتهجون النهج الصيني القديم في الادارة الحكومية وهو الصراع بين مطالب العائلة وبين ما تتطلبه المصلحة الوطنية . ومن الجلي الواضح أن الأشخاص الذين تركوا عائلاتهم ليدخلوا خدمة القصر بهذه الشروط كانوا اما رجالا لم يتجاوزوا مع من حولهم ، أو لم ينجحوا في الحياة العادية ، أو أولئك الذين تملكهم رغبة جامحة نحو السيطرة الى الحد الذي يجعلهم يضحون بأي شيء للحصول عليها . وعلى أي حال ، فقد كانوا جماعة خطرين ، وعندما كان يقوى نفوذ الخصيان في ادارة القصر ويتولون المناصب الادارية ويعينون أقاربهم في الوظائف ، فان ذلك كان ايذانا بأن تلك الأسرة في طريقها الى الزوال .

كانت نقطة الضعف في النظام الصيني تكمن في الهيئة العليا في الادارة . وطالما كان الحكام حكاما صالحين ، كان النظام كله يسير بنجاح ، وتستطيع الصين أن تتقدم وتحصل بصفة مستمرة على طبقة من الموظفين في درجة عالية من الذكاء ، تلقوا نوعا واحدا من التعليم وتجمعهم أسس ثقافية واحدة ، وكان خير نظام للبقاء على تلك الأرستوقراطية التي نجحت حتى ذلك الوقت في أداء مهمتها . ومشكلة الحصول على موظفين صالحين هي في الواقع من

المشاكل التى لا مندوحة عنها ، والتى تواجه الأمم الحديثة ، وهى من المشاكل التى لم نحسن حتى الآن معالجتها .

أما العيوب الأخرى فى حكومة الصين فهى فى انتشار الرشوة وابتزاز الأموال دون حق ، ثم فى طريقتهم فى معالجة الجريمة . كان المرتب الذى يدفع للحاكم الصينى مرتبا قليلا ، وكانوا يتوقعون منه أن يحصل على المال عن طريق الابتزاز أو الرشوة وكان المبلغ الذى يتقاضاه بهذه الوسيلة قد حددته العادات السائدة تحديدا دقيقا وأصبح شيئا متوقعا من جميع الذين يتعاملون معه . كان هذا النوع من ابتزاز المال ما سماه بعض الأمريكيين « رشوة شريفة » فإذا بالغ أحد الحكام فى مطالبه وأخذ من الناس أموالا أكثر جدا مما جرى به العرف فإن التجار والصناع يرسلون احتجاجا الى الحكومة المركزية ، وعند ذلك يرسلون لجنة للتحقيق دون سابق اخطار فتختتم جميع السجلات وتعتقل الموظفين ثم تبدأ التحقيق . فإذا ثبت أن الموظفين كانوا يحصلون على تلك الرشاوى دون حق فانهم كانوا يتخذون اجراء سريما . وبدلا من جعل القضية تستمر عشر سنوات وينتهى الأمر بتغريم المرتشى ثلاثمائة مائة مما عرف أنه أخذه — حسب الطريقة الأمريكية — فانهم كانوا يحكمون عليه بالاعدام ، وكان هذا العمل رادعا قويا ضد الافراط فى الظلم .

وكانت الطريقة الصينية فى معالجة الجريمة ، بالرغم من أننا لا يمكن أن نرضى عنها اذا حكمنا عليها بمقاييسنا ، أقسى على المجرمين منها على الجمهور ، وهذا مالا يمكن أن نقوله دائما عن طرقنا التى تتبعها فى هذا الموضوع . كان العقاب ينفذ سريما ، وكان لديهم أنواع كثيرة مبتكرة فى تنفيذ الحكم بالاعدام . ولم يكن للمجرم الا حق ضئيل للاستئناف ، أما الشهود الذين لم يكن لهم ضلع كبير فى الجريمة فانهم كانوا يعذبون وذلك جريا على مبدأ كانوا يؤمنون به وهو انهم بهذه الطريقة يحصلون على معرفة الكثير من تفاصيل الوقائع . ولكن هذه الطريقة كانت فى الواقع سببا فى هرب أى شاهد

يرى الجريمة ، وكان هذا بدوره يزيد من صعوبة الحصول على البراهين الضرورية في اثبات الجرائم . وإذا كان المتهم موظفا ولم تكن جريمته من الجرائم الكبيرة التى يستحق عليها الاعدام فانهم كانوا يرسلونه الى العاصمة لينتظر المحاكمة ، وهناك كان ينتظر شهورا أو أعواما ، ويبتز منه كل من خوله رشاوى ، حتى يعصروا ماليته عصرا ، ولا يبقى لديه شيء . وكانت هذه الوسيلة أسلوبا واعيا لتكديس الثروة لفائدة الهيئة الحاكمة . ويتلخص هذا الأسلوب في أنهم كانوا يتركون الموظفين الصغار يبتزون من المال ما يشاؤون ثم يتلقفونهم بعد ثرائهم كما يقطف الانسان الثرة بعد نضجها . وكانت هذه الطريقة قد بدأت تستخدم في ألمانيا خلال حكم النازى و ينتظر أن تظهر في أى مكان فيه حكم دكتاتورى .

وتنفرد الصين بين جميع المدينيات الكبيرة بأنها خلال تاريخها الطويل لم تظهر فيها طائفة قوية من رجال الدين في أى وقت من الأوقات . وبالرغم من أن الامبراطور نفسه في العصور القديمة في عهد شانج وشو وهان ، كان في الوقت ذاته كاهنا يقدم القرابين الى السماء نيابة عن المملكة بأسرها ، فان الواجبات الدينية الملقاة على عاتق أولئك الحكام كانت دائما في المرتبة الثانية وتأتى بعد مشاغل الحكم ، أو على الأقل سن القوانين الحكومية الرادعة ، وترك تنفيذها بين يدي أناس مدربين وهم طبقة الموظفين . ولم يكن في الصين في أى مرحلة من مراحل تاريخها شيء يماثل منشآت المعابد الكبيرة التى سيطرت على الحياة الفكرية والحياة الاقتصادية في بعض المدينيات الأخرى مثل مصر وبلاد ما بين النهرين والى حد ما ، في الهند أيضا .

وأهم عنصر في الديانة الصينية هو عبادة الأسلاف ، فان كل ديانة من الديانات ترفع من شأن القيم الأخلاقية والميول التى يرى فيها المجتمع أنها بالغة الأهمية ، وكان أهم شيئين في الحياة اليومية في الصين أسلوب التنظيم

العائلى ونظام استمرار العائلة . ولى ذلك فى الأهمية أساليب الأدب والكىاسة التى ذكرت قواعدها بالتفصيل فى الكتب الصينية الكلاسيكية .

ونرى فى الديانة الصينية انعكاسا قويا لهذين الأمرين الهامين ، فهما كانت العقيدة التى يؤمن بها الشخص الصينى من الناحية الرسمية فانه كان يؤمن قبل أى شىء آخر ايمانا أساسيا بعبادة الأسلاف .

وترجع نشأة هذه العادة وأصلها الى نظام الحياة العائلية ، فالعائلة ، فى رأى الصينى أهم من الفرد ، وهى شىء يمكن أن يستمر ، ويمكن أن يقال عن العائلة انها تحتوى فريقين أحدهما حى والآخر ميت . وهم يعتقدون أن الأسلاف الذين ماتوا يستمرون على اهتمامهم بمقادير وسلوك الذين من نسلهم ولهذا كانوا يخطرون أولئك الأسلاف بكل الأحداث الهامة فى العائلة ، ويقدمون لهم القرابين . ومهما كان ، فان ذلك لم يكن عادة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، فالقرابين كانت تقدم كعلامة من علامات الاحترام وكاعتراف مؤدب من الأحفاد بأنهم مدينون بوجودهم وبحفظهم الحسن ، لأولئك الذين أصبحوا فى عالم الروح .

وللشعائر والطقوس أهميتها فى أكثر نواحي الديانة الصينية . فأقدم الكتابات الصينية التى وصلت إلينا هى الكتابات التى تصف الطقوس الصحيحة التى يجب القيام بها عند تقديم مختلف أنواع القرابين ، وهى تصف وصفا دقيقا مفصلا كيف تصنع أواني القرابين ، وما هى الطرق التى يجب اتباعها فى ذلك العمل ، وما شابه ذلك ، وكان ذلك كله نوعا من التقرب الى القوى التى هى فوق قوى الطبيعة ، ولكنه تقرب خال من العاطفة ويشبه كثيرا تقرب أحد المشرفين على ادارة القصر أو أحد كبار الموظفين الى الامبراطور . فاذا اتبعت القواعد الصحيحة الخاصة باللياقة فى معاملتك مع القوى التى فوق الطبيعة فمن المفروض انك ستحصل على الفائدة . وليس المتوقع منك أن تحب

الله أو تخافه ولكن يجب أن تعرف كيف تتصل به حسب الأصول وكيف تؤثر عليه ، وهي كلها أشياء خصصت لها الآداب الصينية فصولا كثيرة .

لم يكن الصينيون في عصورهم القديمة يقتصرون على تقديم القرابين لأسلافهم بل كانوا يضعون مع الموتى عند الدفن جميع الأدوات والأواني والأشياء الأخرى التي يحتاجون إليها في الحياة الأخرى . ففى مقابر « شانج » التى ترجع الى حوالى عام ١٥٠٠ ق . م كانوا يضعون قرابين كثيرة جدا مع الميت . والسبب فى العثور على تلك الأواني الفخمة المصنوعة من البرونز بين أواني عصر شانج هو أن الملك المتوفى يجب أن يدفن ومعه العدد الكامل من أواني القرابين التى عساه يحتاج إليها عند تقديم القرابين الواجب تقديمها باعتباره ملكا فى العالم الآخر ، اذ أن ذلك العالم ليس الا امتدادا للحياة على الأرض . وأعطوا الملك أيضا ما يلزمه من الخدم ، وفى أغلب الحالات واحدة أو اثنتين من محظياته اللاتي يحبهن ، وكانوا يخفون أولئك الذين سيقومون على خدمته ويضعونهم معه فى القبر ، وفى بعض الحالات كان أحد النبلاء المخلصين ينتحر ويتبع صديقه الى العالم الآخر حتى يبدأ ذلك الحاكم الميت حياته الجديدة وحوله جماعة يعرفها من قبل .

واستمرت عادة القرابين الامبراطورية أكثر من ألف سنة بيد أنه فى آخر أيام أسرة « شو » زاد الشعور بالاعتراض على تقديم الضحايا الانسانية وبدأوا يضعون فى المقابر بديلا لها . وفى احدى الأساطير أن الضحايا الآدمية ألغيت فى خلال أسرة « هان » ، وذلك لأنه بعد موت أحد الأباطرة أصرقم القصر على أن الامبراطورة يجب أن تقتل لكى تكون مع زوجها ، ولكن السيدة اعترضت على ذلك بأن قيم القصر هو المشرف على كل شئ فى ادارته ويعرف ما يحتاج اليه سيده أكثر منها ، وفى هذه الحالة يستطيع أن يلبي رغبات الامبراطور خيرا منها . فصرفوا النظر فى الحال عن الموضوع ، وأبطأوا عادة تقديم الضحايا الآدمية فى جنازات الأباطرة ، وهذه التماثيل الصغيرة الفخمة

للاقصات والجنود والخيول ... الخ التي يطلق عليها اسم تماثيل القبر والتي كانت توضع في المقابر في أواخر أيام « شو » وفي أيام أسرة « هان » وأيام أسرة « تانج » لم توضع في المقابر الا لتكون بديلا عن أشخاص حقيقيين وأشياء حقيقية .

وفي المصور الحديثة استمر الصينيون المتمسكون برأيهم في تقديم الأشياء التي يحتاج اليها المتوفى في العالم الآخر ، ولكنها تصنع من مواد رخيصة مستهلكة ، في أغلب الحالات من الورق ، وتحرق في نهاية الجنازة ويرسلونها الى العالم الآخر وذلك باحراقها في النار . وكثيرا ما يرى الانسان في موكب الجنازات بين الأشياء التي يحملونها سيارة مصنوعة من الورق ويجلس فيها سائقها ، وفي أيام حكم « شيانج كاي - شك (Chiang Kai-Shek) للصين ، سارت جنازة أحد القواد الصينيين وكان فيها طائرة من الورق أحرقت في نهاية الجنازة . كان الصينيون يؤمنون ايمانا تاما بصدق فكرة وضع الأمتعة في القبر أو حرقها بعد الانتهاء من الجنازة من أجل فائدة المتوفى ، والى عام ١٩١٠ كان بعض الناس يعتقدون قروضا في بعض الأحيان ، وهم متفاهمون على أن رد قيمة تلك السلفيات سيكون في العالم الآخر .

وكانت هناك عقيدة أخرى في الصين بأن الجسم يكون في العالم الآخر على الحالة التي كان عليها يوم الوفاة . ولهذا السبب كان الصينيون ، بل وما زالوا حتى اليوم ، ينفرون كل النفور من فكرة بتر أحد الأعضاء ، حتى ولو كان في ذلك انتهاك لحياتهم . فاذا تم بتر أحد الأعضاء فانهم يحتفظون به حتى يدفن مع صاحبه . حتى رؤوس المجرمين التي يطيحون بها عقابا على ما اقترفوه من جرائم كانوا يسلمونها عادة لأهلهم ليضعوها في مكانها مع الجثة عند دفنها . واذا لم يتيسر الحصول على عضو يفقد كانوا يعملون بديلا له من الفخار ويوضع في مكانه من الجسم عند دفنه . وفي العصور القديمة كان خصيان القصر يحتفظون بأعضائهم التي فصلت من الجسم وذلك بوضعها

فى الكؤول ، فاذا ما وصل أحد هؤلاء الموظفين الى سن التقاعد كان يأخذ معه تلك الأعضاء . فاذا حانت منيته كانوا يخطونها فى مكانها الذى فصلت منه حتى يبدأ حياته فى العالم الآخر وهو كامل الرجولة . ويعتبر « برتولد لوفر Berthold Laufer » ، الذى ذكر لى هذه العادة ، بامتلاكه بديل عن هذه الأعضاء وهى مصنوعة من حجر اليشم ، وتزيد كثيرا عن الحجم الطبيعى ، وقد عثر عليها فى مقبرة من عهد أسرة « تانج » .

والى عصر قريب كان الصينيون يعتقدون (ومن الصعب أن نعرف ماذا يعتقدون الآن) أن الأثاث الجنائزى وكل ما يضمونه مع الميت كان ينتقل الى العالم الآخر . وكانت الصورة الصينية لهذه المملكة ، على الأقل بين العامة من الشعب الذين لا يتجهون اتجاهات فلسفية فى تفكيرهم ، صورة عملية ومادية وهى حياة فى عالم أسفل ، موجود تحت أرض بلاد الصين الحالية مباشرة ، وتمائلها تماما فى جميع التفاصيل ، ويسرى عليها حكم امبراطورى كما يسرى على الصين التى فوق الأرض . وكانت العادة فى أيام الامبراطورية أنه اذا كوفىء شخص من أجل خدماته الممتازة ، فان هذا التشريف كان يشمل أيضا أجيالا من أسلافه ، وكانوا يرسلون براءات التشريف الى العالم الآخر حتى تستفيد الأرواح فى الحال من الألقاب التى منحت لأحفادهم . وكان يوجد أيضا عدد من الأنواع المختلفة من الجحيم لأجل الأشرار ، وفيها أنواع تعذيب متعددة يقوم بها الكثير من الشياطين . ومن أقسى وأشد أنواع العقاب ، نوع لم يكن فيه آلام جثمانية ، بل كانوا يجبرون الشخص المحكوم عليه بالوقوف أمام مرآة سحرية وينظر الى نتائج أعماله الشريرة وما يترتب عليها فى عالم الأحياء فوق الأرض . كان يرى عائلته وقد انهارت ، وأطفاله وأصدقاءهم يتعذبون بسبب ما اقترفه من أعمال سوء ، حتى يرى نسله كله وقد تحطم وزال من الوجود وهو واقف ينظر اليهم لا يستطيع أن يتدخل أو أن يحول بصره بعيدا عنهم .

وموقف الصينيين تجاه الدين خليط من الخرافة والتفكير العملي .
فالفولكلور الصينى ملئ بقصص الشياطين والأشباح ، والشيطان الصينى
ليس الا روحا ارتبطت بالأرض ولم تستطع أن تنتقل الى الناحية الأخرى كما
يقول الروحانيون . وأولئك الذين يلاقون حتفهم باعتداء الآخرين عليهم ،
أو أن يموتوا غرقى أو منتحرين ، لا يمكن أن يسيروا فى الطريق المعتاد ليعثوا
مرة أخرى حتى يجدوا بديلا عنهم ، ومن المحتم عليهم أن يظلوا يحومون حول
المكان الذى وقعت فيه المأساة . ولا يميل الصينيون الى الاقدام على اتقاذ
شخص يفرق لأنهم يعتقدون أن روح غريق آخر سبق أن لاقى حتفه فى نفس
المكان تجذبه لأنها تريد غريقا بديلا عنها لتحرر من قيدها . فاذا لقيت تلك
الروح من يعوق عملها فانها لن تنسى ذلك ، وتجلب المتاعب على من ألقاها منها
فريستها .

وبالرغم من أنه كان يوجد بعض المتصوفة فى العصور الأولى من تطور
الفلسفة الصينية فان الاتجاه الصينى اتجه عملى بالمعنى الصحيح . وكان
الصينيون دائما متسامحين ازاء الديانات المختلفة ، وعلى استعداد لأن يعبدوا
فى أى مكان ما يكون فيه فائدة لهم . ولم يضطهدوا أبدا قوما أو فردا لأسباب
دينية ، ولا يوجد الا عدد قليل جدا من الصينيين الذين استشهدوا بسبب
معتقداتهم ، واذا كانت هناك أى اضطهادات فانها تنحصر فى الاضطهادات
التي تعرض لها البوذيون ، وهى لم تنشأ لأسباب دينية ولكنها نشأت من الخوف
من استمرار البوذية فى استفاد ثروة البلاد . والصينيون على استعداد تام
للتحول من اله الى اله آخر اذا كانت لهم منفعة من وراء ذلك . ويرجع السبب
الأكبر فى أن المسيحية لم تستطع أبدا تثبيت أقدامها فى الصين الى معارضة
المبشرين المسيحيين لعبادة الأسلاف ، وذلك بصرف النظر عن أن المسيحية هى
ديانة الدول الأجنبية التى كانوا يشعرون بأنها تهدد سلامتهم ووحدة بلادهم .

ومع كل فان الكنيسة الكاثوليكية صرحت أخيرا للصينيين الكاثوليك بأن يحرقوا البخور للوحات الأسلاف .

وكثيرا ما نرى في موكب جنازة أحد الأثرياء الصينيين جماعة من الرهبان البوذيين يسرون في جانب يرتلون الأناشيد من الكتب البوذية ، وفي الجانب الآخر من موكب الجنازة يسير كهنة طاويون يتلون التعاويذ المناسبة لاختافة الشياطين ، ويحرقون النقود الورقية ليعطوا متسولي الأرواح ؛ اذ أنهم يعتقدون أن تلك الأرواح تسير في الجنازة وربما تسبب بعض المتاعب في عالم الأرواح اذا لم يشتروا تهدتها .

وأعظم ما قدمته الصين لحضارة العالم هو أهميتها كمركز لتطور وتوزيع المدنية . فقد كانت فيها مدن كبيرة أهلة بسكانها عندما كان يعيش معظم سكان الدنيا في قرى صغيرة ، وحات معظم مشاكل الحكم التي تواجه الدول الحديثة ووجدت حلولاً يمكن اتباعها ازاء تلك المشاكل ، وذلك فيما يمكن اتخاذه ازاء أقلية تحكم البلاد . وم تؤثر الصين على مدينيات الشرق الأقصى فحسب ، لأنها كانت مركزاً تفترب منه بصفة مستمرة الحضارات المجاورة ، بل أثرت أيضا على أوروبا . ويشبه تأثير الصين على ما جاورها من حضارات ما كان للامبراطورية الرومانية نظمها من تأثير على الهمج البرابرة الذين كانوا على مقربة منها ولكن بدلا من الخمسمائة السنة التي استمر فيها تأثير الرومان على ما جاورهم فان الحضارة الصينية ظلت ثلاثة آلاف سنة ، وكانت النبع الذي استقت منه كل حضارات هذا الجزء من العالم .

وكانت الصين في مرات متعددة خلال تاريخها بلدا من أغنى وأقوى بلاد الدنيا ، وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أى وقت الازدهار الأوروبي ، كانت الصين أغنى حدا من بلاد أوروبا وأكثر منها تمدنا في معظم النواحي . وتاجرت أوروبا مع الصين على نطاق واسع ، وكانوا يجلبون منها الأقمشة الحريرية الجميلة والخزف ، ومنه جاءت كلمة « الصينى » التي تطلق

على جميع الألوان الخزفية المستخدمة في المائدة . وفي السنوات المبكرة من القرن الثامن عشر أدخلت الأشياء التي من أصل صيني طرازاً جديداً في أوروبا ، وانتشرت انتشاراً واسعاً . فالأوراق التي تلتصق على الجدران ، والقماطر ، والأثاث والرسوم الملونة التي رسمت تقليداً للأسلوب الصيني ، كانوا يطلقون عليها اسم الصينيات كما بنى الكثيرون من نبلاء فرنسا منازل صينية صيفية في حدائقهم .

وذهب كثيرون من رهبان الجزويت الفرنسيين إلى الصين أملاً في حمل الامبراطور « تشين لنج » (Ch'ien Lung) على اعتناق المسيحية ، فاستقبلهم استقبالاً حسناً في القصر ، ولكن الامبراطور أظهر اهتمامه بالنواحي العلمية والرياضية والحربية التي كان في استطاعة العلماء الجزويت أن يقدموها له أكثر مما عرضه عليه في الناحية الدينية . ومهما يكن من أمر ، فإن الجزويت الفرنسيين درسوا الفلسفة الصينية والكتب الكلاسيكية الصينية ، وهناك ما يكفي للاعتقاد بأن كثيراً من الآراء التي انتشرت في عصر الاستنارة الذي كان سبباً في ظهور الثورة الفرنسية ، قد دخلت إلى التفكير الفرنسي من مصادر صينية . فالفكرة القائلة بأنه في الوقت الذي كان يتحتم على الحكوميين أن يطيعوا حاكمهم ، يجب على الامبراطور في مقابل ذلك أن يحمي رعاياه ومصالح رعيته ، وأنه كان للرعية الحق في الثورة إذا فشل في القيام بالتزاماته فكرة كونفوشية محضة . ومن الصعب أن نثبت في أي مرحلة من المراحل دخلت هذه الفكرة في تيار الفكر الأوروبي ، ولكننا نعلم تماماً أنها ظهرت للمرة الأولى في الوقت الذي زاد فيه الاهتمام بزيادة طاغية بالفرن الصيني والفلسفة الصينية . ومن دراستنا لأساليب انتشار الحضارات يمكننا ، على أقل تقدير ، أن نظن أن الصين كانت مصدر تلك الفكرة .

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أننا نرى في كتابات « روسو Rousseau » الذى رباه الجزويت فى الوقت الذى كانت فيه تلك الطائفة مشغولة بالتفكير الصينى ، أن فكرة الرجل الطبيعى تذكرنا كثيرا بالمثل الأعلى للفلسفة الطاوية . بيد أن الرجل الطبيعى لدى الطاويين ، الذى استمد شخصيته من المشاهدات الواقعية لحياة الريف فى البلاد الشرقية ، يختلف عن الرجل الطبيعى فى فلسفة روسو الذى أغدق على رجله الأسطورى غرائز معصومة وفهما ممتازا للقيم الخلقية .

وتجتاز الصين فى الوقت الحاضر فترة من فترات البلبلية والسيطرة ، وربما احتاجوا الى قرن من الزمان ليتخلصوا من نير الروس ويمعدوا توجيه جهودهم كما نجحوا دائما فى الماضى فى امتصاص أو طرد أباطرتهم . فمن غير المحتمل أن يتحول الصينيون تحولا تاما الى الماركسية لأنهم كانوا شعبا ذا مدنية عظيمة لفترة طويلة ، إذ أن ذلك يحول دون اعتناقهم أى ايديولوجية سياسية بنفس الحماسة الدينية الذى أبداه الروس فى اعتناق الشيوعية . ان نفسية الصينى هى نفسية السيد الحكيم المتقدم فى السن الذى مرت عليه أحداث كثيرة وتغيرات كثيرة وأصبح من الصعب أن يثيره أى شىء إثارة حقيقية .

وهناك ميزة يمتاز بها الصينيون على الغرب وهى أنهم مرت عليهم فترة طويلة وهم شعب متمدن أكثر من الغربيين . فنحن معشر الغربيين لسنا الا جنسا من سكان القرى الذين لم يعرفوا حياة المدينة الا منذ وقت قريب . وما زلنا نحاول ملأمة أنفسنا من الناحيتين النفسية والاجتماعية ، للحياة بين جموع حاشدة . أما الصينيون فقد كانوا معرضين مدى ثلاثة آلاف سنة لأعظم عمليات الاختيار الطبيعى وذلك بسبب المجاعات والأمراض ، وجميع أنواع الاختبارات . والحقيقة التى يجب التسليم بها هى أنهم قادرون على أن يعيشوا فى مستوى أقل منا ، وهو أمر يجب أن يحسب حسابه فى المستقبل ، وعلى

الأخص عندما تظهر مشكلة ما يجب عمله ازاء عدد من القارات يعيش فيها عدد قليل من السكان البيض بينما توجد قارة كبيرة مترامية الأطراف مكتظة بعدد ضخم من السكان الذين من أصل مغولي ، والذين يزداد عددهم بسرعة كبيرة . وما من شك في أنه لن تمضي مائتا سنة أخرى حتى تظهر أسرة قوية في الصين ، وما من شك في أن الصينيين ، كما حدث لهم في الماضي ، سيصبحون قوة عالمية هامة لها خطرهما .

الفصل التاسع والثلاثون

اليابان

تحتل اليابان موقعا يبعد عن شاطئ أوراسيا الشرقى ، وهى فى ذلك شبيهة بموقع الجزر البريطانية من شاطئ أوروبا الغربى . فكل منهما مجموعة من الجزر تقع على مسافة بعيدة الى الشمال من المنطقة التى يستطيع سكانها أن يحيوا حياة مريحة فوق أرض القارة ، وأصبحت تلك الجزر صالحة للسكنى بفضل تيارات المحيط الدافئة ، وهى تيار الخليج فى بريطانيا والتيار الأسود أو « كوروشيوو Kuroshiwo » فى اليابان .

ومجموعة الجزر اليابانية من أصل بركانى ، وهذا يفسر طبيعتها الجبلية الوعرة ، ومع هذا فإن جميع أراضيها الصالحة للزراعة خصبة جدا لأن التربة البركانية التى تكونت من الرماد واللافا المتحللة أغنى تربة يمكن أن توجد فى العالم . وقد زرع اليابانيون جميع الأراضي التى أمكنهم تمهيدها ، وكل ما أمكنهم استخلاصه ، بطريقة عمل المدرجات وقد أضافت هذه الطريقة مساحات كبيرة من الأراضي ، تعتبرها أكثر البلاد أنه لا يمكن استخدامها . وبهذه الطريقة ، وهى زرع أكبر مساحات ممكنة من تربتها ، استطاعت اليابان أن تقدم القوات لشعبها المزدحم الكثير العدد . ونظرا لأنهم استغلوا الأرض الى أبعد حد ممكن فإن ادخال الوسائل الميكانيكية الى المزارع لن يزيد الا الشيء القليل من كميات الطعام ، والامكانية الزراعية الوحيدة التى لم يهتم بها ، بل وأهملها ، اليابانيون هى امكانية الرعى لأن المنحدرات العليا للجبال يجب الانتفاع بها فى تربية قطعان من الماعز والغنم ، ولكن أساليب الرعى كانت دائما غريبة على الحضارة اليابانية .

ويجلب التيار الدافئ الذى يمر حول اليابان ويمدها بجو معتدل ، يجلب معه عند مجيئه من الجنوب كمية كبيرة من الطعام المستخرج من البحر . فاهم مصدر غذائى لليابان هو مصايد الأسماك البعيدة عن الشاطئ . ومنذ منتصف القرن السادس عشر حتى زيارة « پرى » (Perry) لليابان فى عام ١٨٥٢ ، باستثناء عهد الشوجن (Shogan) ، كان اليابانيون شعبا بحريا استطاع أن يبنى سفنا جيدة الصنع يخرج بها فى رحلات بحرية طويلة ، وكان القراصن اليابانيون يهاجمون الشواطئ الكورية فى بداية العصر المسيحى . ولا يوجد فى اليابان رواسب معدنية كثيرة . فهناك بعض الحديد فى الشمال ولكن لا يوجد فيها أى مقدار ذى أهمية من زيت البترول أو الحديد . ولا يوجد من النحاس أو الذهب الا كميات ضئيلة . وفى العصور القديمة كان تصدير الذهب من اليابان محرما تحريما قاطعا ، وكان العقاب الذى يوقعونه على من يجترئ على مخالفة ذلك هو القتل ، لأنه كان نادرا جدا وذا أهمية كبيرة ، مما جعل السلطات تحرص على ألا يتسرب شئ منه الى خارج البلاد . ولهذا فليس لدى اليابان موارد معدنية كافية لمدا صناعة حديثة بما تحتاج اليه ، ووصولها الى القوة فى القرن العشرين يرجع الى التنظيم السياسى الذى استطاع أن يدخل اليها المدنية الحديثة فى سرعة كبيرة مصحوبة بالتفكير السليم ، واستخدامها لطرق وأساليب تم تطويرها فى الغرب مع استخدام كل وسيلة ممكنة للاستفادة منها . ومثل هذا البرنامج لا يمكن أن يستمر وقتا طويلا دون أن تحصل اليابان على أراض جديدة تمددها بالمواد الخام ، فاذا لم تستطع أن تحصل على كل ما تريده من تلك المواد التى توجد فى القارة فلا مندوحة لها من أن تظل دولة من دول الدرجة الثالثة .

وما زال أصل سكان اليابان موضع جدل بين العلماء . فنحن لا نعرف الوقت الذى وفد فيه الى تلك الجزر أقدم السكان الذين وصلوا الى المرحلة الانسانية ، ولم يعثر فى اليابان على أى بقايا من « ما قبل الانسان » ، بل

لم توجد أى حفريات انسانية مبكرة بالرغم من أن اليابان كانت متصلة بقارة آسيا فى عصر الپليستوسين . وقد عثر على حفريات لبقايا من الفيل الهندى وغيره من الحيوانات الاستوائية ، فاذا كانت هذه الحيوانات استطاعت أن تصل الى اليابان فقد استطاع الناس دون أى شك أن يفعلوا ذلك أيضا .

ولا يرتفع الستار من الناحية الأثرية حتى العصر النيوليتى . فحوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد كان ثلثا بلاد اليابان فى الشمال مسكونا بشعب غريب يسمى ال « آينو » (Ainu) ، وكان أولئك الآينو يعتبرون منذ عهد بعيد من بقايا جنس قوقازى ، كانوا يعيشون فى تلك المنطقة البعيدة ، ولكن الدراسات الأحدث أثبتت أنهم متصلون بالأوستراليين الأصليين . وربما كانوا نوعا انسانيا قديما لا يختلف عن كانوا فى شرقى آسيا ، ولكن اقامتهم فى بيئة شمالية تكثر فيها السحب جعل لونهم أفتح من أسلافهم الذين كانوا يعيشون فى الجنوب . وهم ذوو لون فاتح ، ورؤوس مستطيلة ، ووجوه عريضة ، وأنوف قصيرة غليظة . أما عيونهم فيمكن أن يقال انها مستديرة أكثر منها لوزية الشكل ، وكان شعر الوجه ينمو بغزارة على الجانبين . وفى جسدهم شعر كثيف ، أما اليابانيون فى العصر المتأخر فكانوا ذوى جسد أملس نسبيا ولا لحية لهم ، وعندما كانوا يشيرون الى الآينو يقولون عنهم الآينو ذوو الشعر الكثير . ونستطيع أن نصور لأنفسنا ما كانت عليه حياة الآينو من الدراسات الأثرية من ناحية ، ومن حياة الآينو الذين ما زالوا يعيشون فى شمالي اليابان من ناحية أخرى .

كانت حضارة الآينو فرعا من الحضارة المشتركة للمنطقة التى تحيط بالقطب الشمالى ، وكان الآينو قوما من الصيادين وجامعى القوت ، عاشوا فى مساكن مخفورة فى الأرض واستخدموا أدوات نيوليتية ، وكانوا يستخدمون قطعاً من الحجر لتهديش الأشياء ، وكانت لديهم قاذفات مدببة من العظم وغيرها ، وصنعوا فخارا من الطين المدهوك الذى زخرفوا سطحه بتمرير حبل حوله قبل

أن يجف ، ولا يستطيع أحد أن يميزه من الفخار الذى كان يصنعه الهنود الأمريكيون الذين كانوا يعيشون فى الغابات الشرقية فى أمريكا ، وبمباراة أخرى كانت أوانهم صورة تامة من أوانى الطبخ فى حضارة المنطقة القطبية . والتنظيم الاجتماعى للأينو لا يمدو حياتهم فى قرى صغيرة يقطعها جماعة طوطميون يتزوجون من الأبعاد (الذين من غير عائلتهم أو قربتهم) ، وكان لكل جماعة حيوان مقدس يطلق اسمه عليهم ويظهرون نحوه احتراماً خاصاً . وكانت دياتهم هى عبادة أرواح الطبيعة ولم يقتصر على العناصر كالشمس والمطر ولكنهم عبدوا مساقط المياه ، والصخور ، والأشجار وغيرها من عناصر الطبيعة ، ولكن أهم العقائد تركزت حول الدب الذى كان أخطر الحيوانات فى تلك البيئة ، كما كان فى الوقت ذاته أكثر الحيوانات لحماً . وكانوا ينظرون الى الدبة نظرتهم الى قوم من قبيلة مختلفة ، وكانوا يعتقدون أن تلك الدبة عندما تكون وحدها ولا يوجد غريب بينها تخلع القراء وتسلك سلوك الآدميين الآخرين . وكانوا يقومون بطقوس خاصة عندما يقتلون دبا حتى يرضوا روحه ، وتخبر الدبة الأخرى بأنها اذا جعلت الأينو يقتلوننا بسهولة فانهم يحسنون معاملتها . وفى الوقت الحاضر يسمى الأينو لقنص دب صغير يحضرونه الى قربتهم ويربونه كحيوان القرية المدلل ، ويماملونه باحترام ورعاية ، حتى يحين موعد قتله .

وكان السكان الأوائل الذين سكنوا الجزء الجنوبى من اليابان قوما زراعيين منذ أبعد العصور ، على عكس الأينو . فقد أحضروا معهم نبات التارو ، وربما الرز ، ولكنهم اعتمدوا كثيراً على صيد السمك وبنوا محلاتهم السكنية فى المناطق القريبة من الشاطئ . ولا تكاد توجد أى أدلة أثرية باقية من حضارتهم لأنهم استخدموا الغاب الهندى (البامبو) والخشب فى تشييد مساكنهم ، وفى صنع أدواتهم ، ولم يصنعوا فخاراً ، ولم يستخدموا الحجر الا قليلاً . وكان أولئك الجنوبيون من الناحية الجثمانية أشبه بمن

يسمون « البروتو - مالايو » على الأرجح ، أى كانوا يمتلكى الجسم وذوى لون أسمر ، وفى جسمهم قليل من الشعر ، ولهم وجوه عريضة وأنوف صغيرة ، وشفاهم رفيعة وعيونهم مستقيمة غير منحرفة .

ولم يكن هناك خط حدود ثابت بين المنطقتين اللتين يسكنهما الأينو وجيرانهم الجنوبيون الذين كانوا على مستوى حضارى مماثل لهم ، بل ان هذا الخط كان يختلف من آن لآخر . كان كل منهما محاربين أشداء ولكن الجنوبيين كانوا يمارسون الزراعة ولهذا كان فى استطاعتهم اعادة أعداد أكبر من السكان فأخذوا تدريجيا يدفعون بخط الحدود نحو الشمال . وحوالى القرن الثالث أو القرن الرابع قبل الميلاد قام شعب من كوريا بغزو لليابان . جاءوا ومعهم أسلحة من البرونز ، والفخار ، وأساليب متقدمة فى الزراعة . وبالرغم من قلة عددهم فقد استطاعوا ، بفضل حضارتهم المتقدمة ، أن ينتشروا كمفاتيح فى المناطق الجنوبية التى يحتلها جماعة الأندوسيين النيوليتيين الذين استوعبهم وامتصوهم . أما أسلاف الأينو فقد اتجهوا بعيدا نحو الشمال حيث بقوا هناك ، ولم يفعلوا شيئا كثيرا فى ميدان الحضارة أكثر من فرضهم على جيرانهم فى الجنوب أن يبقوا دائما على نشاطهم الحربى . ومنذ بداية الحضارة اليابانية نرى بينهم طبقة حربية ، وفى جميع عصور تاريخهم كانت فئة الجنود هى الفئة التى يدها السلطة فى حين نرى فى الصين أن الجنود كانوا ذوى أهمية قليلة ، وكان الصينيون ينظرون الى الجندية بأنها ضرورة يؤسف لوجودها ، وهى لأجل حماية العلماء والمزارعين والتجار .

وكون أحفاد الغزاة تنظيما قبليا أصبح أساسا للمجتمع اليابانى فيما بعد . كانت قبائلهم أو عشائريهم تتبع نظام الزواج من الأقارب ، وكانت تخضع لحكم زعيم للعشيرة كان له مركز كبير بينهم لأنه ممثل العشيرة وحامل «مانا» الجماعة . وانشصر نشاط رجال العشيرة فى الزراعة ، والصيد ، والقتال . أما الصناعة فكانت من نصيب جماعات من الصناع الذين كانوا يتوارثون

حرفتهم ولم يعتبروهم أعضاء حقيقيين في العشيرة ، بالرغم من أنهم كانوا مرتبطين بها ، وكان يسمح لهم باتخاذ زوجات منهم ، وبمرور الزمن اختلطت عائلات الصناع بالعشيرة وأصبحوا يحملون اسمها ويشاركونهم في نسبها . وكان للصناع حرف يتخصصون فيها وهي النسيج الدقيق والبناء وصنع الأدوات والأسلحة . وكانت هناك أيضا طبقة قليلة العدد من الأرقاء الذكور والاناث ، الذين كانوا عادة من أسرى الحرب ومن نسلهم ، وكانت هذه الطبقة في مركز أقل من مركز الصناع ورجال العشيرة .

وكان لكل عشيرة مجموعة آلهتها ، ومن بينها الاله الحارس للعشيرة ، ولكن قوة تلك الآلهة لم تكن معروفة على وجه التحديد ، وكذلك كان الحال فيما يختص بمكانها وطريقة حياتها . وكانت آلهة العشائر المختلفة متشابهة الى حد كبير ، فلما حان وقت الاتحاد السياسي بينها تيسر توحيدها وأصبحت آلهة للجميع . وزعمت كل قبيلة أنها من نسل الهى ، ومن فرع الابن أو البنت الكبرى لذلك الاله . فاذا كان الطفل الأكبر في عائلة الزعيم بنتا أصبحت هى الزعيمة للقبيلة ، وهذا يفسر لنا وجود عدد كبير من الأباطرة النساء في التاريخ اليابانى القديم .

ومن الصعب علينا أن نكون فكرة صادقة عن تاريخ اليابان القديم لأن البحوث الأثرية الدقيقة التى تمت حتى الآن قليلة جدا فضلا عن أن اليابانيين لم يتعلموا الكتابة ولم يدونوا الوثائق الا فى عصر متأخر جدا . كانوا يتناقلون الأساطير والتقاليد عن طريق الرواية الشفهية ، ولم يبدأ التاريخ المدون الا بعد عام ٥٥٢ بعد الميلاد عندما أتى عدد من الكتاب الكوريين والمبشرين البوذيين الى اليابان . زد على ذلك ، أن التاريخ اليابانى كان منذ بدايته متأثرا بالاتجاه نحو الدعاية ، وتسيطر عليه الحماسة الدينية والاعتزاز بالوطنية ، وهذا كله لا يساعد على كتابة وثائق دقيقة صحيحة . وعندما اتصل اليابانيون بالصينيين ذوى العقليّة التاريخية فى القرن السادس الميلادى أحسوا بحاجتهم الى كتابة

تاريخ بلادهم ، وحاولوا أن يصنعوا لهم تاريخا من الأساطير المختلفة التي كانت لديهم . وكانت اليابان مقسمة في ذلك الوقت الى عدد كبير من العشائر التي تقطن في أماكن مختلفة . وحاول كل كاتب أن يقوم بواجهه في كتابة تاريخ لليابان يثبت فيه أن عشيرته كانت تحكم اليابان طيلة أيام تاريخها فلما تمت السيطرة للعشيرة التي أسست العائلة الامبراطورية الحالية كان من مصلحتها أن تزور الوثائق وتدعى أنها كانت دائما صاحبة السلطة في البلاد . وعلى هذا الأساس عظموا من شأن الالهة الرئيسية لهذه العشيرة وهي الالهة «أماتراسو» (Amaterasu) الهة الشمس والتي يدعى الامبراطور الحالي أنه من نسلها ، ورفعوا من مكاتها بين آلهة اليابان بالرغم من أنه لا يكاد يوجد شك في أنها كانت في الأصل الهة قليلة الشأن .

تأسست الامبراطورية اليابانية عندما استطاعت إحدى العشائر أن تخضع العشائر الأخرى لسلطانها واتخذ زعيمها لقب الامبراطور . وكان المجتمع الجديد يسير على الأسلوب الاقطاعي ، وظلت فيه بقايا من العشائر المختلفة . والنبلاء اليابانيون منحدرون من زعماء العشائر ، ولكن عندما استقرت الامبراطورية تفككت وانهارت تنظيمات العشائر وحلت محلها تنظيمات العائلات الكبيرة الممتدة التي تجمع الأقارب الذين يجمعهم نسب الأب ، والتي كانت تتكون من عدد كبير من الأشخاص ولكنه أقل بكثير من عدد أفراد العشائر الأصلية ، وقد حافظت تلك العائلات على ما كان فيها من نظام طبقي . وانتظم المجتمع في أربع طبقات ، كان في أسفلها ال « إيتا » (Eta) أو المنبوذون . ولا يعلم أحد أصل هذه الجماعة ، وربما كان الأرقاء من أسرى الحرب في عصر ما قبل الامبراطورية هم نواتها الأولى ، ولكنها اتسعت تدريجيا حتى شملت منبوذين من جميع الأنواع مثل المجرمين بل وفي بعض الأحيان أعضاء من فئة النبلاء لم تكن لديهم الشجاعة لعمل الهاراكيري عندما كان يحتم ذلك حسن السلوك . ولا يختلف ال « إيتا » في الوقت الحاضر عن غيرهم

من اليابانيين في مظهرهم الجشاني بالرغم من انهم موضع الاحتقار منذ قرون . كان مجرد لمسهم ينجس من فعله وكان عملهم محصورا في الحرف « غير النظيفة » مثل جامعى القمامة ، والذين ينفذون أحكام الاعدام ، والمستغلين بالدباغة والجزارين . والحرفتان الأخيرتان تعتبران في درجة وضعية جدا في كل بلد بوفى لأن البوذية لا تقر قتل الحيوانات ، ومن يفعل ذلك يضعونه في أقل وأقصر منزلة .

ويضعون العامة فوق طبقة الايتا ، ويقسمون العامة الى زارعين للأرض وصناع وتجار . فالزارعون بالرغم من أنهم تعساء اقتصاديا لأنهم معرضون لدفع الضرائب لكل شخص ، كان لهم مع ذلك مكانة اجتماعية لأن زرع الأرض في حد ذاته حرفة شريفة ، فالساموراي نفسه يستطيع أن يكون مزارعا دون أن يقلل ذلك من قدره أو يفقده الانتماء الى طبقة . وكان الصناع دون المزارعين في مكانتهم وربما كان ذلك راجعا الى أن الصناع المهرة كانوا على صلة بالعائلات الحاكمة بصفتهم زبائن لهم ، وذلك في أيام الاقطاع . وكان عددهم قليلا لأنهم كانوا من الأجانب الذين أتوا بهم من خارج البلاد ، اذ كانوا يحضرون مثلا الى اليابان صانع خزف صيني ليعمل في تجارته ، ويعطونه زوجة يابانية ، ولكن أطفاله ، وفقا لعادة الانتساب الى الأب ، لا يمكن أن يصيروا أعضاء حقيقيين في العشيرة ، وكانت العائلات النبيلة تعنى بهم ولكنهم يظلون غرباء دائما .

وكان التجار في الأصل يحتلون مكانة وضعية في اليابان ، ولكن خلال العصر الذى أقفلت فيه اليابان أبوابها في وجه الأجانب في القرنين السابع عشر والثامن عشر أخذت أهميتهم تزداد شيئا فشيئا . وخلال هذا العصر توطدت سلطة الحكومة المركزية ، وأصرت العشيرة الحاكمة ، لكى تسيطر على النبلاء ، على أنه يتحتم على كل نبيل أن يعيش في العاصمة أو يرسل شخصا مسؤولا من عائلته ليعيش فيها . وكان يسمح للأعضاء المختلفين من أى

عائلة من العائلات النبيلة أن يتناوبوا الخدمة في البلاط ، ولكن « الشوجن » كان يصر على وجود عضو من كل عائلة نبيلة على مقربة منه ليكون رهينة عن عائلته . وتطور الاقتصاد الاقطاعي القديم ، الذى كان اقتصادا يعتمد على الاتاج ، فأصبح فخفخة وانفاق مال ؛ لأنه كان يتحتم على النبلاء وعائلاتهم الذين أقاموا في العاصمة أن يدفعوا نقدا ليشتروا الملابس الفخمة التى تتطلبها عادات البلاط ، وأن ينفقوا على منازلهم الاثاق الذى تتطلبه مكاتهم .

وعند ذلك بدأ التجار يتحركون . فخلال التاريخ اليابانى كله كانت توجد النقابات والاتحادات التى كانت تعمل فى المراكز المهمة التى توجد فيها صناعات أدوات الترف . ولم يكن عمال المدن اليابانيون الذين كونوا تلك النقابات طبقة وادعة مسالمة ، وكثيرا ما كانت تلك النقابات المنظمة ترد ما يقع عليها من اعتداء اذا أحسوا بأن النبلاء أساءوا معاملتهم . وكلما ازداد عدد السكان فى المدن تمكن التجار من جمع الثروة ، فى حين ظل النبلاء محتفظين بمكاتهم ولكن التجار بدورهم بدأوا تدريجيا فى ايجاد مكانة لهم ، وفى المائة السنة الأخيرة قبل فتح أبواب اليابان للأجانب ، كان النبيل الذى افتر و يريد أن يحسن مركزه المالى يسعى الى الزواج من ابنة أحد التجار الأغنياء ، ويصبح فى مثل هذه الحالة الزوج المتبنى فى عائلة ذلك التاجر . فقد كانت العادة أنه عندما لا يوجد ابن فى احدى العائلات اليابانية أن يزوجوا بنتا لأحد الشبان الذى يتبنونه ويصبح ابنا ويحمل اسم العائلة ، وفى المائة العام الأخيرة تكونت بهذه الطريقة أعظم بيوت التجار اليابانيين .

وكون النبلاء طبقة وراثية من المحاربين وهم « الساموراي » . ولما كان أبناء النبيل من محظياته من طبقة الفلاحين يعتبرون من النبلاء فقد ازداد أفراد هذه الطبقة باطراد . وكان أعظم النبلاء شأنا هو ال « شوجن » ومعناه « القائد الظافر » الذى كان فى الأصل اللقب الذى يمنحه الامبراطور للنبيل الموكل اليه ادارة منطقة الحدود الشمالية حيث كان اليابانيون فى حرب

لا نهاية لها مع الأينو . وفي العصور التالية أصبح لقباً للحاكم المدني الذي كان من حقه أن يتشنع أمام الامبراطور . ويأتي بعد الشوجن في المرتبة كبار السادة الحريين ، « الديمو Daimyo » ويلحق بهم في المرتبة الزعماء الأقل منهم والفرسان .

ويختلف النظام الاقطاعي في اليابان عن النظام الاقطاعي الأوروبي في أنه كان يحتوي على تركيز كبير للقوة في يد أولئك الذين في أعلى درجة . ففي أوروبا كان الفارس يعيش مباشرة من استغلال رقيق الأرض الذين في أملاكه ، أما في اليابان فإن الضرائب كانت تجمع بوساطة السيد الأكبر ثم يصرف منها للنبلاء الذين في مراتب أقل . وكان الابن يرث أباه في الحصول على هذه المعونة فإذا لم يوجد ابن له كانت العائلة تفقد حقها في الحصول على تلك المعونة . وكون الساموراي الذين فقدوا أراضيهم جماعة خاصة اسمها « رونين Ronin » ومعناها « رجال الأمواج » وكانوا يعملون كجند مأجورين في خدمة السادة المختلفين ، وكانوا دائماً على استعداد للاشتراك في أي هجوم على القارة ، وكان كثيرون منهم يخدمون في خارج اليابان ، ولهذا السبب كان الحرس الملكي للملوك سيام مدة قرون عدة من الرونين اليابانيين .

وسن الساموراي قانونهم الخاص بالأخلاق وهو المسمى « بوشيدو Bushido » ، وكان لهم لباسهم الخاص وعاداتهم الاجتماعية الخاصة . وكانت دروعهم المصنوعة من قطع معدنية مثبتة مع بعضها بخيوط من الحرير كافية لحمايتهم من ضربة أي سيف ياباني ، وكان هذا السيف يستخدم أساساً في شق البطون . أما السيوف نفسها فكانت صناعتها من خير ما عرفت صناعة المعادن في أي مكان في العالم . كانت تصنع من طبقات متعاقبة من الصلب ذي الكربون العالي والصلب ذي الكربون المنخفض يكررون دقها ويطبقونها

ويحمونها في النار ويطرقونها ، ويصل الأمر في صنع بعض السيوف الفائقة الصنع أنهم يصفحونها ما يقرب من ألفى مرة .

وبالرغم من أن أدوات القتال الفردي وأساليبه كانت متقدمة جدا فان فن الحرب لديهم كان بدائيا بسيطا . لم يفهم اليابانيو العصر الاقطاعى الا الشيء القليل عن التكتيك أو المناورات الحربية . وبالرغم من أنهم كانوا يمتلكون الخيل وأنهم استخدموا الجنود الذين كانوا يمتطون ظهورها ، فانهم لم يستخدموا فى أى يوم من الأيام الفرسان الخيالة كسلاح مستقل . كانت الحرب مجرد قوة حيوانية ودهاء ، وكانت المعارك تبدأ عادة بالأبطال الذين يخرجون فرادى من بين الصفوف ثم يتنازل اثنان منها . وكان من حق كل بطل أن يقدم نفسه ويذكر نسه ، فاذا استطاع خصمه أن يجد ثغرة فيما ذكره فان ذلك يساعده مساعدة قوية فى القتال الذى ينشب بينهما بعد ذلك . وبالرغم من مثل هذا السلوك المتسم بالنبل والفروسية فان المعارك الحربية فى اليابان كانت تكلفهم الكثير من الدم المراق لأن قانون الساموراي كان لا يعترف أبدا بالتسليم أو بحسن معاملة الأسرى . ومن المفروض ان الذين لا يتمكنون من الهرب بعد المعركة أن يقوموا بعمل الهاراكيرى . وربما كان هذا التقليد هو السبب الذى ترجع اليه عادة عدم التسليم فى الحروب الحديثة وعدم اتباعهم لما اتفقت عليه الشعوب المتقدمة من حسن معاملة أسرى الحرب .

وكان لقواعد الطاعة واتباع الفرد للنظام التى حتمتها نظم الاقطاع فائدة كبرى عندما اتصلت اليابان بالغرب . فقد ظهر فى الأمة عدد كبير من القادة الوطنيين الذين اعتادت الجماهير على طاعتهم . وساعدت سنوات الاقطاع الطويلة على تجنيد اليابانيين لتجميع القوى الوطنية لاستيعاب عناصر الحضارة الغربية التى رأوا فيها فائدة لهم ، ولا حاجة الى القول بأن التكتيك الحربى الغربى كان من بين الأشياء التى أقبلوا على اقتباسها بحماسة شديدة .

كانت العائلة الامبراطورية ، التى كانت طبقة قائمة بذاتها ، على رأس جميع الطبقات فى المجتمع . وكانت هذه العائلة فى الأصل زعماء احدى العشائر النبيلة القوية ، ولكن عندما أخذوا يعتبرونها من أصل الهى وصارت لها قداستها فصلوها عن النبلاء الآخرين . وبالرغم من أن الزواج فى العائلة الامبراطورية محصور فقط فى داخل العائلة فان أى أمير من تلك العائلة كان يسمح له باتخاذ المحظيات من بنات النبلاء . وطبقا للقوانين اليابانية التى تحتم الانتساب الى الأب ، كان الأطفال الذين يولدون من أولئك المحظيات ينظر اليهم على أنهم من أصل الهى أيضا ، ولهم جميع الحقوق التى لأفراد العائلة الامبراطورية ، ولهذا زاد عدد أفراد تلك العائلة زيادة كبيرة . وإذا حدث أنه كان هناك خلاف بين الشوجن والامبراطور فقد كان يوجد دائما عدد كبير من الأمراء الذين يمكن أن يختار واحدا منهم ليكون بدلا من الحاكم المشاكس وكانت الطريقة المعتادة فى مثل هذه الحالة أن يطلبوا من الامبراطور التنازل لأحد الأمراء الصغار الوادعين .

وكان الأسلوب المتبع فى النظام العائلى أسلوبا واحدا فى جميع الطبقات . كانوا جميعا يتبعون نظام العائلة الممتدة ، كان جميع سكان القرية عادة متصلين ببعضهم البعض بصلة القربى ، وفى بعض القرى البعيدة فى الريف كانوا يعيشون كلهم فى بيت واحد كبير . ويرأس العائلة أكبر أفرادها الذكور سنا ، ولكن أفراد العائلة لم يقدموا له الاحترام الكافى أو السلطة التى كان يتمتع بها رئيس العائلة فى الصين . واعتاد اليابانيون على تفضيل عمل لجان للبت فى أمورهم سواء أكانت المشكلة اجتماعية أم سياسية ، ولهذا كان رئيس العائلة فى اليابان يتحدث طويلا مع أفراد العائلة الآخرين قبل اتخاذ أى قرار هام .

وكان اليابانيون يقبلون على ارتياد منازل الماهرات التى كانت ملأى بفتيات باعتهن عائلتهن أو بنن أنفسهن حتى يدفعن ما على عائلتهن من

، وكان اليابانيون يعتبرون أن مثل هذا العمل شيء شريف ويدأ
 لة البنية فاذا تمكنت الفتاة من تسديد ما عليها من دين للمنزل
 لاعتها أن تتركه وتمود الى قريبها وتزوج . ولكن صاحبات الم
 لائهن في هذه المهنة في كل مكان ، كن يحرصن على أن تبقى ال
 ة دائما .



مدخل أحد المسارح ، من القرن الثامن عشر

وتختلف فتاة « الجيشا Geisha » اختلافا تاما عن الفتاة العاهرة . ففتاة الجيشا مدربة خير تدريب على حسن استقبال الضيوف وفي استطاعتها العزف على آلات موسيقية مختلفة ، وتحسن الغناء والرقص وأن تكون لبقة في حديثها ، وربما قبلت فتاة الجيشا أن تقضى الليل مع صديق إذا أرادت ، ولكن مثل هذا العمل ليس جزءا من مهنتها .

وأقدم تاريخ مؤكد في تاريخ اليابان هو عام ٢٠٠ ميلادية عندما غزا اليابانيون كوريا في أيام الامبراطورة « چنجو Jingo » ، ونحن لا نعرف هذا التاريخ من الوثائق اليابانية لأنه لم يوجد كتبة يابانيون في ذلك الوقت ، وانما نعرفه مما كتبه المؤرخون الكوريون والصينيون . ويلوح أن تلك الامبراطورة كانت حاكمة قوية في وسط اليابان ونجحت في توحيد عدد من العشائر ، كان كافيا للقيام بغزوات على نطاق واسع على أرض القارة . وقد كانت هذه السيدة الامبراطورة چنجو ، أول من جعل اليابان الموحدة تتصل بالقارة الآسيوية ومهدت الطريق لدخول الحضارة الكورية والحضارة الصينية الى اليابان .

وفي عام ٢٨٤ ميلادية كان الامبراطور « أوجين Ojin » قد دعا حكيما كوريا ليعمل مستشارا له ، فأدخل هذا الرجل الكتابة للمرة الأولى الى اليابان ومع ذلك فان الكتابة لم تثبت أقدامها في اليابان الا بعد مرور قرنين أو ثلاثة ، واستمدت اليابان الحضارة والعلم من بر القارة وأصبحت بلدا متمدنا في القرن السابع فقط .

وبنيت أول المعابد البوذية في اليابان قبل عام ٦٠٠ ميلادية بوقت قصير وذلك بإشارة من « شوتوكوتايشي Shotoku Taishi » الذي كان وليا للعهد ونائبا للامبراطور ، وهو الشخص المعروف بأنه مؤسس البوذية في اليابان . وفي عام ٦٤٥ ميلادية بدأ المصلح العظيم الامبراطور « كوتوكو Kotoku »

حملة لتعليم واصلاح شعبه . ونجد لهذا الامبراطور المصلح عدة أسماء ، فمن عادة اليابانيين أنهم يعطون للطفل اسما عند ولادته ويعطونه اسما آخر عندما يكبر ويتولى وظيفة ، ويعطونه اسما ثالثا ، ويسمونه بالاسم المقدس بعد موته . ومهما كان الاسم الذى يطلق عليه فقد عرف هذا الامبراطور أن شعبه أقل مدنية من الشعوب التى تعيش فى القارة فحزم عزما أكيدا على القيام بعمل شئ لاصلاح تلك الحالة ، فلم يدخر وسعا فى ذلك . ويعطينا ذلك صورة من السيكولوجية اليابانية التى ما زالت باقية حتى يومنا هذا . فاليابانيون على استعداد دائم لأن يستمروا ويستفيدوا من آراء واختراعات الشعوب الأخرى ولكنهم يظلون دائما يابانيين فى أعماق نفوسهم وفى اتجاهاتهم وولائهم .

ولم يقتصر « كوتوكو » على محاولته تمدين وتعليم الشعب ، ولكنه عمل أيضا على اعادة تنظيم الحكومة القبلية المتفككة بقوة السلطة المركزية وهى سلطة عشيرته هو بالطبع ، وحاول أيضا أن يقدم لعامة الشعب قدرا أكبر من الحرية والاعتراف بهم . كانت كوريا هى المصدر الرئيسى لما استعارته اليابان وما أدخلته من نظم . وفى القرن التالى عندما زادت أسفار اليابانيين الى مسافات أبعد عن جزائرهم استكشفوا أن المركز الحقيقى للمدنية لم يكن كوريا وانما هو الصين ، وإن الحضارة الكورية التى أقبلوا على تقليدها لم تكن الا نسخة منقولة عن الحضارة الصينية . وعندئذ أرسل الامبراطور لجانا الى الصين لتدرس نظمها وتقدم تقارير عنها . وهذا أمر فريد فى التاريخ الانسانى والحالة الوحيدة المعروفة التى نجد فيها أمة تبدأ عامدة فى اعادة تكوينها على أسلوب تأخذه من أمة أخرى ، ولا توجد أى حالة مماثلة لها الا ما فعله اليابانيون أنفسهم بعد ذلك بقرون كثيرة . وبقيت اللجنة اليابانية فى الصين نحو عشرين عاما اختارت خلالها أفضل من قابلوهم من الصناع الماهرين فى جميع الحرف ، وشجعوهم على أن ينقلوا عبر البحر الى اليابان مهارتهم فى

صناعة اللاكيه (Lacquer) والخزف والمينا وغيرها . كما أرسلوا أيضا الى اليابان بعض العلماء الصينيين ، بل ونجحوا في اجتذاب بعض العلماء والصناع من الهند ومن الهند الصينية للسفر الى اليابان .

وخلال القرنين السابع والثامن عمد اليابانيون الى تجديد حياتهم تجديدا يشبه ما فعلوه بعد ذلك في القرنين التاسع عشر والعشرين . وقد امتاز ذلك التجديد واعادة التنظيم بالناحية السيكولوجية نفسها وهى الاحساس بأنهم أقل من غيرهم كثيرا ، ورغبتهم فى ألا يلحقوا بغيرهم من شعوب العالم وحسب ، بل ويجب أن يتفوقوا عليهم .

وفشلت محاولة تجديد الحضارة اليابانية على نمط الحضارة الصينية فى بعض النواحي . كان نظام امتحانات المسابقة وتكوين طبقة محترفة من الموظفين قد وصل الى المرحلة التى ظلت مستمرة بعد ذلك فى الألف سنة القادمة . وبالرغم من أن اليابانيين حاولوا ادخال هذا النظام الى بلادهم فانهم فشلوا لأن أكثرية الأرستوقراطيين اليابانيين كانوا ما زالوا أميين . وكان هناك عدد قليل من العلماء اليابانيين ، ولكن لم يكن لليابان أى آداب أو فلسفة يابانية يمكن أن يجعلوها أساسا لمثل ذلك النظام الصينى . وكانت الأرستوقراطية الاقطاعية فى الصين قد حطمت ودمرت نفسها خلال الحروب التى سبقت تأسيس أسرة هان ، أما فى اليابان فان الأرستوقراطية اليابانية لم تنحطم ، ونجحت الحكومة المركزية فى وضعها تحت سلطتها ولكن لفترات قليلة . وكانت النتيجة التى ترتبت على ذلك هى أن الموظفين اليابانيين كانوا يمينون فى وظائفهم اذا كانوا موضع الرضا والعطف دون أى اختبار تمهيدى . وفى ظل النظام اليابانى ، وما فيه من عائلات قوية وولاء شديد للعشيرة ، ظهر اتجاه قوى الى جعل الوظائف الحكومية وظائف وراثية دون أى اعتبار للأمانة أو للمقدرة .

وانهارت أيضا محاولة تركيز السلطة في الامبراطور بعد هذا العهد الاصلاحى ، ولكن بعد أن حكم عدد من الأباطرة القادرين بدأ البيت المالك يسير في طريق الفناء . وقد عالج اليابانيون هذا الموقف بأسلوبهم الخاص بهم فقد احتفظوا بالامبراطور كمركز فقط ، فزادوا من قداسه ووضعوا السلطة المركزية في يد احدى العشائر اليابانية القوية ثم نقلوها الى غيرها . وابتداء من القرن التاسع حتى القرن التاسع عشر كان الامبراطور في حالة ركود وسكون بفضل ما كان له من قداسة ، وما أحاط به من قوانين التحريم . فمثلا عندما كان الامبراطور يجلس في أى حفلة رسمية فقد كان يتحتم عليه أن يجلس ثابتا لا يتحرك لأنه اذا حرك رأسه الى أى ناحية فان زلزالا يحدث في الاتجاه الذى نظر اليه ، ووصلت قداسة شخصه الى أنه كان يتحتم قص شعره وأظافره وهو نائم فقط ، وكانت كل أمتعته الشخصية ، بل وأى شئ تلمسه يده ، أشياء محرمة (طابو) . وكان يتحتم أيضا أن يتناول الامبراطور طعامه في كل وجبة في أطباق جديدة يكسرونها بعد استخدامها مباشرة ، وكان هذا مدعاة لاستخدام أدوات رخيصة ومن نوع ردىء في القصر الامبراطورى .

وعامل الحكام المديون امبراطورهم باحترام شديد في أول الأمر ، ولكن هذا الاحترام أخذ يتضاءل تدريجيا مع مرور الزمن حتى أصبحوا لا ينظرون اليه الا كرمز لا أكثر . وتبلورت هذه الصلة بين الامبراطور وبين الحكام المدينين في عهد « يوريموتو Yorimoto » الذى حكم بين عامى ١١٨٥ و ١١٩٩ . فقد حدثت في ذلك الوقت حرب طاحنة بين عشيرتين من العشائر القوية وانضمت معظم العشائر الصغيرة الى أحد الجانبين . وبدأ يوريموتو الذى كان على رأس الجانب الذى خرج منتصرا في تلك الحرب في اعادة تنظيم الامبراطورية حتى يستطيع السيطرة عليها .

ولم تكن اليابان حتى ذلك الوقت أمة تميل ميلا خاصا الى الحرب . لقد كانت توجد فيها المنازعات العادية بين العشائر ولكن بعد هذا التنظيم الجديد

الذى قام به « يوريموتو » والذى شمل تغييرا فى نظم وراثه الوظائف والدخل ظهرت طبقة حرية خاصة ظلت محتفظة بسلطتها فى البلاد حتى دخل الاصلاح الى السياسة اليابانية فى منتصف القرن التاسع عشر بعد زيارة الكومودور « پرى Perry » لليابان .

وفى عام ١١٩٢ اتخذ « يوريموتو » لنفسه لقب « شوجن » ولم يكن هذا اللقب جديدا فى اليابان ولكن منذ ذلك الوقت أصبح له مدلول جديد وأصبح يعنى دكتاتورا حريبا . واحتفظ « يوريموتو » بالامبراطور والبلاط فى « كيوطو » ، ودون أن يهدم نظام الوظائف المدنية الذى كان قائما من قبل خلق ادارة حرية تحت سلطانه ، وظل على وثام مع الرهبان البوذيين الأقوياء وعين مشرفين عسكريين وجامعى ضرائب عسكريين فى جميع الأقاليم . كان يوريموتو سياسيا نابغة وبقي نظامه المزدوج فى ادارة الحكومة مدى ٦٥٠ عاما أى حتى منتصف القرن التاسع عشر .

وفى القرن التاسع عشر أصبح الشوجن أنفسهم مجرد العوبة فقد آلت السلطة الى بيت حاكم آخر ونشأت وظيفة جديدة أصبحت هى صاحبة السيطرة . ففى المائتى السنة التى سبقت الاصلاح على النمط الأوروبى كانت الحكومة مكونة من امبراطور مقدس يقف بعيدا عن التدخل ولا يحرك ساكنا على الاطلاق ، ويليهِ « شوجن » مقدس ، وسلطانه محدود جدا ثم يأتى بعد ذلك الحكام الحقيقيون وهم خلفاء هيدىوشى (Hideyoshi) الذى استطاع أن يتخلص من الشوجن وأسس ما يمكن أن يسمى بحق دولة جماعية ، وقد نجحت هذه الحكومة فى حسن تدريب اليابانيين واعدادهم لما سيأتى بعد ذلك .

كان البرتغاليون هم أول الأوروبيين الذين وصلوا الى اليابان اذ وصلوا اليها فى عام ١٥٤٢ ووصل بعد فترة قصيرة الاسبان والهولنديون والبريطانيون وبدأت بعض المعاملات التجارية بين اليابان وأوروبا ، وأتى الأوروبيون ومعهم

شيتان كان لهما أثر عميق على الحضارة اليابانية وهما الأسلحة النارية والمسيحية . فقد أمدت الأسلحة النارية السادة الاقطاعيين بقوة جديدة وساعدتهم على أن يصبحوا أكثر استقلالاً عن السلطة المركزية . واستبدلوا منازلهم البسيطة المشيدة من الخشب بقصور مشيدة من الحجر تشبه الى حد ما مثيلاتها الأوروبية لأنهم كانوا في حاجة الى حصون تستطيع أن تصد اطلاق المدافع عليها .

وأول مبشر ديني وصل الى اليابان هو الأب الجزويتى « كسافيه Francis Xavier » الذى وصل الى اليابان عام ١٥٤٩ يصحبه أفراد من جمعية يسوع ، ووجد أولئك المبشرون استجابة سريعة بين اليابانيين ؛ اذ أن عقيدة الكنيسة الكاثوليكية وطقوسها تشبه الديانة البوذية ، وكان الكهنة البوذيون فى ذلك الوقت قد أخذوا يفقدون سلطانهم على الشعب بعد أن كانوا ذوى نفوذ كبير فى الماضى ، وكان الشعب اليابانى اذ ذاك على استعداد لأن يتجه نحو زعامة روحانية جديدة . ووجدت العقيدة الجديدة مساندة من الحكومة المركزية لأنها ساعدت على الاتجار مع الغرب . ولم يمض قرن واحد بعد وصول كسافيه الى اليابان حتى كان فيها مائتا كنيسة مسيحية ومائة وخمسون ألف مسيحي ، وأرسل السادة الاقطاعيون رسلا الى روما ، وبدا الأمر كما لو أن اليابان كانت فى طريقها لتصبح أمة مسيحية .

وفى هذا العصر ظهر فى اليابان ثلاثة زعماء أقوياء وهم « نوبوناغا Nobunaga » و « هيديوشى Hideyoshi » و « ايباسو Iyeyasu » كان « نوبوناغا » أحد سادة الحرب الاقطاعيين الذى تغلب على جيرانه وأصبح سيد العاصمة ، وتلاه « هيديوشى » ، وكان من طبقة وضيفة ، بل ولم يكن من طبقة الساموراي . وهذه هى المرة الوحيدة فى تاريخ اليابان التى يرتفع فيها شخص من العامة الى أعلى مركز مباح لشخص لا يكون من النسل الالهى .

وبعد أن نجح « هيديوشي » في توحيد اليابان تحت دكتاتوريته العسكرية رمى بناظره الى التوسع خارج اليابان أيضا . فغزا معظم كوريا التي كان يعتبرها الباب الموصل الى الصين وهو الذي قال بأنه سيطوى الصين كما يطوى الانسان الحصير ، ولكن اليابانيين لم ينجحوا في ذلك الوقت أكثر من محاولتهم الحديثة لغزو الصين ، فان الصين بلد لا يمكن أن يطويه أحد بسهولة . فقد وصل الجنود اليابانيون الى بلاد الصين في الوقت الذي كانت فيه أسرة « منج » في حالة فوضى واضطراب ولم تكن في البلاد سلطة مركزية قوية ولكن بالرغم من ذلك فقد نظمت الصين صفوفها عندما تعرضت للمهاجمة .

وكذلك فعل الكوريون . فبالرغم من أنهم لم يكونوا في يوم من الأيام شعبا متوقد الذكاء أو ميالا الى الحرب فقد أظهروا قوة ونبوغا في صد الاعتداء الياباني . فقد اخترعوا أول سفن مصفحة بالحديد ، وبنوا أسطولا من تلك السفن التي أسماها « السلاحف » أغرقت الأسطول الياباني وقطعت خطوط تموينهم . واخترع الكوريون في ذلك الوقت أيضا أول مدفع يرمى بقنبلة متفجرة ، وهو اختراع لم تكن أوروبا قد توصلت اليه في ذلك الوقت ، ولكنه ظهر فيها بعد ذلك بزمن قليل . فتوقف غزو « هيديوشي » وتمكن الكوريون بعد موته من تخليص أنفسهم من النير الياباني .

كان غزو كوريا في الواقع اتجاها ترتب عليه اختفاء السلطة العسكرية من اليابان ، وساعد الحكومة الجديدة على تثبيت نفسها في حكم البلاد أكثر من ذي قبل . ومن الأمور المشاهدة منذ زمن بعيد أن أي حرب تثير الوطنية في الناس هي خير وسيلة لاتحاد الشعب . فبالرغم من أنه لم يكتب النجاح في النهاية لذلك الغزو فانه أوصل اليابانيين الى أرض القارة . ولهذا اتجه الكثيرون من أفراد الـ « روين » نحو الجنوب وانتشروا في اندونيسيا ، وفي

جنوب شرقى آسيا ، حيث عملوا جنودا مرتزقة . كان أكثر أولئك المهاجرين رجالا من طبقة النبلاء الذين أصبحوا فقراء ، أو أصابهم التحقير بسبب ما اقترفوه ، أو من بين الأفراد الذين يملك التفانى في حب المغامرة عليهم كل مشاعرهم ، ولهذا قطعوا صلتهم بعائلاتهم النبيلة وأصبحوا مستقلين بأنفسهم . وان الغزو اليابانى الحديث لأندونيسيا ليس الا استمرارا لذلك الأسلوب القديم وهو تدفق الفائض العسكرى من بين السكان اليابانيين الى مناطق خارج جزرهم .

وتولى الأمر بعد « هيديوشى » الزعيم الثالث « ايباسو » الذى كان فى الأصل خصما له ثم أصبح مساعده الأول . وجه « ايباسو » اهتمامه نحو الشؤون الداخلية أكثر من اهتمامه بالغزو فى الخارج ، وتم تثبيت دعائم البلاد بصفة نهائية تحت زعامته . فعين نفسه فى منصب « شوجن » فى عام ١٦٠٣ وبذلك أصبح مشرفا على نظام العسكرية الاقطاعية التى أنشأها يوريموتو قبل ذلك بأربعمائة سنة . وأنشأ عاصمة عسكرية فى « ايدو Edo » وهى طوكيو الحالية بعيدا عن البلاط الامبراطورى . وخلفه فى الحكم ابنه ، ثم ابن ابنه ، وتمتعت اليابان بعصر سلام أكثر من مائتى سنة .

لم يمتنع اليابانيون أثناء تلك الفترة عن الغزو فى الخارج فحسب ، بل قطعوا الصلة بينهم وبين العالم الخارجى قطعا تاما . ولم يرغب الحكام اليابانيون فى أن يعرف شعبهم ما يحدث خارج بلادهم ، وكانوا يحرصون بصفة خاصة على ألا يسافر واحد منهم الى خارج البلاد ، ولهذا كانوا يحكمون بالاعدام على كل يابانى يترك الجزيرة ثم يعود اليها ثانية . وتحولت المركزية الى دولة تحكمها قوى البوليس مع وضع كثير من المراقيل فى الطريق . كان يتحتم على كل من ينتقل من اقليم الى آخر أن يكون معه جواز سفر وكانوا يحصلون ضرائب محلية كما كان الأمر فى فرنسا . كانت اليابان تعيش اذ ذاك فى حدود نظام بيروقراطى يذكرنا كثيرا بالستار الحديدى الروسى .

وقبل ذلك الوقت كان اليابانيون شعبا بحريا ، ولم يمض جيل واحد بعد اتصالهم بالأوروبيين حتى كانوا يبنون سفنا قادرة على عبور المحيط الهادى ، وكانوا يتاجرون مع سكان الشاطئ الغربى لأمريكا . فلما أغلقت اليابان أبوابها صدر قانون يقضى باعدام أى شخص يبنى سفينة تزيد حمولتها عن حد معين . وكانت هناك أيضا قوانين أخرى تحدد اثناء السفن حتى لا يستطيع أحد أن يبنى سفينة تستطيع أن تمخر عباب المحيط . وكانوا يعفون الأجانب من هذه القيود ، وبخاصة عددا من التجار الهولنديين الذين سمحوا لهم باحتلال جزيرة صغيرة فى أحد الموانئ . وكان الطب هو الشئ الأجنبى الوحيد الذى اعترف اليابانيون بحاجتهم اليه ، ولهذا سمحوا لطلبة الطب بتعلم اللغة الهولندية حتى يستطيعوا قراءة كتب الطب الهولندية .

ومهما يكن من أمر ففى خلال الوقت الذى كانت فيه أبواب اليابان مفتوحة اتجه اليابانيون اتجاهها قويا يدعو الى الذهشة نحو استمارة الآراء والأساليب الفنية الصناعية من أوروبا . وبعد أن أقفل اليابانيون على أنفسهم الباب استمروا فى ادخال التحسينات على ما أخذوه عن أوروبا . فمثلا تقدموا كثيرا فى صناعة الأسلحة النارية التى أخذوا نماذجها الأصلية من أوروبا ، ولكنهم أدخلوا عليها تعديلات تلائم الصناعات اليدوية اليابانية . فقد صنعوا عدة الحرب التى يلبسها المحاربون ، ولكنهم أدخلوا تعديلات على عدة الحرب الأوروبية المصنوعة من الصلب فجعلوها من قطع من المعدن مغطاة باللاكه ومن الجلد الخام يثبتونها معا بأربطة من الحرير . وارتقوا كثيرا فى صناعة المعدن وكان لسيوفهم حد كحد موسى ولكنه يتحمل كل أنواع الاستخدام القاسية . وكان للسيد من طبقة الساموراي أغمدة متعددة لسيفه ، بعضها بسيط وقور المظهر لأجل الاحتفالات الدينية ، وبعضها مطعم بالذهب لأجل احتفالات البلاط .

وكان اليابانيون في جميع العصور شعبا محبا لكل ما هو حسن مع الرغبة في الكمال الجمالى . كان فهم يعتمد اعتمادا تاما على ما كانوا يجلبونه من الخارج ، وخاصة من الصين ، ولكنهم يغيرونه تدريجيا حتى يرضى احساسهم الطبيعى للنسب المتطابقة والأسلوب الزخرفى ، وما يتفق مع مزاجهم . ولهذا السبب ، نجد انه في الفترة التي مرت في القرنين السابع والثامن ، وفي فترة أخرى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر عندما أتت موجة جديدة من التأثير الصينى ومعهما التصوير بالكتابة الجميلة ، كاد الفن في اليابان يصبح فنا صينيا خالصا .

وحوالى عام ١٦٠٠ ، أى في عصر « هيدوشى » حدث تقليد وتوليف لهذا الأسلوب في ناحية التصوير ، وأنتج اليابانيون في هذه المرة تلك الحواجز (البارافانات) المزخرفة الزاهية الألوان التي كانت تزين القصور الامبراطورية والمعابد .

وبظهور طبقة بورجوازية من التجار ظهر نوع جديد من الفن ، وذلك باستخدام طريقة لا تكلف كثيرا ، وطبع الألوان بوساطة الحفر على الخشب التي استخدمت قبل أى شئ آخر لرسم التفاهات من الحياة اليومية . وكانت هذه الرسوم هي أول نوع من أنواع الفنون اليابانية استرعى انتباه العالم الغربى . وفي عصر أحدث تأثر الغرب بتلك البساطة المزيفة في الأدوات المستخدمة في طقس تقديم الشاي المأخوذ في الأصل عن احدى الشعائر في ديانة الزن البوذية Zen Buddhism ، كما كان للفن اليابانى في عمارة المساكن أثر عميق على الفن الحديث .

واليابانيون ، مثل الصينيين في تسامحهم ازاء جميع أنواع المعتقدات . كانت البوذية أولى الديانات العالمية التي دخلت الى اليابان ، وحلت مكان عبادة الطبيعة التي كانت الديانة الأصلية في اليابان ، ولكن الديانة البوذية لم تصبح في مركز قوى الا في القرن السابع فقط عندما أخذت تتفرع منها فرق

محلية مختلفة . وكان للمسيحية أثر كبير في القرنين السادس عشر والسابع عشر ولكن الشوجن منعوها وقضوا عليها قضاء يكاد يكون تاما . وكانت الديانة الوطنية اليابانية ، وهي ديانة « الشنتو Shinto » التي تفرعت أصلا من عبادة الطبيعة تمشي جنبا الى جنب مع البوذية والمسيحية . وفي معظم مراحل التاريخ الياباني كانت البوذية ديانة المثقفين والأرستوقراطيين . وكان للبوذية الزنية ، بما فيها من ضرورة الرفح من شأن شخصية الفرد ، انتشار كبير بين طبقة الساموراي بصفة خاصة . وقد تسرب سلوك هذه الفرقة الدينية الى جميع مظاهر الاحساس بالجمال ، والى الأخلاق ، في جميع أنحاء اليابان . وكانت الشنتو في الأصل ديانة يمارسها أتباعها كمقيدة غير منظمة في المناطق الريفية ، ولكن بعد أن فتحت اليابان أبوابها وأخذها بأساليب الحياة الحديثة أصبحت الشنتو هي الديانة الرسمية للدولة .

وفي خلال العصر الذي كانت فيه البلاد خاضعة لتنفيذ الحكام من الشوجن كانت الأمور مستتبة ، ويرجع جانب من ذلك الى نبوغهم في معالجة الموضوعات الجنسية ، وأساليب منع الحمل والى طريقة ، لا يجب اليابانيون الاعتراف بها ، وهي الطريقة المسماة « التخفيف من العائلة » . لم يتبع اليابانيون العادة الشائعة في قتل الأطفال في صغرهم وهي طريقة التخلص من الطفل الزائد عن الحاجة بقتله بعد ولادته بفترة قصيرة . ولكن كبير العائلة الياباني الذي كان لديه من الأطفال عدد أكبر من العدد الذي يستطيع إعالة كان ينتظر حتى يصبح عمر الطفل عامين أو ثلاثة ، وتظهر معالم صحته وذكائه ، فيتخلصون منه اذا كان ممن لا تتضح فيهم تلك المعالم . وهذا « التخفيف » يشبه تماما ما يفعله الانسان بالمحاصيل المزروعة ، فهو يخلع النباتات الضعيفة حتى تزيد فرصة التحسين أمام النباتات الأخرى . وعلى أى حال فعندما أدخلت اليابان نظم التصنيع واحتاجت تنمية الموارد التجارية الى أيد عاملة رخيصة ، واحتاج

الامبراطور الى عدد أكبر من الجنود ، فقد شجعوا الناس على انجاب عدد أكبر من الأطفال ، وفي وقت قصير . ولما كان اليابانيون شعبا يحب وطنه ويؤمن بالنظام فقد لبوا النداء وزاد عدد السكان زيادة كبيرة .

أقلت اليابان أبوابها في عام ١٦٣٦ ، وظلت كذلك حتى عام ١٨٥٣ عندما فتحتها ضد ارادتها . فقد حدث اذ ذاك أن أمريكا أرسلت الى اليابان أسطولا من السفن الحربية أقوى بكثير جدا مما كان لدى اليابان اذ ذاك ، واقترحت عليها بشكل مؤدب أن الأمريكان يطلبون عقد معاهدات تبيح لهم التجارة مع اليابان فاذا لم توافق على ذلك اضطرت أمريكا بالخ و كان هذا العمل شبيها جدا باقتراح عقد المعاهدة الهجومية الدفاعية الذي تقدمت به روسيا الى فنلندة ، ولم يرحب به اليابانيون الا كما رحبت به فنلندة . فقد كان اليابانيون يفضلون أن يظلوا هائنين في عزلتهم عن العالم .

وبعد وصول الكومودور « پرى » الى اليابان بوضع سنوات فتحت بعض بطاريات الشاطئ اليابانية نيرانها على بعض السفن الأوروبية المسلحة التي ردت عليها في الحال بنيران سريعة وبدقة أدهشت اليابانيين . فأيقنوا تماما أنهم لا حول لهم ولا قوة أمام الأسلحة الأوروبية الحديثة ، وأدركوا أنهم اذا أرادوا أن يتصلوا بالعالم مرة ثانية فلا مندوحة لهم من أن يأخذوا بأسباب المدنية بأسرع ما يمكن . كان اليابانيون معتادين تقليد الأمم الأخرى عن قصد ، ولكن الصين التي سبق أن قلدها واتخذوها نموذجا لهم كانت في ذلك العهد في حالة فوضى وضعف ، وفي طريقها الى الوقوع تحت السيطرة الأوروبية . ولهذا اتجه اليابانيون نحو الغرب وأرسلوا وفودا الى مختلف بلاد أوروبا ليجلبوا منها الأشياء النافعة التي جعلت تلك البلاد متفوقة على غيرها . عرف اليابانيون أن البلاد المختلفة كانت تتفوق في نواح مختلفة ولهذا نظموا جيشهم على غرار الجيش الألماني ، وبحريتهم على نسق البحرية البريطانية ، وماليتهم ومصانهم على مثال ما كان في فرنسا وانجلترا . أما الولايات المتحدة فقد تجاهلوا في

ذلك الوقت لأنها كانت غير متقدمة التقدم الكافي الذى يستحق الدراسة أو التقليد .

كانت زيارة پرى فى عام ١٨٥٣ ، وما وافى عام ١٨٦٧ حتى كانت الثورة على النظم الداخلية قد تمت فقصوا نهائيا على الامتيازات الاقطاعية وأعادوا للامبراطور حقه كحاكم سياسى ، وألا يظل رمزا مقدسا ولا شئ غير ذلك . ومن حسن حظ اليابان أن امبراطور ذلك العصر المسمى عصر « ميچى Meiji » كان رجلا قديرا . وأقام اليابانيون حكومة جديدة كان لها من الكيان الديموقراطى والدستورى المظهر الكافي لنيل احترام الأوروبيين ، ولو أنها كانت قائمة فى حقيقة الأمر على نظام يابانى فى جوهره ، وهو النظام الذى يقوم على أساس سيطرة العائلات . ومن الأمور التى تلفت النظر أنهم فى ذلك التنظيم الجديد جعلوا الاشراف على الجيش من نصيب احدى العشائر والاشراف على البحرية من نصيب عشيرة أخرى كما اتجهت عشائر أخرى الى النواحي المختلفة فى التجارة وغيرها . ومرت فترة من الزمن قل فيها تقدير اليابانيين لتقاليدهم القديمة فى الحياة لأن التفوق الأوروبى أذهلهم ، فلم يعيروا حضارتهم القديمة أى أهمية ، وكثيرا ما كانوا يبيعون الكثير من أعظم ما أخرجه الفن اليابانى لقاء شئ تافه بسيط يقدمه أحد الأوروبيين الذين يعرفون قيمتها ، واتجه اليابانيون الى محاولة الالام بنواحي الابداع فى التصوير فى العصر الفيككتورى الذى كان يطلق عليه اذ ذاك اسم ما قبل رافايل .

وكان لاعتياد اليابانيين منذ وقت طويل على اتباع النظام اثر مباشر على اقبالهم على العمل معا نارادة متحدة فى تنفيذ ما يتلقونه من أوامر . ووضعوا تخطيطا دقيقا لادخال عناصر التمدن الى بلادهم ، وللسيطرة على أسواق العالم ، كما وضعوا أيضا تخطيطا طويل المدى للسيطرة على العالم ليتيحوا الفرصة لجميع الأجناس لتعيش فى ظل الامبراطور الرحيم . وقدنوا تلك الخطط خلال الحرب العالمية الاولى ، ولكنها أخفقت وانهارت بسبب سوء تقدير اليابانيين فى الحرب العالمية الثانية .

القسم العاشر

الدنيا الجديدة

الفصل الأربعون

السكان الاصليون في أمريكا الشمالية

ان قارتي أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية دينا جديدة بحق ؛ فقد فصل بينها وبين مراكز التمدن في الدنيا القديمة محيطان واسمان ولهذا تأخرت جدا عن ركب المدنية . وعندما وصل الكاشفون الاسبان الى شواطئ أمريكا كان سكانها قد بلغوا من مراحل الحضارة ما كان قد بلغه جنوب غربي آسيا في عام ٣٥٠٠ ق . م . وما كان قد بلغه غربي أوروبا في عام ١٥٠٠ ق . م .

ومما يدل على أن أولئك القدماء كانوا شعبا موهوبا ، أنهم رغم عزلتهم توصلوا ، وهم مستقلون عن غيرهم ، الى معظم الكشوف والاختراعات التي كانت أساسا للحياة المتقدمة . ولو أن أولئك الناس أعطيت لهم الفرصة ليخطوا الى الأمام بحضارتهم ، ويحددوا مصيرهم بأنفسهم ، فربما كان في وسعهم أن يقدموا مساعدات قيمة للمدنية العالمية .

وهناك كثير من التخمينات والنظريات البراقة التي اخترعها أصحابها عن أصل الهنود الأمريكيين ، بل ان اسمهم نفسه ليس الا نتيجة خطأ وقع فيه كريستوف كولب . وقد حاول بعض محترفي التخمين ، في أكثر من مرة ، أن يثبتوا أن أولئك الهنود من قبائل اسرائيل العشر المفقودة ، وقال آخرون انهم نسل الذين ظلوا أحياء من رجال أسطول الاسكندر الأكبر ، أو من المهاجرين من قارة أطلاتيس الأسطورية ، ومن الجزيرة الأسطورية المسماة جزيرة مو(Mu) في المحيط الهادى . ولما كانت آثار حضارة المايا (Maya) في أمريكا الوسطى تشبه في كثير من النواحي آثار قدماء المصريين فقد ظهرت

أيضا بعض المحاولات لاثبات أن أولئك الهنود أتوا من الدنيا القديمة ، متجاهلين حقيقة هامة وهي أنه في الوقت الذي كان فيه المايا ينون معابدهم كانت المعابد المصرية قد هجرها المصريون منذ آلاف السنين .

وما من شك في أن أول من جاء واستقر في أمريكا جاء من آسيا عن طريق الاسكا . وأن النوع الانساني لم يتطور تطورا مستقلا في تلك القارة ولم توجد فيها أى حفريات من أى نوع انساني اللهم الا من الانسان العاقل . لقد أتى الانسان الى هذه القارة بعد أن وصل في تطوره الى المرحلة التي نسميها الانسان الحديث ، وكان يعرف عند قدومه اليها استخدام الأدوات والنار ، ويعرف نوعا من اللغة . ونظرا لأنهم كانوا مضطرين لاختراق بعض المناطق القطبية ، فمن المعقول أن تفرض أنه كان يعرف أيضا كيف يعد لنفسه نوعا من الملابس والمأوى الذي يأوى اليه . وفي عصر الجليد كان ما نسميه الآن برزخ برنج (Bering Strait) جسرا أرضيا ؛ لأن المثلج الكبيرة خزنت كثيرا من كميات المياه ، وكانت تلك الكمية كافية لانزال مستوى المياه . ونظرا لأن مياه المنطقة القطبية كانت محجوزة من ناحية الشمال فان تيار المحيط الهادى الدافئة كانت تمر بشواطئ الاسكا وشمال شرقى سيبيريا . هذه هي الحالة التي ربما كانت عليها المنطقة عند حدوث الهجرات الأولى ، وكانت أكثر منطقة الاسكا غير مغطاة بالجليد في ذلك الوقت ولكن مثلج منطقة الشاطئ كانت تحول دون الهجرة نحو الجنوب .

ومن الجائز أن أولى موجات الهجرة سارت قريبة من السهل الشاطئ نحو الشمال ونحو الشرق من وادى ماكنزى . وكان هناك ممر خال من الثلوج على طول الجهة الشرقية من جبال الروكى (Rockies) ، وكانت تتوافر هناك حيوانات الصيد .

وسبقت الحيوانات الآسيوية هجرة الانسان الى هذه القارة ، وقد عثر على حفريات انسانية ومعها أدوات قديمة ، وعثر على مقربة منها ، أو مدفونة

معها ، عظام من حيوانات قد انقرضت الآن ، ومنها الجمل وذلك الحيوان الضخم الذى كان يعيش على الأرض ويسمى الرسييف (Sloth) وثور اليبسون التيلورى (Bison Taylori) والحصان الأمريكى الأصل . واعتقد بعض الباحثين فى وقت من الأوقات أن هذا يدل على قدم الانسان فى هذه القارة لأن تلك الحيوانات قد انقرضت من الدنيا القديمة منذ أزمان بعيدة جدا ، ولكن البحث بطريقة « كربون ١٤ » الجديدة قد أثبت أن الحيوانات عاشت فى أمريكا فترات أطول ، ولم يكن الانسان هو الذى أتى فى عصر أقدم . ان أقدم تاريخ وصل اليه فحص ما عثر عليه فى أمريكا لم يزد عن ١٠٠٠٠ سنة ، فاذا فرضنا أن وصول المهاجرين الى المناطق الجنوبية فى أمريكا الشمالية قد استغرق بضعة آلاف من السنين فان ١٢٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ سنة هو الحد الأقصى لوجود الانسان فى أمريكا .

وقد ساعد على توضيح تلك الصورة طريقتان للتاريخ اخترعهما العلماء الأمريكيون . أولاها طريقة اكتشافها الدكتور أ. ا. دوجلاس (A.E.Douglass) وهو فلكى كان عاكما على دراسة وضوح البقع الشمسية وتذبذب الجو ، فعرف وهو يدرس المقاطع العرضية لأشجار الصنوبر فى جنوب غربى أمريكا أن مواسم المطر والجفاف مدونة واضحة فى علامات الحلقات التى تدل على النمو السنوى لتلك الأشجار . وبمقارنة حلقات بعض الأشجار القديمة ، وذلك فى كتل الأخشاب التى استخدمت فى تشييد بعض المباني فى السنوات الأولى من استعمار أمريكا ، وبعض أخشاب من مواقع يرجع تاريخها الى عصر ما قبل التاريخ ، استطاع دوجلاس أن يضع تقويما للتاريخ بواسطة حلقات الأشجار يمتد تاريخها من سنة ١١ ميلادية حتى العصر الحاضر ، وقد ثبتت صحة تطبيق هذه النظرية فى المواد التى توجد فى جنوب غربى أمريكا الشمالية فقط .

أما الطريقة الثانية للتأريخ فهي متفرعة من البحوث الذرية الحديثة . فان أحد الايزوتوبات المشعة — وهى كربون ١٤ — موجود دائما على سطح

الأرض ، اذ أنه ينتج من الاصطدام بين الأشعة الكونية وذرات النيتروجين ، وتمتص الأشياء العضوية الحية ، سواء من النبات أو الحيوان ، كميات من الكربون الموجود في الجو ، ولكن هذا الامتزاز يتوقف عند موت هذه العناصر . ولما كان كربون ١٤ له نصف حياة مقدارها ٥٥٦٨ + ٣٠ سنة ، فمن الممكن تقدير النسبة المئوية لهذا الايزوتوب (isotope) في الكربون الذى تحتويه العينة ، يؤرخ العينات التى يرجع تاريخها الى ٢٥٠٠٠ سنة . وهناك عوامل متعددة يمكن أن تؤثر على النتيجة ومع ذلك فان طريقة كربون ١٤ أثبتت أنها أفضل الطرق فى تأريخ المواد القديمة .

وجميع الحفريات الانسانية التى كشفت تساعدنا على الالام بالاختلافات الجثمانية للهنود فى العصر التاريخي . والفارق كبير ، لأنه بينما كان المهاجرون الأوائل بوجه عام من النوع المغولى على الأرجح ، فقد انتشروا فى كثير من الأنحاء واستقروا فى جماعات قليلة متصلة بصلة القربى ، فى أماكن ذات مناخات مختلفة ، وسرعان ما أصبح لكل منها مظهر جثمانى خاص بها . ولجميع الهنود عيون سوداء وشعر أسود ولون جلودهم متوسط الاسمرار ، ولكن مثل هذه المميزات لا يمكن أن تظهر فى الحفريات . فمن دراسة العظام نعرف أن بعضهم كان طويل القامة والبعض الآخر قصيرها . وكان بعضهم ذوى رؤوس مستطيلة ، على حين كانت رؤوس البعض الآخر مستديرة . وكان لبعضهم أنوف طويلة دقيقة وللبعض الآخر أنوف فطساء عريضة . وفى أعماق الطبقات عثر الباحثون على أدوات من الشطقات الكبيرة ، وهى أدوات غير متقنة الصنع تذكرنا بمبيلاتنا من العصر الباليوليتى فى شرقى آسيا ، وفى طبقة أخرى أحدث عهدا من الطبقة السابقة عثر على بفايا كثيرة تمكن المكتشفون من جمعها الى بعضها فأصبحت صورة تكاد تكون كاملة لحياة الانسان البدائى الذى كان يعيش فى نفس الوقت الذى عاش فيه الماموث والريفي .

كان جميع المهاجرين الأوائل من الصيادين الرحل ومن صائدى الأسماك ؛

لأن هذه هي الحياة الوحيدة التي يمكن أن يعيشها الإنسان في المناطق القطبية التي كان يتحتم عليهم اجتيازها . وعندما اتجهوا جنوبا في وادي ماكنزي الى مناطق السهول وجدوا أرضا ملأى بحيوانات الصيد وخالية من الأعداء الانسانيين ، وفي هذه البيئة زاد عددهم زيادة كبيرة في وقت قصير . وعندما تراجع الجليد نحو الشمال وجدوا طريقا آخر بين جبال روكي وسهل الشاطئ . يؤدي الى الحوض الكبير (Great Basin) . ولم يتم استيطان أمريكا بموجة واحدة من أمواج المهاجرين ، ولكن تم بطريق التسلسل المستمر الذي استمر آلافا من السنين . وكان جميع المهاجرين الأوائل يتجهون نحو الجنوب بحثا عن بلاد أفضل حتى جاء الاسكيمو ، وكانوا آخر من وفد من تلك الهجرات ، جاءوا ومعهم المعدات الكاملة للحياة القطبية والطرق الفنية لصيد الثدييات البحرية الكبيرة فاستقروا في المنطقة ومنعوا غيرهم من المهاجرين من اجتيازها .

واقسم سكان القارة منذ وقت مبكر جدا الى نوعين متباينين من أنواع الحضارة : وهما جامعو البذور ، وصائدو الحيوانات الكبيرة . فالذين استقروا في هضبة جبال روكي الى الغرب من كاليفورنيا وشرقا في تكساس ، كانوا من جامعي البذور ؛ اذ لم يوجد في تلك المنطقة الا القليل من حيوانات الصيد ، ولكنها ملأى بالأطعمة النباتية البرية والبذور والثمار العنابية وثمار الجوز والجذور والأبصال . ولما كان أولئك الناس غير صيادين فإن قاذفاتهم المدببة ومنها رؤوس السهام كانت قليلة وفجة الصنع ، ولكنهم صنعوا أدوات من الشطافات الكبيرة والمهاشم وعرفوا كيف يحمصون الحبوب ويطحنونها على حجر مقعر لتصير دقيقا ، كما عرفوا كيف يجففون ما يتبقى مما يجمعونه ويخزنونه في سلال محبوكة الصنعة من الحبال المجدولة ، ولهذا السبب كانت سلاتهم تعرف باسم « صانعي السلال » .

وتجمع صائدو الحيوانات في السهول العليا في غربي الولايات المتحدة ، وذهب القليلون منهم الى الغابات الشرقية والى حدود تكساس . ومن المعروف

أن الجماعات التي تعتمد في الحصول على قوتها من الصيد تصبح خاضعة لبيئة المنطقة التي تعيش فيها خضوع أى نوع من أنواع الثدييات ، وتبتمد عن الجهات التي تحتم عليهم اختراع أو استعارة طرق جديدة لحياتهم . فالصياد الذي كان يعيش في منطقة السهول كان يرى في وجود منطقة ملأى بغابات كثيفة حاجزا شيئا بسلسلة الجبال . ولهذا ظل الصيادون في السهول حيث توافرت حيوانات الصيد ، وكانوا يستكملون وجبات طعامهم من البذور البرية والجذور .

وتمتاز هذه الحضارة بصناعة عدد كبير من الأدوات الدقيقة الصنع من القاذفات المدببة المصنوعة من الحجر ، والسكاكين ، والمقاشط . ويمكن التعرف على نوعين من القاذفات المدببة (رؤوس السهام ورؤوس الحراب) في هذه الحضارة يسمى أحدهما « فلمس Folsom » والثاني يسمى « يومان Yuman » وهما اسما المكانين اللذين عثر في كل منهما على ذلك النوع الخاص في ولاية نيومكسيكو . فالنهاية المدببة لدى الفلمس ليست الا قطعة مدببة من الحجر ، فيها على كل من الجانبين حفر طولى أعماق من السطح ، أما الأداة التي استخدمها اليومان فهي طويلة وغير عريضة ومشطوفة في كلتا الناحيتين بصورة واحدة ولا يوجد في سطحها خط عميق ، وهاتان الجماعتان ، جماعة الفلمس وجماعة اليومان هما أسلاف قبائل الصيد الأمريكية الذين نعرف أنهم كانوا يصطادون الماموث وغيره من الحيوانات المنقرضة . ومهما يكن من أمر فإن الطرق التي كانوا يتبعونها في الصيد هي نفس الطرق التي استخدمها الهنود في عصرهم التاريخي . كانوا على الأرجح يحيطون بالحيوانات ويحاولون جمعها الى بعضها ثم ينقضون عليها بالحراب . وقد عثر على النهايات المدببة التي كان يستخدمها الفلمس مغروسة في عظام ثيران البيسون . ومن المشاهدات التي تثير الدهشة أن عظام الذيل وجدت ناقصة في جميع الهياكل العظمية التي عثر عليها للبيسون مما يثبت أن سكان فلمس كانوا يسلخون الحيوانات

ويقون الذيل مع الجلد . ولما كانت جميع الهياكل العظمية قد عثر عليها كاملة فان ذلك يدل على أنهم اتبعوا على ما يظهر الطريقة التي كان يتبعها الصيادون في العصر التاريخي فيما بعد ، وهو أنهم كانوا يفصلون اللحم من الشور ويحملونه في قطع كبيرة الى مساكنهم .

واذا نظرنا الى الموضوع نظرة عامة يمكننا القول ان أقدم ما عثر عليه يدل على أن أولى موجات الهجرة الى أمريكا كانت لقوم يعرفون نوعا فجا من حضارة الشطفة الحجرية ، وكانت لهم المميزات العامة للشعوب الأسترالية — المنغولية . ويرجح أنهم وصلوا الى أمريكا خلال آخر عصر لتقهقر الجليد عندما كانت الجهة الشرقية من الولايات المتحدة ما زالت مغطاة بالجليد وهذا هو السبب في أنه لم توجد حتى الآن أى بقايا حضارية من ذلك العهد في تلك المنطقة . وانتشر أولئك المهاجرون في معظم أمريكا الشمالية وكانوا أول من وصل الى أمريكا الجنوبية . ويحتمل أن تكون الهجرات قد توقفت لفترة طويلة لأن إحدى الفترات التي اشتدت فيها البرودة جعلت اجتياز برزخ برنج أمرا مستحيلا . وعندما تحسن المناخ عادت الهجرات من آسيا مرة أخرى ، وجاء في هذه المرة قوم كانوا في المرحلة الباليوليتية العليا من حضارتهم وكانوا يعرفون معرفة جيدة حياة الصيادين الرحل . كان أولئك القادمون من النوع المسمى « الآسيويون القدماء » Palaeoasiatic ، ولهم مميزات تجعلهم وسطا بين الجنس القوقازي والجنس المغولي ، ويشبهون شبيها كبيرا والهنود الحمر التاريخيين . واختلط أولئك الذين جلبوا معهم حضارة الصيادين مع السكان الذين كانوا هناك قبلهم واقتبسوا منهم جميع البذور في المناطق التي كان الصيد فيها أقل من أن يغنيهم عن الحصول على طعامهم من الأرض .

ومنذ هذه الهجرة الثانية تعددت الهجرات عن طريق بوغاز برنج ، ربما بالقوارب ، لأن عبور هذا البوغاز كان يتوقف بسبب سده بالجليد من آن لآخر نظرا لتغير الحالات الجوية . واستمر أولئك المهاجرون يتقاطرون نحو

الجنوب ونحو الشرق يبحثون عن بقاع أفضل . ثم جاء بعد ذلك جماعة يمارسون حضارة المناطق المحيطة بالقطب ، يعرفون الصيد في الثلج ويعرفون الأدوات المصنوعة من العظم ويعرفون استخدام قلف الأشجار في صنع الزوارق والأوعية ، وانتشرت هذه الجماعة من المهاجرين من بوغاز پرنج متجهين جنوبا في كندا سائرين على حدود البحيرات التي تحيط بها الغابات .

كان أولئك الآسيويون القدماء ، هم أجداد الهنود الذين عاشوا في شمال شرقي أمريكا في العصر التاريخي ، وهم المعروفون باسم الهنود «الاجونكيين» (Algonkians) ، أما المهاجرون الذين أتوا بعدهم فكانوا من نوع يزيد في مميزاته المغولية .

وحوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد وصل الاسكيو الى بوغاز پرنج ، وكانوا على دراية بنوع من الحضارة القطبية القديمة ، ولما كانوا معتادين تماما على الحياة في المناطق القطبية لم يكن هناك ما يدعو الى البحث عن مناخ أفضل فاستقروا في المنطقة وسدوا الطريق على أى هجرات أخرى .

وتدل البقايا الأثرية على أن الزراعة نشأت في أماكن مختلفة متعددة في أمريكا وكل منها مستقل عن الآخر ، ثم تلا ذلك استعارتهم للحاصلات بعضهم من بعض . وجميع النباتات الهامة الصالحة للطعام التي استخدمها سكان عصر ما قبل التاريخ في أمريكا من أصل محلي ، وأهمها جسيما نبات الذرة الذي تم تدجينه تدجينا تاما حتى أصبح لا ينمو من تلقاء نفسه أو يبقى بدون عناية الانسان به . واعتقد الناس منذ وقت طويل أن الموطن الأصلي لهذا النبات كان في مرتفعات المكسيك حيث توجد بعض المحلات الزراعية التي يرجع تاريخها الى عام ١٥٠٠ ق . م . ولكن البحوث الحديثة تميل الى القول بأن هذا النبات أو النبات الأصلي الذي تفرع منه تم تدجينه في أمريكا الجنوبية ، وربما في پاراجواي (Paraguay) ، وذلك بالرغم من أن أحد الأنواع البدائية من

نبات الذرة ، والذي يرجع تاريخه الى حوالى عام ١٠٠٠ ق . م . عثر عليه في بات كيڤ (Bat Cave) في نيومكسيكو .

ووجدت الذرة بيئة صالحة لها في وسط أمريكا وهناك ضموها الى محصولين محليين استطاعوا تدجينهما وهما الفول والقرع العسلى ، وقد زرعت معا هذه الأنواع الثلاثة وهى الذرة والفول والقرع العسلى في معظم مناطق أمريكا الوسطى والمناطق الأخرى التى تقع في الشمال منها . زرعوا الذرة في التلال وكانت أعوادها تصلح لتسلق عليها أعواد نبات الفول . أما القرع العسلى فكان يزرع بين التلال المزروعة بالذرة ، وقد سمي الهنود الذين استقروا في شرقى الولايات المتحدة هذه المحاصيل الثلاثة باسم « الأخوات المقدسات » . وانتشرت الذرة منذ عصر مبكر نحو الشمال ولكن عندما دخلت زراعة الفول والقرع توافرت للسكان وجبات فيها مقادير متوازنة من النشاء والبروتين والفيتامينات . ويسرت هذه المحصولات سكنى المناطق التى كانت تقل فيها حيوانات الصيد فيعجز سكانها عن الحصول على كمية كافية من البروتين في طعامهم ، وقد ترتب على ادخال هذه المحصولات الثلاثة الى أى منطقة كانت ازدياد عدد السكان وسرعة تقدم الحضارة .

ولم تكن تربية الحيوان في أمريكا ذات أهمية في أى يوم من الأيام لأنه لم يوجد فيها الا القليل من الحيوانات التى تستحق الاستئناس ، ولم يستأنس منها الا الكلب والديك الرومى في شمالى المكسيك . وقد تم استئناس « الديك الرومى » أولا في الجنوب الغربى ، ويلوح أنهم استأنسوه للحصول على ريشه أكثر من استئناسهم له للحصول على لحمه . أما الكلب فقد كان موجودا في كل مكان في أمريكا وربما جاء في صحبة أول المهاجرين من آسيا ، وكان رفيق الانسان في جميع تجولاته في هذه القارة . وقد استخدموا الكلاب في المنطقة القطبية وفي منطقة السهول كحيوانات للجبر ، وفي بعض الأماكن كانوا يأكلون الكلاب ، وبين جماعة الساليش (Salish) الذين كانوا يعيشون على

الشاطيء استخدموا شعر الكلاب كمادة لعمل أغطيّتهم ، وكانوا يربطون الكلاب من رقابها فيتساقط شعرها . وقد ذكر أوائل الرحالة أن كلاب الساليش كانت حيوانات شرسة جدا ، وهذا أمر غير مستغرب . وفي منطقة الاندس استأنسوا اللاما وغنم الالپاكا والكياياء (الخنزير الهندى) واستخدموا الأول والثانى لأجل الانتقال والحصول على الصوف ، أما الثالث وهو الكياياء (الخنزير الهندى) فقد ربوه لاستخدامه كطعام لهم .

وعندما وصل اليّض الى أمريكا كان السكان الهنود قد بدأوا يغيرون حياتهم نظرا لما تتطلبه الزراعة . فقد انتشرت القرى شبه الثابتة التى تعتمد فى حياتها على الزراعة ووصلت فى الشمال الى كل مكان تصلح البيئة فيه لنمو الحاصلات ، ولهذا ظهرت أنواع من الأساليب الحضارية مرتبطة بالمؤثرات المناخية والبيئية . ويمكن تقسيم السكان الذين كانوا يقطنون شمالي المكسيك فى عصر ما قبل التاريخ الى تسع مناطق رئيسية : (١) الاسكيو (٢) الأرض القاحلة (٣) الغابات الواقعة فى الشمال الشرقى (٤) الغابات التى فى الجنوب الشرقى (٥) السهول (٦) هضبة جبال روكى (٧) الجنوب الغربى (٨) كاليفورنيا (٩) الشاطيء الشمالى الغربى .

فالمناطق ١ و ٢ و ٣ و ٥ و ٩ كان سكانها ذوى حضارة تعتمد كثيرا على صيد الحيوانات أو صيد الأسماك ، وهى حضارات تتصل اتصالا وثيقا بحضارة المنطقة القطبية فى الدنيا القديمة . أما فى مناطق ٤ و ٦ و ٧ و ٨ فان طعام الخضراوات كان هاما جدا لديهم مع اعتمادهم بين حين وآخر على صيد الحيوان أو صيد الأسماك .

ويستحيل علينا أن نعطي وصفا مسهبا لتلك المناطق فى هذا الكتاب وسنعطى وصفا مختصرا لتوضيح النقط الرئيسية فى التنظيم وفى المميزات التى جعلت كلا منها منطقة مختلفة عن جارتها .

١ - عاش الاسكيمو على شاطئ المنطقة القطبية من مدخل سانت لورنس حتى جنوبى الاسكا ، وكانت حضارتهم خاضعة لظروف مناخية قاسية وغير عادية ، طفت فيها الحاجة الى الطعام والى المأوى على كل شئ آخر ، فان انعدام المأوى فى هذه المنطقة لا يؤدى الى عدم الراحة وحسب ، بل يؤدى الى الفناء . ولهذا كان نضالهم لأجل البقاء هو الأمر الذى استوعب كل جهودهم فظل تنظيمهم الاجتماعى والدينى على درجة قليلة من التقدم . لم يعرفوا نظام العشائر ، ولم يعرفوا شيئا عن أى نظام حكومى ، بل لم يعرفوا أى تنظيم قبلى محدد المعالم . كانت المحلة السكنية للاسكيمو مكونة من مجموعة من العائلات يرأسها ، ولا يحكمها ، أقوى رجل فيهم توافرت فيه الشخصية القوية والقوة البدنية . وكانوا متساهلين الى أبعد الحدود فى موضوع العلاقات الجنسية ، وذلك بسبب قسوة الحياة فى المناطق القطبية ، وكان تبادل الزوجات أمرا عاديا بينهم ، فمثلا اذا ذهب أحدهم الى المرتفعات لصيد الكاريبو (الوعل الأمريكى) بينما يبقى آخر على الشاطئ لصيد السمك وكانت زوجة صائد السمك ماهرة فى تجهيز جلد الكاريبو بينما أن زوجة الصائد غير ماهرة فى ذلك فان كلا من الرجلين يأخذ زوجة الآخر لتعيش معه طيلة الموسم .

والمسكن الشتوى للاسكيمو فى الشرق وفى المنطقة الوسطى هو البيت الجليدى ويسمى الايجلو (igloo) ، ويشيد من كتل من الجليد يضمونها معا لتكوّن قبة . أما الاسكيمو الغرييون فكانوا يشيدون لهم مساكن ، الجزء الأكبر منها تحت الأرض . وهم يدفنون تلك المساكن باستخدام قناديل يحرقون فيها زيت عجل البحر ، وكانوا يستخدمون هذا الزيت أيضا فى طهى طعامهم . وكانت هذه القناديل تدفئ المساكن الجليدية تدفئة تامة تجبر ساكنيها فى العادة على خلع كل ملابسهم عندما يكونون فى داخل تلك المساكن . أما فى الصيف فان الاسكيمو يعيشون فى خيام من جلود الأيائل أو جلود عجول البحر . وفى بعض الأحيان كانوا ينصبون تلك الخيام داخل المساكن الجليدية (الايجلو)

لتكون لديهم ما يشبه الحجرة بين تلك الخيمة والحائط الجليدى الخارجى لينموا تأثير الحرارة فى الداخل من اذابة الجليد .

وتركزت دياتهم حول الصيد وكان لديهم كثير من أنواع الطابو المتصلة به . فاذا لم ينجحوا فى الصيد فانهم كانوا يرجعون ذلك الى انتهاك حرمة أحد الطابوات . وفى مثل هذه الحالة يدعون الرجال المطيبين الذين يسمونهم « انجكوك » (angekoks) ليكتشفوا المذنب ويجبروه على الاعتراف العلنى . وكان أولئك المطيبون يعقدون جلسات روحانية فى خلال فصل الشتاء الطويل يحضرون فيها الأرواح (انظر موضوع الديانة القديمة فى المناطق القطبية فى الفصل الثانى عشر من هذا المؤلف) .

والمعبود الرئيسى لهم هو الالهة « سdna Sedna » التى تعيش فى أعماق البحر وكانت صاحبة السلطان على ثدييات البحر ، وعلى حيوانات الصيد ، فاذا أغضبها أحد منعت الحيوانات فيقل محصول الصيد . وكان الانجكوك يدعونها مرة فى كل عام وذلك بعمل رقصة طقسية خاصة تعود بعدها الى البحر ثانية وهى فى حالة نفسية طيبة بعد أن يكونوا قد أرضوها . ويخاف الاسكيو من الموت ومن الأشباح . فاذا مات أحدهم فانهم يحطمون أو يرمون كل شئ قد مسه الشخص عند موته والا تعرضوا للموت . وغالبا ما يتركون المكان كله وينقلون مخيمهم الى جهة أخرى .

وبالرغم من هذا المستوى المنخفض نسبيا فى كثير من المظاهر الحضارية فان الاسكيو قوم ذوو ذكاء خارق ، يعتمدون كثيرا على أنفسهم ، وهم غير مسلمين ، ولكنهم يستخدمون كل نبوغهم فى النواحي العملية . فهم يحبون الأجهزة والآلات دائما ، وأيضا اتصلوا بالأوروبيين فانهم استطاعوا استخدام الآلات الميكانيكية بسهولة ومهارة . وبين عامى ١٨٧٠ ، ١٨٨٠ كان بعض الاسكيو من أهل الاسكا يعملون دائما فى سفن صيد الحيتان كمساعدين ميكانيكين . وقد أخبرنى أحد وكلاء الشركات المشتغلة بصيد الحوت فى

برزخ يرتج انه أعطى في مرة من المرات ساعة مكسورة الى أحد أصدقائه من الاسكيمو الذي لم يكن قد رأى ساعة في حياته من قبل . فكك أجزائها ودرسها وأخذ في تصليحها ، وبعد بضعة أسابيع أعادها اليه وهي تدور . وذكر دنكان سـترنـج (Duncan Strong) عن أحد الاسكيمو في لبرادور (Labrador) الذي استطاع أن يركب أجزاء موقد بالكيروسين وصل الى المعسكر وهو مفكك الأجزاء وعجز علماء الانثروبولوجيا عن تركيبه ، ولكن الاسكيمو الذي لم يكن قد رأى موقدا في حياته من قبل عكف على دراسة الرسم ، وركب أجزائه الى بعضها البعض في أقصر وقت ممكن .

وأظهر الاسكيمو نبوغا خارقا في صنع جميع نظارات الثلج كما اخترعوا لمبات الزيت . والزلاقات التي يصنعها الاسكيمو أفضل من أى شيء من مثيلاتها استطاع الأوروبيون صنعه . كانت تلك الزلاقات مصنوعة من عدة أجزاء من الخشب ، وتربط تلك الأجزاء بعضها الى بعض بسيور من الجلد الخام ، ولكنهم لا « يشقونها » مع بعضها حتى تبقى على مرونة كافية للسير فوق جليد خشن أو أرض غير مستوية دون أن تتحطم من كثرة الرجرجة . وكانوا يضعون في باطن المزلقين قطعا من العاج ، ومن الأشياء التي تدعو الى الدهشة أن الاسكيمو لم يصنعوا أبدا أحذية للسير بها على الجليد أو اسكيات . وكانت الكلاب تجر الزلاقات ، وابتكروا عدة خاصة لتلك الفرق من الكلاب . وكانوا يحولون دون تعقد الاسارين اللذين يمتدان من الرقائية بعمل وصلات يصنعونها من قطع العاج ، كما أن الوتد الذي يثبت فيه الاسار كان في داخل حلقة مثبتة في الخلف ، وبذلك تستطيع أن تدور دون عائق .

واستخدم الاسكيمو الـ « كاياك » (Kayak) في الصيد أثناء الصيف ، وهو قارب مصنوع من جلد الحيوان البحري الذي يسمى الفظ يكسون به هياكل من خشب مربوط الى بعضه ، وذلك بالاضافة الى بعض قطع من العظام تستخدم كأضلاع لهذا القارب . ويدل صنع هذه القوارب دون شك على نبوغ

يدعو الى الدهشة وكانت صالحة جدا للسفر في البحر ، اللهم الا اذا بقيت في الماء أكثر من ٤٨ ساعة فان الماء يرشح اليها ويصبح الجلد طريا ويفصل عن الضلوع . واذا حدث أن عاصفة من العواصف هبت وكان أحد الاسكيمو في « كايك » وقذفت به العاصفة الى البحر ، فان هذا الكايك يتفكك به . وفي الشتاء يلبسون ملابس من الجلد يفصلونها ويتركون الفراء عادة فيها ، ويلبسون في أرجلهم حذاء فيه تحسين على ال « موكاسين » ويسمونه « المكوك » (mukluk) ويتكون نعله وجوانبه من قطعة واحدة . وباستثناء الأحذية الطويلة المصنوعة من المطاط فان المكوك هو الحذاء الوحيد الذي يحفظ الأرجل من أن تبتل بمياه الثلج .

وصنعوا نوعا من الفخار كافيا لطبخ طعامهم ، بالرغم من أنهم لم يحرقوه نظرا لعدم توافر الخشب . وصنعوا بعض السلال غير المتقنة ، ولكنهم ركزوا مهارتهم في الأشياء المصنوعة من العظم والحجر . ففي ليالى الشتاء الطويلة ينحتون تماثيل صغيرة لطيفة للانسان والحيوان يصنعونها من العاج . وليس لديهم معادن ولكن يحدث بين آن وآخر في العصر الأخير أن المياه تقذف بأشياء بها أجزاء من الحديد وعند ذلك يستفيدون منها ويصنعون منها السكاكين والفؤوس .

ولما كانت المنطقة التي يعيش فيها الاسكيمو من المناطق التي لم يطعم فيها البيض فقد ظلت بعيدة عن المؤثرات التي تحدث من جراء استقرارهم في أى مكان على السكان الأصليين . ولهذا احتفظوا بطابعهم الأصلي أكثر من أى سكان أصليين في أى منطقة أخرى في القارة ويكادون يعيشون اليوم نفس المعيشة التي كانوا عليها عندما رسا خرستوف كولومب على شاطئ هذه البلاد .

٢ — والمناخ في الأرض القاحلة (Barran Ground) والتي تشمل المنطقة الداخلية في كندا من هدسون باي (Hudson Bay) . حتى جبال الروكي تقرب

في صعوبة العيش فيها من منطقة الاسكيو ، بل ان مشكلة الطعام فيها أكثر قلقلة وخطورة . وكان سكانها يعتمدون كثيرا على صيد الأسماك من المياه العذبة وصيد الأرانب الثلجية ووعل الكاريبو الذي يعيش في قطبان هائلة في تلك الفيافي القطبية ، تهاجر من مكان الى آخر حسب فصول السنة . فاذا نجح الصيادون في العثور على واحد من تلك القطعان فانهم يستطيعون أن يحصلوا على قدر كبير من اللحم يكفيهم عدة شهور ، أما اذا أخفقوا في ذلك فلا مندوحة لهم من أن يعيشوا على مقادير ضئيلة من الطعام .

وحضارة أمثال هؤلاء الناس هي حضارة البدو الرحل . ففي الصيف ينتقلون من مكان الى آخر بزوارق مصنوعة من قلف الشجر أو من الجلد . أما في الشتاء فانهم يستخدمون أحذية الجلود ، أو زلاقة مصنوعة من قطعة من قلف الشجر يحنون الجزء الأمامي منها الى أعلى ، أما مساكنهم فهي اما خيام من الجلد مخروطة الشكل واما من الأكواخ البسيطة .

وبالرغم من قسوة المناخ وقلة ما لديهم من التقدم الحضارى فان تنظيمهم الاجتماعى أكثر نضوجا من تنظيم الاسكيو . فقد كان لديهم تنظيم مبتكر لمجموعات من السكان . كانت كل مجموعة منها تعيش معا وتضطاد معا ويحكمها زعيم ، وكثيرا ما تصبح هذه الزعامة وراثية في عائلة معينة . وبالرغم من أنهم لم يمارسوا احتفالات دينية خاصة بمجموعتهم ، فقد كان لديهم « شامان » يقومون بالطقوس السحرية والشعائر التى تجلب الشفاء . وكانت لعقيدة الحارس الخاص أهمية لديهم ، وهذا الحارس الخاص كائن له قوة فوق القوى الطبيعية يستطيع الفرد أن يتصل به عن طريق الرؤيا في المنام . كما يستطيع هذا الفرد أن يحصل من حارسه على ما يحتاج اليه من معونة في صيد الحيوان وصيد الأسماك اذا راعى بعض الطابوات ، وقدم له بعض القرابين .

٣ - أما الغابات التى في الشمال الشرقى فتشمل شرقى كندا وتمتد

شمالا حتى مناطق التندرة (tundra) وشرقي الولايات المتحدة من المحيط الأطلسي حتى السهول العظمى (Great plains) وتمتد جنوبا حتى فرجينيا . ولهؤلاء هذه المنطقة صلة طويلة وثيقة بالبيض أكثر من جميع الهنود الآخرين . فربما كان مصير جميع المستعمرين الأوائل هو الموت جوعا اذا لم تعلمهم قبائل المنطقة الساحلية الشرقية طريقة زرع الحاصلات المحلية . ومن الأمور التي ساعدت البيض أيضا أن الأمراض التي جلبها المستكشفون الأوائل معهم قضت على عدد كبير من القرى الواقعة على الشاطئ فأصبحت القرى ذاتها خالية ، وحقلها الصالحة للزراعة مهجورة ، فاستولى عليها أولئك المستعمرون ، ولو كانت القبائل في كامل قوتها لكان استقرارهم أكثر صعوبة . وفي الوقت الذي تم فيه كشف أمريكا كانت هذه المنطقة آهلة بقبائل مختلفة كان يسير أكثرها على نظام مفكك من نظم العشيرة ، ولكل قبيلة منها زعيم يرأسها . وفي معظم أرجائها كانت المنطقة ملأى بالغابات وفيها حيوانات صيد كثيرة لا تغادرها ولهذا كان الحصول على لحومها ميسورا في جميع أيام السنة . وكان معظم أفراد القبائل مزارعين وصيادين في وقت واحد ، ولكنهم لم يهتموا بحقولهم الا عند الزرع وعند الحصاد ، وكانوا يذهبون للصيد في الأوقات الأخرى . ومن بين الأشياء الغريبة في تلك المنطقة وجود نظام غريب لتملك الأفراد للأراضي ، وهو من الأنظمة النادرة بين سكان أمريكا الأصليين . كان هذا النظام سائدا بين القبائل الالجونكية (Algonkian) التي كانت تعيش في المنطقة الواقعة بين لبرادور وفرجينيا ، ويقضى بأن تخصص لكل جماعة مساحة محددة لصيد الحيوان وأماكن محددة لصيد الأسماك . فإذا أرادت جماعة أخرى أن تصطاد الحيوانات أو الأسماك في منطقة غيرهم فعليهم أن يدفعوا أجرا مقابل الصيد في الغابة أو للحصول على حق صيد السمك ، وذلك لمدة مؤقتة . وكانت الأرض لا تباع بأي حالة من الحالات ، ولهذا فعندما عرض البيض على الهنود من السكان الأصليين أن يدفعوا لهم ثمن

أراضيهم ظن السكان الأصليون أنهم يدفعون حق السماح لهم بالصيد ، وثارت
ثأرتهم عندما حاول البيض الاستيلاء على الأرض وطرد الهنود منها .
وكانت منطقة الغابات الشمالية الشرقية آهلة بعدد كبير من القبائل
المختلفة التي يستحيل علينا وصفها كلها ، ولكن القبيلة التي كان لها أكبر
الأثر على المستعمرين كانت قبيلة الايروكوى (Iroquois) . كان الاتحاد
المكون من عشائر الايروكوى قوة يجب أن يعمل لها حساب في الأيام الماضية ،
وربما كان النظام الذي سار عليه اتحاد عشائرها ذا أثر على تكوين التحالف
والاتحاد بين المستعمرين .

كان الايروكوى يعيشون في المنطقة التي حول نيويورك ، وفي المنطقة
الشرقية من البحيرات الكبرى ، وكانوا متقدمين في حضارتهم أكثر من جيرانهم
المحيطين بهم من قبائل الألجونكى . والواقع ، أنهم كانوا يشاركونهم في بعض
مظاهر حضارتهم ولكن الايروكوى انفردوا على الأقل في ناحيتين هامتين
وهما اتساع نطاق الزراعة بينهم وسفستهم السياسية . ويهنا أمرهم بنوع
خاص بسبب الدور الذي لعبوه كقوة سياسية في كل من التاريخ الاستعماري
والتاريخ الثوري في أمريكا .

والقبائل الرئيسية التي نعرفها باسم الايروكوى هي الاتحاد الذي كان
يتكون من خمس منها وكانوا يسمونه « عصبة الأمم الخمس » . وكانت
هذه القبائل من الشرق الى الغرب هي الموهوك (Mohawk) والأونيدا (Oneida)
والأونانداجا (Onandaga) والكايوجا (Cayuga) والسنكا (Senca) ، وكانت
كلها تعيش في ولاية نيويورك الحالية . وكانت هناك قبائل أخرى تتكلم لهجات
من لغة الايروكوى وهي قبيلة هورون (Huron) التي كانت تعيش في الشمال
من بحيرة هورون وقبيلة المحايدين وكانت تعيش في شمال بحيرة اري (Erie)
وقبيلة اري وقبيلة كونستوجا (Conestoga) وغيرها في ولايات أوهيو (Ohio)
وبنسيلفانيا (Pennsylvania) . وكان الهورون هم الأعداء التقليديين للأمم

الخمس ، وزادت عداوتهم عندما أصبحوا تحت النفوذ الفرنسى منذ وقت مبكر ، بينما وقعت قبائل الأمم الخمس تحت النفوذ البريطانى .

وسمى المحايدون بهذا الاسم لأنه بالرغم من أن منطقتهم تقع بين منطقة عصبة الايروكوى البارزة ومنطقة أعدائهم الهورون فان كلا الفريقين المتحاربين لم يحارب هذه القبيلة الصغيرة . وكان السبب فى احتفاظ المحايدين بحيادهم أنهم كانوا يملكون المحاجر الوحيدة التى يمكن استخراج الطران الجيد منها فى كل المنطقة ، وكانت تاجر فى هذه المادة الصالحة لعمل رؤوس السهام وغيرها وتبيعها للفريقين ، فلم يجرؤ أى فريق على مهاجمتهم لأنه كان يعلم أن الفريق الآخر سيهب للدفاع عن هذه القبيلة الصغيرة والمهاجر ، أى ان المحايدين كانوا فى موقف شبيه بموقف السويد فى الحرب العالمية الثانية حتى بدأ الايروكوى يحصلون على الأسلحة النارية والسيوف من الهولاندين والانجليز ، ولم يعودوا فى حاجة الى الطران ، وعند ذلك هاجموا المحايدين وأخضعوهم .

كان الايروكوى يختلفون اختلافا واضحا عن جيرانهم من قبائل الالجونكى فى تنظيمهم العائلى والاجتماعى لأنهم كانوا ينتسبون الى الأم ، وكان جيرانهم يميلون الى نظام الانتساب الى الأب . كانت العائلة التى تتكون من جماعة من الأخوات أو بنات العم والعمة والخال والخالة اللاتى تربطن ببعضهن البعض صلة الانتماء الى النساء يعشن معا فيما كان يسمى « البيوت الكبيرة » وكانت هذه البيوت مصنوعة من الخشب وتحتوى على عدد من المساكن تقطن فى كل منها احدى العائلات . وكانت السلطة على كل تلك العائلات لاحدى النساء ، وكانت اكبرهن سنا ، وكانت فى الغالب أما أو جدة للنساء اللاتى كن زعيمات للعائلات . وكان أحد هذه البيوت الكبيرة أو اثنان أو ثلاثة منها تكون فرعا ، وكان فرعان أو ثلاثة منها تكون العشيرة . واختلف عدد العشائر فى كل قبيلة من قبائل الايروكوى ، وفى جميع الحالات كانت هذه العشائر

لها صلة قرابة في عدة قبائل . كانت العشائر عادة تتبع عادة الزواج من خارجها أى أنه لم يكن يسمح لأى فرد من أفراد العشيرة أن يتزوج من عشيرته ولكنه يستطيع أن يتزوج سواء من قبيلته هو أو من قبيلة أخرى . وكانوا ينظرون الى أعضاء العشيرة الواحدة كأقارب يرتبطون برابطة الدم مهما كانت قرابتهم لبعضهم أو حتى اذا لم تكن بينهم قرابة . وكانت صلات القرابة الخارجة عن القرابة عن طريق الأم أقل أهمية ، وبعد مرور أجيال قليلة ينظرون اليها كأنها لم يعد لها وجود .

وبهذه الطريقة كانت القبائل والعشائر التى تنتسب الى الأم أساسا متشابكا للتنظيم الاجتماعى للايروكوى اذ كانت القبائل وحدات يربط بينها العيش في مكان واحد ويتكلمون فيما بينهم لغة واحدة ، وكانت تلك القبائل تمش في منطقة الايروكوى ويتكلمون عدة لغات أو لهجات على حين كانت العشائر تغفل داخل تلك القبائل وتكون وحدات من القرابة الممتدة ذات التماسك الاجتماعى .

وكانت النساء يقمن بأكثر الأعمال الزراعية بإرشاد السيدة الأكبر سنا في كل فرع أو في كل عشيرة . وكانت جماعات العمل من بينهن منظمة كت تنظيم النحل ، وكانت التعليمات تصدرها مقدما الأم الكبيرة الى جميع نساء الفرع أو العشيرة . وكانت العاملات يشتغلن متعاونات في أرض مشتركة الملكية ، وكانت المحصولات تقسم بين أفراد العائلات المشتركة معا . وكانت هذه الجماعات الشبيهة بجماعات النحل تحبى معا المناسبات اللطيفة لقضاء وقت ملىء بالسرور كما يشتركن معا في العمل ، وقد اقتبس هذه الطريقة أول المهاجرين الى الولايات المتحدة .

وكان العمل الرئيسى الذى يقوم به رجال الايروكوى هو الصيد والاشتغال بالأمور السياسية والحرب ، وكانت كلها تستلزم السفر الكثير ولهذا كانوا يتركون للنساء القيام بالحرف التى تستلزم الإقامة في مكان ثابت .

وتمثل عصبة الايروكوى نوعا من النظام السياسى ، واذا حاولنا معرفة أصل نشأته نجد أن مرور الزمن قد أحاطه بالكثير من الغموض ، وأضافت اليه الأساطير كثيرا من الحواشى ، ولكن رغم ذلك فإن خطوطه الرئيسية ما زالت واضحة . لقد بدأ هذا النظام على الأرجح فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، أو مستهل القرن السادس عشر ، أو كما يقول الايروكوى حتى الآن : « ثلاثة أو أربعة أجيال قبل مجيء الرجل الأبيض » . وتذكر الأساطير أن اللذين أوعزا به اثنان أولهما يسمى « هياواتا » (Hiawatha) ويكتبونه أحيانا هيونهوواتا (Hayonhwatha) والثانى يسمى « دجاناويدا » (Deganawida) وكانا ممن تنزل عليهم الرؤيا . واستطاعا بعد التغلب على كثير من العقبات أن يجعلا الناس يقبلون آراءهما . كانت قبائل الايروكوى فى ذلك الوقت فى حالة تنازع وحروب فيما بينها وبين جيرانها من غير الايروكوى . كانت العصبة التى دعيا الى تكوينها عصبة سلم وكانا يدعوان الى تحريم الحرب . وكانت قبيلة « أونونداجا » (Onondaga) هى القبيلة التى قاومت الدخول فى ذلك التحالف ولكنها قبلت أخيرا الدخول فى عضوية العصبة بشرط واحد وهى أن تكون لها المكانة الأولى بينهم .

ووضعوا لهم قانونا سياسيا أو دستورا يتكون من مواد وتشريعات تشمل ما يمكن عمله ازاء أى طارئ تصور حدوثه واضعوا ذلك الدستور ، وكانوا يحفظون هذا الدستور عن ظهر قلب ويتناقلونه عن طريق الرواية الشفهية الى أن كتبوه فى المصنوع الحديث ، وهو خليط بين السفسة السياسية والسذاجة البدائية . وكانوا يتصورون أن هذه العصبة لا تقتصر على القبائل التى أسستها ، بل ان « السلام الأعظم » يجب أن يعم جميع القبائل التى تحيط بها حتى يمكن القضاء على الحروب قضاء نهائيا . ومع ذلك فإن القبائل المؤسسة لم ترض عن التنازل عما كان لها من مكانة سياسية ممتازة فى تلك العصبة وأرادت أن تجبر القبائل الأخرى على الانضمام اليها ، ولكن على

شرط أن تكون في مركز أقل من مركزها . وما لبث النظام الذى وضع ليكون أداة لانهاء الحرب والذى كان يعرف باسم « السلام الأعظم » حتى أصبح أداة للغزو وأصبح مصدر رعب لمن كان حولهم من الناس . وما هو ذا مثل من مواد ذلك الدستور يوضح كيف كانوا ينشرون السلام بين من جاورهم من القبائل :

« عند اقتراح عمل « السلام الأعظم » لشعب أجنبى فإن ذلك يتم عن طريق لجنة من الطرفين ويجب اغراء الشعب الأجنبى بطريق التفاهم والحث على أن يدخل في السلام الأعظم . فإذا فشلت الشعوب الخمسة ... بعد اجتماع ثالث ... فإن زعيم الحرب في الشعوب الخمسة يرسل الى الرئيس الأكبر للشعب الثائر ويطلب منه ثلاث مرات أن يقبل السلام الأعظم ، فإذا أصر بعد ذلك اصرارا مطلقا على الرفض فإن زعيم الحرب يجعل حفنة من المحار الأبيض المستخرج من البحيرات تسقط من يده الممتدة ، ثم يتقدم بسرعة ويضرب الرئيس المعارض بهراوته حتى يقتله . وبهذا يكون اعلان الحرب . وعلى زعيم الحرب أن يعد رجاله ليؤازروه ويعاونوه عند حدوث أى خطر . ويستمر الحرب حتى تكسبه « الشعوب الخمسة » .. ثم تفرض « الشعوب الخمسة » السلام الأعظم بغزو الشعب الثائر .

وبعد استقرار السلام وانتهاء السلام وانهاء الحرب يعمل زعيم الحرب على جمع السلاح من ذلك الشعب ، وبهذا يستقر السلام الأعظم ، ويراعى ذلك الشعب جميع اشتراطات السلام الأعظم في جميع الأوقات في المستقبل . وكلما يتم اخضاع شعب أجنبى يظل نظامهم الداخلى في الادارة ساريا بينهم طالما كان ذلك مناسبا ، ولكنهم يجب أن يتمتعوا امتناعا تاما عن الحرب مع الشعوب الأخرى » (1) .

(1) Arthur C. Parker; The Constitution of the Five Nations. New York State Bulletin, No 184). Albany, 1918.

كان عدد أفراد المجلس التأسيسي للعصبة خمسين شخصا يمثلون عدة قبائل أصبحت أسماؤهم ألقابا تطلق على خمسين وظيفة ، أصبحت تسع وأربعون وظيفة منها وظائف مستديمة يشغلها ممثلون للمجلس ، وما زالت هذه الوظائف باقية بينهم حتى اليوم . أما الوظيفة الخمسون وهى وظيفة « دجاغا ويدا » فيجب أن تظل شاغرة لأنه لا يمكن أبدا أن يوجد شخص آخر يستحق أن يسمى بهذا الاسم المبجل . وهذه الوظائف وراثية فى بعض فروع العائلات النبيلة ، ولكن الذى يختار مرشح هذا الفرع هم نساء ذلك الفرع . فإذا أساء هذا الشخص أو أظهر ضعفا فى وظيفته فللنساء الحق فى عزله ، وكما يقولون « اخراج قرون الوعل من » أى رجل يبعثون به كممثل لعشيرتهم وقبلتهم فى ذلك المجلس . وكانت لهم طقوس متقنة عند قيامهم بالأعمال السياسية ، وعند قيامهم بعمل الشعائر الخاصة بالحزن عند وفاة أحد الرؤساء ، وعند تعيين الرؤساء الجدد الذين يحلون محلهم .

وكما حدث فى حالات أخرى فى تاريخ السكان القدماء فى الشعوب ، كان تحريم الحروب الداخلية بين القبائل سببا فى تحويل ذلك التنازع الداخلى الى شىء أكثر تمدنا — وهو لعبة الكرة . كانت قبائل العصبة تلعب لعبة ال « لأكروس » (Lacrosse) ناظرة إليها نظرة جدية جدا . ومن المرجح أنه ليس من المصادفة أن تكون الاتحادات السياسية ودورات ألعاب الكرة بين القبائل أو بين المدن تسير جنبا الى جنب بين سكان أمريكا الأصليين . كانوا يستعدون لهذه اللعبة كما يستعدون للحرب ويلجأون فى ذلك الى الماران والى الاستعانة بالقوى التى فوق قوى الطبيعة . ان لعبة الكرة التى كانت سائدة بين الأيروكوى هى أصل لعبة لأكروس كما نعرفها الآن ، وقد اختلفت لعبة الكرة بين الايروكوى عن مثيلاتها فى قبائل الجنوب الشرقى ووسط غربى أمريكا ، وذلك فى نوع المضرب المستخدم فى اللعبة وفى بعض التفاصيل

الأخرى ، والمضرب المعتمد الآن في هذه اللعبة هو نفس المضرب الذى كان يستخدمه الايروكوى .

كانت عصبة الايروكوى قوة سياسية لها خطرها أدركتها كل من الحكومتين البريطانية والأمريكية . وفي أيام حرب الثورة الأمريكية تمكن القس صمويل كيركلاند الذى كان يقوم بالتبشير بين قبيلة الأوينداس من اقناعهم بالبقاء على الحياد في تلك الحرب . ولكن الغالبية العظمى من الآخرين انضموا الى البريطانيين لأنهم كانوا يعلمون تمام العلم انهم سيفقدون أراضيهم واستقلالهم اذا اتصر المستعمرون المهاجرون . وتم القضاء على عصبة الايروكوى عندما ذهب الجنرال سوليفان في عام ١٧٧٩ لينفذ أوامر واشنطن بالقضاء على هذا المصدر الذى يقوى جانب البريطانيين ، وكانت الطريقة التى اتبعها سوليفان هى حرق القرى والحقول بدلا من الالتحام في حرب مع الايروكوى . وتدل كمية الطعام التى أحرقوها على مدى انتشار الزراعة بين الايروكوى اذ تصف وثائق تلك الحملة كيف قضت على ١٦٠.٠٠٠ بوشل (البوشل ٣٦ لترا) من الذرة وكمية هائلة من الخضراوات من جميع الأنواع ، وعدد لا يحصى من أشجار التفاح ، اذ كان يوجد في حديقة واحدة ١٥٠٠ شجرة . واتهى أمر الايروكوى بعد أن أحرقوا قراهم وما لديهم من مؤونة يعيشون عليها فقر كثير من منهم الى كندا ، وبقي البعض الآخر ليعقد الصلح مع المستعمرين . ومنذ هذا اليوم حتى الآن أصبح اللقب الذى يطلقونه على رئيس الولايات المتحدة هو « راناداجارياس » (Ranadagaryas) أى « مدمر القرى » .

وديانة الايروكوى يهنا أمرها أيضا . فقد كان هناك في الأصل كثير من العقائد السحرية والعادات المختلفة التى تبلورت منها في الوقت المتأخر من عصر ما قبل التاريخ نواة ما أصبح بعد ذلك ديانة لها شيء كثير من الجمال والوقار . وفي أعقاب تلك الأزمة الشديدة التى مرت بالايروكوى بعد حرب الثورة ظهر نبي من قبيلة « سنكا » يسمى « جانبا دايو » (Ganyadaiyo)

ومعناه « البحيرة الجميلة » ، أدخل على تلك الديانة الكثير مما أمدّها بقوة جديدة ووضع تفسيرات جديدة ، وما زالت هذه الديانة التي دخل عليها الإصلاح باقية حتى الآن . والموضوعات الأساسية التي تتكرر في طقوس هذه الديانة هي شكر الخالق وشكر الآلهة العديدين من آلهة الكواكب وآلهة الزراعة لما منحوه للناس من نعم وطلب بقاء تلك النعم بينهم الى الأبد . وفي صلواتهم التي يصلونها في كل احتفال ديني على مدار السنة ، بل وفي كل اجتماع لهم ، يكررون هذه المعاني ، عندما يشكرون ويبتهلون الى « أمنا الأرض » و « أخينا الأكبر الشمس » وأهم من هؤلاء جميعا « الخالق » . وفي بعض الصلوات كانوا يعددون هذه النعم يبدأونها بتلك التي في البحر والنعم القريبة من سطح الأرض ثم الشجيرات والأشجار ، والأشياء التي في الهواء ثم ما فوقها .

ويعيش الايروكوى في الوقت الحاضر في ست مناطق محددة اقامتهم في داخلها في ولاية نيويورك واثنتين في أونتاريو السفلى وواحدة في كويك وواحدة في ويسكونسن وواحدة في أوكلاهوما . وقد هاجر كثيرون منهم الى المدن وأصبح لأفراد قبيلة الموهوك شهرة خاصة في اقبالهم على العمل في العمارات التي تشيد من الصلب وترتفع كثيرا عن الأرض . ويذكرنا اقبالهم على هذا النوع من العمل الحديث بأمر ذكره أحد أوائل المؤرخين في عصر الهجرة الأولى اذ لاحظ ذلك المؤرخ مع الدهشة الشديدة كيف كان الايروكوى يعملون وهم على ارتفاع كبير دون أن يعتربهم أى خوف ، كما لاحظ الاطمئنان الذي كان يبدو عليهم وهم يمشون فوق عروق سقف منزل أو مخزن يشيدونه . وما زالت عصبة الايروكوى باقية حتى اليوم في كل من كندا وولاية نيويورك ، وتعترف بها حكومة الولايات المتحدة ، وهي النظام السياسى الذى يسيرون عليه . أما في كندا حيث أدخلت الحكومة اليهم نظام المجلس النيابى فلم يعد هناك محل للاعتراف بهم كممثلين لنظام سياسى ، ولهذا أصبحت

العصبة حركة سرية تعنى قبل كل شيء آخر بالأمور الدينية أكثر من عنايتها بالسياسة .

وقد لعب الايروكوى دورا هاما فى التاريخ الأمريكى . وبالرغم من أن أكثر الأمريكين لا يعرفون الآن الا الشيء القليل عنهم فانهم ما زالوا يستخدمون الأسماء التى أطلقوها على البلاد والمدن والممالك . فكلمة « كندا » كلمة ايروكوية معناها « المحلة السكنية » وكلمة شنكتادى (Schenectady) معناها « فى الناحية الأخرى من الأشجار » ، وكان الايروكوى يطلقون هذا الاسم فى الواقع على مدينة البانى وليس على مدينة شنكتادى الحالية اذ كانت توجد فى العصور البعيدة غابة صنوبر كبيرة بين هاتين المدينتين . وهناك أسماء أخرى يعرفها كل من يقيم فى ولاية نيويورك مثل اسم مدينة « كاناجوهارى » (Canajoharie) ، ومعناها « حوض مفسول » وقد سميت بذلك نظرا لوجود دوامة بين الصخور ، واسم مدينة « سكايتالس » (Skaneateles) ومعناها « البحيرة الطويلة » ، وتكفينا الآن هذه الأمثلة فكل من يطلع على خريطة الولاية يرى الكثير من تلك الأسماء .

٤ — أما منطقة الغابات الجنوبية الشرقية فانها تشمل جنوبى الولايات المتحدة من شاطئ المحيط الأطلسى حتى حافة السهول ما عدا قبيلة السمينول (Seminole) فى جنوبى فلوريدا الذين كانت لهم حضارة شاذة لن تتعرض للحديث عنها فى هذا الكتاب . وكثيرا ما يقلل الناس من شأن حضارة الجنوب الشرقى لأنها زالت فى وقت مبكر من العصر التاريخى ، ولكنها كانت على ما يرجح أغنى وأهم الحضارات التى كانت فى شمال المكسيك .

كان السكان القدماء فى هذه المنطقة من جامعى البذور ، وكانت وجبتهم الرئيسية المحتوية على البروتين هى المحار المعروف باسم بلح البحر (mussels) الذين كانوا يحصلون عليه من الأنهار ، وقد خلفوا وراءهم جيشا أقاموا أكواما من محار هذا السمك اللذيذ الطعم مما يدل على أنهم كانوا يعيشون

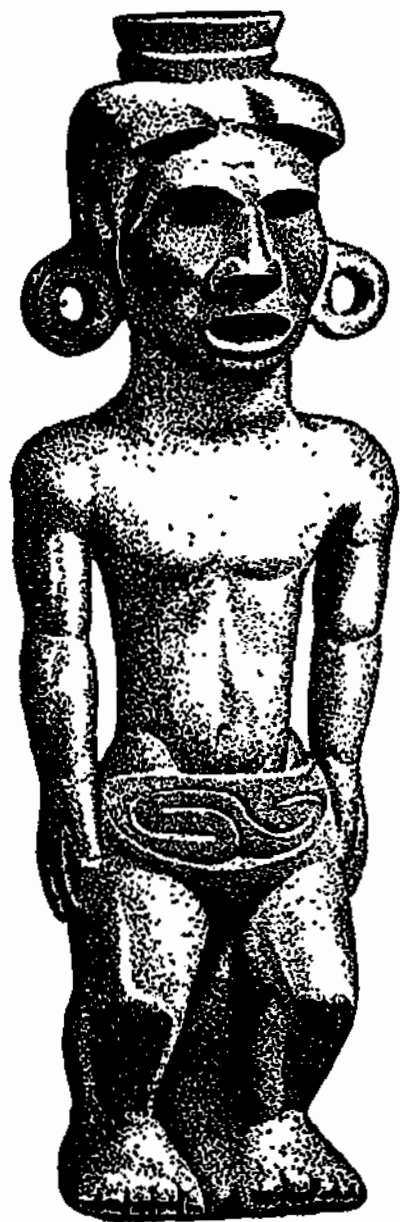
في مكان واحد فترة طويلة من الزمن . وزرعوا تدريجيا بعض النباتات مثل سالف المروس (amaranth) واليقطين وعباد الشمس من أجل الحصول على بذورها ، وكذلك نبات الدخان . وليست هذه النباتات من الحاصلات المرغوب فيها تجاريا ولكنها أفادتهم في تعلمهم طرق الزراعة فلما أتت اليهم الذرة والفول والقرع العسلى من المكسيك حوالى بداية العصر المسيحى أقبلوا على زراعتها فى الحال وكان ذلك سببا فى زيادة عدد السكان وتقدم الحضارة ، وهما الأمران اللذان كانا يصاحبان انتشار زراعة هذه المحصولات . وما حل عام ١٣٠٠ ميلادية حتى كانت هذه المنطقة عامرة بعدد كبير من السكان المستقرين المتقدمين فى جميع الفنون . وكان يقوم أفراد هذه القبائل بنحت الحجر نحتا بالغ الدقة ، وكانوا يصنعون أنواعا كثيرة من الفخار وعليها زخارف ملونة كما صنعوا أيضا أدوات كثيرة من البرونز . وأهم من ذلك كله كانوا مزارعين ممتازين ، وقد ذكر الزوار المبكرون الذير زاروا تلك المنطقة وجود حقول مزروعة تبلغ مساحتها عدة أميال مربعة .

وكان السكان يعيشون فى منازل من الخشب وملاط الجبس : يصنعون الهيكل من أخشاب السرو ويغطونها بخليط من الطين والطحلب الاسبانى ثم يرشونها بالجير ، وكثيرا ما استرعت قراهم أنظار من زاروهم فتحدثوا عنها لأن مثل هذه النظافة لم تكن من طابع القرى الهندية . كانوا يبنون مدنها عادة حول ميدان متسع ، وفى أحد طرفى المدينة معبد ذو هرم ، وفى الطرف الآخر بناء مجلس المدينة . وكان الكهنة يقومون بعملهم بصفة مستمرة فى المعابد ويحرصون على بقاء النار المقدسة مشتعلة ليلا ونهارا . وكان لقبيلة ناتشز (Natchez) فى الميسيسي كاهن — ملك من سلالة اله الشمس ، وهذا يذكرنا بالكهنة — الملوك فى مدينت الدنيا القديمة فى بلاد الشرق الأدنى ، وهذه هى الحالة الوحيدة من هذا القبيل فى أمريكا الشمالية .

وكانت المعابد تشيد فوق مرتفعات كبيرة من التراب ، وهذا مستمد دون شك من الأهرام الطقسية في المكسيك . كان هؤلاء الناس يبنون جدراناً خارجية للأهرام ثم يملأونها بعد ذلك ، كما كان يفعل المكسيكيون ، ولكنهم كانوا يستخدمون التراب أو الخشب بدلا من الحجر . وكانوا يجددون تلك الأكوام المرتفعة من آن لآخر باضافة طبقة جديدة ، وربما كرروا ذلك سبع أو ثمانى مرات . وقد أقاموا الكوم المعروف باسم كوم « كهوكيا » (Cahokia) في سانت لويس الشرقية ، وهو من أعظم الانشاءات البدائية في العالم .

وحوت هذه الحضارة عقيدة ذات أهمية بشأن الموتى ، كما حوت أيضا شعائر دينية متقدمة تقوم بها الجماعة معا ، وكان أهمها احتفال التطهير السنوى الذى كانوا يسونونه الـ « بسك » (busk) وكان يقام هذا الاحتفال عندما ينضج محصول الذرة ويصلح لأكله وهو فى أعواده . ففى هذا الوقت كانوا ينظفون جميع المساكن ويرشون جدرانها بالجير ، ويدفعون جميع الديون ويطفئون النيران ثم يعيدون اشعالها من النار الخالدة فى المعبد . وكان كل شخص منهم يفتسل حسب طقوس معينة ثم يخرج بعد ذلك الى ميدان وهو يرتدى ملابس جديدة ليشارك فى الرقص .

وللتنظيم الاجتماعى والسياسى فى هذه المنطقة أهمية خاصة . فقد كانت المدينة هى الوحدة السياسية ، وفى داخل المدينة عشائر تسير على نظام الاتساب الى الأم وتعيش كل عشيرة فى حى خاص بها فى المدينة ، ولها مكانها المخصص لها فى الميدان عندما يجتمع أفراد القبيلة من أجل الألعاب أو الاحتفالات . وكانت العشائر مقسمة الى مجموعتين « الحر » و « البيض » ، وفى كل منهما كان لكل عشيرة مركزها الاجتماعى بالنسبة الى غيرها . كان زعيم الحرب من العشيرة التى تحتل المكانة الأولى فى الفريق الأحمر فى المدينة فى حين كان زعيم السلام من العشيرة التى تحتل المكانة الأولى فى الفريق الأبيض . ولم يقتصر عمل زعيم الحرب على قيادة المحاربين وتنظيم الدفاع ، بل كان من



مبسم لقصة التدخين على هيئة انسان ، من « هوبول »

اختصاصهم تنظيم جميع أنواع النشاط الجماعى مثل قطع الأشجار من الأرض واصلاح التحصينات (السور المصنوع من القوائم الخشبية والخندق) ، وما يحتاج اليه المعبد وبيت مجلس المدينة من تجديد . أما رئيس السلم فكان موكلا بأمور القضاء وهو الذى كان يحكم فى المخاصمات ويعمل على منع المنازعات ويرأس المجلس التشريعى المكون من رؤساء العشائر .

وكان يسود بينهم نظام أرستوقراطى اذ كانت للزعماء سلطة قوية ، وكانت أكثر القبائل استمساكا بهذا النظام قبيلة الناتشز (Natchez) التى كان لها نظام اجتماعى تنفرد به . كان يوجد فى هذه القبيلة جماعة أرستوقراطية قليلة العدد ينقسم نبلؤها الى ثلاث طبقات ، ويأتى بعد ذلك العامة الكثيرو العدد الذين أطلق عليهم الفرنسيون اسم «ذو السمعة السيئة» . كان الأرستوقراطيون ينقسمون الى « الشمسوس » وهم الطبقة العليا ثم « النبلاء » ثم « الأشراف » . وكان يتحتم على كل فرد منهم سواء أكان ذكرا أم أنثى أن يتزوج من العامة . فاذا كانت المرأة من طبقة الشمسوس فإن أبناءها يصبحون من طبقتها ، أما اذا كان الرجل من طبقة الشمسوس فإن أبناءه ينزلون ويصبحون من طبقة النبلاء . ويتحتم على الابن أن يتزوج امرأة من طبقة الأشراف فينزل أبناؤه درجة أخرى أى أن الجيل الثالث من فرع الذكور حتى ولو كان رئيس طبقة الشمسوس نفسه يصبح من العامة . وفى الوقت ذاته يستطيع أى فرد من العامة أن يصبح من الأشراف بل ومن النبلاء اذا قدم أبناءه قربانا ليضحي بهم عند موت أحد الأشراف .

واحتلت عادة تضحية الآدميين مكانا كبيرا فى هذه الحضارة كما انتشرت بينهم عادة تعذيب المسجونين . فاذا مات أحد الأفراد من طبقة النبلاء فإن الزوجة أو الزوج الذى من طبقة العامة يقتل ويدفن مع النبيل ، وكانوا يحرصون كل الحرص على أن يتم هذا القتل دون أن يتألم الشخص المقتول وذلك باعطائه ثلاث كرات صغيرة من الدخان معجونة بخدر ليتلهمها ثم يخنقوه بعد ذلك .

وأهم المظاهر السياسية في هذه المنطقة هي التحالف الذى كان بين القبائل فان جميع ما كان يطلق عليه اسم القبائل في المنطقة الجنوبية الشرقية في أمريكا الشمالية كان في الحقيقة مدنا مرتبطة ببعضها برابطة التحالف ، ولم يكن تنظيم هذه المحالفات الا امتدادا مباشرا للتنظيم السياسى لكل من تلك المدن . وكانت هذه المدن المتحالفة تنقسم الى فريقين فريق الحمر وفريق البيض ، وكان يتحتم على كل مدينة بأكملها أن تكون تابعة لأحد الفريقين . وكان مجلس القبيلة مكونا من زعماء المدن ، وكان على رأس كل قبيلة زعيم للحرب من احدى المدن الحمراء وزعيم للسلم من احدى المدن البيضاء .

وكانت المسابقات في الألعاب هي مظهر التنافس بين المدن ، وبخاصة في نوع من لعبة « اللاكروس » يلعبونها بعصوين وكرة مخططة من الجلد . ويلوح أن تلك التحالفات الأمريكية قد أدركت أنه لا يكفى وضع القوانين لنقض المنازعات بين أعضائها ، فان أولئك الأعضاء كانوا في حاجة الى فرصة لوضع حد لعداوتهم وذلك بعمل شيء لا ينتج عنه ضرر أو أذى . وتكاد تشابه الصلة في توزيع التحالفات في أمريكا وبين ألعاب الكرة المنظمة بين الهيئات المختلفة . وسواء آكانت ألعابهم من أنواع لعبة اللاكروس التي كانت تلعبها قبائل شرقي الولايات المتحدة أم أنهم كانوا يلعبون لعبات الكرة الأخرى الشبيهة بلعبة كرة السلة التي كانوا يلعبونها في الاحتفالات الدينية في أمريكا الوسطى فان كلا النوعين متشابه في كثير من مظاهره . وعند عمل الترتيبات للألعاب كان كل فريق من المتنافسين يلجأ الى السحر ، وكان في الغالب نفس السحر الذى كانوا يفعلونه لكسب الحرب فيما مضى .

وكانت القرية التي تفوز في النهاية في هذه الألعاب تحقق أرباحا كثيرة نتيجة للمراهنات التي كان يراهن بها سكان كل بلد على فريقه أو من جراء حقوقهم الرسمية في النهب . ويستطيع الانسان أن يقول ان كل مدينة في منطقة الجنوب الشرقي كانت تتنافس مع كل مدينة أخرى في لعبة اللاكروس . وكانوا

يبدأون اللعب في كل مباراة مع أى مدينة أخرى بالشعائر التى كانت تسبق خروج الجماعات المحاربة الى القتال . فاذا تمكنت احدى المدن من قهر مدينة أخرى أربع مرات متوالية أصبح لازما على المدينة المقهورة أن تنتقل الى الفريق الذى تنسئ اليه المدينة الفائزة فاذا كانت المدينة المقهورة من فريق المدن البيضاء أصبحت من فريق المدن الحمراء .

وبدأت حضارة المنطقة الجنوبية الشرقية فى الضعف والانحلال حوالى الوقت الذى وصلت فيه بعثة « دى سوتو » (De Soto) الى القارة الأمريكية فى عام ١٥٤٠ . ومن المحتمل أن الأمراض الجديدة التى جلبها البيض انتشرت فى القرى الهندية انتشارا وبائيا ، وعندما بدأ البيض يتسللون الى المنطقة حاول الهنود أن يعيشوا كمزارعين بين جيرانهم البيض . وعلى أى حال فإن أراضيهم كانت على حالة كبيرة من الرخاء . وعندما كشفوا وجود الذهب فى جورجيا عام ١٨٣٩ انتهى أمر قبائل المنطقة الجنوبية اذ حدث اذ ذاك ذلك الاقبال الجنونى على استخراج الذهب فقام البيض بجمع جميع الذهب وبعثوا بالهنود الى أوكلاهوما ضاربين بجميع ما كان بينهم من معاهدات عرض الحائط . واتضح فيما بعد أن رواسب الذهب قليلة وغير مربحة ، ولكن فى الوقت الذى أيقن فيه البيض من ذلك لم يعد للقرى الهندية وجود فى المنطقة الجنوبية الشرقية .

٥ - امتدت منطقة السهول العظيمة من الغابات الى جبال روكى وجنوبا الى حدود المكسيك وشمالا الى الغابات شبه القطبية والى الأرض القاحلة (Barren Ground) . كانت هذه المنطقة فى العصور المبكرة مركز صيد الحيوانات الكبيرة ومركز حضارة الفولسوم — يومان . وحدث فيما بعد أن السكان الذين كانوا يعيشون قريبا من الحدود فى داخل منطقة الجنوب الشرقى أخذوا ينتقلون الى منطقة السهول متخذين طريقهم على امتداد وديان الأنهار . وأدخل أولئك المهاجرون الزراعة الى تلك الجهات ، وبالرغم من أن جميع

الصيادين لم يتحولوا الى الزراعة فقد أصبحوا يعتمدون عليها . كان الصيادون يتجولون فى المناطق المرتفعة فى منطقة السهول خلال فصل الصيف باحثين عن حيوانات الصيد ثم يعودون فى الشتاء الى قراهم وزراعتهم التى على وديان الأنهار ، أو يذهبون جنوبا الى المكسيك ليعيشوا مع قبائل الـ « بيوبلو » (Puebelos) الشرقية .

وعلى طول مجرى الميسورى سادت علاقة تدعو الى الدهشة بين القبائل التى تمارس الصيد وبين السكان المزارعين . فبالرغم من أن الفريقين كانا فى العادة فى حالة حرب مستمرة فقد كانوا متفقين على عمل هدنة عندما يزهر نبات العود الذهبى . وفى هذه الهدنة يستطيع الصيادون أن يأتوا الى قرى المزارعين كما يشاؤون ، ومعهم الجلود واللحوم المجففة ويأخذون منهم الذرة بدلا عنها . وفى ذلك الوقت يجلس الأعداء مع بعضهم البعض وكل منهم يتباهى بمعاركه ويحصى مغانمه ، ولكن عندما يحين وقت تحول هذا النبات الى بذور يأخذ الصيادون ما حصلوا عليه بطريق التجارة ويعودون الى التلال ، ومنذ هذا اليوم حتى يحين الموسم التالى يزهر نبات العود الذهبى يقتل كل من الفريقين من تقع عليه عينه من أفراد الفريق الآخر .

وكان يعيش سكان وديان الأنهار فى قرى تحيط بها حقول الذرة وتحصنها الخنادق والأسوار المقامة من أعواد الخشب . وكانوا يبنون منازل كبيرة من الطين تعيش فى كل منها بصفة دائمة احدى العائلات ، وكانت منازل المندن (Mandan) والهيدياتسا (Hidatsa) تبلغ ثمانين قدما فى طولها وثلاثين قدما فى ارتفاعها فى أعلى نقطة فيها وهو المكان الذى يخرج منه دخان الموقد الذى فى وسط المنزل . وكان سكان تلك القرى يقضون معظم وقتهم فى قراهم ولكنهم كانوا يذهبون الى السهول للقيام ببعض الصيد فى فصلى الربيع والخريف ، وكانوا يستخدمون فى مثل هذه الرحلات مهمات خفيفة ويمسكرون فى خيام من الجلد ذات شكل مخروطى ويستخدمون لنقل أمتعتهم عربة خشنة الصنع

يسمونها « الناقله الشبكية » ، تجرها الكلاب وكانت مكونة من عمودين يربطون اليهما الكلاب ويضعون السيور حول رقابها وبطونها ، وفي وسط العمودين شبكة يضعون فوقها أمتعتهم ، أما الأشياء التي لم يكن في الاستطاعة وضعها فوق الناقله فكان حملها من نصيب النساء .

وعندما عرفوا الجواد تغيرت الأوضاع في منطقة السهول تغيرا سريعا اذ أن هذه المنطقة من المناطق التي على الحدود ، وسكانها خليط من سكان المنطقة الزراعية التي في الشرق ، وقليل من القبائل الرحل التي تعيش على الصيد . كان الحصان حيوانا جديدا على أمريكا لأن الحصان الأمريكي الأصلي كان قد اقرض مع الماموث والريسيف . وأول الجياد التي وصلت الى هذه القارة هي الجياد التي أحضرها « كورتيز » (Cortez) الذي وصلت سفنه الى « تباسكو » (Tabasco) في عام ١٥١٩ ، وكان معه في رحلته الأولى ثمانية عشر جوادا ، ولكن هذه الجياد لم يكتب لها البقاء وإذا كان قد بقي واحد منها حيا بعد المعارك التي خاضها كورتيز ومن معه فإن الاسبانين الجياع قد ذبحوه ليأكلوه .

وأحضر كورتيز في رحلته الثانية ما يقرب من ألف جواد ، كما أحضر « دى سوتو » عندما رسا على شاطئ فلوريدا في عام ١٥٣٩ نحو مائة منها . وفي منتصف القرن السابع عشر كانت الخيول البرية ترحل في السهول ، وكانت هذه الخيول على الأرجح من الخيول التي هربت من الاسبان الذين كانوا في الجنوب الغربى من القارة . وكانت منطقة السهول مراعى مثالية فأخذت هذه الخيول تزايد بسرعة كبيرة . وأقبل الهنود اقبالا شديدا على الامساك بها أو سرقتها من بعضهم البعض ، وأصبح ذلك بمثابة الرياضة الرئيسية بينهم ، وما وافى منتصف القرن الثامن عشر حتى كان كل هندي في منطقة السهول يمتلك جوادا يركبه . وللمرة الأولى في حياتهم أصبح ميسورا للهنود ، بفضل وجود الخيل ، استثمار قطعان الثيران استثمارا حقيقيا .

وأصبحت منطقة السهول كمبة تقصدها القبائل الهندية من جميع النواحي ، لأن وجود كميات لا حصر لها من الطعام وهى الثيران ، كما أن وجود الخيل التى يستطيعون بواسطتها سرعة الانتقال والصيد ساعد كثيرا على اقبال الناس على حياة البدو الرحل . فان السكان الذين كانوا يعيشون فى وديان الأنهار فى قرى مستقرة وجدوا أن قيامهم بحملات للصيد أكثر مكسبا لهم وأكثر متعة من عرقهم للأرض لزراعة الذرة ، ولهذا السبب أخذت الزراعة تفسحل ويقل شأنها .

وتحولت معدات الانتقال الخفيفة التى كانت تعتمد على نقلها بنقلات تجرها الكلاب الى معدات أكبر حجما وأثقل وزنا وكانت أشبه شئ بالمعدات اللازمة فى الحروب . أصبحت الخيام أكثر اتساعا ، وأكثر راحة لساكنيها ، وكان هيكل الخيمة مكونا من أربعة أعمدة رئيسية ونحو عشرين عمودا أصغر منها توضع حول الأعمدة الكبيرة على شكل دائرة ويضعون فوق تلك الأعمدة سقفا مشدودة من جلود الثيران بعد اعدادها لذلك . وكانت هذه الخيام ذات بياض ناصع ومزخرفة بالألوان وريش الطيور ، وفى كل خيمة منها يستطيع عشرون صيادا أن يناموا فوق معاطفهم المصنوعة من الفراء حول موقد النار الذى فى وسط الخيمة ويعلقوا ملابسهم وأسلحتهم فى أعمدة الخيمة .

ويعتقد الناس أن حياة البدو الرحل حياة عرضية وغير منظمة ، ولكن كل الجماعات الهندية التى كانت تعيش فى السهول كانت تسير فى نظام ودقة كآى فرقة من فرق الخيالة فى جيش الولايات المتحدة . وكانت لهم طريقة خاصة ذات نظام دقيق فى أسفارهم ، فالنساء والأطفال والحيوانات التى تحمل الأمتعة فوق ظهورها كانت توضع فى الوسط ، يتقدمها ويشئ وراءها الرجال المسنون لحراستها ، أما الشبان فكانوا يمتطون خيولهم ويسرون حولهم يتقدمهم كشافة منهم ليكونوا درعا تقيهم من هجوم العدو .

وكانت العناية بالرحلة أثناء السفر واقامة المعسكر من نصيب النساء ،

وكانت النساء تضع فوق ظهر كل جواد من خيول الأمتعة والمهمات أشياء خاصة معروفة فإذا احتاج أحد المسافرين الى مخراز أو الى زوج من الموكاسين (نوع من الأحذية) أثناء السفر فإن النساء يعرفن كيف يجدن ذلك في الحال . فإذا ما وصلت الجماعة الى مكان المعسكر الذى تختاره الكشافة فإن زعيم الجماعة يتقدم الى المكان الذى اختاره لاقامة خيمته ، وعند ذلك تنصب كل عائلة خيمتها في مكان خاص معروف بالنسبة لموقع خيمة الزعيم ، كما لو كانوا فرقة حربية تقيم معسكرها . وكان معسكر هنود السهول أشبه شئ بقرية تتحرك بأكملها ثم تضع رحالها بعد عشرين أو ثلاثين ميلا على نفس الصورة التى كانت عليها . وكانت النساء تتعاون معا على اقامة الخيام المخروطية وفي ازال الأحمال من فوق ظهور الخيول ، وفي أقل من ساعة بعد اللحظة التى يقف فيها الزعيم بعد اختيار موقع خيمته يكون المعسكر كله قد تمت اقامته وبدأت النسوة في اشغال النيران لاعداد الأكل .

ونظرا لعدم وجود أى حدود طبيعية في منطقة السهول فإن القبائل كانت دائمة النزاع فيما بينها ، خصوصا وأن الخيول كانت تغرى دائما بالاستيلاء عليها لأن الجواد يصلح لمساعدة سارقه على الهرب اذ ينشطه ويسرع به بعيدا ، ولهذا أصبحت الحروب وسرقة الخيول هى الشاغل الأكبر لسكان منطقة السهول . وربما كان سكان السهول من الهنود أعظم من رأتهم الدنيا من المحاربين ، وكان الرجال ينظمون أنفسهم في جماعات أشبه بالجماعات الأخوية تتنافس فيما بينها من أجل الحصول على أمجاد الحرب ، كما كانت تتنافس أيضا فيما بينها في سرقة الزوجات وهى احدى العادات التى كانت سائدة بين سكان السهول .

والى جانب حبهم لأمجاد الحرب ، كانت تسلكهم رغبة شديدة في الحصول على معونة القوى التى تفوق قوى الطبيعة ، اذ أن هذه المنطقة كانت أصلح

المناطق للباحثين عن الوحي والرؤيا . كانت الارواح تظهر للناس في الحلم أو في هيئة وحي وتمدهم بنصائحها عن الحرب وعن الصيد .

ولم يكن المراهقون وحدهم هم الذين يصومون من أجل ظهور الوحي لهم بل كان المحاربون الذين يشعرون بأن قواهم بدأت تضعف يفعلون ذلك أيضا ، اذ كانوا يصومون ويلجأون الى بعض الأساليب الماسوشية (نوع من الانحراف الجنسي يتلخص في الحصول على اللذة الجنسية عن طريق تعذيب شخص آخر له) ليستدروا بذلك عطف القوى التي فوق القوى الطبيعية فتساعدهم . وكانت قبائل الشوشون (Shoshon) في الجنوب تذهب الى تلك الكائنات وتطلب منها أن تمدّها ببعض القوى اذا وجدت أنها أهل للحصول عليها . وكان الشبان يطلبون الحصول على هذه القوى لتعينهم قبل كل شيء آخر على الفوز في الحروب . ولم يكن للمتقدمين في السن مكان في حضارة منطقة السهول ، فالمثل الأعلى للرجل هو أن يكون محاربا عظيما ، وأن يسرق مئات الغيول وأن تكون له زوجات كثيرات ثم يموت وهو في عنفوان قوته . فالرجال الطييون الذين يقضى عليهم سوء الحظ أن يعيشوا حتى يصبحوا من العجائز يتركون ما اعتادوا عليه في أيامهم الخالية ويعيشون وادعين مسلمين ، أما الأشرار الذين لا يسمح لهم تقدمهم الكبير في العمر بمصاحبة الذين يخرجون الى الحرب فانهم يتحولون الى السحر ويصبحون سحرة .

وأهم شيء في الحياة الدينية لسكان السهول هو احتفال واحد كبير يقام مرة في كل سنة ويسمونه « رقصة الشمس » ، وفي هذه المناسبة تتجمع القبائل كلها ، وتحضر كل قبيلة معها ما يكفيها من الأطعمة وتعسكر كل منها في مكان مخصص لها ، فتصبح القبائل كلها في دائرة كبيرة قطرها ميل تقريبا . وكانوا يبنون لهذه المناسبة بيتا كبيرا من الطين شبيها بالبيوت التي كانوا يعيشون فيها قبل حياة البداوة التي أصبحوا عليها . وكانوا يقيمون مذبحا يرقصون حوله ، اذ كان الراقصون ينشدون الحصول على القوة برقصهم رقصا مستمرا

مدة طويلة وبتعذيب أنفسهم . وكان الهدف من ذلك الرقص هو إيصال الشخص الى حالة تنويم مغناطيسي يسمع فيها أصواتا ويرى الوحي .

وكان هؤلاء المحاربون الذين يعيشون في منطقة السهول يمتطون صهوة الجياد ويلبسون قلانس من الريش ، وهم الهنود الذين كانوا يهاجمون قوافل العربات والذين خلد اسمهم في قصص الأطفال وفي الروايات السينمائية الأمريكية . كان هؤلاء الهنود آخر السكان الأصليين القدماء الذين هزمهم البيض المستعمرون وأخضعوهم لسيطرتهم ، ولكن لم يتمكن البيض من ذلك الا بعد أن كلفوا فرق الفرسان في جيش الولايات المتحدة ثمنا باهظا .

٦ — تمتد هضبة جبال روكي من أوتاه (Utah) وكولورادو (Colorado) شمالا حتى حدود كندا تقريبا ، وفي هذه المنطقة عاشت قبائل من الهنود لها حضارة من أبسط الحضارات في أمريكا الشمالية ، وهي مستمدة مباشرة من أصل الحضارة القديمة التي كانت تعتمد على جمع البذور . لم يكن لأولئك الناس بيوت دائمة ، وكانت منازلهم تتكون من هيكل خشبي بسيط المظهر وجوانبه من الحشائش وأغصان الأشجار . ولم يعرفوا صناعة الفخار ولكنهم كانوا يصنعون سلالا دقيقة الصنع يستخدمونها في كل ما يحتاجون اليه في تخزين الأشياء ، وفي حمل البذور ، وفي غربلتها ، وفي الطبخ بطريقة الأحجار الساخنة (اسقاط أحجار ساخنة في اناء مملوء بالماء) . وكانوا يطحنون الحبوب فوق مطحنة من الحجر الصابوني ، ولم يلبسوا من الملابس الا أقلها ، وكان هذا القليل مصنوعا من قلف الأشجار . وكانوا يمشون حفاة الأقدام طيلة أيام السنة ، ولكن في أيام الشتاء كان الرجال يلفون حول سيقانهم أشرطة من الفرو بينما اكتفت النساء بلف القنب حول سيقانهم .

وكانت الوحدة الاجتماعية بين تلك القبائل هي العائلة الممتدة ، ولكننا نجهل الكثير من التفاصيل ، وعلى أى حال ، فانها كانت تتكون عادة من زوج وزوجة متقدمين في العمر ومعهما أولادهما البالغون وعائلاتهم . ولم يتبعوا

نظما خاصة دقيقة في الإقامة بعد الزواج ، فإن الشاب والفتاة اللذين يتزوجان كانا يذهبان الى الإقامة مع والدى الزوج أو والدى الزوجة على حد سواء ، وكان الأمر الذى يرجح تلك الإقامة هو وجود الكمية الكافية من الطعام في المنطقة التى يختارونها . ولم يكن لهم زعماء أو تنظيم سياسى معروف . وإذا كانت هناك أى سلطة لانسان فانها كانت سلطة المتقدمين في السن وسلطة المطيبين الذين كان يقتصر عملهم على شفاء الناس من الأمراض ، وامتازت عقيدتهم الدينية بما فيها من بحث عن الوحي والخوف الشديد من الأشباح .

٧ — وتشمل المنطقة الجنوبية الغربية من ولايتى نيومكسيكو والأريزونا وتمتد شمالا فتشمل أجزاء من ولايتى كولورادو وأوتاها ، وكانت تختلف عن منطقة جبال روكنى بحضارتها الأكثر تقدما أكثر من اختلافها عنها في المناخ . وقد قام كثير من العلماء بعمل البحوث الأثرية فيها ، ولهذا فهى معروفة لنا ومدروسة من الناحية الأثرية أكثر من غيرها من المناطق في الولايات المتحدة ، وذلك لأن الجو الجاف ساعد على الاحتفاظ بالمواد الهشة التى كانت تتعرض حتما للنفاء والدمار في المناطق الحضارية الأخرى ، كما ساعدت طريقة التأريخ عن طريق حلقات الشجر في معرفة تواريخ دقيقة أكثر من أى جهة أخرى ، وربما كانت كل هذه البحوث هى السبب في اعتقاد الكثيرين في تقدم وغنى تلك الحضارة ولكن هذا الاعتقاد فيه شيء من المبالغة أكثر مما تستحقه في حقيقة الأمر .

كان السكان الأوائل في منطقة الجنوب الغربى من جامعى البذور وصائدى الحيوانات الصغيرة ، وقد تسلسل اليهم في الجزء الشرقى من منطقتهم بعض السكان من حضارة الفولسوم — يومان . وقد انقسم سكان المنطقة منذ عصر بعيد الى قسمين مختلفين في تطورهما ، فالذين كانوا يسكنون في الجزء الشرقى منها كانوا من صانعى السلال الذين كونوا الحضارة المعروفة باسم حضارة الـ « أنازاسى » (Anazasi) أما في الغرب فكانت تعيش القبائل

المعروفة باسم « كوشيز » (Cochise) الذين أصبحوا يسمون فيما بعد
ال « موجولتون » (Mogollon) وال « هوهوكام » (Hohokam)



اناء من الفخار من صناعة قبائل البيوبلو - من ولاية نيومكسيكو

وأقدم ما عرف حتى الآن من قرى حضارة صانعي السلال يرجع تاريخه
الى عام ٢٠٠ ميلادية . ولم يكن لديهم فخار ، ولكنهم صنعوا سلالا فاخرة من
النوع المجدول ، كما عرفوا أيضا نسيج خيوط القنب على سداة معلقة ولكنهم
لم يعرفوا النول . ومن دراسة بقايا محلاتهم السكنية يمكن القول انهم كانوا
يعيشون في أكواخ مصنوعة من غصون الأشجار كما كان يعيش سكان الهضبة
في العصور التاريخية . ولم يعرفوا القوس ولكنهم استخدموا الحربة ذات
القاذفة ، كما فعل أسلافهم منذ ألف سنة .

وحوالى عام ٧٠٠ ميلادية عرفوا زراعة البقول فى منطقة الجنوب الغربى وكان لذلك اكبر الأثر فى تنشيط حضارتهم . كانت الذرة والقرع المسلى معروفين لهم منذ وقت بعيد ، وكان يتحتم عليهم أن يحصلوا على البروتين اللازم لوجبات طعامهم من صيد الحيوانات البرية التى كانت متوافرة فى منطقتهم . فلما زرعوا البقول وأمدتهم بكمية كافية من الغذاء البروتينى بدأت حياتهم تتجه اتجاهها جديدا . وفى المائتى السنة التى أعقبت ذلك تطورت حضارة هذه المنطقة الجنوبية الغربية تطورا سريعا . ففى عام ٧٠٠ ميلادية كانوا قوما بسطاء من سكان القرى يعيشون فى مساكن مخفور أكثرها تحت مستوى سطح الأرض أو فى كهوف ، ولم يمارسوا الزراعة إلا بقدر محدود ، ولم يكن لديهم إلا القليل من المعدات ، ولكن بعد مرور مائتى سنة كانوا يعيشون فى منازل ثابتة فوق سطح الأرض ومشيدة من الخشب والطوب . وحلت القوس والسهم مكان الأتلتل (القاذفة) ، وتقدموا فى جميع الفنون ومهروا فيها وعلى الأخص فى صناعة الفخار وفى النسيج ، فاتشروا وزادوا من رقعة منطقتهم ، وكانوا يذهبون من أجل التجارة الى مسافات بعيدة .

وبلغت حضارة الأنازاسى ذروتها بين عامى ١٠٥٠ ، ١٣٠٠ ميلادية وهو الوقت الذى شيدوا فيه المباني الجماعية ومساكنهم المنحوتة فى الصخر . وأحد تلك المباني الجماعية المبنى المسمى « بيوبلو بونيتو » (Pueblo Bonito) الذى بدأوا فى تشييده عام ٩١٩ ولكنهم لم ينتهوا منه الا فى عام ١٠٧٦ أو بعد ذلك . كان هذا المبنى مشيدا فوق مساحة قدرها ثلاثة أفدنة ، ويمكن أن يعيش فيه ١٢٠٠ شخص . كان أمثال هذا ال « بيوبلو » يشيد حول ميدان فسيح يتوسط المباني وكانت أسواره الخارجية رأسية ولا نوافذ فيها ، وكانت لهم بمثابة حصن يصعب التغلب عليه ويستطيع أن يصد هجوم أى عدو لا تكون معه آلات الحصار . وكان المبنى الرئيسى مشيدا فى ثلاث جهات من ذلك الميدان الفسيح ، وكانت مبانيه ترتفع على هيئة مدرجات اذ كانت

المباني التي في الصف الأمامي مشيدة من طابق واحد وكانت المباني التي في آخر الصفوف الخلفية ذات أربعة طوابق . وكانوا يعيشون في الحجرات الأمامية من المساكن ، أما الحجرات الداخلية التي لا يصل إليها الضوء ، فقد استخدموها لتخزين ما لديهم .

وفي وسط الميدان شيدوا عددا من الـ « كيفا » (Kiva) ، وهي مباني تحت مستوى الأرض شبيهة بمساكنهم التي كانوا يعيشون فيها فيما مضى من عصور ، ولكنهم لم يسكنوها بل استخدموها في الاحتفالات الدينية ، ونواد يجتمع فيها الرجال . وتمسك الديانة دائما بالتقاليد القديمة فلماذا احتفظوا بطابع منازلهم التي كان الجزء الأكبر منها تحت مستوى سطح الأرض واستخدموه ليكون « كيفا » لهم بعد أن تركوه كمسكن يعيشون فيه . أما مساكنهم المنحوتة في الصخر فقد كانت في حقيقة الأمر قرى منحوتة في الأماكن العلوية من صخور الجبل على هيئة كهوف تحميها كتل الصخر الرملية التي فوقها ، وكان كل كهف منها صالحا كل الصلاحية كمكان يحمي من فيه ضد هجوم العدو . ويحتوى « قصر الصخر » في الجهة المعروفة باسم « ميرافردى » (Mesa Verde) على مائتى حجرة و ٢٣ كيفا (Navajo).

وكان للحياة الجماعية أثر كبير على البيوبلو . فقد كان يتحتم على أى جماعة عائلية صغيرة أن تصنع لنفسها كل ما تكون. في حاجة إليه ، ولكن لم تلبث هذه البيوت حتى أخذت تميل الى التخصص . فالشخص الذى تظهر براعته في حرفة من الحرف يركز جهوده فيها ، ويحاول أن يشت نبوغه ومهارته باختراع أشكال جديدة ، وكان يتبادل ما ينتجه مع غيره من المتخصصين . وفي هذا الوقت أيضا بدأ تطور الحياة الدينية التي أصبحت فيما بعد الظاهرة الكبرى في حضارة الجنوب الغربى . فقد زادوا في حجم الكيفا وكسوا جدرانها بالحجر وزخرفوها بالصور الدينية ، وأخذوا يزيّدون من فخامة الاحتفالات الدينية مع مرور الزمن .

وربما كان التدهور الذى أصاب تلك الحضارة فى أيام ازدهارها يرجع الى عاملين هما الجفاف وانهاك التربة . فمن المعروف أن فترة جفاف مرت على تلك المنطقة بين عامى ١٢٧٦ و ١٢٩٩ . كما أن التربة الصحراوية مهما كانت غنية فهى معرضة للانهاك ، وقد ظلت حقول تلك الجهات تنتج الحاصلات مدة طويلة جعلت الناس يستقرون استقرارا تاما ، خصوصا بعد أن شيدوا تلك المباني الفخمة . فتوقفوا عن التحرك من مكان الى آخر وظلوا الى جانب حقولهم مدة طويلة بعد أن بدأت تضعف تربتها . وعلى أى حال فإن هذه الحضارة انهارت بعد عام ١٣٠٠ وهجر الناس بيوتهم المقطوعة فى الصخر ومساكنهم الجماعية الكبيرة واضطر من بقى منهم الى الرحيل نحو الجنوب .

ومن المحتمل أيضا أن يكون وصول أجداد الهنود من قبال النفاچو (Novajo) هو الذى جعلهم يسرعون بترك المنطقة . كان أولئك القادمون الجدد يتكلمون لغة النادين (Nadene) ، وقد شقوا طريقهم الى هذه المنطقة من الشمال . وتكلم قبائل الپيوبلو فى الوقت الحاضر لغات متعددة تنتمى الى أصول لغوية مختلفة مما يدل على حدوث غزوات متكررة لهذه المنطقة ، وان الذين قاموا بها كانوا من القبائل الصغيرة التى تعيش فى جهات فائية ، وما لبثوا حتى تطبعوا بطباع أهل المنطقة الذين امتصوهم . وتقهقر الپيوبلو الى المنطقة التى ما زالوا يقيمون فيها حتى الآن ، اذ تعيش منهم قبيلتا « الهوبى » (Hopi) و « الزونى » (Zuni) فى الغرب ، وينتشرون فى الشرق على طول مجرى الريبو جراندى (Rio Grande) .

وكان للپيوبلو تنظيم عشائرى قوى وكانت عادة الاتساب لفرع الأم سائدة بينهم . كان لكل عشيرة حياها الخاص بها فى القرية ، ولها أيضا الكيفا الخاص بها ولكن السلطة السياسية كانت مركزة بين أيدي المتقدمين فى العمر . ولديهم وظيفتان رئيسيتان احدهما يشغلها زعيم الحرب الذى كان ينظم أمور الفرق التى تخرج للحرب ، وينظم أيضا وجه نشاط الشبان ، أما الوظيفة

الأخرى فهي وظيفة الكاسيك (Cacique) ، (وهو اصطلاح مستعار من الاسبانية) . وفي الوقت الحاضر يقوم زعيم الحرب بالاشراف على الشئون العملية كاصلاح المباني العمومية وتنظيم الاحتفالات . أما الكاسيك فان شدة قداسته تحتم عليه أن يبقى بعيدا عن السلطة بعدا تاما .

وللمطر والحاصلات المركز الأول في تلك الديانة وحولهما تدور حياتهم الدينية . وأهم معبودين لديهم هما الشمس وعرائس الذرة والى جانبهما عدد لا يحصى من المعبودات الأقل أهمية تمثل طبقات من الكائنات ولا تمثل كائنا واحدا معينا . ويرتدى الراقصون أثناء القيام بالشعائر الدينية أقنعة تمثل هذه الأرواح ويسمونها الكاشينات (Kachinas) ويصنعون دمي من هذه الكاشينات ليلعب بها الأطفال ويقصدون من ذلك تعليم الأطفال خصائص ومميزات هذه الأرواح المختلفة .

وقسموا السنة الى فصلين ، فصل الشتاء الذي كانوا يعتقدون أن الآلهة تقيم أثناءه في اليبوبلو ، وفصل الصيف الذي كانت الآلهة تذهب أثناء شهوره الى الجبال . وفي وقت تغير الفصلين ، أى في وقت الخريف ، كانوا يحتفلون بعودة الآلهة من الجبال احتفالا كبيرا ، وكان سكان القرية يلبسون ملابس تمثل الآلهة ويدخلون الى القرية وهم يرقصون ، وبعد ذلك يدخلون الى الكيئات . وبعد فترة من الزمن يخرجون منها وقد ارتدوا ملابسهم العادية دلالة على أن الآلهة بقوا في الكيئ . وكانوا يقضون الشتاء كله في سلسلة من الاحتفالات كانت فيها الآلهة تنتقل من كيئ الى أخرى .

وكان النقاچو يتكلمون اللغة النادينية ، وكانوا يعيشون في الأصل في هضبة جبال روکی كبدو رحل يمارسون الصيد ، وبين عامي ١٢٠٠ و ١٣٠٠ بدأوا يسرون نحو الجنوب بعد أن اجتذبهم رخاء منطقة اليبوبلو وتقدم حضارتها ، فاستقروا في جنوبی كولورادو وفي نيومكسيكو الشمالية وتعلموا من جيرانهم معظم فنونهم سواء في الزراعة أو في صناعة الفخار أو في النسيج

كما استعاروا منهم أيضا الكثير من مظاهر الاحتفالات الدينية . ومع ذلك فانهم آثروا أن يعيشوا في منازل خاصة ولم يشيدوا على الإطلاق تلك المباني العامة التي كانت سائدة بين اليوبلو . وبعد أن أدخل الاسبان تربية الأغنام الى تلك المنطقة مالوا ميلا شديدا الى حياة رعى الأغنام وما زالوا كذلك حتى الآن . ولم يتحمس النقاچو للزراعة ، والكلمة النقاچية للذرة معناها الحرفي « طعام الأعداء » مما يدل على أنهم عرفوها للمرة الأولى من اليوبلو الذين كانوا يحاربونهم . زد على ذلك أنهم عندما استولوا على الأراضي كانت هذه الأرض منهوكة التربة فلم يزرعوا أكثر من مساحات صغيرة حول قراهم .

وفي خلال الفترة التي احتل فيها الاسبان المنطقة الجنوبية الغربية أى منذ منتصف القرن السابع عشر حتى الحرب المكسيكية كانت قبائل النقاچو مصدر متاعب لقبائل اليوبلو الذين يعيشون الى الجنوب منهم ، اذ أن اليوبلو لم يكونوا محاربين قديرين مثلهم ، ولهذا كانوا يغيرون عليهم في أيام الحصاد وكانوا يستولون على قطعانهم بل وكانوا يخطفون نساءهم . وقد جعلتهم هذه الأعمال التخريبية يصطدمون اصطداما قاسيا بالقوات الأمريكية بعد حرب المكسيك . وفي عام ١٨٦٣ غزا الكولونيل « كيت كارسون » (Kit Carson) منطقتهم وأتم اخضاعهم بعد قتل عدد كبير جدا من أغنامهم ، جعلهم يفقدون مصدر طعامهم ، ثم جمع النقاچو وأخذهم الى الأسر حتى عام ١٨٦٧ .

ولما كان النقاچو قوما واقعيين مثل معظم شعب النادين فانهم استقروا بعد هزيمتهم يرعون أغنامهم وتقدموا في فنونهم وحرفهم . فتقدموا كثيرا في صناعة الأغذية وأوصلوه الى فن على درجة كبيرة من الجمال ، كما تقدموا في صناعة الفضة التي تعلموها من الأسرى الاسبان . وكان لانهاء الحروب وائناء مواردهم من رعى الأغنام وما تدره عليهم صناعة الأغذية والفضة من أموال سببا في وجود كثير من أوقات الفراغ لدى النقاچو ملاوهم باقبالهم على الاحتفالات الدينية . ولم تكن تلك الاحتفالات تقام من أجل الاحتفاء

بالمحصولات كما كان يفعل اليبولو ، بل كان يقصد منها شفاء المرضى فأصبحوا مع مرور الزمن جماعة ممن تملكهم وساوس الأمراض . فاذا أحس شخص من النقاچو بالمرض فان أقاربه كلهم يهتّون للحصول له على شفاء سحرى . وللحصول على الشفاء كان الطبيب يرسم على الأرض بوساطة رمل ملون ينزل من بين يديه رسبا منمقا ، وكانت هذه الرسوم جميلة ومعقدة ولها مدلولات ميثولوجية ، ويجعلون المريض ينام فوق هذا الرسم ويغنون حوله عددا كبيرا من الأغاني ، وفي أثناء ذلك كانوا يزيلون أجزاء الرسم واحدا بعد الآخر .

ونجح النقاچو في الاحتفاظ بشخصيتهم القبلية كما نجحوا في الحيلولة بين البيض وبين تأثيرهم على حضارتهم ، وكان السبب في ذلك راجعا بطبيعة الحال الى أن منطقتهم التى يعيشون فيها كانت أفقر من أن يمد اليها البيض أبصارهم للحصول عليها . وقد ازداد تناسلهم زيادة كبيرة فأصبح عددهم حسب احصاء حديث ٥٠.٠٠٠ بعد أن كان عددهم في عام ١٨٦٧ لا يزيد عن ٧٣٠٠ ، بيد أنهم في الوقت الحاضر أصبحوا معرضين للمجاعة نظرا لأن مواردهم أصبحت لا تكفى هذا العدد الكبير .

واقسمت حضارة الكوشيز (Cochise) القديمة الى فرعين يختلفان عن بعض نظرا لاختلاف المناخ . فالذين استقروا منهم في الجزء الغربى من الولاية، وهى منطقة صحراوية أصبح يطلق عليهم اسم الهوهوكام (Hohokam) على حين أصبح الذين يعيشون في الهضبة الشرقية التى كانت على ارتفاع كبير وتسقط عليها الأمطار يسمون الموجلون . وبالرغم من أن كلا الفريقين من أصل واحد فان لكل منهما طريقة حياة تختلف عن الأخرى .

ويمكننا أن نتبع حضارة الهوهوكام الى حوالى عام ٣٠٠ ق . م . وكانوا في ذلك الوقت يستخدمون الفخار ، ويعرفون استخدام القوس ويزرعون الذرة ويعيشون في مساكن مخفورة تحت سطح الأرض . ومعلوماتنا الأثرية

عن الهوهوكام أقل من معلوماتنا عن حضارات الأنازاسى نظرا لأن الهوهوكام كانوا يعيشون في قرى مسورة ولأنهم كانوا يحرقون موتاهم .

وفي مثل هذه المنطقة الجافة تصبح الزراعة على نطاق واسع شيئا مستحيلا اللهم الا اذا كان هناك نظام ثابت للرى . ولهذا السبب أصبحت هذه المنطقة هى المكان الوحيد في أمريكا الشمالية الذى كان لدى أهله رى منظم . وفي عام ٧٠٠ ميلادية عرف الهوهوكام نظاما للرى استمروا في تحسينه والتوسع فيه حتى عام ١٤٠٠ ، اذ كانت تبلغ قنواتهم في اتساعها نحو ثلاثين قدما ، وعمقها عشر أقدام وبلغ طول بعضها ١٥٠ ميلا . فاذا ما وضع الانسان في ذهنه ان الشعب الذى قام بمثل تلك الأعمال الهندسية لم يكن يستخدم الا الأدوات غير المتقنة المصنوعة من الحجر أو من الخشب يدرك ادراكا كاملا أن عليهم هذا كان عنلا رائعا . ومن المؤكد أنه كان يسود بينهم نوع من السلطة المركزية استطاعت أن تشرف على تنفيذ الأعمال لأن مثل هذه القناة تستفيد منها قرى كثيرة ، ولا بد أيضا من العناية المستمرة بهذه القنوات لأن الطمى كان يسد مجراها من حين ، لآخر وكان تطهيرها يحتاج الى عمل جديد .

وبين عامى ٦٠٠ و ٩٠٠ وصلت الى تلك المنطقة تأثيرات قوية من المكسيك نتج عنها تقدم فن الحفر في الحجر والعظم والمحار ، كما عرفوا أيضا زراعة القطن التى وصلت اليهم من الجنوب ، كما انتشرت بينهم ملاعب الكرة التى كانوا يلعبون فيها لعبة شبيهة بكرة السلة التى كانوا يلعبونها على الطريقة المكسيكية مستخدمين كرة من المطاط .

وفي وقت ما بين عام ١١٠٠ وعام ١٤٠٠ أتى قوم يسمون ال « سلدو » (Salado) ففروا هذه المنطقة ، وكانت حضارة أولئك السلدو متأثرة جدا بحضارة الأنزاسى . وبدلا من أن يصدوهم عن بلادهم عاش الشعبان معا في وئام ، ولكن لم يتأثر أحدهما كثيرا بحضارة الآخر . وقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن سكانا من الشعبين كانوا يعيشون معا في نفس القرى في وقت واحد

ولكن منازل كل منها وفخاره تختلف عن الشعب الآخر ، وهذا أمر يدعو الى العجب والدهشة . وربما كان وجود ملاعب الكرة التي أشرنا اليها كافيا كسيدان يتنافس فيه الفريقان لاطفاء ما عساه أن يكون هناك من عداوة ، وبهذا امتنعت الحروب بينهما . وفضلا عن ذلك فإن ضرورة تعاونهم لشق قنوات الري والمحافظة عليها كان يحول دون قيام الحرب بينهما لأن مثل هذه الأعمال لا يمكن القيام بها في منطقة تنقسم على بعضها ويتحارب سكانها فيما بينهم . وربما كان السبب راجعا أيضا الى أن الهووكام كانوا شعبا شرسا عند قيامه بالحرب فكان ذلك مدعاة لتجنب النزاع معهم أو مهاجمتهم . والهووكام هم أسلاف الپيما (Pima) واليوما (Yuma) والپاپاجو (Papago) الحاليين وهم جميعا يشتهرون بفروسياتهم في الحرب وقد استطاعوا الدفاع عن منطقتهم عندما غزاها الپاش (Apache) المشهورون بحبهم للحرب ، كما أحسنوا الدفاع عن بلادهم ضد البيض أيضا .

وكان يسقط على منطقة الموجولون ^(١) ما يكفي لزراعة الذرة دون اروائها . ولما كان الحافز الذي جعل قبائل الهووكام يتعاونون فيما بينهم في عمل مشاريع الري وفي الصناعة غير موجود لديهم فإن الموجولون لم يفعلوا الا الشيء القليل نحو تقدم بلادهم شبه الجافة . وكانت أهم حرفة لديهم هي صناعة الأواني ، اذ كانت الأواني المعروفة باسم « ممبرس » (Mimbres) التي تصنعها قبائل الموجولون تعتبر من أفضل ما يصنع في المنطقة الجنوبية الغربية . وبترو الزمن امتصت قبائل الأنزاسي هذا الشعب الذي لم يكن قد عرف الكتابة ، وفي المصور التاريخية احتلت بعض الجباعات المتجولة من الپاش الناديين هذه المنطقة .

(١) اسم « موجولون » نسبة الى جبال موجولون التي سميت بدورها باسم أحد حكام نيومكسيكو الأوائل وكان يسمى « خوان اجانشيوفلورس موجولون » .
(المترجم)

٨ — وتمتد منطقة كاليفورنيا من جبال الروكى حتى شاطئ المحيط الهادى وتمتد شمالا الى ما نسميه الآن حدود كاليفورنيا على وجه التقريب ، لى منطقة تهيأت فيها الفرصة أمام حضارة جمع البذور وصيد الحيوانات الصغيرة لتصل الى ذروة امكانياتها لأنها معزولة جغرافيا بالجبال وبالصحراء . وربما كان مناخها اللطيف سببا فى عدم الحاجة الى محاولة الانشاء والتقدم ، اذ أن هنود كاليفورنيا لم يعرفوا الزراعة أو الفخار أو النسيج وكانوا يصطادون الحيوانات الصغيرة واذا كانوا على مقربة من الشاطئ فانهم كانوا يصطادون السمك ، ولكنهم اعتمدوا فى غذائهم الرئيسى على ثمرة جوز البلوط . وهذا النوع من ثمار الجوز مر الطعم لأنه يحتوى على حامض التتيك ، ويعتبرها الناس عادة غير صالحة للأكل . ولكن الهنود كانوا يصحنون الثمرة بعد نزع قشرتها الخارجية ويعملون منها عجينة يضعونها فى حفرة يحفرونها فى الرمل ويصبون فوقها ماء ساخنا يصفى الحامض ويترك بعد ذلك عجينة لا طعم لها ولكنها مغذية يصنعون منها بعد ذلك ثريد جوزة البلوط .

وكان الجماعة الذين يقطنون جزيرة تشنل (Channel Island) يصنعون نوعا من الزوارق المنحوتة فى كتلة من الخشب ، ولكن فى جميع الجهات الأخرى كان هنود كاليفورنيا الذين ينزلون الى الماء يستخدمون نوعا من الطوف يسمونه « بلسا » (balsa) وهى حزمة من الأعشاب شكلها كشكل السيجار يحزمونها بأغصان نبات الباجونا (bajuna) ، ويركبون فوقها كما يركب الذين يقضون اجازتهم على شواطئ كاليفورنيا فى الوقت الحاضر الحيوانات المصنوعة من المطاط .

وكانوا لا يلبسون من الملابس الا أقلها ، وكانت مساكنهم بسيطة هشة مصنوعة من هيكل من أعواد الأشجار ، وجدرانها الجائبة من القش أو من قلف الأشجار ، بيد أنهم كانوا يقيمون فى كل قرية بيتا جيد البناء وهو بيت الرقص . وكان جزء من هذا البيت يشيد تحت سطح الأرض ، وكان مستديرا

وهو على ما يظهر مأخوذ من المساكن المحفورة تحت الأرض التي كانت معروفة بين الهنود ، وكانوا ينزلون إليها من الفتحة الصغيرة التي كانت تستخدم لخروج الدخان أو من نفق جانبي ، وكان هذا البيت يستخدم كناد للرجال وكمركز يقيمون فيه احتفالاتهم . وفي الليالي التي يشتد فيها البرد كان ينام فيه سكان القرية كلهم . وكانوا يوقدون النار في وسط المكان ويغذونها بالوقود حتى يصبح المكان كله دافئا ، وعند ذلك يخمدون النار ويسدون فتحة خروج الدخان ثم ينامون هناك طول الليل ، فاذا ما أصبح الصباح وشعر أحدهم بالصداع فكان يعزو ذلك الى عمل الأرواح الشريرة .

وكانت فنونهم وحرفهم في درجة منخفضة باستثناء صناعة السلال التي نبغ فيها أولئك الناس ، اذ يلوح أنهم ركزوا كل ما لديهم من احساس بالجمال في هذا الفن وحده . كانت قبيلة الهوبا (Hupa) تصنع سلالا كروية الشكل يدخلون في صنعها ريش الطيور فتصير السلة كلها مغطاة بطبقة ناعمة الملمس من الريش المختلف الألوان . وكانوا يصنعون ثياب الحفلات من الريش الناعم يشبثونه فوق أرضية مبطونة ، تذكرنا بالعباءات المصنوعة من الريش لدى البولينيزيين .

وكان نظامهم الاجتماعي هو نظام القبيلة الصغيرة . وأكبر الوحدات السياسية هي وحدة القرية المكونة من أناس تجمعهم كلهم صلة القرابة وينتمون الى أصل واحد ، ولم يكن لهم زعماء أو مجالس مدينة ، ومع ذلك فقد كانوا يتاجرون على نطاق واسع ويبادلون على ما يصنعونه من سلال ، وعلى المحار، وجلود الأيائل . واتسع نطاق التجارة في شمال كاليفورنيا فاضطروا لاختراع نوع من العملة اتفقوا على استخدامها ، وكانت من المحار المسنن الذي كانوا يصطادونه من المكان المعروف باسم بوجت ساوند (Puget Sound) ويتاجرون فيها في جميع أرجاء المنطقة .

وكانت كل قبيلة من تلك القبائل لها طابعها المحلي الخاص بها ، وكان سكان المنطقة يستخدمون لغات كثيرة ، ولكل واد لهجته الخاصة .

كانت كاليفورنيا أشبه شيء بزقاق حضارى مقفل تأتى اليه الجماعات الصغيرة فتستقر فيه وتنسى كل شيء عن المكان الذى أتت منه ، فأصبحت أشبه شيء بنفساء من القبائل التى عاشت كل منها فى منطقتها الخاصة دون حاجة الى غيرها . وكان لدى أهل كاليفورنيا أسطورة خلق منمقة ، ولكن كل قبيلة من قبائلها اعتقدت أن الدنيا خلقت فى منطقتها التى تعيش فيها . وكان كل فرد من رجال القبيلة يستطيع أن يقف فى وسط واديه ويذكر لأولاده الأماكن التى صنع فيها الخالق كل شيء واحدا بعد الآخر . واعتبرت كل قبيلة أن منطقتها التى تعيش فيها هى مركز الدنيا ولم يحسوا بأى رغبة فى التجول بعيدا عنها .

فعندما أتم الخالق خلق هذه الدنيا وكل ما فيها هجمت عليه الحيوانات وقتلته فأصبح الها ميتا أى أصبح رمزا أدبيا لا يحتاج الى استعطاف أو صلاة . ولهذا السبب كان نشاطهم الدينى موجها الى الأرواح القريبة منهم ، التى كانت لها السيطرة على الصيد ولها القدرة على مد الناس بالحظ الحسن فى مختلف أنواع النشاط . وفى معظم قصص تلك المنطقة وأساطيرها نجد « كويوت » (Coyote) المكار الذى كان دائما يخادع الآخرين ويحصل على خير ما يمكن الحصول عليه بمهارته وسعة حيلته .

وكان الصبية يلقنون أسرار الرجولة فى بضعة احتفالات فخمة يلبسون فيها ملابس خاصة . وكانوا يستخدمون الآلة المعروفة باسم الثور الخوار فى هذه الشعيرة وهى من الحالات القليلة التى تظهر فيها هذه الآلة فى أمريكا الشمالية . وكان للسحر أهمية فى هذه المنطقة ، وكان يستخدم للسيطرة الاجتماعية وبالأخص فى أمور التجارة إذ كان التهديد باستخدام السحر الذى يجلب الأذى رادعا قويا للمدينين السيئين .

وكانت جنازات العائلات التى تستطيع تكريم موتاهها جنازات فخمة . كانوا يخرجون الجسم من القبر للاحتفال به رسميا بعد أن تكون العائلة قد أعدت المبلغ الكافى لأجل هذه المناسبة . كانوا يقيمون هيكلا خشبيا يضعون فوقه الجسم أو الأجسام ثم يعلقون فى الأخشاب كل ما تمكنت العائلة من اعداده من السلال والأغطية والحلى . ثم يوقدون النار بعد ذلك ويتحول كل شيء الى دخان وهو مثال من المباهاة باتلاف المال .

٩ — امتدت منطقة الشاطئ الشمالى الغربى على امتداد شاطئ كولومبيا البريطانية من شمالى كاليفورنيا حتى جنوبى ألاسكا . وبالرغم من أن هذه المنطقة واقعة فى شمال القارة فإن التيار اليابانى الدافئ أمدّها بمناخ معتدل مع سقوط أمطار غزيرة عاونت على وجود غابة من أشجار الشوكران والتوب القضى والسدر . وتمتاز هذه المنطقة بأنها المنطقة الوحيدة فى العالم التى استطاعت أن تخلق لنفسها حضارة متقدمة دون أن تعتمد على الزراعة أو تربية الحيوانات المستأنسة . وقد ساعدها على بلوغ هذه الحضارة وفرة مواد الطعام ، فقد كانت أسماك السلمون تجرى فى كثير من الأنهار فى فصل الربيع وكان البحر يعج بأسماك القنفدر والبكلاه والسردين ، كما كانت الأيائل والغزلان والديبة ترحل فى الغابات . وكانت النباتات التى تنمو تحت أشجار الغابات غنية بالثمار والخضراوات التى يمكن أكلها ، ولهذا فلم يكن السكان فى حاجة الى القيام بذلك المجهود الشاق الذى يستلزمه من قطع أشجار الغابة لزراعة الأرض .

ولم يصنعوا أى نوع من أنواع الفخار لأن الأخشاب كانت متوافرة لديهم وكانوا يستخدمونها فى جميع احتياجاتهم ؛ فقد كانوا يطهون طعامهم فى صناديق خشبية بطريقة القاء الأحجار المحماة فى الماء . وكانوا مهرة فى حفر الخشب ، وكانت أوانهم وأدوات احتفالاتهم الدينية على درجة عالية من

سمو الذوق الفنى . ووصلت مهارتهم فى حفر الخشب ذروتها فى زخرفة الأعمدة الطوطمية العالية المصنوعة من الخشب التى كانت من مميزات هذه الحضارة . وكانوا يصنعون السلال ، وينسجون ملابسهم على أنوال حقيقية مستخدمين خيوطا من قلف أشجار السدر يخلطونها أحيانا بصوف الماعز الجبلى وأحيانا بشعر الكلاب . وكانت ملابسهم بسيطة ، اذ كانوا يلبسون شيئا لحماية أقدامهم . وفى موسم الأمطار الذى يكاد يكون نصف شهور السنة فى هذه المنطقة كانوا يضعون فوق رؤوسهم قبعات عريضة لانتقاء المطر وهى من القش المنسوج ، وهذه هى الحالة الوحيدة التى كان فيها السكان الأصليون يلبسون القبعات فى حياتهم العادية ، وذلك طبعا غير القبعات التى كان يلبسها بعض الهنود الأمريكيين فى الاحتفالات الدينية .

أما منازلهم فكانت من الخشب وكانت مستطيلة الشكل ، وكانوا يثبتون الألواح الخشبية على القوائم العمودية . وفى الشمال كانوا يضعون الألواح عمودية وكان السقف هرمى الشكل (جبالون) أما فى الجنوب فكانوا يضعون الألواح أفقية وكان السقف مثلثا شبيها بسقف الزرية . وكانت المنازل فسيحة ، ويعيش فى كل منها بضع عائلات ينتمون الى نفس الفرع ، يعيش فيها زعيم المنزل وأطفاله غير المتزوجين وبناته وأزواجهن وأطفالهن ، وربما يكون معه أيضا أخ صغير أو ابن أخ وعائلته ، كما كان يقيم معه عادة بعض أقاربه المسنين ، وواحد أو اثنان من الرقيق . وكان طول أحد هذه المنازل الكبيرة فى الجهة المعروفة باسم « كواكيوتل Kwakiutl » ، ٢٥٠ قدما وعرضه ٦٠ قدما . وكانوا يزخرفون الأعمدة الرئيسية فى المنزل ، كما كانوا يزخرفون أحيانا الأعمدة التى فى أركانها برسوم تمثل شعار العائلة ، وتمثل تاريخها والشعار الذى اختاره هذا الفرع لنفسه . وكانت هذه الأعمدة الطوطمية مرتفعة وتبلغ فى بعض الحالات ستين قدما وترتفع كثيرا عن سطح

المنزل . وكانوا يضعون أيضا عمودا طوطيا فوق المقابر وعليه زخارف توضح في قصة رمزية تاريخ العائلة ، أو احدى الأساطير التي لها صلة بذلك الفرع من العائلة .

وكانوا ينون قراهم على حافة الماء ، وكانت المنازل كلها تشيد في صف واحد يطل على الماء . وكانوا ينون المراسي والزوارق على الشاطئ وفي خلال فصل الصيف ، أى في موسم صيد سمك السالمون ، وفصل الصيد ، وفصل جنى الحاصلات ، تخرج القرية كلها وتمسك قريبا من العمل الذي يقومون به حيث يمشون في أكواخ خشبية واهية ويعملون منذ الفجر حتى يحل الظلام . ويخرج الرجال لصيد السمك أو للصيد . أما النساء فكن يعملن في تجفيف السمك أو اللحم ووضعه لفترة قليلة على النار وذلك فوق صفات تبني في الممسكات . وكانت النساء والأطفال يجمعون الثمار من نباتات الغابة ويحفظونها لأكلها في فصل الشتاء . وعندما تحل الشهور الباردة تكون المخازن مملأ بالصناديق الخشبية المصنوفة فوق بعضها وكلها مملأ بالطعام المجفف أحيانا والموضوعة في الدهن أحيانا أخرى . فاذا ما اطمأن الناس الى وجود ما يكفيهم من المؤن استطاعوا أن ينصرفوا الى الأمور الأخرى .

وأهم المظاهر الفرية في هذه الحضارة هي ال « بوتلاتش » (potlatch) وهي حفلة كبيرة منظمة تقام لاطهار ثراء صاحبها . كانوا يعلنون عن هذه الثروة في احتفال كبير ، يوزعون بعضها على الناس ويدمرون بعضها كرمز لثرائهم وعدم حاجتهم اليها ، وكان يقصد من اقامتها أن يلتحق صاحبها بعضوية جماعة ذات مركز اجتماعي ممتاز . وكانت الطريقة الوحيدة لحصول أى فرد على السلطة والمكانة هي عمل ال « بوتلاتش » . كان زعماء البيوت الذين قاموا بعمل البوتلاتش يعتبرون نبلاء القرية . وكانت القرية هي الوحدة الاجتماعية الرئيسية وكانت منظمة على أساس نظام العشائر . ولم تكن المكانة الاجتماعية لأى فرد من نبلاء القرية حقا دائما مستمرا بل كان يتحتم على هذا

النبل أن يعمل لاحتفاله بها . وكان العامة المتصلون ببيت أحد النبلاء يعملون من أجله حتى يزدوا من قدر بيته . فاذا تيسر لأحد العامة أن يجمع قدرا كافيا من الثروة لعمل بوتلاتش لنفسه فانه يرتفع الى مرتبة النبلاء . وكان أقل سكان القرية في المرتبة الاجتماعية هم الأرقاء وكانوا عادة من أسرى الحرب الذين كانوا يجبرون على العمل في بيت الزعيم حتى يفتديهم قومهم . وقد نشأت عادة البوتلاتش دون شك من احتفال كانوا يقيمونه ليحصلوا على عمال يعملون في تشييد المنازل الكبيرة واقامة الأعمدة الطوطمية . ولكن حدث فيما بعد أن هذا الاحتفال تحول الى نوع من المنافسة ووسيلة لظهار مكانة أى جماعة من الناس بين القبائل ، وبالرغم من أنه كانت توجد في بعض الأحيان حروب بين فروع القبيلة الواحدة كما كان يغير بعضهم على البعض الآخر لينهبوا ما لديهم ، فان البوتلاتش محا التنافس بين أبناء القرية الواحدة وحل محل الحرب بينهم . فاذا كانت هناك منافسة قوية بين أحد الزعماء وزعيم جماعة أخرى فانه يدعو هذا الزعيم الى حفلة بوتلاتش ويأتى الضيف ومعه جميع أتباعه وأهل منزله فيحتفى بهم المضيف احتفاء كبيرا ويكرم وفادتهم في احتفالات تستمر بضعة أيام أو أسابيع ثم يقدم لهم الهدايا على حسب مكانة كل شخص منهم في احتفال كبير . وفي الأزمنة السابقة كانت الهدايا من الأغذية والأواني الخشبية والصناديق المزخرفة السطح ، والملاعق المصنوعة من قرون الماعز وفي بعض الأحيان كانوا يهدون الرقيق أيضا . ولكن بعد اتصالهم بالبيض أضافوا الى الهدايا غلايات غسيل الملابس وماكينات الخياطة والفونوغرافات وما شابهها . وبالإضافة الى هذه الممتلكات الحقيقية فقد كان أولئك الناس يمتفون بنوع آخر من الممتلكات ، وذلك بأن تكون لديهم حقوق خاصة في بعض الأغاني أو الرقصات أو عضوية إحدى الجمعيات الدينية ، كما كان من الممكن رهن الشعارات العائلية أو بيعها أو اهداؤها في حفلة البوتلاتش .



قناع ملون ، من منطقة الكواكيوتل

ولم يقتصر الأمر على تقديم الهدايا بل كانوا يلجأون أيضا الى تدمير بعض ما يملكونه . كان المضيف يأمر أتباعه بإيقاد النيران فيصدعون بأمره ويكسرون زورقا ويستخدمون أخشابهم في الوقود ، أو يحضرون كومة كبيرة من الأغصان ويصبون فوقها زيت السمك الذي كانت له قيمة كبيرة بين أولئك الناس ليزيدوا من اشتعال النيران . وكان المفروض أن الضيوف لا يمكنهم أن يغادروا أماكنهم القريبة من النيران وكثيرا ما كانت تشيط ملابسهم أثناء هذه الحفلات . ويتحتم على الزعيم الذي أقيمت من أجله هذه الاحتفالات أن يتقبل كل شيء دون أن يظهر عليه أى تأثر ، ولكنه ينزل هو وعائلته في درجتهم الاجتماعية حتى يحين الوقت الذى يستطيع فيه أن يقيم حفلة بوتلانث ردا على الحفلة التى أقيمت له وألا يقدم لمنافسة أشياء تعادل ما قدمه له منافسه فحسب بل يتحتم عليه أن يقدم اليه ضعفا أى مع فائدة

١٠٠٪. فاذا استطاع أن يقدم له أكثر من الضعف فانه يسبب العار لمنافسه الذى تنزل درجته الاجتماعية بعد مثل هذه الالهانة .

واستلزم تمويل تلك الحفلات الصاخبة بين المتنافسين خلق نظام للتسليف، وما يستتبعه من تحصيل ، والفوائد على الديون . وفى مثل هذا المجتمع الذى لا يوجد فيه اقتصاد يسير على نظام آلى ، وليس فيه أى نوع من أنواع الايداع غير السلف والهدايا فقد ترتب على وجود عادة البيوتلاتش تضخم الرصيد لأنه فى بعض الحالات كانت ثروة الزعماء تزيد على ثروة القبيلة بأكملها . ولكى يحافظوا على استمرار عاداتهم فقد اخترعوا نوعا من النقد المالى أسموه « النحاس » وهو طبق من النحاس يبدأ سعره بين عشرة وعشرين دولارا حسب قيمته الحقيقية . فاذا قدموا هذا الطبق كهدية متبادلة فان قيمته تتضاعف أى يزيد ثمنه فى كل مرة يتداولونه كهدية مائة فى المائة ، حتى بلغ ثمن بعض تلك الأطباق النحاسية ١٥٠٠٠ دولار ، وبهذا أصبح البيوتلاتش نوعا من الايداع ، وفيه دورات للايداع والسحب مع زيادة الفائدة فى ارتفاع وانخفاض المكانة الاجتماعية . وكانت الديون مضمونة لأنه مهما حدث ومهما كان مركز المدين حرجا فى وقت من الأوقات ، فان سمعة الانسان ومركزه الاجتماعى كان لهما المكانة الأولى فى هذه الحضارة ، ولا بد له من دفع دينه . ويلوح أن اقامة القبائل الهندية فترات طويلة فى أمريكا الشمالية لم تترك الا أثرا قليلا فى حضارتها المحلية ، التى يرجع أغلب أصلها فى الوقت الحاضر الى شمال أوروبا . فاذا استثنينا الكثير من الحاصلات المحلية التى أصبحت جزءا من الحاصلات الزراعية فى الدنيا كلها ، وباستثناء ما قدمه السكان الهنود الأصليون من معلومات فية الى المهاجرين الجدد عما يمكن عمله عند الوصول الى منطقة جديدة للتغلب على صعوبات المعيشة فيها ، فان حضارتهم فى شمال أمريكا لم يكن لها أى فضل كبير على الأمريكين الحاليين . وما يستحق الذكر أن نظام التحالف الذى كان منتشرا فى شمال القارة الأمريكية لم يظهر

فى أى مكان آخر الا نادرا . فان هذه التحالفات ، على عكس الامبراطوريات ،
تمتاز بالأهمية التى يعلقونها على الابتكار الشخصى ، وعلى حرية الاختيار .
ويمكننا أيضا أن نظن أن تأسيس التحالف الذى أصبح يعرف الآن باسم
الولايات المتحدة الأمريكية مستمد من النظم التى كانت سائدة بين
السكان الأصليين ، فانتشرت تقاليد الديمقراطية والحرية الفردية انتشارا
قويا فى هذه الأرض الأمريكية التى أعدها أولئك الهنود المعتدون بأنفسهم ،
والذين كانوا لا يعتمدون على غيرهم ، وتلقفها من أتى بعدهم من
الأمريكيين الحاليين .

الفصل الحادى والأربعون

الحضارات المتقدمة فى أمريكا الجنوبية

نشأت جميع المدن فى الدنيا الجديدة جنوبى نهر ريو جراندى . وبالرغم من أن جميع الهنود الذين هاجروا الى أمريكا الجنوبية أتوا من الشمال فإن القبائل الشمالية لم تصل فى يوم من الأيام الى مستوى المدنية كما تفهم من مدلول هذه الكلمة ، لأنهم لم يستطيعوا تشييد المدن والاقامة فيها ، فقد ظل الهنود الذين عاشوا فى منطقتى الجنوب الشرقى والجنوب الغربى فى أمريكا الشمالية والذين وصلوا فى حضاراتهم الى أعلى مستوى اذا قورنوا بغيرهم ، من سكان القرى والمزارعين .

ولم يصل المهاجرون الهنود الى المنطقة الواقعة الى الجنوب من ريو جراندى ويستقروا فيها الا بعد عدة آلاف من السنين بعد وصولهم الى الشمال لأن مثل هذه المدة كانت ضرورية لهم ليصلوا الى الجنوب فى أسفارهم من مكان الى مكان جيلا بعد جيل . ويرجع السبب فى تفوق سكان الجنوب على سكان الشمال الى حصولهم فى وقت مبكر من استقرارهم فى تلك المنطقة على محصول هام يكفى لاطعام عدد كبير من السكان ، وهو الذرة ، وهو المحصول الأمريكى الرئيسى الذى تم تدجينه فى هذه المنطقة . ويعتقد بعض المتخصصين فى دراسة النبات البرى (الذى لا يوجد له أثر فى الوقت الحاضر) أنه جىء به من مرتفعات جواتيمالا ، ويصر آخرون على أن تدجينه كان فى سهول پاراجواى ، وفى كلتا الحالتين فانه من نباتات أمريكا الجنوبية . وهناك عدد آخر من الحاصلات الغذائية التى تم تدجينها فى

الجنوب ثم انتشرت فيما بعد ووصلت الى شمالي القارة مثل البقول والفلفل والبطاطس والطماطم والبول السوداني ، وغيرها من الحاصلات الهامة .

ولم تكن هناك مندوحة من استسلام مدنيات أمريكا الجنوبية الراقية للاسبانين لأن ادعاءات الأوروبيين بتفوقهم على غيرهم انما تقوم على قوة الأوروبيين الحرية ، وقد نال الغزاة الاسبان كل ما نالوه من نصر كامل سريع بفضل استخدامهم للأسلحة النارية وبخاصة المدافع التي لم يكن لسكان أمريكا عهد بها .

ومهما يكن من أمر ، فان سكان هذه الحضارات كانوا أكثر عددا وأذكى من أن تمتصهم أى قوة أجنبية امتصاصا كاملا . وفي جميع بلاد القارة الأمريكية نجد جميع الحضارات التي تسير على الطابع الأوروبي قد أخذت في النهوض ، وذلك لأن الحضارات الهندية القديمة والطابع الجسماني الهندي القديم أخذا يبتان أقدامهما في جميع مناطق المرتفعات من المكسيك وما وراءها نحو الجنوب .

وظهر في المكسيك في العصور القديمة نوعان من الحضارات ، وهما حضارات الهضبة في وادي المكسيك وحضارات الأراضي الواطئة على شواطئ أمريكا الوسطى . وبالرغم من وجود عدد غير قليل من الحضارات التي ظهرت في الجنوب فان هذا الكتاب سيقصر على الحديث عن أهم ثلاث فيها وهي : مدينة المايا (Maya) التي كانت أهم وأقخم ما ظهر في منطقة الأراضي الواطئة، ومدينة الأزتك (Aztec) التي كانت أهم ما ظهر من حضارات في الهضبة ، ومدينة الانكا (Inca) العظيمة التي كانت مزدهرة على الشاطئ الغربي لأمريكا الجنوبية عند حدوث الغزو الاسباني . ولكل حضارة من هذه الحضارات الثلاث طابعها الخاص في الحياة ، يختلف عن غيره ، وكانت هذه الحضارات في مناطق بعيدة بعضها عن بعض ، فلم تكد تعرف احداها

شيئا عن وجود غيرها ، وذلك بالرغم من أن كثيرا من علوم المايا قد وصلت الى حضارة الازتك .

عاش شعب المايا القديم في المنطقة التي توجد فيها الآن ولايات «يوقاطان» (Yucatan) و « كميشى » (Campeche) و « هندوراس البريطانية » ومعظم « جواتيمالا » وهى مساحة تبلغ ١٢٥٠٠٠ ميل مربع . وكان المايا معزولين عن باقى شبه جزيرة المكسيك لأن المياه كانت تحيط بها من ثلاثة جوانب (ولم يكن المكسيكيون القدماء من الملاحين فى أى وقت من الأوقات) ، ويحدها فى الجهة الرابعة جبال كورديليرا المرتفعة . وقد تقدمت مدينة المايا دون أى تأثير من مصدر خارجى ، بل وصلت الى ما وصلت اليه بفضل عبقرية شعب المايا نفسه وبفضل البيئة الخصبة التى أسعدهم الحظ بالعيش فيها .

كان اقتصاد هذه المدينة قائما على الذرة ولكن المنطقة غنية بجميع ما تحتاج اليه أى مدينة راقية ، اذ كانوا يزرعون البقول والقرع المسلى والفلفل الأحمر الحار (الشطة) والطماطم والبطاطة والكاكاو وكشرى القاطور والدخان ، الى جانب زراعتهم للذرة . وكانوا يضعون « البانيلية » والبهارات فى طعامهم لتحسين مذاقه . وكانوا ينسجون ملابسهم من القطن كما استخدموا نبات القرع بعد تجفيفه كأوعية لهم . وأمدتهم الغابة بأنواع مختلفة من الخشب الجيد كما أن نوع الحجر الجيرى الذى فى منطقتهم كان من أحسن أنواع أحجار المباني المعروفة فى القارة الأمريكية قبل مجيء كولبس . كان هذا الحجر سهلا فى قطعه من المحاجر ، وتزداد صلابته بمجرد تعرضه للعناصر الجوية ، ويتحول الى جير عند حرقه . وكان يوجد أيضا فى جميع أرجاء المنطقة طبقات من الحصى صنعوا منها نوعا من الأسمنت الجيرى الطبيعى ، وتوافرت لديهم جميع المواد اللازمة لتشييد مبان حجرية قوية والمونة اللازمة لها . واستطاع المايا أن ينبغوا فى التشييد بالحجر ، وكانت أعمالهم المعمارية أفضل ما ظهر من نوعها فى الدنيا الجديدة ، على الأقل من ناحية الذوق

الجمالى . وبالرغم من أنهم لم يعرفوا استخدام مفتاح العقد المشيد من الحجر فقد شيّدوا مباني عظيمة جدا لها سقوف حجرية من نوع العقد ذى الطبقات . وإذا زرنا اليوم المراكز الدينية العظيمة التى شيّدوا فيها مبانيهم الدينية مثل تشيتشن ايتزا (Chichen Itza) وأوكسمال (Uxmal) وبّتن (Peten) فانا نقف مبهورين أمام جمالها ، رغم ما أصابها من تخریب .

ويعد فن النحت لدى شعب المايا من أعظم ما ظهر من فنون فى أى عصر من العصور . فمعابد المايا ملأى بالمناظر المنحوتة على الحجر نحتا دقيقا متشابكا يمثل الآلهة مع صفاتها ، والطقوس الدينية ، ومشاهد انتصار الملوك كما نرى فيها أيضا الطيور والأزهار والأفاعى مرسومة فى أسلوب مبسط . ومن المرجح أن مدينة پالنك (Palenque) التى يرجع تاريخها الى الامبراطورية القديمة فى حضارة المايا كانت البلد الذى تقدم فيه هذا الفن الجميل ، ومنه انتشر الى غيره من البلاد ، فان كثيرا من تلك الأحجار المنحوتة وأعمال الجبس المصبوب يرجع تاريخها الى القرن السابع ، كما أن غطاء التابوت الكبير المصنوع من الحجر الجيرى الذى عثر عليه فى عام ١٩٥٢ فى معبد النقوش فى پالنك يمكننا أن نقارنه بأجمل النقوش المحفورة على آثار مصر القديمة .

كانت مدينة المايا فى حالة تدهور عندما حدث الغزو الاسپانى وكان الناس يعيشون فى قرى أو بين بقايا مدنهم القديمة ، وكانت مدن الامبراطورية القديمة مثل پالنك قد هجرها أهلها منذ وقت طويل واختفت بين أشجار الغابة النامية ، وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر عند ما نظف الأثريون هذه المنطقة وكشفوا عما بقى من جمال تلك المدن التى اندثرت منذ زمن بعيد ، وعرفوا مدى عظمة تلك المدينة .

ولم يكن أهل المايا أقدر النحاتين والمعماريين فى الدنيا الجديدة فحسب ، بل كانوا أيضا أعظم العلماء وكادوا يصلون الى اختراع طريقة منتظمة للكتابة . استخدم المايا كتابة تصويرية استعملوا فيها العلامات أو الاشارات كرموز

اصطلحوا عليها للتعبير عن المعانى . وبالرغم من أن مدينة المايا كانت في تدهور عندما حدث الغزو الاسباني فان الكهنة والطبقة الحاكمة كانوا ما زالوا محتفظين بالمعرفة العلمية وفن الكتابة وكانوا مستمرين في تقديمهم فيها ، ولو تيسر لهم الوقت الكافي لتمكنوا من الوصول الى أسلوب للكتابة أكثر مرونة وأكثر تعبيراً . وعلى أى حال ، فان أول ما استهدفه الغزاة الاسبانيون هو محو العلم وأهله . ولهذا سارعوا بعد الغزو بالقضاء على تلك الجماعة الصغيرة من المتعلمين الذين كانوا يصونون هذه المعرفة . فجمع « ديجو دى لاند » (Diego de Landa) مطران يوقاطان في عام ١٥٦٢ مئات من كتب التاريخ والفلك والرياضيات وأحرقها في الميدان في بلدة « مريدا » ، ولم يظل باقيا من مكتبتهم الا تلك المجلدات القليلة التي أرسلوها الى أوروبا كنحف نادرة ، وقد تمكن العلماء بعد سنوات من الدراسة من حل رموز الأسلوب التصويرى لكتابة المايا .

ومخطوط درسدن (Dresden) هو أهم ما بقى من كتب المايا ، وهو كتاب يبحث في الرياضيات والفلك سجلوا فيه أوقات كسوف الشمس وخسوف القمر ، وجميع ما شاهدوه من أشياء غير عادية في سير الكواكب ووضعوا لذلك نوعاً من التقويم الطويل المدى . وثبتت هذه الحسابات الفلكية انه في الوقت الذى حدث فيه الغزو الاسباني كان شعب المايا أكثر تقدماً في كل من الفلك والرياضيات من أى شعب في أوروبا . وقد توصلوا أيضاً الى عمل تقويم مشوش ولكنه دقيق دقة فائقة ، وذلك باستخدامهم عدة أنواع مختلفة من الملاحظات التى تتفق مع بعضها في نفس الزمن واستطاعوا بواسطتها أن يحددوا بدقة أى تاريخ يقع في عصر « الدورة التقويمية » ومدتها ٥٢ سنة وكل سنة ٣٦٥ يوماً أى ١٨٠٩٨٠ يوماً . واستخدم « الأزتك » (Aztek) و « الميكستك » (Mixtec) و « الزابوتك » (Zapotek) دورة الأيام ٣٥٦×٥٢ التى استعارها كل منهم من تقويم المايا والتى سماها الأزتك

« حزمة السنين » ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحسبوا أكثر من دورة الاثنين والخسين عاما فقط ، وعجزوا عن الوصول الى حساب التاريخ الطويل الذى توصل اليه المايا . ونعرف من النقوش التى على آثار شعب المايا أنهم كانوا يعرفون الطول الحقيقى للسنة الشمسية ، ولهذا كان فى استطاعتهم عمل الحسابات المطولة لمعرفة موضع أى يوم منذ الوقت الذى بدأوا فيه وضع ذلك التقويم .

ومما يدعو الى الأسف أن تقدم المايا فى الناحيتين الثقافية والذوق الفنى لم يكن مرتبطا بما يقابله من التقدم فى العلوم السياسية والحرية . ومهما يكن من أمر فإن سقوط الامبراطورية القديمة الذى حدث فى القرن التاسع لم يرجع الى غزو أجنبى بقدر رجوعه الى العوامل الاقتصادية الداخلية . فقد ركزوا اهتمامهم فى الفنون والعلوم الى الحد الذى جعلهم يتفوقون تفوقا كبيرا فى هاتين الناحيتين ويصلون نظم الاقتصاد والزراعة ، ثم انتهى بهم الأمر الى عجزهم عن سد حاجات السكان الذين ازداد عددهم . وفى القرن الثانى عشر تعرضت امبراطورية المايا الى غزو قامت به قبائل رحل من شعب التولتك (Toltec) الذين اضطروهم توسع امبراطورية الازتك الى الرحيل عن مواطنهم فشقوا طريقهم بالقوة متجهين نحو الجنوب ، الى منطقة المايا ، حيث بدأوا حياتهم كجنود مرتزقة كما فعلت قبائل القوطيين فى الامبراطورية الرومانية .

واستسلمت الامبراطورية المتواحية لمهاجميها ولكن الغزاة الأجانب الذين أقاموا فى تلك البلاد امتصتهم حضارتها . وحوالى عام ١٠٠٠ ميلادية ظهرت نهضة جديدة فى بلاد المايا ، ومنذ هذا الوقت حتى عام ١٤٠٠ ، مرت بالبلاد فترة ازدهار وهى التى نسميها « الامبراطورية الحديثة » وكان مركز حضارتها فى منطقة يوقاطان . وفى خلال هذا العصر شيدت مدينتا « تشيتشن اتزا » و « أوكسمال » ، ولم تكونا مدينتين بالمعنى المعروف فى الدنيا القديمة ، وانما كانتا مركزين دينيين . ومهما يكن من أمر ، فإن المايا لم يكن لهم فى أى وقت من

الأوقات حكومة مركزية قوية ، ولم تكن امبراطوريتهم في يوم من الأيام مملكة متحدة ، ولكنها كانت مجموعة من المدن يحكم كلا منها كاهن — ملك من بيت معين في تلك المدينة ، يتوارث أفرادها هذا المنصب . وبين حين وآخر نجحوا في عمل اتحادات بين تلك المدن ولكنها كانت اتحادات مفككة التنظيم ، ولم يكتب لها البقاء لفترة طويلة ، وقبل أن يصل الاسپانيون بزمن طويل كانت حضارة المايا القديمة قد اضمحلت وانتهى أمرها .

أما الأزتك الذين كانوا يعيشون في وادي المكسيك عند وصول كورتيز في عام ١٥١٩ فقد كانوا حديثي عهد بالمدينة ، وكانوا في الأصل قبيلة من قبائل « ناهوان » الذين هاجروا في القرن الثالث عشر الى جزيرة مليئة بالأدغال في بحيرة « تكسوكو » (Texoco) فاستقروا فيها وأسسوا مدينة « تنوتشيتلان » (Tenochitlan) وهو المكان الذي تقوم فيه مدينة المكسيك الحالية . ونظرا لأن منطقتهم كانت من المناطق غير المرغوب فيها ، وفي الوقت ذاته يصعب الوصول إليها ، فقد ظلوا في مكانهم غير معرضين للغزو ، وتقدموا تدريجيا في مدينتهم ، وزاد عددهم . وفي أيام رابع ملوكهم وكان يسمى « اتزكوatl » (Itzcoatl) (١٤٢٧—١٤٤٠) كونوا اتحادا مع ولايتين أخريين وهما « تكسوكو » (Taxcoco) و« تلاكوبان » (Tlacopan) وشن ذلك الاتحاد الثلاثي الحرب ضد غيرهم من شعب الـ « ناهوان » ووسعوا رقعة بلادهم حتى أسسوا امبراطورية شملت معظم المكسيك الوسطى ، وامتدت من شاطئ المحيط الأطلسي حتى شاطئ المحيط الهادى .



رسم على فخار من مدينة الأزتك

وكانت امبراطورية الأزتك تقوم على الغزو والنهب ، وهى تشبه فى ذلك الامبراطورية الاثورية فى الدنيا القديمة . فجمع حكامها ثروة طائلة وأصبحت لهم سلطة كبرى بفضل ما كانوا ينهبونه من غيرهم وما يأتيهم من الجزية ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا يذكر لتنظيم أو استيعاب القبائل التى أخضعوها لسلطانهم . ولما كان الأزتك يعتمدون فى حياتهم على شن الحروب فقد كان طبعيا أن ينشئوا نظاما حربيا قويا . كانوا يدربون جميع الرجال الأصحاء على الحرب ، وكان أولئك الرجال على استعداد دائم لتلبية أى نداء للخدمة العسكرية . وكانت الحروب دائمة الحدوث بينهم ولكنها لم تكن تستمر عادة وقتا طويلا . كان السلاح الرئيسى الذى يستخدمه الأزتك حرابا ثقيلة الوزن يقذفونها على العدو بواسطة قاذفة خاصة ، كما كانوا يستخدمون الأقواس والسهام وسيفا خشيا يثبتون فى حده شطقات من حجر الوبسيديان . وقد جاء فى بعض المؤلفات التى كتبت عنهم انه كان فى استطاعة المحارب من الأزتك أن يقذف بعمرته فتخترق درع المحارب الاسپانى وأن يقطع رأس الجواد بضربة من سيفه الخشبى . وكان الجندى العادى يحارب دون أن يرتدى من الملابس الا ثقبه صغيرة حول الجزء الأوسط من جسده ، ولكن زعماءهم كانوا يلبسون صديريات من القطن المدثر (مثل اللحاف) يتقمنها فى الملح لتكون أكثر مقاومة ، كما كانوا يلبسون خوذات من الخشب على هيئة رؤوس بعض الحيوانات . وكان الحكام العظام يذهبون الى الحرب وهم يرتدون دروعا من صفائح الذهب يغطونها بطبقة من نسيج زاهى الألوان من ريش الطيور .

وكانت المعارك ذات طابع احتفالى أكثر منها ميدانا تراق فيه الدماء . لأن الهدف منها هو أسر العدو لا قتله ، فلم يهللوا للمحارب اذا قتل رجلا فى الحرب ، ولكن شرف الفروسية الذى كان يرنو اليه قلب كل محارب ، كان من نصيب أولئك الذين يعودون بالأسرى الى العاصمة ليقدموهم قربانا على



المعبود « نالوك » ، اله المطر لدى الازتك

مذابح الآلهة . كان أعظم آلهتهم هو الاله « هويتزيلو پوشتلى » (Huitzilo) (pochtli) اله الحرب ، ولكى يبقى هذا الاله قويا ويجعل النصر فى الحروب من نصيب أتباعه فقد كان يتحتم عليهم أن يقدموا اليه قلوب عدد كبير من الأسرى المحاربين قربانا له . وكلما كان مركز الضحية كبيرا زادت قوة الاله ، ولهذا كانت الحاجة الى الضحايا الآدمية سببا فى الحرب ، وكانت الحرب هى الطريق الموصل الى أولئك الضحايا وهكذا دواليك .

كانت تنو تشتلان عند حدوث الغزو الاسپانى مدينة كبيرة جميلة مشيدة فوق عدد من الجزر فى بحيرة تسكوكو ، وكانت فى تنظيمها الاجتماعى وفى ادارتها مثلا للمدينة القبلية الهندية ، ولكن غناها جعلها تظهر فى مظهر العاصمة لامبراطورية كبيرة . ولم يكن بالمدينة الا عدد قليل من الشوارع ، وكانت تتخللها القنوات التى أقيمت عليها قناطر يمكن رفعها عند الحاجة . وعلى حافة الجزيرة كان الفلاحون يعنون بزراعة ما أسموه « الحدائق المائية » وكانوا ينقلون حاصلاتها الى المدينة فى زوارق صغيرة من تجويف الأشجار . وكانت منازل الطبقة الأرستوقراطية مشيدة من طابق واحد ، ويتوسطها حوش كبير

يزرعون فيه الأزهار والشجيرات . أما معابدهم فكانت تبني فوق أهرام ترتفع فوق مستوى منازل المدينة ، وأمام تلك المعابد ساحات كان يجتمع فيها الشعب الذي كانت تهتز مشاعره لرؤية الطقوس التي تراق فيها دماء الضحايا فوق درجات المعبد . وكان مجتمع الأزتك مجتمعا أرسوقراطيا ، وكانت حياة الطبقة العليا فيهم حياة بذخ ورفاهية . وكان المجلس القبلى ، وهو أكبر هيئة حاكمة ، مكونا من مثلين يمثل كل واحد منهم قبيلة من القبائل ، وكان ينتخب على أساس ما كان يتحلى به من صفات .

وكان نظامهم القضائى على درجة كبيرة من التقدم ، وكانوا يشتدون فى معاقبة من يقترب أى جريمة اذ كانوا ينظرون الى الأعمال التى تقترب ضد المجتمع مثل الرشوة وسوء استغلال الوظيفة ، والسكر ، باستثناء المتقدمين فى العمر الذين لم يكن لهم نشاط فى الحياة العامة ، على أنها جرائم خطيرة . وربما كانت السرقة أمرا سهلا فى هذا المجتمع الغنى الذى كان لا يقفل فيه أحد باب بيته ، لو لم يعتبروها جريمة لا تغتفر ، عقوبتها الاعدام لمن يقتربها . وعنت الدولة بأمر الشعب فلم يكن فيهم من يسرق بدافع الجوع ، وكانوا يزرعون مساحات من الأرض على جانبي الطرق بنبات الذرة ليأخذ منها المحتاجون متى شاءوا ، فاذا حدثت مجاعة سيروا الحملات الحربية ليحصلوا على موارد اضافية من الجزية التى يفرضونها على العدو يوزعونها بين الناس . وكان لدى الأزتك نظام غريب فى التطوع للرق ، كان له أيضا شيء من الفضل فى مساعدة الفقراء .

كانت هناك أنواع مختلفة من الرق فى مجتمع الأزتك ؛ فقد كانوا يسترقون فى بعض الأحيان أسرى الحروب ولكنهم كانوا فى أغلب الحالات يقدمونهم ليكونوا قربانا تعمل فى قلوبهم مدية الكهنة . ولكن العائلات الفقيرة التى أنجبت أطفالا أكثر من العدد الذى تستطيع أن تعوله كان فى استطاعتها أن تبيع واحدا أو اثنين من أطفالها ليكونوا رقيقا . وكانوا لا يسجنون

المجرمين ، ولكنهم كانوا يحكمون عليهم بأن يكونوا رقيقا لمدة معينة من الزمن ، وكانوا يسلّمونهم الى الأشخاص الذين وقعت عليهم أو اقترفت ضدهم الجرائم ، لأن العدالة لدى الأزتكَ كانت تستهدف تعويض الشخص الذى وقع عليه الضرر أكثر من الانتقام من المعتدى . وكان هناك أيضا نظام التطوع فى الرق . ففى مقدور الرجل الذى لا يمتلك أرضا وعجز عن اعالة نفسه أن



صور على النسيج — من مدينة الأزتكَ

يقدم نفسه كرقيق ليصبح غيره مسئولاً عن اعالته . وكان فى استطاعه المرفق الذين يعمرون ما يملكونه فى حياة البذخ أو فى حياة المقامرة أن يصبحوا رقيقا لغيرهم الى أن يحين الوقت الذى يستعيدون فيه ثروتهم . كما كان فى استطاعة الفتيات الجميلات اللاتى ولدن فى عائلات فقيرة أن يتطوعن فى الرق لمدة معينة

حتى يجمعن الحلى وأدوات الزينة اللازمة لهن ليعملن كعاهرات . ولم يكن الرق قاسيا ، اذ كان في استطاعة الرجل الرقيق أن يتزوج وأن يكون صاحب السلطة على عائلته ، وأن يمتلك ويجمع ثروة خاصة به ، بل وصل الأمر الى الحد الذى كان فيه بعض الأرقاء يملكون أرقاء خاصين بهم ، وكان الأطفال الذين يولدون للأرقاء يعتبرون أطفالا أحرارا . وبالرغم من أنهم لم يسمحوا لأى شخص سبق له أن كان رقيقا فى وقت من الأوقات أن يرشح نفسه لرياسة القبيلة ، فان نظام الرق التطوعى ، فيما عدا هذه الحالة ، لم يكن يعتبر عيبا اجتماعيا كبيرا .

وكان الآباء يقومون بتعليم أبنائهم فى المنزل ، فاذا ما بلغ الصبى سن الخامسة عشرة كانوا يرسلونه الى مدرسة للعشيرة كانوا يسمونها « بيت الشباب » ، وفيها كانوا يتلقون دروسا فى الوطنية ، والحرب ، والتاريخ والموضوعات الدينية . وكان للمعابد مدارس تسمى الواحدة منها كالملكاك (Calmecac) للاعداد لوظائف الكهنوت ، وكثيرا ما كان الآباء يقدمون أبنائهم وهم فى سن الطفولة الى الكالملكاك التى كان التعليم فيها قاسيا ومعقدا . كانوا يعلمون الصبيان الكتابة ، وكانت نوعا من الكتابة التصويرية المقدسة وتشبه كتابة المايا ، وكانت تستخدم بنوع خاص فى القوانين وفى تحرير الوثائق التجارية . وكانوا يطلبون من الصبية أن يحفظوا عن ظهر قلب عددا هائلا من الأغاني والأناشيد التى يغنونها من الذاكرة وهى التى حفظت لنا الكثير من أساطير وآداب ديانة الأزتك . وكان الكهنة يعملون من بقى منهم فى المدرسة ، واختار الكهنوت مهنة له ، تنظيم الاحتفالات والطقوس المتبعة فى الأعياد والمناسبات الدينية . وكان الصوم وتعذيب النفس جزءا من هذا النظام التعليمى ، وكانوا يعطون أعلى الوظائف فى المعابد لأولئك الذين أظهروا التفوق والامتياز فى مدارس الكالملكاك .

لقد برر الاسبان غزوهم لامبراطورية الأزتك ونهبهم لها بادعائهم أن

واجبهم كمسيحين يحتم عليهم أن يقضوا على زعماء أمة وثنية تقدم الضحايا الآدمية قرايين لآلهتها الملعونة . ولكن هؤلاء الضحايا في نظر الأزتكت لم يكونوا الا تعبيرا عن الشعور الدينى الصادق . فقد كان أولئك الآلهة في حاجة الى التقوية ، ولم يكن هناك ما ييدهم بالقوة أكثر من القلب الانسانى الذى يقدمه الكاهن الى الاله وهو ما زال ينبض ويقطر منه الدم فوق المذبح الحجرى بعد نزعها من الجسم . ولم يتعرض أولئك الضحايا الى أنواع التعذيب والمهانة التى كانت توقعها محاكم التفتيش الاسبانية على من كانوا يتهمونهم بالمروق عن الدين فى ذلك العهد . فكثير من أولئك الأسرى الذين يقدمون الى الآلهة كانوا يعاملون معاملة كريمة وينزلونهم فى منازل فخمة يقوم بالخدمة عليهم وصيقات ، وكانوا يقيمون لهم الحفلات ليروحوا عنهم ، وكثيرا ما كان هذا الموت الطقى الذى يتم أمام جموع من المشاهدين الذين تملكهم النشوة ، سببا فى احداث النشوة الدينية فى نفوس الضحايا أنفسهم لأن موتهم فوق المذبح كان يضمن لهم الوصول الى أعلى السماوات ، بل ان علم الضحية بأن جسده سيقتذف به ليتدرج على درجات المعبد ليأخذوه فيأكلوه فى مأدبة دينية لم يكن أمرا فيه شئ من المهانة لأنهم كانوا يأكلون ذلك اللحم اعتقادا منهم بأن من يأكل منه يصبح أكثر اتحادا مع الله نفسه . ان هذا النوع من تقديم الضحايا الآدمية ليس الا فكرة دينية تشبه تناول القربان فى الديانة المسيحية ولكن مع الفارق ، اذ أن الأزتكت كانوا فى هذه الناحية واقعيين وعمليين فى صورة قاسية .

وشاء القدر أن تصبح المدينيات الهندية ، وما حوته من كنوز الذهب ، فريسة لطمع وتمصب الغزاة الاسبانيين . وعلى أى حال ، فان استسلام امبراطورية الأزتكت فى وقت قصير أمام كورتيز ، الذى أتى اليهم ومعه قوة مكونة من أربعمائة وخمسين رجلا وثمانية عشر جوادا ، كان راجعا الى مجموعة من العوامل التى كانت فى صالح الاسبانيين .

وأول هذه العوامل هو الارتباك الذى حدث بينهم فى البداية وتساؤلهم عن يكون كورتيزوما الذى يريده . ففى جميع أرجاء المكسيك كانت تنتشر أسطورة « كوتزا لكواتل » (Quetzalcoatl) أو الثعبان ذى الريش ، وهو أحد آلهة التولتك الذى نزل فى العصور القديمة من السماء ليعيش على ظهر الأرض ليحكم الناس ، وأحضر لهم معه الفن والحكمة وعندما طرده الاله آخر أقوى منه هرب الى المحيط فى زورق مصنوع من جلود الثعابين ، ووعد أن يعود ثانية الى شعبه وستكون عودته ايذانا بيده عصر ذهبى لهم . وكان « كوتزا لكواتل » يرسم أحيانا فى صورة رجل أبيض اللون ، وله لحية ، وكان مجرد التفكير بأنه من المحتمل أن يكون كورتيز هو الاله نفسه الذى عاد الى الحياة كافيا لشملة ارادة محاربى الأزتك ، فدخل كورتيز الى العاصمة دون أن يعترضه أحد .

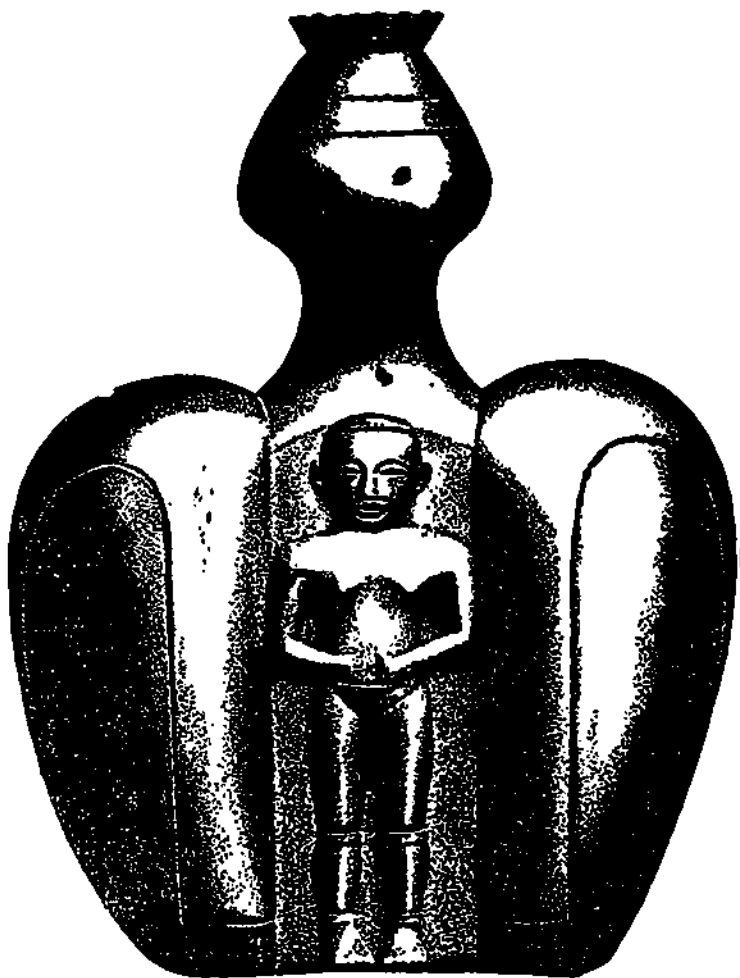
وسارع كورتيز بالقبض على الملك « موتزوما » وأبقاه رهينة لديه ، ولكن هذا العمل العدوانى زاد من شدة خوف الناس ولم يبعث فيهم روح المقاومة . وسمحوا لكورتيز بالعودة الى الشاطئ فأناب عنه معاونه « ألقارادو » فأقتل الناس الأسواق وقبعوا فى منازلهم . وعندما حل موعد الاحتفال بعيد ال « هويتزبلوبوشتلى » (Huitzilopochtli) اجتمع الناس فى الميدان فصر « القارادو » ذلك بأنه اجتمع حربى فأصدر أمره الى جنوده الذين أعملوا القتل فى الرجال والنساء والأطفال ، وقد أحدث عمله هذا رد فعل شديد فهاجت المدينة ولكن هذا الهياج جاء متأخرا جدا .

واتضح ضعف الامبراطورية واضطر المغلوبون على أمرهم الى الخضوع لقوة الغاصبين وأجبروهم على دفع الجزية ، ولكن الأزتك لم يرضوا عن الانضمام الى الامبراطورية الاسبانية ولم يحسوا نحوهم بأى ولاء . واستطاع الاسبان أن يفروا كثيرا من القبائل التى كانت خاضعة للأزتك بالانضمام الى جنود « ألقارادو » المحاصرين . وحتى الذين كانوا مواليين لحكومة الأزتك

لم يقبلوا على حمل السلاح في ذلك الوقت لأنه كان موسم الحصاد ، وتصوروا أن فقد محصولاتهم كان مصيبة أكبر من المصيبة التي تحيق بهم من نهب الغزاة . ولم يكن المحاربون الأزتك كفؤا لصد جنود يستخدمون البنادق ، كما أن أسلوب حروبهم ذات الطابع الاحتفالي لم يكن ذا جدوى ضد تكتيكات الاسبان الواقعية . لقد حاربوا بتصميم وشجاعة يائسة عندما استثارهم العدو ، ولكن الخيانة ، وانتشار الأمراض ، وخسائرهم الدامية ، اضطرتهم للخضوع والاذعان .

أما في أمريكا الجنوبية فقد ظهرت المدينيات العظيمة في هضاب الأندس . وما زال وصول المهاجرين الى أمريكا الجنوبية لغزا من ألغاز الدراسات الأثرية لأن منطقة البرزخ تكاد تكون منطقة لا يمكن اجتيازها حتى في وقتنا الحاضر . فهي منطقة ملأى بالغابات ، ومياهها التي على مقربة من الشواطئ وعلى الأخص شاطئ المحيط الهادى صعبة في الملاحة ، اذ توجد رياح مضادة ولا توجد فيها موانئ صالحة نظرا لأن الغابات تمتد حتى شاطئ البحر . وبالرغم من كل هذه الصعوبات فقد تمكن المهاجرون بطريقة ما من اجتياز هذه المنطقة الموحشة ثم انتشروا بعد ذلك في أنحاء القارة . وفي الوقت الذي حدث فيه الغزو الاسباني كان يعيش في غابات الأمازون الاستوائية قبائل متوحشة تعيش في أكواخ من القش المغطى بالطين ، وكان الرجال يصطادون السمك وكانت النساء يزرعن حقولا صغيرة من الذرة والفول السوداني ونبات المنيوق (Manioc) . وكانت الپيماس (سهول المراعى) في الأرجنتين وسهول پتاجونيا آهلة بقوم رحل يعيشون على الصيد وعلى جمع البذور ، ولم تكن هناك مدينيات متقدمة الا في منطقة واحدة فقط وهي منطقة الأندس حيث عاش الناس في المدن وتقدموا في النواحي الفنية والسياسية والدينية .

ومنطقة الأندس مرتفعة جدا حتى ليظن الانسان انها مكان لا يصلح لتطور مدينة كبيرة ، ولكن هنود هضبة الأندس يتمتعون باتساع كبير في



اناء من الذهب ، عثر عليه فى كولومبيا

رئتهم ، وبتركيز أكبر فى كرات الدم الحمراء ، ولهذا السبب يستطيعون أن يحتفظوا بكمية أكبر من الأوكسجين ويستطيعون أن يؤدوا أعمالهم فى أماكن مرتفعة يحس فيها الرجل الأوروبي بالدوار ويتحول لون وجهه الى الزرقة . وهناك من يعتقد أن الهضبة هى المكان الذى بدأت منه الحضارة الأنديية ولكن الأدلة تثبت أنه منذ أقدم المصور كان هناك قوم يعيشون فى منطقة

الشاطيء ، وقد خلفوا وراءهم بعض الآثار . كان أقدم المهاجرين الى منطقة الشاطيء قوما على علم بالزراعة ، فحطوا رحالهم في وديان الأنهار ، وكانوا يعيشون على الخضراوات المختلفة وبعض المحصولات الجذرية والسمك . ونشأت حضارات مستقلة عن بعضها البعض في الوديان القريبة من الشاطيء ولكن المنطقة الداخلية البعيدة عن الأنهار كانت منطقة صحراوية وغير صالحة للزراعة . واخترعوا طريقة للرى وذلك بحفر قنوات توصل المياه الى أبعد ما يمكن أن تصل اليه ، ولكى ينعوا تبخر الماء في هذه المنطقة الحارة ذات المناخ الجاف كانوا يضعون سقوبا فوق قنوات الرى . وكانوا يبنون قراهم في الصحراء لأن الأرض الصالحة للزراعة كانت أئمن من أن تستخدم في تشييد مساكن القري .

وحوالى عام ١٠٠٠ ق . م . حدث تقدم فجائى في حضارتهم وذلك عندما عرف المزارعون الذين كانوا على مقربة من الشاطيء زراعة الذرة والبقول وأضافوها الى محاصيلهم الجذرية .

وحدثت النهضة الحضارية الثانية في القرن الثالث أو القرن الرابع بعد الميلاد وكان ذلك في منطقة الوديان الساحلية الشمالية ، وهى التى تعرف بمصر « موشىكا » (Mochica) . ففى ذلك العصر وصلت الصناعة الى مستوى عال وبالأخص فى صناعتى الفخار والنسيج . فقد صنع أولئك الناس جرارا فى صورة رؤوس منحوتة راعوا فيها الأمانة التامة فى الأداء ويستطيع الانسان أن يقول عنها انها تمثل أشخاصا معينين . ورسوموا على فخارهم الملون مناظر من الحياة اليومية ، ومن الأساطير ، ومن مناظر المعارك ، وكلها تعطينا صورة دقيقة عن حضارتهم ، وكانوا على ما يظهر قوما محبين للحرب ، فوسعوا رقعة بلادهم عن طريق الغزوات الحربية .

وجاء العصر المتألق التالى حوالى عام ١٠٠٠ ميلادية ويسمى عصر « تھواناكو » (Tihuanaco) نسبة الى ذلك المركز الدينى الذى ما زالت خرائبه

حتى الآن باقية على الشاطئ الجنوبي من بحيرة « تيتسكاكا » (Titicaca) في بوليفيا . وكانت هذه الامبراطورية تشمل جميع اراضي بوليفيا وبيرو ، ومن الصعب أن يتصور الانسان كيف استطاعت هذه المنطقة ذات التربة الفقيرة المكونة من الصخر ، والتي ترتفع ١٤ر٠٠٠ قدم عن سطح البحر أن تقوم بأود سكان توافر لديهم الوقت والمقدرة الكافيان لتشييد مبان كالتي شيدها أولئك التهواناكو . ففي الهضبة التي الى الشمال من ذلك المركز الديني نجد أهراما من الحصى الكبير الحجم يبلغ ارتفاعها نحو أربعين قدما . وهي ليست أهراما جنازية ولم تشيد لأي غرض ديني وانما هي مجرد أكوام من الحجارة التي تكدست بعد تنظيف الحقول فكوموها فوق بعضها . ومهارة التهواناكو في نقل الأحجار الضخمة تدعو الى الدهشة . فقد شيّدوا بوابات كبيرة يتكون كل جانب منها من حجر واحد زخرفوه برسوم محفورة . وهذه الرسوم وان كانت منمقة فإن الابتكار ينقصها ، ونرى عليها رسوما كثيرة منقولة على ما يظهر من الرسوم التي كانت مستخدمة في الأقمشة المنسوجة . ومهما حاولنا تفسير الطريقة التي استخدموها في نقل حجر يزن ستين أو سبعين طنا لمسافة بضعة أميال فانا لا نجد تفسيراً ترتاح اليه وسيظل ذلك سرا من الأسرار لأن هؤلاء الناس لم يعرفوا الأدوات اللازمة لمثل هذا العمل بل لم يكن لديهم الخشب اللازم لعمل الصقالات والرافعات . ومن الواضح أن سكان هذه المنطقة كشفوا في وقت مبكر كشفا أحسن التهواناكو استخدامه ، وأصبح من ميزة جميع الحضارات الأنديّة التي ظهرت فيما بعد ، وهذا الاكتشاف هو مقدرتهم في التنظيم وحسن توجيه الأعداد الضخمة من العمال . وظهر عدد من الامبراطوريات التي كانت الحروب سببا في قيامها ، وانتشرت تلك الامبراطوريات في الهضبة كلها ، وضمت اليها تدريجيا الوديان القريبة من الشاطئ . ومن أهم هذه الامبراطوريات امبراطورية ال « شيمو » (Chimu) التي ظهرت حوالي عام ١٣٠٠ ميلادية

وكانت تمثل ، ولو جزئيا ، نهضة جديدة للموشيكو أدخل عليها التهواناكو بعض التعديلات . وامتاز هذا العصر ، مثل عصر الموشيكو ، بالصناعات الدقيقة كما يتضح ذلك في الفخار الذى كانوا يصنعونه فى صور حيوانية جميلة الشكل . وكان الشيمو من سكان المدن الذين شيدوا مدنا كبيرة من نوعين ، أحدهما المراكز الدينية الشبيهة بما شيده التهواناكو ، والثانى مدن حقيقية كبيرة تشبه مدن الدنيا القديمة وكانت مراكز سكنية وحرية فى وقت واحد . وكان عدد السكان كبيرا وكانوا منظمين تنظيميا حسنا ، والأراضى تروى بانتظام ، حتى لم يبق فدان واحد صالح للزراعة لم يستغلوه .

وكانت امبراطورية الانكا الشهيرة (١٤٣٨ — ١٥٣٢) آخر تلك الامبراطوريات وأعظمها شأنا . ويشير اسم « انكا » الى القبيلة التى كانت تحكم هذه الامبراطورية كما كان هذا الاسم يطلق على الملك الوراثى الذى يحكم الامبراطورية ، وقد توصلت الجماعة الحاكمة فى الانكا الى ما حققته من قوة باستفادتها من أساليب جمع واستخدام الأعداد الكبيرة من العمال التى كانت موجودة من قبل . وكانت الانكا فى الأصل عشيرة صغيرة من قبيلة تسمى « كوشوا » (Quechua) كانت تعيش فى أحد وديان هضبة بيرو . وكان هذا الوادى على ارتفاع ١٠٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، ولهذا أمكنهم بسهولة زراعة الذرة والبطاطس وغيرها من المحصولات . ولكن معظم الأرض كانت شديدة الانحدار فاضطروا الى الزراعة بطريقة المدرجات . وكانت هذه المدرجات ترتفع واحدة فوق أخرى آلافا من الأقدام ، وكانوا يعملون من آن لآخر ميازب مكسوة بالحجر كافية لتخليص الأرض من مياه الأمطار مهما كانت غزيرة . واستغلوا مياه العيون وكانوا يحولون مياهها المتدفقة فتسقى مدرجا بعد آخر ، وقد أحسنوا تخطيط تلك المدرجات وعنوا بقوة جدرانها وما زلنا نراها حتى اليوم على جوانب التلال . وعرف السكان المرتفعات المختلفة والحاصلات التى يمكن أن تنمو فيها ، كما عرفوا أيضا

فائدة مخصبات الأرض اذ كانوا يحتفظون بكل المخلفات الآدمية والحيوانية لاستخدامها في الحقول . وبالرغم من أنهم لم يعرفوا المحراث فاننا نستطيع أن نقارن حقول الإنديين بحقول الصينيين أو اليابانيين التي كانوا يزرعونها في مدرجات ، ويستخدمون فيها المخصبات .

وكان الإنكا مهندسين وبنائين مهرة ، وكانوا يبنون معابدهم وحصونهم من كتل ضخمة من الحجر ينحتون جوانبها حتى تصبح زواياها قائمة ويصقلون سطحها بدقة كبيرة حتى اذا ما استخدموها في البناء كانت كل منها تكاد تكون ملتحمة بما جاورها دون أن يستخدموا المونة في بنائها . والمنطقة التي عاش فيها الإنكا منطقة جبلية ، وكان من الممكن أن تهاوى مثل هذه الجدران عند حدوث أول زلزال ولكنها ما زالت قائمة حتى الآن وبعد أكثر من خمسمائة سنة ، لم تتزعزع واحدة منها من مكانها ، ولا يستطيع الإنسان أن يدخل سلاح سكين بين اثنين من أحجارها . وتجعلنا مباني الإنكا نحس بقوة ظلمة محشودة تأخذ بشاعرنا ، وفي أيام الامبراطورية كانوا يذهبون بممثلي الجماعات الأجنبية التي يريدون ضمها اليهم ليزوروا الحصن الكبير في « ساكاشوامان Sacashuaman » ، فكانت ضخامة البناء وقوته تؤثران في نفوس السفراء فيخضعون لمطالب الإنكا دون مقاومة . وقد تم تشييد هذا الحصن قبل وصول الأسبانين بوقت قصير ، ولهذا لا يمكننا القول انهم في وقت حدوث الغزو كانوا قد نسوا هذا النوع من الفنون .

وأدرك الإنكا فائدة سرعة المواصلات في امبراطورية كبيرة ، فبنوا طرقا أفضل مما بناه أى شعب قبلهم باستثناء الرومان . وكانت الطرق ضيقة لأنها صممت ليستخدمها أناس يجرّون ، وليست للعربات ذات العجلات ، ولكنهم بنوها لتستخدم في جميع الفصول وفي جميع أنواع الطقس في أرض صعبة مارة بمناطق جبلية ، وتخترق كثيرا من الأغوار ومجاري المياه . وأقاموا استراحات بين مسافة وأخرى ليستريح فيها حملة البريد ، وينتظرون فيها

زميلهم الذى كان يقطع المسافة جريا ليأخذوا ما معه من رسائل . وكان من
الميسور أن يبعث الانسان بهذه الطريقة رسالة من كوزكو الى كويتو وبينهما
١٣٠٠ ميل .

وضم الانكا القبائل المجاورة الى الامبراطورية بطريقة منظمة للتوسع
جيلا بعد جيل . وكانوا يفضلون أن يتم ذلك الضم بطريقة سلمية كلما أمكن
ذلك لأن الانكا لم يكونوا يرحبون بالحرب حبا فيها . وأخيرا اتسعت
امبراطوريتهم فحوت كل هضبة الأندس وجميع المناطق القريبة من الشاطئ
ممتدة شمالا الى كولومبيا وجنوبا الى بوليفيا وشيلي . والى الغرب كانت
تميش قبيلة « أيمارا Aymara » الهندية فى المناطق الواطئة ، وهم قوم غير
متحضرين لم يستطع الانكا غزو بلادهم ، ولكنهم تمكنوا من تأسيس بعض
المراكز التجارية بينهم .

كانت امبراطورية الانكا مثالا صارخا للدولة الجماعية المستبدة التى
ترتبط أجزاءها عن طريق اصدار الأوامر التى جعلت كل ما فى الدولة تحت
سيطرتها المطلقة . كانت الأراضى ، والثروة المعدنية ، وقطعان الالاما والالپاكا ،
ملكا للدولة . وكانت الدولة تشرف على ادارتها مقابل العمل الذى يقوم به
الناس . وكانت الأراضى مقسمة الى ثلاثة أقسام : قسم منها للانكا (أى
طبقة الحكام) وقسم للمعبد والقسم الثالث وهو أكبرها للشعب . وكانت
أراضى الشعب تخصص للعائلات ويعاد تحديد مقدارها فى كل عام . فاذا ولد
طفل جديد فى العائلة زادوا على الجزء المخصص لهم شريحة من الأرض ، وإذا
مات أحد أفرادها أنقصوا جزءا منها . وكانوا يعطون كل زوجين منزلا وأرضا
وطاقمين من الملابس عند زواجهما . وكانوا يصدرون الأمر بتحديد يوم معين
يتم فيه الزواج فيحضر الشبان والشابات غير المتزوجين الى أحد المراكز
الحكومية ويتركون لهم بضع ساعات ليتعارفوا ، أى أن الزواج كان يتم عن

طريق الدولة ، ولكن في أغلب الحالات ، يتم ترتيب الزواج قبل ذلك بين الشاب والفتاة .

وعندما تزدهم احدى المناطق بسكانها كانوا ينقلون جزءا من السكان الى منطقة أخرى غير مسكونة في الامبراطورية وكانوا يحرصون على نقلهم الى مناطق يكون مناخها وارتفاعها عن سطح البحر والزراعة فيها مشابهة للمنطقة التي تركوها . وكان هذا النظام الذى أطلقوا عليه اسم « ميتامى » (Mitamae) متبعا أيضا للمساعدة في ابقاء بعض الجماعات المغلوبة خاضعة لسلطانهم . فبعد أن يضموا أحد الأقاليم الى مملكتهم كانوا يأخذون ما يقرب من نصف سكانه وينقلونه الى منطقة أخرى تبعد نحو مائة ميل عن موطنهم الأصلي ، ثم ينقلون جماعة أخرى من السكان الغرباء الذين لا يتكلمون اللغة المحلية ليحلوا في المنطقة التي أخلت من سكانها . وبهذا استطاع الانكا القضاء على الحضارة القديمة للمغلوبين وفرض حضارة الانكا عليهم ، فلا تمضى أجيال قليلة حتى يتم استيعابهم .

وكان السكان مقسمين الى جماعات تتكون كل منها من عشر عائلات ، ولكل جماعة منها رئيس يثلها ويصبح مسئولا عن سلوك جماعته كمسئولية زعيم الجماعة الصغيرة من الجنود عن سلوك جنوده . وكان لكل خمسة من الجماعات العشر رئيس آخر ، وكانت اثنتان من هذه الجماعات الخمسين تحت زعامة رئيس للمائة . ولكل خمسة من رؤساء المائة زعيم ، ولكل اثنين من هذين الزعيمين قائد يكون له حق الاشراف والزعامة على ألف عائلة . وكانت الامبراطورية مقسمة الى أربعة أقسام في الجهات الأربع من العاصمة كوزكو ويحكم كلا منها نائب للملك . وكان محرما على رؤساء الأقسام السياسية أن يكون لأحدهم أى علاقة مباشرة بزميل له ، وكانت جميع الأعمال تأخذ طريقها مباشرة الى الزعماء ثم تصدر الأوامر من الزعماء الى من هم أقل منهم . وكان الانكا نفسه الذى كان من سلالة الشمس على رأس الجميع . وكان الانكا

يقوم بين حين وآخر في موكب فخم بجولات تفتيشية في بلاده .
ولم تعرف دولة الانكا معنى الفاقة ، فاذا حدثت مجاعة أو عجزت
الحاصلات عن سد حاجة الناس صرفوا لهم ما يلزمهم من المخازن العامة
للغلال . وكانت قطعان الالاما والپاكا ملكا للانكا ، وكانوا يجمعون تلك
القطعان مرة في كل عام فينتفون أصوافها ، ولا يقصونها ، ويوزعونها بين
العائلات ليقوموا بغزلها في خيوط ثم يجمعون تلك الخيوط لصباغتها ، ثم
يجمعون بعد ذلك الخيوط المصبوغة ويوزعونها بين النساكين المحترفين
ليصنعوا منها الملابس . وتهدمت فيهم صناعة النسيج الى درجة تدعو الى
الاعجاب ويمكن مقارنة منسوجاتهم بأحسن ما أخرجه الصينيون أو
الأوروبيون في القرن السادس عشر . وكانوا يستخدمون اطارا بسيطا للنسيج
دون استعمال المنزل ورغم ذلك تفوقوا في صناعتهم بفضل مهارتهم
اليدوية المتأخرة .

واحتاج مثل هذا النظام الى عد أرقام هائلة . وقد حلوا هذه الصعوبة
باختراعهم طريقة غريبة للمد بوساطة عمل عقد في الخيوط وأطلقوا على هذه
الطريقة اسم « كويپوس Quipus » ، وكانوا يعملون عقدا ذات أشكال
مختلفة في الخيوط ، لكل منها دلالتها ، وكانت أشبه شيء بطريقة الاختزال
في الكتابة ولكنها كانت تعتمد كثيرا على الذاكرة اذ لم يكن في استطاعة أحد
أن يقرأ الكويپو بدقة الا صاحبه الذي قام بعمله ، وكان في استطاعة من
يعملون الكويپو أن يقوموا بعمليات حسابية كبيرة بهذا النوع من تسجيل
الأعداد .

وكان من عاداتهم جمع عدد من الشبان لاعدادهم لخدمة الامبراطور .
وكانت الدولة تتكفل بؤلاء « الياناكونا Yanacuna » كما كانوا يسمونهم ،
ويخصصون كلا منهم للقيام بنوع خاص من العمل . وكان منهم أحسن
الفنانين والصناع ؛ اذ أدرك الانكا أن الشعب الذي اعتاد على تنفيذ ما يصدر



إناء مزخرف برسوم ملونة - من مدينة الانكا

اليه من أوامر ، واعتاد أن يعمل كما تعمل خلية النحل ينقصه الابتكار والدافع الى انتاج سلع ذات جمال فنى ، ولهذا كانوا يختارون هذه الجماعة ويدربونها لسد هذه الحاجة . وقد امتاز صناع المعادن من جماعة الياناكونا فى صناعة الأدوات النحاسية والفضية والذهبية ، ولكنهم لم يعرفوا الحديد . وكانوا يستخدمون كلا من طريقتى الصب والطرق ، وعرفوا البرونز بخلطهم النحاس مع القصدير ، وعرفوا صناعة الأواني المغطاة بالصفائح المعدنية بوضع أوراق

الذهب فوق اناء من الفضة ووضع أوراق الفضة فوق اناء مصنوع من النحاس والطرق فوقها لتثبيتها فيها . وكان الذهب يتدفق على العاصمة ، وكانت جدران القصر مؤخر فقه بطنف (أفاريز) من الذهب ، وكان الانكا يتناول طعامه في صحاف من الذهب الخالص . وفي أيام الاحتفالات العامة كانوا يحيطون الميدان الكبير في كوزكو بسلسلة صنعت حلقاتها من الذهب . وكانت توجد في معبد الشمس حديقة ذهبية كان كل ما فيها من أشجار وأزهار وأطياف مصنوعة من الذهب وفيها راع بالحجم الطبيعي يرعى قطيعا من اللاما وكلها من الذهب الخالص ، كما صنعوا الفراشات والحشرات الأخرى ، وكانت من الذهب المزركش المخرم وذات وزن خفيف ، وقد ألقوا توازنها اذ كانت تتحرك في الهواء طائرة فوق الزهور الذهبية .

وكانت هناك جماعة أخرى تشبه الياناكونا ولكنها من النساء يسمونها ال « الالكونا Allcuna » كانوا ينتخبونهن وهن في سن الثامنة أو التاسعة ويضعونهن في مكان شبيه بالدير ، وتعمل بعضهن في المستقبل كاهنات في المعابد ويصبح البعض الآخر محظيات للامبراطور ، وكانوا يدربون هؤلاء الفتيات في صناعة النسيج ، وكن يقمن بعمل جميع المنسوجات الجميلة في قصر الانكا .

وكانوا ينتقون الحكام من بين النبلاء الوراثنين للقبائل التي أخضعوها لحكمهم . كان هؤلاء الشبان يذهبون الى مدرسة خاصة في العاصمة في كوزكو . وكانوا يختارون أكفأ من فيهم ليشغلوا الوظائف الادارية في العاصمة ، أما الباقون فكانوا يرسلون لادارة الأقاليم النائية . وكان منصب الانكا منصبا وراثيا ، وكان المرشح لولاية العهد هو أكبر أبناء الانكا الحاكم من أكبر اخواته . وعلى عكس الاعتقاد السائد بشأن الزواج من الأقارب ، فانا نرى بعد مرور ستة أجيال على هذا النوع من الزواج عددا من الحكام الإذكياء ذوي المقدرة الفائقة .

وكانت الغزوات التي يقوم بها شعب الانكا غزوات منظمة وحسنة الترتيب وتشبه تنظيمات الجيش الألماني . كانت هناك فرق نظامية على استعداد للحروب خارج البلاد . فاذا عزم الانكا على غزو أى منطقة بدأ باعداد الطرق الموصلة اليها وبناء الحصون التي يترد اليها الجنود ويملأونها بالموثون . وكانوا يرسلون الجواسيس ليحصلوا على المعلومات الخاصة بالمنطقة التي يعتزمون غزوها ، وكانوا يبذلون جهودهم لاجداث نوع من الثورة المحلية في ذلك البلد حتى يكون الدفاع عنه مفككا ومضطربا . وكانوا يفرضون على ذلك البلد المغلوب شروطا سهلة عند استسلامه ، وكثيرا ما كان يتم هذا الاستسلام دون الالتجاء الى الحرب .

وربما كانت امبراطورية الانكا أنجح الدول الجعاعية الاستبدادية التي ظهرت في التاريخ ، ومن سوء حظ الانكا ، بل ومن سوء حظ التاريخ أن الاسپانيين وصلوا الى تلك البلاد في وقت حدث فيه تصدع في الجبهة المتحدة لتلك الدولة . فان والد « أتاهوالپا Atahualpa » آخر ملوك الانكا كان قد تزوج امرأة من قبائل « كويتو Quito » الى جانب أخته . فاعترفت القبائل الشمالية التي لم يكن قد تم ادماجها في الامبراطورية بابن الزوجة الكويتوية كملك على البلاد ، وكانت الثورة التي قام بها هذا الابن في عنفوانها عندما وصل الاسپانيون . واستقرت أقدام « بيزارو Priazro » القائد الاسپاني في البلاد بعرضه المساعدة ، ووضع رجاله في خدمة « أتاهوالپا » للقضاء على تلك الثورة . فلما تم القضاء على الثورة وتمكن « أتاهوالپا » من اخضاع القبائل الشمالية سارع الاسپانيون الذين كانوا في العاصمة فقبضوا عليه وقتلوه هو ومعظم نبلائه .

واتضح اذ ذاك العيب للحكم الاستبدادي أينما كان . فان الناس اذا اعتادوا على تلقى الأوامر ، ولم يفكروا أبدا لأنفسهم ، فان روح الاقدام تنعدم فيهم ويصبحون فريسة سهلة لأى زعيم يتولى السلطة . ولهذا استطاع

الاسپانيون أن يحكموا شعب الانكا في صورة كان من المستحيل أن تحدث لو أن ذلك الشعب لم يعتد على تنفيذ كل ما يصدر اليه من أوامر من رؤسائه . واتبع الاسپانيون كالعادة سياسة قصيرة النظر الى أبعد الحدود ، ولا يكاد يصدقها العقل ، في استغلال تلك البلاد ، لأنهم لم يكن يهمهم الا الحصول على الذهب قبل أى شيء آخر ففشلوا في المحافظة على القنوات ومجارى المياه اللازمة للرعى ، والتي يعتمد عليها اقتصاد البلاد . وكان لانتشار الأوبئة واجبار عدد كبير من السكان على العمل في المناجم أثر آخر في ابادء جزء كبير من الشعب ، فلم تمض بضعة سنوات على احتلال الاسپانيين للبلاد ، حتى نقص عددهم الى أقل من نصف ما كانوا عليه . وضاعت علوم ومعارف الانكا بقتل الاسپانيين للطبقة العليا فيهم ، ولكن أسلوب الحياة في القرية الذى قامت على أساسه امبراطورية الانكا ما زال باقيا بين هنود منطقة الأندس حتى الآن . وقد أخذ عددهم في الوقت الحاضر في الازدياد ، ، ولهذا السبب بدأوا يتقدمون في حضارتهم وسيبنون مستقبلهم على أساس قومى وطيء .

بعض المراجع الهامة

الفصل الثامن والعشرون

- BURKITT, M.C.: South Africa's Past in Stone and Paint. Cambridge: The University Press; 1928.
- CATON - THOMPSON, G.: The Zimbabwe Culture : Ruins and Reactions. Oxford: Clarendon Press; 1931.
- CLARK, J.G.D.: The Prehistoric Cultures of the Horn of Africa. London; 1953.
- HAMBLY, W.D.: Source Book for African Anthropology. Parts 1 and 11. Chicago: Field Museum of Natural History, Anthropological Series, Publication No. 394, Vol. XXVI; 1937.
- GOODWIN, A.J.H., and VAN RIET LOWE, C.: The Stone Age Cultures of South Africa. Capetown: Annals of the South African Museum, Vol. XXVII; 1929.
- LEAKEY, L.S.B.: Stone Age Cultures of Kenya Colony. Cambridge: The University Press; 1931.
- : Stone Age Africa. London: Oxford University Press; 1936.
- , editor: Proceedings of the Pan - African Congress on Prehistory, 1947. New Work; 1949.
- POND, A.W.; CHAPUIS, L.; ROMER, A.S.; and BAKER, F.C.: Prehistoric Habitation Sites in the Sahara and North Africa. Beloit, Wisconsin: Logan Museum Bulletin No. 5; 1938.
- D'UCEL, J.: Berber Arts: An Introduction. Norman, Oklahoma: University of Oklahoma Press; 1932.
- Wulsin, F.R.: Prehistoric Archeology of Northwest Africa. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard University; Vol. 19, No. 1; 1941

الفصل التاسع والعشرون

- BAUMGARTEL, E.J.:** The Cultures of Prehistoric Egypt. Oxford: Oxford University Press; 1947.
- BREASTED, J.H.:** A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest. New York: Charles Scribner's Sons; 1905.
- BUDGE, E.W.:** A Short History of the Egyptian People. London: J.M. Dent and Sons; 1914.
- CARTER, H., and MACE, A.C.:** The Tomb of Tut - Ankh - Amen. London: Cassell and Co.; 1923.
- CHILDE, V.G.:** New Light on the Most Ancient East. Revised edition. London: Routledge and Kegan Paul; 1952.
- EDWARDS, J.E.S.:** The Pyramids of Egypt. Harmondsworth: Penguin Books; 1947.
- HAYES, W.C.:** The Scepter of Egypt. New York: Harper and Brothers; 1953.
- HUZAYYIN, S.A.S.:** The Place of Egypt in Prehistory: A Correlated Study of Climates and Cultures in the Old World. Cairo: Memoires de L'institut Egypte, Vol. 43; 1941.
- MANCHIP - WHITE, J.E.** Ancient Egypt. New York: Thomas Y. Crowell Co.; no date.
- MURRAY, M.A.:** The Splendour that Was Egypt. New York: Philosophical Library; 1949.
- PETRIE, W.M.F.:** Prehistoric Egypt. London: British School of Archeology in Egypt; 1920.
- SELIGMAN C.G.:** Egypt and Negro Africa: A Study in Divine Kingship. London: George Routledge and Sons; 1934.
- TABOUIS, G.R.:** The Private Life of Tutankhamen. New York: The McBride Company; 1930.
- WADDELL, L.A.:** Egyptian Civilization: Its Sumerian Origin & Real Chronology. London Luzac and Co.; 1930.
- WILSON, J.A.:** The Burden of Egypt. Chicago: University of Chicago Press; 1951.

الفصل الثلاثون

- CHILD, G.M.: Umbundu Kinship and Character, London: Oxford University Press; 1949.
- COLSON, C., and GLUCKMAN, M. (editors): Seven Tribes of British Central Africa. London: Oxford University Press; 1951.
- CULWICK, A.T., and G.M.: Ubenia of the Rivers. London: G. Allen and Unwin; 1935.
- DELAFOSSÉ, M.: The Negroes of Africa. Translated by F. Fligeman. Washington, D.C.: The Association Publishers; 1931.
- DOKE, C.M.: The Lambas of Northern Rhodesia. London: G.G. Harrap Co.; 1931.
- EVANS-PRITCHARD, E.E.: Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande. Oxford: Clarendon Press; 1937.
- : The Nuer, Oxford: Clarendon Press; 1940.
- FORTES, M.: The Dynamics of Clanship Among the Tallensi. London: Oxford University Press; 1945.
- : The Web of Kinship Among the Tallensi. London: Oxford University Press, 1949.
- FORTES, M., and EVANS-PRITCHARD, E.E.: African Political Systems. London: Oxford University Press; 1940.
- HUNTER, M.: Reaction to Conquest. London: Oxford University Press; 1936.
- JUNOD, H.P.: The Vathonga, Cambridge: Deighton Bell & Co. 1935.
- KABERRY, P.: Women of the Grassfields: A Study of the Economic Position of Women in Bamenda, British Cameroons. London: H.M. Stationery Office for the Colonial Office; 1952.
- KENYATTA, J.: Facing Mount Kenya. London: Secker & Warburg; 1938.
- KRIGE, J.D., and E.J.: A Realm of a Rain Queen: A Study of Lovedu Society. New York: Oxford University Press; 1943.
- LUTTIG, H.G.: The Religious System and Social Organization of the Herero. Utrecht: Kemink en zoon n.v.; 1934.

- MEEK, C.K.: *The Northern Tribes of Nigeria*. 2 volumes. London: Oxford University Press; 1925.
- NADEL, S.F.: *The Nuba*. London: Oxford University Press; 1942.
- RADCLIFFE-BROWN, A.R., and FORDE, D., editors: *African Systems of Kinship and Marriage*. London: Oxford University Press; 1950.
- REY, C.F.: *The Real Abyssinia*. Third edition. Philadelphia: J.B. Lippincott Co.; no date.
- RICHARDS, A.I.: *Land, Labour and Diet in Northern Rhodesia*. Second impression. London: Oxford University Press; 1951.
- RODD, F.R.: *People of the Veil*. London: Macmillan and Co.; 1926.
- SCHAPERA, I.: *The Khoisan Peoples of South Africa*. London: G. Routledge Sons; 1930.
- : *A Handbook of Tswana Law and Custom*. London: Oxford University Press; 1938.
- , editor: *The Bantu Speaking Tribes of South Africa*. London: G. Routledge Sons; 1937.
- SCHWAB, G.: *Tribes of the Liberian Hinterland*. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard University; Vol. 31; 1947.
- SMITH, E.W., and DALE, W.M.: *The Ila-Speaking Peoples of Northern Rhodesia*. London: Macmillan and Co.; 1920.
- TALBOT, P.A.: *Peoples of Southern Nigeria*. 4 volumes. London: Oxford University Press; 1926.
- WAGNER, G.: *The Changing Family among the Bantu Kavirondo*. London: Memoranda of the International African Institute; No. 18; 1939.
- WEEKS, J.H.: *Among the Primitive Bakongo*. London: Seeley, Service and Co.; 1914.
- WILSON, M.H.: *Good Company*. London: Oxford University Press 1951.
- WILSON-HAFFENDEN, J.R.: *The Red Men of Nigeria*. London: Seeley, Service and Co.; 1930.
- WINGERT, P.: *The Sculpture of Negro Africa*. New York: Columbia University Press, 1950.

الفصل الحادى والثلاثون

- HADFIELD, H.: Traits of Divine Kingship in Africa. London: Watts Co.; 1949.
- HERSKOVITS, M.J.: Dahomey, an Ancient West African Kingdom. Vols. 1 and 11. New York: J.J. Augustin, Inc.; Publishers; 1938:
- KUPER, H.: An African Aristocracy. London: Oxford University Press; 1947.
- MAIR, L.P.: An African People in the 20th Century. London: G. Routledge Sons; 1934.
- MEEK, C.K.: A Sudanese Kingdom. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1931.
- MURDOCK, G.P.: Our Primitive Contemporaries. New York: The Macmillan Co.; 1934.
- MADEL, S.F.: A Black Byzantium. London: Oxford University Press; 1942.
- RATTRAY, R.S.: The Ashanti. Oxford: Clarendon Press; 1923.
- ROSCOE, J.: The Baganda. London: Macmillan and Co.; 1911.

الفصل الثانى والثلاثون

- BARNETT, L.D.: Antiquities of India. London: P.L. Warner; 1913.
- CHILDE, V.G.: New Light on the Most Ancient East. Revised edition. London: Routledge and Kegan Paul; 1952.
- MARSHALL, J., editor: Mohenjo Daru and the Indus civilization. London: A. Probsthain; 1931.
- MACKAY, E.: Early Indus Civilizations. Revised edition. London: Luzac and Co., 1948.
- MITRA, P.: Prehistoric India. Revised edition. Calcutta: University of Calcutta; 1927.
- MOVIUS, H.L., Jr.: Early Man and the Pleistocene Stratigraphy in Southern and Eastern Asia. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard University; Vol. 19, No. 3; 1944.

- : Lower Paleolithic Cultures of Southern and Eastern Asia. Philadelphia: Transactions of the American Philosophical Society, Vol. 38, No. 4; 1949.
- PIGGOTT, S.: Prehistoric India. Harmondsworth: Pelican Books, 1950.
- PRABHAVANANDA, S.: Vedic Religion and Philosophy. Editorial supervision by P.H. Houston. Mylapore, Madras: Sri Ramakrishna Math; 1950.
- SEN, G.E.: The Pageant of India's History. New York: Longmans, Green and Associated Human Cultures. Washington: Carnegie Institution of Washington Publication No. 493; 1939.
- WHEELER, R.E.M.: Five Thousand Years of Pakistan. London: C. Johnson; 1950.

الفصل الثالث والثلاثون

- GROUSSET, R.: The Civilization of India. Translated by C.A. Phillips. New York: Tudor Publishing Co.; 1939.
- HAWKRIDGE, E.: Indian Gods and Kings: The Story of a Living Past. Boston: Houghton Mifflin Co.; 1935.
- HAWKRIDGE, E.: Indian Gods and Kings: The University Press; 1946.
- HUTTON, J.H.: Caste in India. Cambridge: The University Press; 1946.
- MORGAN, K.W., editor: The Religion of the Hindus. New York: The Ronald Press Company; 1953.
- RICE, S.: Hindu Customs and Their Origins. London: G. Allen and Unwin; 1937.
- RIVERS, W.H.R.: The Todas. London: Macmillan and Co.; 1906.
- SEN, G.E.: The Pageant of India's History. New York: Longmans, Green and Co.; 1948. Vol. 1.
- SENART, E.: Caste in India. Translated by E.D. Ross. London: Methuen Co.; 1930.
- SWANATHA, S.V.V.: Racial Synthesis in Hindu Culture. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1928.

الفصل الرابع والثلاثون

DAVIDS, C.A.R.: Sakya; or Buddhist Origins. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1931.

RADH-KRISHNAN, S.: Gautama, the Buddha. London: Oxford University Press; 1938.

THOMAS, E.J.: The life of Buddha as Legend and History. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1927.

الفصل الخامس والثلاثون

ARCHER, J.C.: The Sikhs: A Study in Comparative Religion. Princeton: University Press; 1946.

CROOKE, W.: The Natives of Northern India. London: A. Constable and Co.; 1907.

ELWIN, V.: The Baiga. London: J. Murray; 1939.

HUTTON, J.H.: Caste in India. Cambridge: The University Press; 1946.

MORGAN, K.W., editor: The Religion of the Hindus. New York: The Ronald Press Company; 1953.

SEN, G.E.: The Pageant of India's History. Vol. 1. New York: Longmans, Green and Co.; 1948.

SENART, E.: Caste in India. Translated by E.D. Ross. London: Methuen and Co.; 1930.

الفصل السادس والثلاثون

ANDERSSON, J.G.: Children of the Yellow Earth. New York; 1934.
——: Researches in the Prehistory of the Chinese. Stockholm: Bulletin of the Museum of Far Eastern Antiquities No. 15; 1943.

CHILI: The Formation of the Chinese People. Cambridge: The University Press; 1928.

- CREEL, H.G.: *The Birth of China*. New York: The John Day Co.; 1937.
- : *Studies in Early Chinese History*. (First Series). Washington: American Council of Learned Societies. *Studies in Chinese and Related Civilizations*. No. 3; 1938.
- CRESSEY, G.B.: *China's Geographic Foundations*. New York: McGraw-Hill Book Co.; 1934.
- MOVIUS, H.L. Jr.: *Early Man and the Pleistocene Stratigraphy in Southern and Eastern Asia*. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard University, Vol. 19, No. 3; 1944.
- : *Lower Paleolithic Cultures of Southern and Eastern Asia*. Philadelphia: Transactions of the American Philosophical Society, Vol. 38, No. 4; 1949.
- WHITE, W.C.: *The Bone Culture of Ancient China*. Toronto: University of Toronto Press. *Museum Studies* No. 4; 1945.
- WU, G.D.: *Prehistoric Pottery in China*. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1938.

الفصل السابع والثلاثون

- BUXTON, L.H.D.: *China, the Land and the People*. Oxford: Clarendon Press; 1929.
- : *The People of Asia*. New York: Alfred A. Knopf; 1925.
- CREEL, H.G.: *Sinism, A Study of the Evolution of the Chinese World View*. Chicago: The Open Court Publishing Co.; 1929.
- FUNG, Y.L.: *A Short History of Chinese Philosophy*. Edited by Derk Bodde, New York: The Macmillan Co.; 1948.
- GOODRICH, K.C.: *A Short History of the Chinese People*, Revised edition. New York: Harper and Brothers; 1951.
- DE GROOT, J.J.M.: *The Religion of the Chinese*. New York: The Macmillan Co.; 1910.
- LATOURETTE, K.S.: *The Chinese: Their History and Culture*. New York: The Macmillan Co.; 1934.

- PANKU: History of the Former Man Dynasty. Translated by Homer H. Dubs. Paltimore: The Waverly Press; 1938.
- WALKER, F.L.: The Multi-State of Ancient China. Hamden, Connecticut: The Shoestring Press; 1953.
- WILHELM, R.: A Short History of Chinese Civilization. Translated by J. Joshua. New York: The Viking Press; 1929.
- WILLIAMS, S.W.: The Middle Kingdom. Revised edition Vols. I and II. New York: Charles Scribner's Sons; 1883.
- WITTFOGEL, K.A., and FENG CHIA-SHENG: History of Chinese Society: Liao (907-1125). Transactions of the American Philosophical Society, Vol. 36, 1846. New York: Distributed by The Macmillan Co.; 1949.

الفصل الثامن والثلاثون

- CHIANG MONLIN: Tides from the West. New Haven: Yale University Press; 1947.
- FEI, H.T.: Peasant Life in China. London: Kegan Paul, Trrench, Trubner and Co.; 1947.
- FRIED, M.H.: The Fabric of Chinese Society. New York: Frederick A. Praeger; 1953.
- HSU, F.L.K.: Under the Ancestor's Shadow. Routledge and Kegan Paul; 1949.
- : Americans and Chinese. Two ways of Life. New York: Henry Schuman; 1953.
- KULP, D.H.: Country Life in Southern China. New York: Teachers College, Columbia University; 1925.
- LANG, O.: Chinese Family and Society - New Haven: Yale University Press; 1946.
- LAUFER, B.: Jade. Chicago: Field Museum of Natural History. Anthropological Series, Publication No. 154, Vol. X; 1912.
- LEONG, Y.K.; and TAO L.K.: Village and Town Life in China. London; 1915.
- MORSE, H.B.: The Gilds of China. London: Longmans, Green and Co.; 1909.

SIREN, O.: A History of Early Chinese Painting. London: The Medici Society; 1933.

YANG, M.C.: A Chinese Village. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1948.

الفصل التاسع والثلاثون

EMBREE, J.: The Japanese Nation: A Social Survey. New York: Rinehart and Co.; 1945.

GROOT, G.J.: The Prehistory of Japan. Edited by B.S. Kraus. New York: Columbia University Press; 1951.

HEARN, L.: Japan: An Attempt at Interpretation. New York: The Macmillan Co.; 1904.

LATOURETTE, K.S.: The History of Japan. New York: The Macmillan Co.; 1947.

MUNRO, N.G.: Prehistoric Japan. Yokohama 1911.

REISCHAUER, E.O.: Japan, Past and Present, Revised edition. New York: Alfred A. Knopf; 1953.

SANSOM, G.B.: Japan: A Short Cultural History. Revised edition. New York: Appleton-Century-Crofts; 1943.

TAKEKOSHI, Y.: The Economic Aspects of the History of the Civilization of Japan. Vols. I, II, and III. New York: The Macmillan Co.; 1930.

الفصل الأربعون

BIRKET-SMITH, K.: The Eskimos. New York: E.P. Dutton and Co.; 1936.

CATLIN, G.: North American Indians. 2 volumes. London: Chatto and Windus; no date.

CODERE, H.: Fighting with Property. New York J.J. Augustin, Inc., Publishers; 1950.

COLLIER, J.: The Indians of the Americas. New York: W.W. Norton and Company; 1947.

- CURTIS, E.S.: *The North American Indian*. Second revised edition. 20 volumes. Norwood, Mass.: The Plimpton Press; 1907-30.
- DALE, E.E.: *The Indians of the Southwest*. Nodman, Oklahoma: University of Oklahoma Press; 1949.
- EGGAN, F.: *The Social Organization of the Western Pueblos*. Chicago: University of Chicago Press; 1950.
- GRINNELL, G.B.: *The Cheyenne Indians*. 2 volumes. New Haven: Yale University Press; 1923.
- HODGE, F.W.; editor: *Handbook of the American Indians North of Mexico*. Washington: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 30, Parts I and II; 1907.
- JENESS, D.: *Indians of Canada*. Ottawa: National Museum of Canada, Bulletin No. 65; 1932.
- KENTON, E., editor: *The Indians of North America*. 2 volumes. New York: Harcourt Brace and Co.; 1927.
- KINIETZ, W.V.: *The Indians of the Western Great Lakes, 1615-1760*. Ann Arbor: University of Michigan Press; 1940.
- KLUCKHOHN, C.: and LEIGHTON, D.: *The Navaho*. Cambridge: Harvard University Press; 1946.
- KROEBER, A.L.: *Cultural and Natural Areas of Native North America*. Berkeley: University of California Press; 1949.
- : *Handbook of the Indians of California*. Berkeley: California Book Co.; 1953. (Bureau of American Ethnology Bulletin No. 78; 1925).
- LOWIE, T.H.: *The Crow Indians*. New York: Rinehart and Company; 1935.
- MACGOWAN, K.: *Early Man in the New World*. New York: The Macmillan Co.; 1950.
- MARTIN, P.S.; QUIMBY, G.I.; and COLLIER, D.: *Indians Before Columbus*. Chicago: University of Chicago Press; 1947.
- MORGAN, L.H.: *The League of the Ho-Dé -No-Sau-Nee or Iroquois*. H.M. Lloyd, editor. 2 volumes. New York: 1901.
- MURDOCK, G.P.: *Our Primitive Contemporaries*. New York: The Macmillan Co.; 1934.

- OPLER, M.E.: *An Apache Life-Way*. Chicago: University of Chicago Press; 1941.
- OSGOOD, C.: *Ingalik Material Culture*. New Haven: Yale University Publications in Anthropology, No. 22; 1940.
- PARKMAN, S., Jr.: *The Oregon Trail*. New York: Caxton House; no date.
- PARSONS, E.C.: *The Pueblo of Jemez*. New Haven: Yale University Press; 1925.
- RASMUSSEN, K.: *The People of the Polar North*. Edited by G. Her-ring. Philadelphia: J.B. Lippincott C.; 1908.
- : *The Netsilik Eskimo*. Copenhagen: Report on the Fifth Thule Expedition, 6921-24, VIII, No. 1 and 2; 1931.
- RITCHIE, W.Z.: *The Pre-Iroquoian Occupations of New York State*. Rochester: Rochester Museum Memoir No. 1; 1944.
- SELLARDS, E.H.: *Early Man in North America*. Austin, Texas: University of Texas Press; 1952.
- SPECK, F.G.: *Naskapi*. Norman, Oklahoma: University of Oklahoma Press; 1935.
- SPIER, L.: *Yuman Tribes of the Gila River*. Chicago: University of Chicago Press; 1933.
- STERN, J.: *The Rubber-Ball Games of the Americas*. New York: J.J. Augustin, Inc., Publisher; 1948.
- SWANTON, J.R.: *Indian Tribes of the Lower Mississippi Valley and the Adjacent Coast of the Gulf of Mexico*. Washington: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 43; 1911.
- : *The Indian Tribes of North America*. Washington: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 137; 1946.
- : *The Indian Tribes of North America*. Washington: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 145; 1952.

UNDERHILL, R. M.: *Red Man's America*. Chicago: University of Chicago Press; 1953.

WISSLER, C.: *The American Indian*. Third edition. New York: Oxford University Press; 1938.

WORMINGTON, H.M.: *Prehistoric Indians of the Southwest*. Denver: Colorado Museum of Natural History, Popular Series No. 7; 1947.

: *Ancient Man in North America*. Third edition, revised. — Denver: Colorado Museum of Natural History, Popular Series No. 4; 1949.

ZEISBERGER, D.: *History of the North American Indians*. Edited by A.B. Hulbert and W.N. Schwarze. Columbus: Ohio State Archeological and Historical Society, no date.

الفصل الحادى والأربعون

BENNETT, W.C., and BIRD, J.B.: *Andean Culture History*. New York: American Museum of Natural History, Handbook Series No. 15, 1949.

BENNETT, W.C., and ZINGG, R.M.: *The Tarahumara*. Chicago: University of Chicago Press; 1935.

COLLIER, J.: *The Indians of the Americas*. New York: W.W. Norton and Co.; 1947.

GANN, T.; and THOMPSON, J.E.: *History of the Mayas*. New York: Charles Scribner's Sons; 1931.

HAY, C.L.; and others: *The Maya and Their Neighbours*. New York: Appleton-Century-Crofts; 1940.

JOYCE, T.A.: *South American Archeology*. New York: G.P. Putnam's Sons; 1921.

KARSTEN, R.: *A Totalitarian State of the Past*. Helsingfors: Societas Scientiarum Fennica; *Commentationes Humanarum Litterarum* XVI; 1949.

KELEMAN, P.: *Medieval American Art*. 2 volumes. New York: The Macmillan Co.; 1943.

- MARKHAM, C.R.: *The Incas of Peru*. London: Smith, Elder and Co.; 1910.
- MEANS, P.A.: *Ancient Civilization of the Andes*. New York: Charles Scribner's Sons; 1931.
- MONGE, C.: *Acclimatization in the Andes*. Translated by D.F. Brown. Baltimore: Johns Hopkins University Press; 1948.
- MORELY, S.G.: *The Ancient Maya*. Stanford, California: Stanford University Press; 1946.
- MURDOCK, G.P.: *Our Primitive Contemporaries*. New York: The Macmillan Co.; 1935.
- PARSONS, E.C.: *Mitla, Town of Souls*. Chicago: University of Chicago Press; 1936.
- SPINDEN, H.J.: *Ancient Civilizations of Mexico and Central America*. Third edition. New York: American Museum of Natural History, Handbook Series No. 3; 1928.
- STEWART, J.H., editor: *Handbook of South American Indians*. Washington: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 143; 1949. Vols. I-VI.
- TAX, S., editor: *Heritage of Conquest*. Glencoe, Illinois: The Free Press; 1952.
- THOMPSON, J.E.: *Mexico Before Cortez*. New York: Charles Scribner's Sons; 1933.
- VAILLANT, G.C.: *Aztecs of Mexico*. New York: Doubleday and Compant, 1941.

فهرس الكتاب

(الأجزاء الثلاثة)

(١)

- أحصاء (ج ٣) ١١٩ ، ١٢٠ .
 اخناتون (ملك مصرى) (ج ٢)
 ٢٤٦ ، (ج ٣) ٣٧ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ .
 آخيون (ج ٢) ٢٧٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٨ .
 أداث (قانون ال -) (ج ٢)
 ٨٠ ، ٢٣٧ .
 اديسون (ج ١) ١٣٨ .
 أراداكلم (معلم بوذا) (ج ٣)
 ١٨٩ .
 اردواز (ج ٣) ٢٥ ، ٢٧ .
 ارمن (ال -) (ج ٢) ٢١٥ ، ٢٤٣ .
 أرمينا (ج ٢) ٢٤١ .
 أرنهملاند (ج ١) ٢٦٥ .
 آرية (القبائل ال -) (ج ٢)
 ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٠٠ (ج ٣) ١٩٨ ، ٢١٧ .
 آرية (اللغة ال -) (ج ٢)
 ١٤٩ (ج ٣) ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٦٣ .
 آريون (ج ٢) ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ٢١٠ ، ٢٤٧ (ج ٣) ١٥٢ .
 أباش (قبيلة) « ج - ٢ » ٢٠٩ (ج ٣) ٢٨٢ .
 أبجدية (الحروف ال -) (ج ١)
 ١٠٣ (ج - ٢) ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ .
 أبومى (مقر الملك فى داهومى)
 (ج - ٣) ١١٨ ، ١٢٥ .
 أيسدوس (مدينة مصرية)
 (ج - ٣) ٣٩ .
 أتروسكيون (ج - ١) ١٨٠ ، (ج - ٢) ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٨١ ، ٣٠٧ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ .
 أتوم (اله مصرى) (ج - ٣)
 ٣٦ .
 أتون (اله مصرى) (ج - ٣)
 ٤٨ ، ٤٧ .
 أثار فافيدا (كتاب سحر)
 (ج - ٣) ١٥٣ .
 أثينا (ج - ٢) ١٠٧ ، ٢٥٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٩١ .
 أثيوبيا (ج ١) ١٦٠ ، ١٦٤ (ج ٣) ٦٤ ، ٩٦ .
 أجنى (اله النار عند الهند)
 (ج ٢) ١٦٠ .

١٥٦ ، ٢٨ (ج ٢) ، ٢٩ (ج ٣) ، ١٥٦ .
 الاسكندر الأكبر (ج ٢) ، ٢٨١ ،
 ١٦٥ ، ١٣١ (ج ٢) ، ٢٢٩ ، ١٦٨ ، ٣٣٥ .
 الاسكندرية (ج ٢) ، ٢٨٧ ،
 (ج ٣) ، ١٩٧ .
 اسكنديناوه (ج ١) ، ٤٨ ، ٤٤ ،
 ٥٧ ، ٥٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٧ ،
 ٢١٦ ، ٩٨ (ج ٢) ، ١١٢ ، ١١٨ ،
 ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ،
 ٢٠٨ ، ٣٠٧ ، ٣٣٨ .
 اسكينديون (ج ١) ، ١٤١ ، (ج ٢) ،
 ١٤٧ ، ١٦٣ ، ١٦٨ .
 اسكيمو (ج ١) ، ٥٢ ، ٥٧ ،
 ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ،
 ٢٢٢ ، ٢٤١ (ج ٢) ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ،
 ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ .
 اسلام (ال -) (ج ٢) ، ١٨ ،
 ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ،
 ٨١ ، ٨٤ ، ١٨١ ، ١٨٥ (ج ٢) ،
 ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
 ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٣٩ ، ٣٤٠ ،
 ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ،
 ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ (ج ٣) ،
 ١٦ ، ٦٢ ، ٧٦ ، ٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
 ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .
 أسوكا (ج ٣) ، ١٦٨ ، ١٨٤ ،
 ١٩٤ ، ٢٠٣ .
 آسيا (ج ٣) ، ٢٢ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ،
 ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٣٦ ،
 ٣٣٨ ، ٣٤١ .
 آسيا الصغرى (ج ١) ، ١٥٧ ، ١٥٩ ،

١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ٢١١ ،
 ٢١٧ ، ٢٤٧ .
 ازتك (مدينة أمريكية) (ج ٣) ،
 ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،
 ٤٠٦ ، ٤٠٧ .
 ازميسل (ج ١) ، ١٠٧ ، ٢٣١ ،
 (ج ٢) ، ١١ (ج ٣) ، ١٤٣ .
 أسام (ج ١) ، ١٧٤ (ج ٣) ،
 ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٩ .
 اسبانيا (ج ١) ، ٤٨ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٦ (ج ٢) ، ١٢٧ ، ٢٨٣ ، ٢٢٨ ،
 (ج ٣) ، ٢٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ .
 اسبانيون (ج ١) ، ١٣٩ (ج ٣) ،
 ٣٣٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٩ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٨ ،
 ٤١٩ .
 استثناس الحيوان (ج ١) ،
 ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ،
 ٢٥٣ (ج ٢) ، ٩١ ، ٩٢ ، ١١٤ ،
 ١١٥ (ج ٣) ، ١٤ ، ٦٤ .
 استيس (ج ١) ، ١٤٠ ، ١٨١ ،
 ٢٤٣ ، ٢٥٧ (ج ٢) ، ٩١ ، ١١٤ ،
 ١١٨ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،
 ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٨١ ،
 ٢١٦ ، ٢٩٩ ، ٣٥٥ (ج ٣) ، ١٥٢ ،
 ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٩٥ ،
 ٢٢١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٩ ،
 ٢٧٢ .
 أسد (ج ١) ، ١٥٣ (ج ٢) ،
 ٧٤ .
 اسكلندة (ج ١) ، ٥٧ ، ١٦٢ ،

افغانستان (ج ۱) ۱۵۹ ، (ج ۲) ۱۹۸ .
 افلاطون (ج ۲) ۲۷۸ ، ۲۸۸ .
 اكبر (الامبراطور) (ج ۱) ۳۷ ، (ج ۲) ۲۰۱ .
 اكڊ واكڊيون (ج ۲) ۲۲۲ ، ۲۴۳ .
 اكروبول (ج ۲) ۲۷۴ .
 اكل لحوم البشر (ج ۱) ۵۱ ، (ج ۲) ص ۲۱ ، ۱۲۱ (ج ۳) ۲۲۶ ، ۲۴۱ .
 الاسكيا (ج ۳) ۲۴۱ ، ۲۳۶ ، ۲۴۶ ، ۲۴۷ ، ۲۸۶ .
 الكتروم (ج ۳) ۳۱ .
 الياذة (ج ۲) ۲۵۳ ، ۲۵۴ ، ۲۵۶ .
 امارزون (ج ۳) ۴۰۷ .
 اماتراسو (ج ۳) ۳۱۳ .
 امتيست (ج ۲) ۹۹ .
 امريكا (ج ۱) ۶۰ ، ۱۱۳ ، ۱۲۳ ، ۱۳۶ ، ۱۴۷ ، ۱۵۶ (ج ۲) ۱۵ ، (ج ۳) ۳۳۱ ، ۲۳۶ .
 الامريكيون (ج ۱) ۳۶ ، ۴۵ .
 امنحوتب الثالث (ج ۳) ۴۶ .
 امون (اله مصري) (ج ۳) ۴۶ ، ۴۷ ، ۴۸ ، ۴۹ ، ۹۶ .
 انازاسي (ج ۳) ۲۷۴ ، ۲۷۵ ، ۲۸۱ ، ۲۸۲ .
 اناضول (ج ۲) ۱۱۶ ، ۱۱۸ ، ۱۳۲ ، ۱۳۷ ، ۱۴۹ ، ۲۴۲ ، ۲۴۳ ، ۲۴۶ .
 انام (ج ۲) ۸۴ ، ۸۵ ، ۸۶ .
 انتاج الغذاء (ج ۱) ۱۴۹ ، ۱۵۴ ، ۱۵۷ ، ۱۵۸ ، ۱۸۶ ، ۱۹۸ ، ۲۴۷ ، (ج ۲) ۹۲ .

۱۸ . ۱۸۳ ، ۲۱۲ ، ۲۴۳ (ج ۲) ۲۳۲ ، ۲۴۱ ، ۲۴۴ ، ۲۴۵ ، ۲۴۷ ، ۲۵۰ .
 ۲۵۹ ، ۳۰۸ ، ۳۲۲ .
 اشانتى (قبيلة) (ج ۳) ۹۷ .
 اشمونين (ج ۳) ۳۶ .
 اشور (ج ۱) ۲۱۴ ، ۲۱۵ ، (ج ۲) ۲۰۹ ، ۲۲۶ ، ۲۸۴ .
 اشوريون (ج ۳) ۹۶ (ج ۲) ۲۴۹ ، ۲۹۴ .
 اطلنطيس (اسطورة عن كريت) (ج ۲) ۲۷۸ ، ۲۷۹ .
 اغريق (ج ۱) ۹۵ ، ۲۶۲ (ج ۲) ۲۳ ، ۲۰۹ ، ۲۵۰ ، ۲۵۳ ، ۲۵۶ ، ۲۵۸ ، ۲۵۹ ، ۲۶۰ ، ۲۶۲ ، ۲۷۰ ، ۲۷۲ ، ۲۷۳ ، ۲۷۶ ، ۲۷۷ ، ۲۷۹ ، ۲۸۰ ، ۲۸۱ ، ۲۸۴ ، ۲۸۵ ، ۲۸۶ ، ۲۸۷ ، ۲۹۰ ، ۲۹۲ ، ۲۹۳ ، ۲۹۴ ، ۲۹۸ ، ۳۰۷ ، ۳۲۷ ، ۳۲۸ ، ۳۳۶ (ج ۳) ۲۲ ، ۵۰ ، ۵۳ ، ۶۱ ، ۱۴۰ ، ۱۶۸ ، ۱۶۹ .
 الاغريقية (اللفة -) (ج ۲) ۲۵۴ ، ۲۵۸ .
 افانار (ج ۳) ۱۸۷ ، ۲۰۶ ، ۲۰۸ .
 افريقية (ج ۱) ۴۲ ، ۴۶ ، ۴۸ ، ۶۱ ، ۱۳۵ ، ۱۴۴ ، ۱۶۰ ، ۱۸۵ ، ۲۲۲ ، ۲۲۴ ، ۲۲۷ ، ۲۳۸ ، ۲۵۷ ، (ج ۲) ۱۸ ، ۲۵ ، ۷۵ ، ۹۱ ، ۱۲۷ ، ۱۴۷ ، ۱۸۳ ، ۱۸۵ ، ۲۰۶ ، ۳۲۸ ، ۳۵۱ ، ۳۵۲ ، ۳۵۷ (ج ۳) ۹ ، ۱۳ ، ۱۵ ، ۱۶ ، ۱۷ ، ۱۸ ، ۱۹ ، ۲۰ ، ۶۱ ، ۶۲ ، ۷۶ ، ۷۷ ، ۸۱ ، ۸۲ ، ۱۱۳ ، ۱۲۴ ، ۱۴۱ ، ۱۶۶ ، ۲۲۶ .

اهرمان (اله الظلام) (ج ٢) ٣٣٦
 (ج ٢) ٢٦٧ .
 اھيسا (مبدأ ديتى ھندى) (ج ٣)
 ١٧٨ .
 اھورامازدا (اله النور) (ج ٢)
 ٣٣٧ ، ٣٣٦ .
 اوبسیديان (حجر ا ل -) (ج ١)
 ١٢٩ ، ٢٠٠ (ج ٢) ٤٤ ، (ج ٣)
 ٤٠٠ .
 اوتاه (ج ٣) ٣٧٢ ، ٣٧٣ .
 اوديسه (ج ٢) ٢٥٣ ، ٢٦٦ .
 اوراسيا (ج ١) ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٨ ،
 (ج ٢) ١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ٢٠٦ ،
 (ج ٣) ١٠ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٦١ ، ١٣٢ ،
 ١٣٥ ، ١٤١ .
 اورويا (ج ١) ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٥٧ ،
 ٢٧٣ (ج ٢) ٩١ ، ١١٦ ، ١٢٩ ،
 ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ٢٠٨ ،
 ٢١٠ ، ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٣٠١ ، ٣١٨ ،
 (ج ٣) ١٠ ، ١٢ ، ١٣١ ، ٢٠٤ ،
 ٢٢٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣٢٤ .
 اورو كاجينا (ملك سومرى) (ج ٢)
 ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
 اوزيريس (اله مصرى) (ج ٣) ٢٣ ،
 ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٢ ،
 ٤٤ ، ٤٥ .
 اوسترايا (ج ١) ٤٧ ، ٧٧ ، ١١٩ ،
 ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٥ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ (ج ٢) ١٦ ، ١٨ ، ٤٨ ،
 ١٠١ .

انثروبولوجيه (ج ١) ٧٨ ، ٨٢ .
 انتو (اله سومرى) (ج ٢) ٢٢١ .
 انجكور توم (ج ٢) ٨٣ .
 انجكور فات (معبد) (ج ٢) ٨٢ ،
 ٨٥ .
 انجكوك (مطبخ) (ج ٢) ٣٤٧ .
 انجلترا (ج ١) ٢٨ ، ٧٧ (ج ٢)
 ٨٧ ، ٢٥٧ ، ٢٧٦ ، ٢٥٣ (ج ٣)
 اندرا (اله ھندى) (ج ٣) ١٦٠ ،
 ١٦٢ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٦ .
 اندس (ج ٢) ٣٤٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ،
 ٤١٩ .
 اندونيسيا (ج ١) ٤٦ ، ١٦٥ ،
 ١٦٧ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ (ج ٢) ١٠ ،
 ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٥٢ ، ٥٤ ،
 ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٨١ ، ١٢٠ ،
 ٢٣٧ (ج ٣) ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٦٦ ،
 ٢١١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
 الانسان العاقل (ج ١) ٢٧ ، ٥٢ ،
 ١٠٠ ، ١١٧ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ٢٢٦ ،
 (ج ٢) ١١ ، ٢٣٦ .
 انكا (ج ١) ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،
 ١١٣ ، ٢٠١ ، ٢١٥ (ج ٣) ٣٩٤ ،
 ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ،
 ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ .
 انكشارية (ج ٢) ٣٥٦ .
 انويس (اله مصرى) (ج ٣)
 ٣٨ .
 انوفيلس (ج ١) ٦٠ ، ٦١ (ج ٢)
 ١٣ .
 ان - يانج (ج ٣) ٢٣٧ .
 اهل السنة (ج ٢) ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

اینا (ج ۳) ، ۳۱۴ ، ۳۱۶
 ایدیا سو (ج ۳) ، ۳۲۵ ، ۳۲۷
 ایران (ج ۱) ، ۱۵۹ (ج ۲) ، ۱۵۰
 ۱۸۳ ، ۲۴۱ ، ۳۳۶ ، ۳۵۵ (ج ۳) ، ۱۹۹ ، ۲۲۸
 ایرلند (ج ۱) ، ۲۱۶ (ج ۲) ، ۵۰ ، ۱۵۰ ، ۳۰۸ ، ۳۰۹ ، ۳۱۰
 ۳۱۳ ، ۳۱۴ (ج ۳) ، ۱۵۶
 ایروکوی (ج ۳) ، ۳۵۲ ، ۳۵۳
 ۳۵۴ ، ۳۵۵ ، ۳۵۷ ، ۳۵۸ ، ۳۵۹ ، ۳۶۰
 ایریتریا (ج ۳) ، ۲۰
 ایزیس (الهه مصری) (ج ۲) ، ۲۹۷
 (ج ۳) ، ۳۶ ، ۳۸ ، ۳۹ ، ۴۲
 ایسلند (ج ۱) ، ۴۴ (ج ۲) ، ۳۰۷
 ایتالیا (ج ۱) ، ۱۸۰ ، ۱۹۰ ، ۲۲۹
 (ج ۲) ، ۱۱۸ ، ۲۰۸ ، ۲۴۸ ، ۲۸۱
 ۳۱۹ ، ۳۲۱ ، ۳۲۲ ، ۳۲۳ ، ۳۲۷
 ایمرینا (قبیله -) (ج ۲) ، ۱۷ ، ۲۳ ، ۵۵
 اینو (قدماء الیابانیین) (ج ۳) ، ۳۰۹ ، ۳۱۰ ، ۳۱۱

اوسترالیون (ج ۱) ، ۱۳۷ ، ۱۳۸ ، ۱۳۹ ، ۱۴۱ ، ۲۲۵ ، ۲۶۲ ، ۲۶۶
 ۲۷۱ ، ۲۷۶ (ج ۲) ، ۴۶ (ج ۳) ، ۳۰۹
 اوسبانی (جزر) (ج ۱) ، ۵۷ ، ۶۰
 ۱۷۲ (ج ۲) ، ۲۶ (ج ۳) ، ۹۰
 اوغسطس (امپراطور الرومان)
 (ج ۲) ، ۲۸۱ ، ۳۳۰ ، ۳۳۱ (ج ۳) ، ۱۶۶
 اوغند (ج ۳) ، ۹۸ ، ۹۹ ، ۱۱۲ ، ۱۱۳ ، ۱۲۳
 اوقیانوسیه (ج ۱) ، ۱۱۹ ، ۱۳۶ ، ۱۷۰ (ج ۲) ، ۵۲
 اوکلاهما (ج ۳) ، ۳۵۹ ، ۳۶۶
 اولیجار شی (ج ۱) ، ۹۵ (ج ۲) ، ۲۹۲ ، ۳۲۵
 اوهایو (ج ۱) ، ۱۲۹ ، ۲۰۰
 اویلو (ج ۲) ، ۲۲۸ ، ۲۲۹ ، ۲۳۱
 ایائل (ج ۱) ، ۱۵۶ (ج ۳) ، ۲۸۶
 ایبریا (ج ۲) ، ۱۱۸ ، ۱۲۱ ، ۱۲۸ ، ۱۳۰

(ب)

بارثیون (شعب ایرانی) (ج ۲) ، ۲۸۹ ، ۳۳۰ ، ۳۳۶
 بارود (ج ۲) ، ۱۸۱ ، ۲۱۲
 باسازا (ج ۳) ، ۱۰۵ ، ۱۰۶ ، ۱۰۷

بابل (ج ۱) ، ۲۱۴ ، ۲۱۵ (ج ۲) ، ۲۱۳ ، ۲۱۸ ، ۲۲۶
 باجاندا (ج ۳) ، ۹۸ ، ۹۹ ، ۱۰۰ ، ۱۰۱ ، ۱۰۳ ، ۱۰۴ ، ۱۱۰ ، ۱۱۱
 پاراجوای (ج ۳) ، ۳۴۳ ، ۳۹۳

باسك (ج ٢) ١٣٢ ، ١٤٩ ،
 (ج ٣) ٣٦٢ .
 باليوليتي (عصر) (ج ١) ١٠٧ ،
 ١٣٧ ، ١٤٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٧٢ ،
 (ج ٢) ١٨٣ ، ١٨٥ ، (ج ٣) ١٠ ،
 ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٤ ، ١٤١ ، ١٤٣ ،
 ٢٢٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ .
 بانشيات (شيوخ الهند) (ج ٣)
 ١٥٧ ، ١٥٩ .
 بانفو (لغة) (ج ١) ٢٣٩ ،
 (ج ٢) ١٤٧ (ج ٣) ٧٨ ، ٧٧ .
 بتاج (اله مصري) (ج ٣) ٣٧ .
 بترول (ج ٣) ١١٢ ، ٣٠٨ .
 البحر الابيض المتوسط (ج ١)
 ٤٧ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٨٤ ،
 (ج ٢) ٩١ ، ١٠٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
 ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ،
 ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٤٣ ، ١٩٠ ،
 ٢٥٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ ،
 (ج ٣) ١١ ، ٨٢ ، ٩٥ ، ١٣٩ .
 البحر الاحمر (ج ١) ٤٧ ، ١٥٧ ،
 (ج ٣) ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٣٦ .
 بحر ايجي (ج ٢) ١٢٠ ، ١٢١ ،
 ١٢٨ ، ١٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٣١٩ ،
 بحر البلطيق (ج ٢) ١٤٨ ، ١٤٩ ،
 بداري (ال -) (ج ٢) ٢٦ .
 بدجا (قبيلة هندية) (ج ٣)
 ١٨٠ ، ١٨١ .
 بدو رحل (ج ٢) ١٨٤ ، ١٨٦ ،
 ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

١٩٨ ، ٣٠٩ (ج ٣) ٣٥٠ ، ٣٦٩ ،
 ٣٧٨ .
 بنور (ج ١) ١٢٧ ، ١٥٤ ،
 ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٦٩ (ج ٣) ٣٣٩ ،
 ٣٤٠ .
 برابرة (ج ٢) ١٣٢ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٠ (ج ٣) ٩٨ .
 برانس (جبال ال -) (ج ٢)
 ١٣٢ .
 براحة (ج ٢) ٨٠ ، ١٣٥ (ج ٣)
 ١٥٨ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٦ .
 براهمانية (ج ٢) ٦٨ (ج ٣)
 ١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ .
 براهمانيون (ج ٣) ١٦٢ ، ١٦٤ ،
 ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
 ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ ،
 ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،
 ٢١٦ .
 برتغاليون (ج ٢) ٢٧٩ (ج ٣)
 ١١٣ ، ٣٢٤ .
 بردى (ج ٢) ٩٥ (ج ٣) ٢٤ ،
 ٣٣ ، ٤٥ ، ٤٨ .
 بركلييس (ج ٢) ٢٨١ ، ٢٨٩ ،
 برنج - برزخ (ج ٣) ٣٣٦ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ .
 بروتو - ملايو (شعب) (ج ٢)
 ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ (ج ٣)
 ٣١١ .
 بروتينات (ج ١) ٩٣ ، ١٦٢ ،
 ١٦٣ ، ١٧٥ ، (ج ٣) ٣٤٤ ، ٣٦٠ ،
 ٣٧٥ .
 برونز (معدن) (ج ١) ١٠٤ ،

بلاتین (ج ۱) ۱۱۳ .
 بلاد الرافدین (ج ۱) ۱۸۶ ،
 ۱۸۹ ، ۲۱۴ (ج ۳) ۱۴۰ .
 بلاد العرب (ج ۱) ۲۳۸ (ج ۲)
 ، ۱۸۳ ، ۱۹۵ ، ۲۰۰ ، ۲۰۱ ، ۲۴۲ ،
 ۳۴۵ (ج ۳) ۱۸ ، ۱۶۶ .
 بلاد المغرب (ج ۳) ۱۹ .
 بلاد النوبة (ج ۳) ۲۰ ، ۳۰ ،
 ۳۱ ، ۵۳ ، ۹۶ .
 بلاد پونت (ج ۳) ۲۰ .
 پلازجیون (ج ۲) ۲۷۴ ، ۲۷۵ ،
 ۲۷۷ .
 بلزاریوس (ج ۲) ۳۳۷ .
 بلطه (ج ۱) ۱۷۸ ، ۱۸۱ ، ۲۲۴ ،
 ۲۲۵ ، ۲۲۸ ، ۲۶۴ (ج ۲) ۷۴ ،
 ۹۹ ، ۱۳۵ ، ۲۳۰ ، ۲۶۴ ، ۳۱۱ ،
 (ج ۳) ۱۱ ، ۱۵ ، ۱۹ ، ۲۴ ، ۱۴۱ ،
 ۱۴۲ ، ۱۴۶ .
 بلغسار (قبائل ال -) (ج ۲)
 . ۳۳۹ .
 بلقان (ج ۲) ۱۱۸ ، ۱۳۲ ،
 ۱۴۸ .
 بلوخیستان (ج ۲) ۸۳ ، ۱۳۲ ،
 ۱۴۵ ، ۱۵۰ .
 بلیستوسین (عصر ال) (ج ۱)
 ، ۴۲ ، ۴۳ ، ۴۴ ، ۴۵ ، ۴۷ ، ۵۱ ،
 ۱۰۰ ، ۲۲۳ ، ۲۲۴ ، (ج ۳) ۱۰ ،
 ۳۰۹ .
 بلیوسین (عصر ال) (ج ۱)
 . ۵۱ .
 بپاس (ج ۳) ۴۰۷ .
 پنجاب (ج ۳) ۱۳۱ ، ۱۳۳ ،
 ۱۶۵ ، ۱۶۷ ، ۱۹۸ .

۱۷۷ ، ۱۷۸ ، ۱۷۹ ، ۱۸۰ ، ۱۸۱ ،
 ۱۸۳ ، ۱۸۴ ، (ج ۲) ۶۳ ، ۶۴ ،
 ۷۴ ، ۱۱۰ ، ۱۳۴ ، ۱۳۸ ، ۱۳۹ ،
 ۲۱۷ ، ۲۴۳ ، ۲۴۴ ، ۲۴۸ ، ۲۴۹ ،
 ۲۶۰ ، ۲۶۱ ، ۲۶۲ ، ۳۰۰ ، ۳۰۷ ،
 ۳۱۹ ، ۳۲۰ ، ۳۲۳ ، ۳۲۷ ، (ج ۳)
 ، ۳۱ ، ۸۳ ، ۸۵ ، ۱۴۴ ، ۱۴۶ ، ۱۴۷ ،
 ۲۳۰ ، ۲۴۱ ، ۲۴۲ ، ۲۴۳ ، ۲۴۴ ،
 ۲۴۷ ، ۲۴۸ ، ۳۱۱ ، ۳۶۰ ، ۴۱۶ .
 برونز (عصر) (ج ۱) ۱۷۸ ،
 ۱۷۹ ، ۱۸۰ ، ۱۸۳ ، ۱۸۴ ، ۱۸۵ ،
 (ج ۲) ۹۲ ، ۹۸ ، ۱۰۰ ، ۱۰۲ ،
 ۱۰۹ ، ۱۱۰ ، ۱۱۱ ، ۱۱۹ ، ۱۲۰ ،
 ۱۲۳ ، ۱۲۴ ، ۱۲۸ ، ۱۳۰ ، ۱۳۲ ،
 ۱۳۸ ، ۱۴۰ ، ۱۴۱ ، ۱۴۲ ، ۱۴۳ ،
 ۱۴۷ ، ۲۴۱ ، ۲۴۳ ، ۲۴۸ ، ۳۰۰ ،
 ۳۱۱ (ج ۳) ۱۸ .
 بری (ج ۳) ۳۰۸ ، ۳۳۱ ،
 ۳۳۲ .
 بصل (ج ۱) ۱۵۹ (ج ۲) ۹۴ ،
 (ج ۳) ۳۳۹ .
 بطاطس (ج ۱) ۱۲۳ (ج ۳)
 ، ۳۹۴ ، ۴۱۱ .
 بطالة (ج ۳) ۹۶ .
 بطلمی (عصر) (ج ۳) ۱۸ ، ۲۰ ،
 ۳۴ .
 بطلمیوس الاسکندری (ج ۲)
 . ۶۳ .
 بطلمیوس فیلادفوس (ج ۳)
 . ۵۴ .
 بعث (ج ۱) ۲۷۲ ، ۲۷۳ (ج ۲)
 . ۲۰۰ .

۲۶۰ ، ۲۵۹ ، ۲۵۸ ، ۲۴۰ ، ۲۲۹
(ج ۲) ۱۱۵ ، (ج ۳) ۱۲ ، ۱۳ ، ۷۸ ، ۶۵

بولاس (ج ۱) ۱۳۵ ، ۱۳۶ ، ۲۲۸

بولیغیا (ج ۳) ۴۱۱ ، ۴۱۳

بولینیزیآ (ج ۱) ۴۶ ، ۱۲۳ ، ۱۷۲ ، ۱۷۴ (ج ۲) ۱۰ ، ۱۱ ، ۱۷

۲۰ ، ۲۱ ، ۲۷ ، ۲۸ ، ۳۰ ، ۳۳ ، ۳۴ ، ۳۹ ، ۴۷ ، ۵۰ ، ۱۲۹ (ج ۳)
۲۱۶ ، ۲۴۳ ، ۲۴۷

بولینیزیون (ج ۱) ۶۰ (ج ۲)
۲۲ ، ۲۴ ، ۲۷ ، ۲۹ ، ۳۰ ، ۳۱ ، ۳۲ ، ۳۳ ، ۳۴ ، ۳۶ ، ۴۲ ، ۴۳ ، ۵۱

بومرانج (عصا الرماية) (ج ۱)
۱۴۱ ، ۲۶۴ ، ۲۶۵ (ج ۲) ۱۰۰

بیلو (قبيلة -) (ج ۱) ۷۷ ، ۹۲ (ج ۳) ۳۷۵ ، ۳۷۶ ، ۳۷۷ ، ۳۷۸ ، ۳۷۹ ، ۳۸۰

پیرو (ج ۱) ۱۰۵ ، ۱۱۱ ، ۱۱۳ ، ۱۱۴ ، ۲۰۱ (ج ۳) ۲۳۱ ، ۴۰۱ ، ۴۱۱

بیزنطة (ج ۲) ۳۳۲ ، ۳۳۶ ، ۳۳۷ ، ۳۳۸ ، ۳۳۹ ، ۳۴۸ (ج ۳)
۲۰ ، ۶۱ ، ۶۵

بیکنی (ج ۱) ۳۲ (ج ۳) ۲۲۴ ، ۲۲۶ ، ۲۸۹ ، ۲۹۳

بیهار (ج ۳) ۱۸۹ ، ۱۹۵ ، ۲۰۴

بنجر (ج ۱) ۱۲۳ ، ۱۵۹

بنلق (ج ۲) ۱۱۹

بنغال (ج ۱) ۲۶۲ (ج ۲) ۶۸ (ج ۳) ۱۳۴

بنین (مذبح) (ج ۳) ۸۴ ، ۸۵ ، ۱۱۴

پوتلاتشی (ج ۳) ۳۸۸ ، ۳۸۹ ، ۳۹۰ ، ۳۹۱

بوذا (ج ۲) ۶۸ ، ۶۹ ، ۸۱ ، ۸۳ (ج ۳) ۱۶۰ ، ۱۷۱ ، ۱۷۴ ، ۱۸۶ ، ۱۸۷ ، ۱۹۲ ، ۱۹۴ ، ۱۹۶ ، ۱۹۷ ، ۲۰۶

بودیه (ال -) (ج ۲) ۹ ، ۸۶ ، ۸۷ ، ۱۸۱ (ج ۳) ۱۶۵ ، ۱۶۹ ، ۱۷۹ ، ۱۸۴ ، ۱۸۵

بودیه (تابع) (ج ۳) ۱۸۶ ، ۱۹۱ ، ۱۹۳ ، ۱۹۴ ، ۱۹۵ ، ۱۹۷ ، ۲۰۲ ، ۲۰۴ ، ۲۰۵ ، ۲۰۶ ، ۲۶۸ ، ۳۱۴ ، ۳۲۰ ، ۳۲۵ ، ۳۲۹ ، ۳۳۰

بودیون (ج ۲) ۶۷ ، ۶۹ ، ۷۷ ، ۸۰ (ج ۳) ۱۸۷ ، ۲۰۲ ، ۲۰۳ ، ۳۰۱ ، ۳۰۲ ، ۳۱۲

بودیساتفا (ج ۳) ۱۸۷ ، ۱۹۴ ، ۱۵۹ ، ۳۲۴ (ج ۲) ۸۳ (ج ۱) ۲۲۹

بورما (ج ۱) ۱۶۵ (ج ۲) ۸۷ (ج ۳) ۱۳۴

بورنیو (ج ۱) ۴۶ ، ۱۷۰ (ج ۲) ۶۷ ، ۶۸ ، ۷۵ ، ۸۱

بوشمن (ج ۱) ۱۳۹ ، ۱۴۲

(ت)

ترکیا (ج ۲) ۱۶۳ ، ۱۴۸ ، ۳۵۶ ، ۲۱۶

تشیام (شعب) (ج ۲) ۸۳ ، ۸۴

تشیامپا (ج ۲) ۸۵ ، ۸۴

تشیسن (ج ۳) ۲۷۱ ، ۲۷۰ ، ۲۷۲ ، ۲۷۳ ، ۲۷۴

تشیو (ج ۲) ۲۱۲ (ج ۳) ۲۵۹ ، ۲۸۶

تشیورنجا (ج ۱) ۲۷۲ ، ۲۷۱ ، ۲۷۳ ، ۲۷۵

تشیسن لنج (ج ۳) ۳۰۳ ، ۲۵۹ ، ۱۲۶ (ج ۲) ۱۲۶

تشیکوسلوفاکیا (ج ۲) ۲۹۶ ، ۲۹۵ (ج ۳) ۱۵۱

تشیوید (ج ۱) ۲۲۷ (ج ۲) ۹۵ (ج ۳) ۸۴ ، ۳۵

تشیویدین (ج ۱) ۱۷۷ ، ۱۷۶ ، ۱۹۱

تشیس (ج ۳) ۳۳۹

تشیسیج (ج ۱) ۵۸ (ج ۳) ۴۵ ، ۱۷۲ (ج ۳) ۱۷۲

تشیسیج الارواح (ج ۳) ۱۷۲ ، ۱۷۳ ، ۱۷۴ ، ۱۷۸ ، ۱۸۷ ، ۱۹۲

تشیجیم (ج ۲) ۲۲۴ ، ۲۲۵ (ج ۳) ۲۴۸ ، ۲۴۶

تشیدر (ج ۳) ۳۵۱

تشیواناکا (ج ۳) ۴۱۰ ، ۴۰۹ ، ۴۱۱

تشیوایل (ج ۳) ۱۷۰ ، ۱۶۶

تشیو (ج ۲) ۳۶ ، ۳۵ ، ۳۴ ، ۳۳ ، ۷۷

تشیو (ج ۱) ۱۶۶ ، ۱۶۵ ، ۱۶۴ ، ۱۶۳ ، ۱۶۲ ، ۱۶۱ ، ۱۶۰

تشیو (ج ۳) ۲۵ ، ۲۴ ، ۲۳ ، ۲۲ ، ۲۱ ، ۲۰

تشیو (ج ۲) ۳۰۳ ، ۳۰۲ ، ۳۰۱ ، ۳۰۰ ، ۲۹۹ ، ۲۹۸

تشیو (ج ۳) ۱۸۰ ، ۱۷۹ ، ۱۷۸ ، ۱۷۷ ، ۱۷۶ ، ۱۷۵

تشیو (ج ۳) ۳۰۰ ، ۲۹۹ ، ۲۸۸ ، ۲۸۷ ، ۲۸۶ ، ۲۸۵

تشیو (ج ۲) ۲۱۰ (ج ۳) ۱۹۴ ، ۱۹۵

تشیو (ج ۲) ۱۸۷ ، ۱۵۱ ، ۱۸۹ ، ۱۹۰ ، ۲۰۵ ، ۲۰۹ ، ۲۲۳

تشیو (ج ۳) ۲۳۳ ، ۲۳۲ ، ۲۳۱ ، ۲۳۰ ، ۲۲۹ ، ۲۲۸

تشیو (ج ۳) ۳۴۲ ، ۳۴۱ ، ۳۴۰ ، ۳۳۹ ، ۳۳۸ ، ۳۳۷

تشیو (ج ۳) ۸۵ ، ۵۴ ، ۳۱ ، ۳۸۶ ، ۱۹۸ ، ۱۶۶ ، ۱۱۳ ، ۸۶

تشیو (ج ۱) ۲۷۳ (ج ۳) ۲۷ ، ۲۸ ، ۴۳

تشیو (ج ۳) ۳۶ ، ۳۷ ، ۴۱ ، ۴۵

تشیو (ج ۲) ۳۱۹ ، ۳۲۰ ، ۳۲۱ ، ۳۲۲

تشیو (ج ۲) ۱۸۱ ، ۱۵۱ (ج ۳) ۱۸۴ ، ۱۸۳ (ج ۱) ۱۸۴ ، ۱۸۳ (ج ۲) ۲۴۱ ، ۱۴۸ (ج ۲) ۳۲۵ ، ۳۲۴ (ج ۲) ۳۲۵

تودا (قبائل هندية) (ج ٣)
 ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ .
 تورا (ال -) (ج ٢) ٢١٤ ،
 ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

توت (ورق ال -) (ج ١) ١٦٨ ،
 ١٦٩ .
 توت عنخ آمون (ج ٢) ٢٤٤ ،
 ٢٤٦ (ج ٣) ٤٨ ، ٤٩ .

(ث)

ثور الخوار - ال (الك) (ج ١)
 ٢٧٢ ، ٢٧٣ (ج ٣) ٣٨٥ .
 ثيران (ج ١) ١٧٥ ، ١٩٣ (ج ٢)
 ١٢٠ ، ١٤١ ، ١٧٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٨ ،
 ٢٦٩ (ج ٣) ٢٣١ ، ٢٤٢ ، ٣٦٨ ،
 ٣٦٩ .
 ثيسوس (أسطورة اغريقية)
 (ج ٢) ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ .

ثاي (شعب) (ج ٢) ٨٧ ،
 ٨٨ .
 ثدييات (ج ١) ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
 ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ١٠٥ ، ١٤٧ ،
 ١٤٩ ، ٢٢٨ ، ٢٤٧ ، ٣٣٩ (ج ٣)
 ٣٤٠ .
 ثورة اجتماعية (ج ١) ٩٢ (ج ٢)
 ٣٤٠ .
 ثورة البيسون (ج ٣) ٣٣٧ ،
 ٣٤٠ .

(ج)

جيركس (ج ٢) ٣٥٦ .
 جرمان (ج ٢) ١٤٣ ، ١٥٨ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ .
 جرنتش (ج ١) ٨٢ .
 جرينلاند (ج ١) ٤٤ .
 جزويت (ج ٢) ٣٠٥ ، ٣٢٥ .
 جعة (ج ١) ١٦٣ (ج ٢) ٩٦ ،
 ١٣١ (ج ٣) ١٥٦ .
 جلبميش (بطل سومري) (ج ١)
 ١٥٢ (ج ٣) ١٤٨ .
 جليد (عصر) (ج ١) ١٠٢ ، ٢٢٤ ،

جاموس (ج ١) ١٧٤ (ج ٣)
 ١٤٥ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ٢٤٢ .
 جاوة (ج ١) ٣٢ ، ٤٦ ، ٦٨ ،
 ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٤ (ج ٣)
 ١٣٨ ، ٢٢٥ .
 جب (الاله الارض) عند المصريين
 (ج ٣) ٣٨ .
 جذور النباتات (ج ١) ١٥٤ ،
 ١٥٥ ، ١٦٥ ، ٢٢٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ،
 ٣٤٠ (ج ٢) ١٠ (ج ٣) ٣٢٩ ،
 ٣٤٠ .
 جرائيت (ج ١) ١٣٢ .

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠ .

جنوب غرب آسيا (ج ١) ٦٢ ،

١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٥ ،

(ج ٢) ٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١٠٠ ،

١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ،

١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،

١٢٤ ، ١٣٢ - (ج ٢) ١٣٣ ، ١٤٤ ،

١٤٥ ، ١٦٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٨ ،

٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٤٢ ، ٢٥٨ ،

٣٠٠ (ج ٣) ١٤ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ،

١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ٣٣٥ .

جنود مرتزقة . (ج ٢) ٢٨٤ ،

(ج ٣) ٥٣ ، ١٦٦ ، ٣٩٨ .

جواتيمالا (ج ٣) ٣٩٣ .

جويتا (ج ٣) ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

جوتاما (اسم لبوذا) (ج ٢)

٦٩ (ج ٣) ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

جوز (ج ٢) ١١٩ (ج ٣) ٣٣٩ .

جوز البلوط (ج ٣) ٣٨٣ .

جوز الهند (ج ١) ١٦٧ ، ١٦٨ .

جونكوين (ج ١) ٣٩ ، (ج ٣)

٣٥١ ، ٣٥٣ .

جويدار (ج ١) ١٥٨ ، ١٥٩ .

جينات (ج ١) ٢٩ ، ٤٢ ، ٩٩ ،

(ج ٣) ١٤٠ ، ١٦٠ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ،

٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ .

٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،

٢٤٥ ، (ج ٢) ١٨٣ (ج ٣) ١٠ ،

١٦ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ .

جمجمة روديسيا (ج ٣) ١١ .

جمع البنود (ج ٣) ٣٣٩ ، ٣٤١ ،

٣٦٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨٣ ، ٤٠٧ .

جمع الغذاء (ج ١) ٢٢١ ، ٢٣٨ ،

٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،

٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ (ج ٢) ١١ ،

٥٤ ، ١١٢ ، ١١٤ (ج ٣) ٧٢ .

٨١ ، ١٣١ .

جمل (حيوان) (ج ١) ١٦٠ ،

(ج ٢) ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ،

١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٣ ،

(ج ٣) ١٦ ، ١٨ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ١٢٦ ،

٣٣٧ .

جنكيزخان (ج ٢) ١٨٥ ، (ج ٣)

٢٣٢ .

جنوب شرق آسيا (ج ١) ١٠٨ ،

١٢٨ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ،

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،

١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٢٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،

٢٦٠ ، (ج ٢) ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ،

١٧ ، ٢٥ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢ ،

٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٦ ،

٨٨ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢١٠ ،

(ج ٣) ١١ ، ١٤ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٤٢ ،

(ح)

٢٣٠ ، ٢٦٤ ، (ج ٣) ٣٤٠ ، ٤٠٠ .

حرير (ج ٢) ٧٣ ، ٢١٢ ، ٣١١
(ج ٣) ٢٢٣ ، ٢٣٩ .

حصارليك (ج ٢) ٢٥٤ ، ٢٥٦ .
حصير (ج ١) ١٢٧ ، ١٦٨ .

١٩٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩ (ج ٢) ١١ ،
٤٤ ، ٤٥ ، ٥٦ ، ٩٤ ، ٩٩ (ج ٣) ،
٢٥ ، ٢٧ ، ٧٤ ، ٨٢ .

حفريات (ج ١) ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٢ ،
٥٣ .

حلي (ج ٢) ١٥٢ ، ٢١٦ ، ٣١١ ،
٣٢٦ (ج ٣) ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٠٤ .

حمورابي (ج ١) ١٦٣ (ج ٢)
٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ،
٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥ .

حمير (ج ١) ١٦٠ ، ١٩٣ (ج ٢)
٩٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، (ج ٣) ١٤ .

حوت (ج ١) ١٤٤ (ج ٣)
٣٤٧ .

حورس (اله مصري) (ج ٣) ٣٦ ،
٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،
٤٥ .

حيثيون (ج ١) ٢١٢ (ج ٢) ٢٤٤ ،
٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٣٠٠ .

حيثية (اللفظة ال -) (ج ٢)
٢٤٤ ، ٢٤٥ .

حبشة - ال (ج ٢) ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
(ج ٣) ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
حبوب (ج ١) ١٦٣ ، ١٦٤ ،
١٧٥ ، ١٩٧ (ج ٢) ٩٥ ، ١١٢ ،
٢٣٢ .

حج - ال (ج ٣) ٣٤١ ، ٣٥٧ ،
حجرى - (العصر ال -) (ج ١)
٥٣ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٥٠ ،
١٨٥ ، ٢٤١ (ج ٢) ٩ ، ١٠ ، ١١ ،
٤٨ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، (ج ٣) ١٠ ،
١٩ .

حديد (معدن ال -) (ج ١)
١٠٤ ، ١١٣ ، ١١٩ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،
١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ،
(ج ٢) ٢٥ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
٧٤ ، ١١٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢١٦ ،
٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٦٠ ، ٢٧٨ ،
٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ،
٣٢٣ (ج ٣) ١٨ ، ٣١ ، ٧٤ ، ٨٣ ،
١٤٤ ، ١٤٦ ، ٣٤٩ .

حديد (عصر ال -) (ج ٢) ٩٢ ،
٩٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ،
١٤١ ، ١٤٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ .

حربية (ج ١) ٣١ ، ١٠٨ ، ١٢٨ ،
١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٩٣ ، ٢٢٨ ،
٢٣١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ (ج ٢) ،
١١ ، ٤٤ ، ٧٤ ، ١٠٠ ، ١٥٢ ، ١٧٣ .

(خ)

خطاف الصيد (ج ١) ١٤٥ ،
ج ٢ ٣٤ .

خنزير (ج ١) ١٦٠ ، ١٦٢ ،
١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ (ج ٢) ١٠ ،
٥٦ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٩٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ،
(ج ٣) ٨٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٣٤٥ ،
خوذة (ج ٢) ١٥٢ ، ٢٤٩ ، ٢٦٤ ،
٣٠٣ ، ٣١١ .

خيال (ج ١) ٣٧ ، ١٠٣ ، ١٥١ ،
١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ (ج ٢) ٩٦ ،
١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥١ ،
١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
١٧٩ ، ١٨٨ ، ٢٠٣ ، ٢٣٠ ، ٢٥٩ ،
٣٠١ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ (ج ٣) ١٦ ،
١٧ ، ١٥٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٢٧١ ،
٢٩٩ ، ٣٢٧ ، ٣٥٣ ، ٣٦١ ، ٣٦٨ ،
٣٦٩ ، ٣٧٠ .

ختان (ج ١) ٢٧٢ ، (ج ٢) ١٩٦ ،
(ج ٣) ٦٩ ، ٧٧ .

خوز (ج ٢) ٧٥ ، (ج ٣) ١٩ ،
٣٢ ، ٣٣ .
خريستوف كولب (ج ٣) ٣٣٥ ،
٣٤٩ .

خشب (ج ١) ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤٦ ،
٢٢٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٦٥ (ج ٢)
١١ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٩٢ ،
٢٣٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٣٠٢ ، ٣١٠ ،
(ج ٣) ٣٢ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٢٩ ،
١٧٠ ، ١٧٩ ، ٢٤٢ ، ٣٣٧ ، ٣٨٦ ،
٣٨٧ ، ٣٩٥ .

خسيان (ال -) (ج ٣) ٢٩٤ ،
٢٩٩ .

خضراوات (ج ١) ١٢٦ ، ١٢٧ ،
١٤٢ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٩٥ ، ٢٤٠ ،
(ج ٢) ٩٤ ، ٩٦ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ،
(ج ٣) ٤٠٩ ، ٣٤٥ .

(د)

١١٤ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٣ ، ١٢٤ .

دب (ج ١) ١٤٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ،
(ج ٣) ٣٨٦ .

دبوس القتال (ج ٢) ٩٩ ، ١٠٠ ،
٢٣١ .

دجاج (ج ١) ١٤٤ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،

دارا الأول (ملك فارسي) (ج ٣)
١٦٧ ، ١٦٥ .

داسيوس (ج ٣) ١٥٤ ، ١٥٥ ،
١٦٠ .

دانوب (نهر ال -) (ج ٢) ١٣٢ ،
(ج ٣) ٢٢٨ .

داهومي (ج ٣) ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٣ ،

دلنا (ال -) (ج ٣) ، ٢٣ ، ٤٠ ، ٥٤

دلهي (ج ٣) ، ١٩٩ ، ٢٠٣

دمشق (ج ٢) ، ١٠٦ ، ٣٥٢

دنچ - صن (حضارة -) (ج ٢)

٦٤ ، (ج ٣) ، ١٤٤ ، ٢٤٣

دولة قديمة (عصر ال - في مصر)

(ج ٣) ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢

دولن (ج ٢) ، ١٢٩ ، ١٣٠

ديترو - ملايو (ج ٢) ، ١٧ ، ١٩

٢٢

ديدالوس (ج ٢) ، ٢٦١ ، ٢٦٢

٢٧٢

١٧٢ ، (ج ٢) ، ١٠ ، ٥٦ ، (ج ٣) ، ٨٠

دجلة (ج ٢) ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٣٦

دخن (ذرة عويجة) (ج ٣) ، ١٤

٢٣٠

درافيدية (ج ٣) ، ١٤٠ ، ١٤١

١٦٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٠٠ ، ٢١٧

درافيديون (ج ٣) ، ١٨٤ ، ٢٠٥

درع (ج ١) ، ٢٦٥ (ج ٢) ، ١١

٥٣ ، ٧٤ ، ١٠٠ ، ١٥٢ ، ٢٣٠

٢٥٣ ، ٢٦٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٣١

دكن (حضبة ال -) (ج ٣) ، ١٣٣

١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٢

(ذ)

١٧٩ (ج ٢) ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٧٤ ، ٨٤

٩٩ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٢١٧ ، ٢٣٣

٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٣٠٢

٣٠٧ ، (ج ٣) ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤

٨٣ ، ٨٥ ، ٩٩ ، ١٤٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠

٢٤٣ ، ٣٠٨ ، ٣٦٦ ، ٤٠٥ ، ٤١٦

٤١٧ ، ٤١٩

ذئب (ج ١) ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥١

ذرة (ج ١) ، ٩٣ (ج ٣) ، ٧٢ ، ٨١

٢٢٨ ، ٢٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٢

٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢

٢٩٣ ، ٣٩٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩

٤١١

ذهب (معنن ال -) (ج ١) ، ١٠٤

(ر)

رسييف (ج ٣) ، ٢٣٧ ، ٢٣٨

٣٦٨

رع (اله مصري) (ج ٣) ، ٣٥

٣٦

رع اتوم (اله مصري) (ج ٣) ، ٣٦

٣٧

رعاة الماشية (ج ٢) ، ١٤٧ ، ١٤٨

رئيسيات (ال -) (ج ١) ، ٢٨

٣٥ ، ٦٦ ، ١٣٥ ، ١٤٧ ، (ج ٣)

١٣٨

رز - ال (ج ١) ، ١٧٤ ، ١٧٥

٢٥ (ج ٢) ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٢

٨٥ ، (ج ٣) ، ١٠٠ ، ١٤٤ ، ١٧٠

١٧٩ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٣١٠

روما (ج ٢) (٢٨١، ٢٨٢، ٣٢١، ٣٣٣، ٣٢٩، ٣٢٨)
 رومان - ال (ج ١) (٩٠، ١٨٠، ٢٨١، ٢٨٠، ٢٥٥، ١٤٤، ٢٨٣، ٢٩٠، ٢٩٣، ٣٠٢، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٦، ٣٢٢، ٣٣٠، ٣٢٩، ٣٢٨، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٣٥، ٣٤٠ (ج ٣) ٢٠، ٥٠، ٦١، ٩٦، ١٦٦، ٢٧٧، ٣٠٢)
 الرى - طرق (ج ٢) (١٨٧، ٢٠٧، ٢١٥ (ج ٣) ١٣٥، ١٤٥، ٢٨١، ٣٨٢، ٤٠٩)
 رياضيات (علوم) (ج ١) (١١١، ١١٢، ١٣٨ (ج ٢) ٢٠٥، ٢٨٥، ٣٩٧، ٢٨٦)
 رياضية (الالعاب) (ج ١) (٧٦، ٧٧، ٧٨)
 ريج قيدا (اناشيد هندية) (ج ٣) (١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٦١)
 رين (نهر ال -) (ج ١) (٤٤، ٣٠٢ (ج ٢))

١٧٢، ١٨٤، ٢٠٣، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٧١ (ج ٣)
 رقص (ال -) (ج ٢) (٨٢ (ج ٣) ٢١٠، ٣٧١)
 رقيق (ال -) (ج ٢) (٥٩، ١٥٣، ١٩٤، ٢٢٧، ٢٦٧، ٢٨٩، ٣٠٥، ٣١٢، ٣٣٤، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦ (ج ٣) ٥٣، ٩٠، ١٠٣، ١٠٤، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١٢١، ١٢٣، ١٢٥، ٢٤٤، ٣١٣، ٣٨٩، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤)
 رنة (حيوان ال -) (ج ١) (١٥١، ٢٥٣ (ج ٢) ١١٥، ١٣٣)
 رهبان - ال (ج ٣) (١٩٧، ٢٠٤، ٣٠٣)
 روسسيا (ج ١) (١٥٧، ١٦٤، ١٩٠، ٢٤٤ (ج ٢) ١٦٥، ٣٣٨)
 روکی (جبال ال -) (ج ١) (١٥٦، ٢٣٦ (ج ٣) ٢٣٩، ٢٤٩، ٣٦٦، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٨، ٣٨٣)

(ز)

١٥٩، ١٦٠، ١٦٩، ١٧٣، ١٩٥، ٢٥٧ (ج ٢) (٥٢، ٥٤، ٥٦، ٧٢، ٩٤، ١٠٢، ١٠٩، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٧، ١٤٠، ١٤١، ١٤٥، ١٥١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٨٤، ١٨٧، ٣٢٧، ٣٤٩، ٣٥٠ (ج ٣) ٦٣، ٦٤، ٧٢، ٧٣، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٨٧)

زجاج (ج ١) (١٢٩ (ج ٣) ٣٢، ٢٢٣)
 زرادشتية (ال -) (ج ٢) (١٦٣، ٣٣٦، ٣٤٣)
 زراد شتيون (ال -) (ج ٢) (٢٠٠ (ج ٣) ١٤٠)
 زراعة (ال -) (ج ١) (٦٢، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨)

١٩٥ ، ١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٦١ ، ١٥٦
٣١١ ، ٢٧٦ ، ٢٣٥ ، ٢٠٤ ، ١٩٦
٣١٢ (ج ٣) ، ٦٥ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٥٠
٤١٣ ، ٣٧٣ ، ١٥٩ ، ٩٠ ، ٨٨
٤١٤

زورق (ج ٢) ، ٢٤ ، ٢٢ ، ١٢
١٠٠ ، ٥٣ (ج ٣) ، ٣٨٣ ، ٣٤٣

زيتون (ج ١) ، ١٦٠ (ج ٢) ، ١١٩
١٢٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٨ ، ٢٩٠ ، ٣٢٧
زينه (أدوات ال -) (ج ١) ، ١٧٦
٢٣٥ (ج ٢) ، ٤٤ ، ٢٢٣ (ج ٣) ، ٣٣
٧٤ ، ٨٤ ، ١٤٤ ، ٤٠٤

زيوس (اله اغريقي) (ج ٢) ، ٢٦٩
٢٧١

٩٣ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٣٤ ، ١٤٤
١٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٧٤ ، ٣١١ ، ٣٤٣
٣٤٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩
٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٤٠٩

زقورة (ال -) (ج ٢) ، ٢٢٠
٢٢٣

زلاقة (ال -) (ج ١) ، ١٩١
٢٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠

زنوج (ال -) (ج ١) ، ١٨٤
١٨٥ (ج ٢) ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٥٥
١١٥ ، ١٢٧ ، ٢٠٣ ، ٢٤٦ (ج ٣)
١٣ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٨٣
٩٥ ، ٩٦ ، ١٢٥

زواج (ال -) (ج ٢) ، ١٠٢ ، ١٠٣

(س)

ساميون (ج ١) ، ١٠٣ ، ١٨٩
١٩٠ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ (ج ٢)
١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣٧
ست (اله مصري) (ج ٣) ، ٢٣
٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩

سحر (ج ١) ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٥٦
٢٦٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ (ج ٢) ، ١٤ ، ٤٢
٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣
٥٨ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ١٠١ ، ١٠٦
١٥٨ ، ٣١٦ ، (ج ٣) ، ٣٧ ، ٤٢
٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١١١
٢٤٥ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥ ، ٣٧١
٣٨٥ ، ٣٨٦

سرج (للخيال) (ج ١) ، ١٦١
١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٧٢ ، ١٧٣ (ج ٢)

ساسانيون (ج ٢) ، ٣٣٦ (ج ٣)
١٤٠

ساكسون (ج ١) ، ٢٨ (ج ٢)
٢٧٦

ساكيا موتي (بوذا) (ج ٣) ، ١٨٦
١٨٧

سال - مي (زوجة لاهد الالهة
السومرية) (ج ٢) ، ٢٢١ ، ٢٢٢
سالاميس (معركة حربية) (ج ٢)
٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٩٥

ساليش (ج ٣) ، ٣٤٤ ، ٣٤٥
ساموراي (ج ٣) ، ٣١٥ ، ٣١٦
٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠

سامية (اللغات ال -) (ج ١)
١٩٠ (ج ٢) ، ١٨٥ ، ٢٠١ ، ٢١٧
٢١٨ (ج ٣) ، ١٦٣

٢٤٤ ، ٢٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٤٥
 ١٢٠ ، ٧٣ (٢ ج) ٢٥٦ ، ٢٥٣
 (٣ ج) ١٩٠ ، ١٣٦ ، ١٣٥ ، ١٢١
 ٩٣ ، ٣٢٨ ، ٣١٠ ، ٣٠٨ ، ١٨٠
 ٤٠٧ ، ٣٨٨ ، ٣٥٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٥
 سند (ال -) (١ ج) ١٨٦
 ١٩١ ، (٢ ج) ٢٠٧ ، ٢١٠ (٣ ج)
 ١٦٥ ، ١٦٧ ، ٢٠٤
 سنسكريتية (اللغة ال -) (٢ ج)
 ٦٨ ، ٨٤ (٣ ج) ١٣٥ ، ١٥٢ ، ١٩٦
 سودان (ال -) (٢ ج) ١٢٨
 ١٩٦ (٣ ج) ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨
 ١٩ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠
 ٩٦ ، ٩٨
 سودرا (٣ ج) ١٧١ ، ١٧٣
 ١٧٧ ، ٢١٤ ، ٢١٥
 سور الصين العظيم (٣ ج) ٢٧٧
 ٢٧٨
 سورية (٢ ج) ٢٤٢ ، ٢٤٣
 ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٦
 (٣ ج) ٣٢ ، ٣٨ ، ٥٣ ، ١٤٠ ، ٢٠٦
 سوسيتي (جزر -) (٢ ج) ٢٠
 ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٨
 سومما (شراب هندي) (٣ ج)
 ١٦١ ، ١٦٢
 سومر (٢ ج) ١١٨ ، ١٩٢
 ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩
 ٢٤٣
 سومرية (اللغة ال -) (٢ ج)
 ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٠
 سومريون (١ ج) ١٧٧ ، ١٨١
 (٢ ج) ١٤٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٧

١٨٨ ، ٣٠٩ ، (٣ ج) ٢٥٩ ، ٢٦٠
 سرجون الاول (اكدى) (٢ ج)
 ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢٣٧
 سردينيون (٢ ج) ٢٤٧ ، ٢٤٨
 سفن (بناء ال -) (٢ ج) ١٢١
 ١٢٢ ، ١٢٣ ، ٢٦٥ (٣ ج) ١٨٠
 ٣٢٨
 سكين (١ ج) ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢
 ١٤٣ ، ١٤٤ (٢ ج) ١١ (٣ ج) ٢٥
 ١٤٣ ، ٣٤٠ ، ٣٤٩
 سلاح (١ ج) ١٢٧ ، ١٣٥ ، ١٣٦
 ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥
 ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ٢٢١
 ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٦ ، ٢٦٣
 ٢٦٤ ، ٢٦٥ (٢ ج) ١١ ، ٢٥ ، ٤٤
 ٧٤ ، ١٠٠ ، ١١٠ ، ١٥٢ ، ٢٤٤
 ٢٧٨ ، ٣١١ (٣ ج) ١٨ ، ٧٤ ، ٢١٢
 ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٥٣ ، ٣٩٤
 سلال (صناعة ال -) (١ ج)
 ١١٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٦٨ ، ١٩٥
 ٢٢٨ ، ٢٤٦ ، ٢٦٥ (٢ ج) ١١
 ٩٧ ، ٩٩ ، ٢٣٢ (٣ ج) ٨٢ ، ٨٥
 ٣٣٩ ، ٣٤٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤
 ٣٨٤ ، ٣٨٧
 سلخفاة (٢ ج) ٢٤ (٣ ج)
 ٢٣٧
 سلك (١ ج) ١٢٦ ، ١٤٥ ، ١٤٦
 ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٥
 ٢٤١ ، ٢٥١ (٢ ج) ١٦ ، ٣٤ ، ٩٦
 ١٢٠ ، ٢٥٩ (٣ ج) ١٠٠ ، ٢٨٦
 ٤٠٩
 سمك (صيد ال -) (١ ج)

شوجن (ج ٣) ٣١٥ ، ٣٠٨ ، ٣٣٠ ، ٣٢٧ ، ٣٢٤ ، ٣١٨
 شوفان (ج ١) ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٦٢
 شوكتين (مدينة بالصين) (ج ١) ٥٣ ، ٥٢
 شيبا (ال) (ج ٣) ٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٢٥١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٢
 شيعة (ال -) (ج ٢) ٣٤٥ ، ٣٤٦
 شيمو (امبراطورية) (ج ٣) ٤١١ ، ٤١٠
 شين تسو (ج ٣) ٢٦٤ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨

٢٣٣ ، (ج ٣) ٢٥ ، ١٤٦ ، ١٥٦ ، ٢٤٧ ، ١٧٠
 شمال شرق آسيا (ج ١) ٢٤٤ ، ٢٤٥ (ج ٣) ١٠
 شمالية - ال (ج ٢) ١٧٧ ، ٢٣٦ (ج ٣)
 شمر (نبات ال -) (ج ١) ١١٨ ، ١١٩
 شمع (ج ٣) ٣٣ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٢٤٤
 شو (أسرة -) (ج ٣) ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩

(ص)

صنوبر (ج ٢) ١١٨ ، ١٢٠ ، ٣٦٠ ، ٣٣٧ (ج ٣)
 صهر المعادن (ج ١) ١٧٧ ، ١٨٢ ، ٢٤٩ (ج ٣) ٨٣
 صوف (ال -) (ج ١) ١٩٦ ، ١٩٧ (ج ٢) ٩٧ ، ١٥١ ، ١٩٢ ، ٣١١ (ج ٣) ٣٢
 صومال (ال -) (ج ٣) ٢٠ ، ٦٤
 صوماليون (ج ٢) ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤
 صيد (ال -) (ج ١) ٧٦ ، ١٤٧ ، ٢٢١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١

صبغة (ج ٢) ٧٣ ، ٩٧ ، (ج ٣) ٣٣
 صب المعادن (ج ٢) ٢١٦ ، ٢٤٤ ، ٤١٦ (ج ٣)
 صحراء (ال - الكبرى) (ج ١) ٤٨ ، ٩١ (ج ٢) ٩١ ، ١٨٥ (ج ٣) ٩ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٩٧ ، ٩٨
 صدف (ج ٣) ٣٢ ، ٨٦ ، ١٨٠ ، ٢٨١ (ج ٢) ٤٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢
 صلب (ج ٢) ٧٤ ، ٧٥ (ج ٣) ١٣١ ، ١٤٤

١٦١ ، ١٦٥ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢٥٧ (ج ٢) ، ١٠ ، ٦٣ ،
 ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ،
 ٨٦ ، ١١٢ ، ١٦٤ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ،
 ٢١٢ (ج ٣) ، ١٦٦ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٣١١ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ .

صينية (اللفة ال -) (ج ١) ٣٨
 (ج ٢) ٨١ .
 صينيون (ج ٣) ١٤٠ ، ٢٢٠ ،
 ٣٠٦ .

٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٩ ، (ج ٢) ١١٢ ،
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١٥٩ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ،
 ١٨٥ ، ٢٧٥ (ج ٣) ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٨ ،
 ٨١ ، ١٠٠ ، ١٢٠ ، ١٣١ ، ٣١١ ،
 ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٨٨ ، ٤٠٧ ،
 صيد الحيوانات (ج ١) ١٥٤ ،
 ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٧٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٣ ، ٢٣٧ (ج ١) ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٧٤ (ج ٢) ، ١٣٥ ،
 ١٣٦ (ج ٣) ، ٩٣ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ،
 ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ،
 ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨٣ .
 صين (ال -) (ج ١) ٤٨ ، ٥٢ ،

(ط)

١٥٧ ، ٢٩٧ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ (ج ٢) ،
 ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٩١ ،
 ٩٦ ، ١٠١ ، ٢٤٨ .

طلائع الانسان (ج ١) ٢٩ ، ٤٢ ،
 ٥١ ، ٥٢ ، ١١٧ ، ١١٩ (ج ٣) ١٣٨ ،
 طماطم (ج ٣) ٣٩٤ ، ٣٩٥ ،
 طوارق (قبيلة ال -) (ج ٣) ٦٢ ،
 ٦٣ .

طوعم (ج ٣) ٦٧ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ،
 ٢٣٢ ، ٢٤٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ،
 طيبة (مدينة مصرية) (ج ٣) ٣٧ ،
 ٩٦ .

طاوية (الديانة ال -) (ج ٢) ٨٦ ،
 (ج ٣) ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٥ .

طب - (ال -) (ج ١) ٢٠٩ ،
 ٢٦٢ ، ٢٧١ (ج ٣) ، ٢٣ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
 ٧١ ، ٩٣ ، ٢٧٤ ، ٣٢٨ .

طابو (شيء محرم) (ج ٣) ٢١٤ ،
 ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٣٢٣ ، ٣٤٧ .

طروادة (ج ٢) ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،
 ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

طقوس دينية (ج ٢) ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٣٩ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
 ٨٣ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ،

(ظ)

ظران (حجر الصوان) (ج ١)
١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٥٨ ، ١٨١ ،
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ،

عربة حربية (ج ٢) ١٤٢ ، ١٥١ ،
٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٥ ، ٣٠١ ،
٣٠٧ ، ٣٠٩ ، (ج ٣) ١٦ ، ١٧ ،
عرب (ال -) (ج ٢) ٣٤٠ ،
٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ (ج ٣) ٦١ ،
١٤٠ ، ١٩٨ ،

عربة (ج ١) ١٩٢ (ج ٢) ١٠٠ ،
١٥٧ (ج ٣) ١٥٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
٢٦٠ ،
عربية (اللغة ال -) (ج ٢) ١٨٥ ،
٣٥٠ ، ٣٥٨ ،
عصا الحفر (ج ١) ١٢٧ ، ٢٥٨ ،
٢٦٦ (ج ٢) ٧٣ ، ٩٤ ، ١٠٢ ،
عصور وسطى (ال -) (ج ١)
١٦١ (ج ٢) ١٥٤ ، ٢٠٨ ، ٢٣٣ ،
٣٠٣ (ج ٣) ٩ ،
عظم (ج ١) ١٠٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
١٤٦ ، ١٨٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ،
٢٥٨ (ج ٣) ٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،
٢٤٩ ، ٣٨١ ،
عملة معدنية (ج ٢) ٢٣٣ (ج ٣)
١٦٦ ،
عنب (ج ١) ١٥٩ (ج ٢) ١١٩ ،
٣٢٧ ،

عاج (ج ١) ٢٣٢ ، ٢٣٨ (ج ٢)
٢٣٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ (ج ٣) ٢٧ ، ٣٢ ،
٨٤ ، ٩٩ ، ١٧٩ ، ٢٤٨ ،
عبادة الأسلاف (ج ٣) ٦٩ ، ٧٥ ،
٧٩ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ،
٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٩٦ ،
٢٩٧ ، ٣٠١ ،
عبادة الشمس (ج ٢) ١٣٠ (ج ٣)
٣٦١ ،
عبرانيون (ج ٢) ١٩٨ ، ١٩٩ ،
٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
عبرية (اللغة ال -) (ج ١) ٣٧ ،
(ج ٢) ١٨٥ ،
عبيد (ال -) (ج ١) ٦١ (ج ٢)
٥٩ ، ٢٢٨ ، ٢٦٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
٢٩٧ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ (ج ٣)
٥٠ ، ٥١ ، ٦٧ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ١٠٣ ،
عجل البحر (ج ١) ٢٣٦ (ج ٣)
٣٤٦ ،
عجلة (ال -) (ج ١) ١٩١ ،
١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ (ج ٢) ٥٦ ، ٩٢ ،
١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٥١ (ج ٣)
١٤٦ ، ١٥٦ ،
عجلة الفخار (ج ١) ١٩٣ ، ١٩٤ ،
١٩٦ (ج ٢) ٢١٧ (ج ٣) ٢٣٠ ،
٢٤٧ ،

(ع)

(غ)

غانا الجديدة (ج ٢) ، ٥١ (ج ٣) ، ٩٨

غانلى (ج ٣) ، ١٧٨ ، ٢١٥

غزل القماش (ج ٢) ، ٩٧ (ج ٣) ، ٢٣٩ ، ٨٢

غنم (ج ١) ، ١٦٠ (ج ٢) ، ١٢٠

١٤١ ، ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٨

١٦٩ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ٢٠٣ (ج ٣)

٢٥ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٣٠٧ ، ٣٤٥ ، ٣٧٩

غاب هندي (ج ١) ، ١٠٨ ، ١٢٧ ، ١٣٣ ، ١٨٦ ، ٢٢٤ ، ٢٤٦ ، ٢٦١

(ج ٢) ، ٩ ، ١١ ، ٧٤ (ج ٣) ، ١٤٣ ، ١٥٧ ، ٢٢٤ ، ٢٥١ ، ٣١٠

غات (جبال بالهند) (ج ٣) ، ١٣٣ ، ١٣٤

غال - (قبائل ال -) (ج ٢) ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٢١ ، ٣١٨

(ف)

١٤٥ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٤٤

٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ (ج ٢) ، ١١ ، ٤٤

٥٢ ، ٥٦ ، ٦٥ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١١٧

١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ١٧١

٢١٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٩

٢٦١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩ ، ٣٢٠

٣٢٨ ، ١٩ (ج ٣) ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٧٥

٨٢ ، ٨٥ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ٢٢٧

٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠

٣١١ ، ٣٤٨ ، ٣٦١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤

٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٤٠٩ ، ٤١١

فراء (ج ١) ، ١٢٨ ، ٢٥٩ (ج ٢) ، ١٣٨

فترات (ال -) (ج ٢) ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٣٣٦

فرجينيا (ج ١) ، ٧١ (ج ٣) ، ٣٥٠ ، ٣٥١

فارذامانا (ج ٣) ، ٦٠ ، ١٧٨ ، فارسي - خليج - ال (ج ٢) ، ١٩٠ ، ٢١٣ ، ٢٣٢ ، ٣٥٠

فارسية - امبراطورية (ج ١) ، ٢١٥ (ج ٢) ، ١٥٨ ، ٢٠٩ ، ٢٣٦ ، ٣٤٨

فاس (ج ١) ، ٧٨ ، ١٣٥ ، ١٩٥

٢٢٤ (ج ٢) ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢

١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٣

١٥٢ ، ٢١٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ (ج ٣)

١١ ، ٢٥ ، ٨٦ ، ١٤٣ ، ٢٢٦ ، ٢٤١

٣٤٩

فاكهة الخيز (ج ١) ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ (ج ٢) ، ٥٥ ، ٥٢

فحم خشب (ج ١) ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٨٣

فخ الصيد (ج ١) ، ١٤٣ ، ١٤٤

فخار (ج ١) ، ١١٠ ، ١٢٥ ، ١٢٧

فول سوداني (ج ١) ١٤٤ (ج ٣)
 ١٥ ، ٧٢ ، ٨١ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧ .
 فولسوم (حضارة ال -) (ج ٣) .
 ٣٧٣ ، ٣٦٦ .
 فولكلور (قصص) (ج ٣) ٩ ،
 ١٥٥ ، ١٥٦ .
 فيانس (ج ٢) ٢٦١ (ج ٣) ٢٧ .
 فيتامينات (ج ١) ١٦٢ ، ١٦٣ .
 (ج ٣) ٣٤٤ .
 فيتش (ج ٣) ٧١ ، ٩٣ ، ١١١ .
 فيجي (جزر) (ج ١) ٦١ ، ١٦٨ .
 (ج ٢) ٤٧ ، ٤٢ .
 فيدا (ج ٣) ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ .
 ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
 فيدزالي (النظام ال -) (ج ١)
 ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ .
 فيشتو (معبود) (ج ٢) ٨٢ ،
 (ج ٣) ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٨٧ ،
 ٢٠٦ .
 فيل (ج ١) ٤٣ ، ٤٨ ، ٩٩ ،
 ١٥٣ ، ١٥٤ (ج ٣) ٤٨ ، ٣٠٩ .
 فيليبين (ج ٢) ١٧ ، ٢٠ ، ٦٢ ،
 ٧٢ ، ٨١ .
 فينيقيون (ج ١) ١٨٩ ، ١٩٠ ،
 (ج ٢) ١٩٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤ ،
 ٣٢٨ (ج ٣) ٦١ .

فرس - ال (ج ٢) ٢٤٩ ، ٢٨١ ،
 ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، (ج ٣) ٩٦ ،
 ١٤٠ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ٢١٧ .
 فرس النهر (ج ١) ٤٤ ، (ج ٣)
 ٤٥ .
 فرنسا (ج ١) ٧٧ ، (ج ٢) ٨٥ ،
 ٨٦ (ج ٣) ١٢٥ ، ٢٦٠ .
 فضة (ج ١) ١٠٤ ، ١٧٨ (ج ٢)
 ٦٣ ، ٧٤ ، ٢١٧ ، ٢٣٣ ، ٢٦٠ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٧ (ج ٣) ٣١ ، ٥٤ ، ٣٧٩ ،
 ٤١٦ .
 فلسطين (ج ١) ٢٢٧ (ج ٢)
 ١٠٦ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ٢٣٢ ، ٢٤٤ ،
 ٢٤٨ ، ٢٤٩ .
 فلسفة (ج ٢) ٢٨٩ (ج ٣)
 ١٦٤ ، ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ .
 فلك (ج ١) ١١١ ، ١١٢ (ج ٢)
 ٢٠٥ ، ٢٢٥ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ (ج ٣)
 ٢٧٤ ، ٣٩٧ .
 فلوريدا (ج ٣) ٣٦٠ ، ٣٦٨ .
 فن النحت والتصوير (ج ٢)
 ٢٨٥ ، ٣٢٧ (ج ٣) ٨٤ ، ١٦٩ ،
 ٣٠٣ ، ٣٢٩ ، ٣٦١ ، ٣٨١ ، ٣٩٦ .
 فوتان (ج ٢) ٨١ ، ٨٢ .
 فول (ج ١) ٩٣ ، ١٩٦ (ج ٣)
 ٢٣٠ ، ٣٤٤ ، ٣٦١ .

(ق)

٢٦٢ (ج ٢) ٧٥ ، ١٨١ (ج ٣) ٣٣٩ ،
 ٣٤٠ .
 قرآن - ال (ج ٢) ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
 ٣٥٨ ، ٣٤٦ .

قادش (موقعة حربية) (ج ٢)
 ٢٥٠ ، ٢٤٦ .
 قاذفة حراب (ج ١) ١٠٨ ، ١٣٧ ،
 ١٣٨ ، ١٤٢ ، ٢٣١ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .

قطن (ج ٢) ٧٣ (ج ٣) ٣٢ ،
 ١٤٦ ، ٣٨١ ، ٣٩٥ .
 قلف الاشجار (ج ١) ١٦٨ ، ٢٣٢ ،
 ٢٦٥ ، (ج ٢) ٤١ ، ٥٦ ، ٧٣ (ج ٣)
 ٢٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٧٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ .
 قمح (ج ١) ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
 ١٦٤ (ج ٢) ٩٤ ، ١١٣ ، ١٣٥ ، ١٨٨ ،
 ٣٠٢ (ج ٣) ٢٥ ، ١٤٦ ، ١٥٦ ،
 ١٧٠ ، ٢٤٧ .
 قنب (ج ٣) ٢٣٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،
 قوافل (دروب ال -) (ج ٣) ١٩ ،
 ٦٣ .
 قوس (ج ١) ٧٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
 ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ (ج ٢) ١١ ، ٧٥ ،
 ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٢ ،
 ١٧٣ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، (ج ٣) ١٧ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٣٧٥ ، ٣٨٠ ، ٤٠٠ ،
 قوقاز (ج ١) ٢٦٠ (ج ٢) ١٦ ،
 ٢٤٢ (ج ٣) ١٣ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٢ ،
 ١٣٩ ، ٣٠٩ .
 قوقازيون (ج ١) ٦٣ (ج ٣) ١٣٩ ،
 ١٤١ .

قردة (ج ١) ٢٧ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ،
 ٣٧ ، ١٢٤ (ج ٢) ٢٣٢ (ج ٣)
 ١٣٧ ، ١٣٨ .
 قنوم (ج ١) ١٨١ ، ٢٣٥ (ج ٢)
 ١٣٦ ، (ج ٣) ١٤٣ .
 قرع (ج ٢) ٩٤ (ج ٣) ٧٢ ،
 ٨٣ ، ٢٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٧٥ ، ٣٩٥ .
 قرطاجنة (ج ٢) ٢٨٣ ، ٣٢٨ ،
 ٣٢٩ (ج ٣) ٩٩ .
 قرن حيوان (ج ١) ١٠٧ ، ١٠٨ ،
 ١٤٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ،
 (ج ٢) ٩٥ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ،
 (ج ٣) ٢٤٢ .
 قزم (ج ١) ٥٧ ، ١٣٩ ، ٢٥٧ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٢ (ج ٢) ١٨ (ج ٣) ١٢ ،
 قصائد البطولة (ج ٢) ١٤٩ ، ١٥٠ ،
 ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٩ ،
 ١٩٤ ، ٣١١ .
 قصدير (ج ١) ١٧٧ ، ١٧٨ ،
 ١٧٩ (ج ٢) ٣٢٣ (ج ٣) ٣١ ، ٢٤٤ ،
 ٤١٦ .
 قطب شمالي (ال -) (ج ٣)
 ٢٢٧ ، ٣٠٩ .

(ك)

كامبوديا (ج ٢) ٦٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ،
 ٨٧ ، ٨٥ .
 كانسو (ج ٣) ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 كاهن - ملك (ج ٣) ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
 ٣٦١ ، ٣٩٩ .
 كاياك (قارب من الجلد) (ج ٣)
 ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

كاب (ال -) (ج ٣) ١١ ، ١٨ ،
 كاتوليك (ج ٣) ٣٠٢ ، ٣٢٥ ،
 كارولينا (ج ١) ٢٠٠ (ج ٢)
 ٢١ .
 كاليفورنيا (ج ١) ١٠٩ ، ١٥٣ ،
 ٢٧٣ (ج ٣) ٣٣٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ،
 ٣٨٥ ، ٣٨٦ .

كتاب التاريخ (كتاب صيني قديم)
(ج ٣) ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧
كتاب التفسيرات (كتاب صيني قديم)
(ج ٣) ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٧

كتابه (ال -) (ج ١) ١٠٣ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ (ج ٢) ٢٢٣ ، ٢٥٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩ (ج ٣) ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧

كتان (ج ١) ١٥٩ ، ١٩٧ (ج ٢) ٩٧ ، ٣١١ (ج ٣) ٣٢ ، كرال (كوخ) (ج ٣) ٧٦ ، ٧٨ ، كربون (ج ١) ١٨٢ ، ١٨٣ (ج ٢) ٧٥ ، ١٤٤ (ج ٣) ١٤٤ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨

كرما (ج ٣) ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٠٨ ، كرنب (ج ١) ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩

كريت (جزيرة) (ج ٢) ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨

كشاتريا (ج ٣) ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥

كعبة (ال -) (ج ٢) ٣٥٧ ، ٣٥٨

كلاسيكي (العصر ال -) (ج ٢) ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧

كلب (ج ١) ٣٧ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٤٣ (ج ٢) ١٠ ، ٥٤ ، ٧٦ ، ١٥٣ (ج ٣) ٨٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٨٧

كلت (ج ٢) ٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٣١٦ (ج ٣) ١٥٦ ، كشرى (ج ١) ١٥٩ (ج ٣) ٣٩٥

كندا (ج ٢) ١٣٣ (ج ٣) ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٧٢

كنعان (ج ٢) ١٩٩ ، ٢٤٨ ، كنغر (ج ١) ٤٧ ، ٢٦٩ ، كنيسة - ال (ج ٢) ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٥٨ (ج ٣) ١٠

كوارتز - حجر (ج ٣) ٣١ ، كواكيوتل (شمب) (ج ١) ١٠١ ، ٢٨٧ (ج ٣)

كوتا (قبيلة هندية) (ج ٣) ١٨٠ ، ١٨١

كوتوكو (ج ٣) ٣٢٠ ، ٣٢١ ، كورتيز (ج ٣) ٣٦٨ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦

كوريا (ج ١) ١٧٥ ، ٢١٠ (ج ٢) ٢٣٢ ، ٣١١ ، ٣٢١ ، ٣٢٦

كوزكو (مدينة -) (ج ١) ٢٠١ (ج ٣) ٤١٤ ، ٤١٧

كولورادو (ج ٣) ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨

كولومبيا البريطانية (ج ١) ٥٨ ، ٩٠ ، ١٥٥ ، ٢٥١ (ج ٢) ١٥٥ (ج ٣) ٢٤١ ، ٢٨٦ ، ٤١٣

٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣٠٣ .
 كيڤا (مساكن تحت الارض)
 ٢٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٦ (٣ ج)
 كينيا (١ ج) ٢٣٩ (٣ ج) ٧٧ .
 ٧٨ .

كونفسو (ال -) (١ ج) ٥٧ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٧ (٣ ج) ١١ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
 ٨٣ ، ٨١ .
 كونفوشيس (٢ ج) ٨٦ ،
 ٢٦٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦١ (٣ ج)

(ل)

٩٦ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٤٦ ،
 ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ (٣ ج) ٦٨ ،
 ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
 ٧٩ ، ٨٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٤٦ .
 لجش (مدينة سومرية) (٢ ج)
 ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
 لنج شان (حضارة -) (٣ ج)
 ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، ٢٤٧ .
 ليويانج (٣ ج) ٢٥٠ ، ٢٧٨ ،
 ٢٧٩ .

لابرانت (٢ ج) ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
 لازورد (٢ ج) ٩٨ (٣ ج) ٢٩ ،
 لاكروس (لعبة قديمة) (٣ ج)
 ٣٥٧ ، ٣٦٥ .
 لاما (حيوان ال -) (١ ج) ١٦١ ،
 ٣٤٥ ، ٤١٣ ، ٤١٥ (٣ ج)
 لوتسو (فيلسوف صيني) (٣ ج)
 ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ .
 لبن (صناعة ال -) (١ ج) ١٦٢ ،
 ١٦٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤ (٢ ج) ٥٦ .

(م)

ماشية (١ ج) ١٥٣ ، ١٦٠ ،
 ١٦١ ، ١٦٤ (٢ ج) ٥٦ ، ٩٦ ، ١١٣ ،
 ١١٤ ، ١٢٠ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤١ ،
 ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥١ ،
 ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
 ١٦٩ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ، ٢٠٣ ، ٢٤٧ ،
 ٢٥٩ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ (٣ ج) ٢٥ ،
 ٦٤ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ٧٨ ، ٨٠ ، ١٠٠ ، ١٤٦ ، ١٥٥ ،
 ١٥٧ ، ١٧٠ ، ٢٣٠ .
 ما قبل الاسرات - عصر (١ ج)

ما بين النهرين (بلاد -) (٢ ج)
 ١١٢ ، ١٣٧ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ،
 ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ،
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٧ ،
 ٢٦١ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ (٣ ج) ٣٨ ،
 ٥٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٦٣ ، ٢٢٠ .
 ماركساس (جزر -) (١ ج)
 ١٢٠ ، ١٣٧ (٢ ج) ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ ،
 ٢٤٣ (٣ ج)
 ماركو پولو (رحالة) (٢ ج)
 ٧٠ ، ١٦٧ (٣ ج)

مدغشقر (ج ١) ، ٦١ ، ١٣٧ ،
 ١٤٤ ، ١٨٥ ، (ج ٢) ، ١٠ ، ١١ ،
 ١٤ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٤ ،
 ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٥ ، ١٣٠ ، (ج ٣) ،
 ٨١ .
 مرمرة « قرية مصرية » (ج ٣)
 ، ٢٥ ، ٢٧ .
 مسلمون (ال -) (ج ٢) ، ٧٧ ،
 ٢٠٠ (ج ٣) ، ٩٦ ، ١٦٦ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١١ .
 مسمارية (كتابة ولفة) (ج ٢)
 ، ٢١٥ ، ٢٣٣ ، ٢٤٤ .
 مسيحي (العصر ال -) (ج ٢)
 ، ٨٤ ، ١٢٦ ، ١٤٨ ، ٢٩٩ (ج ٣)
 ، ١٦٦ ، ٢٣٦ .
 مسيحية (الديانة ال -) (ج ١)
 ، ٩٠ (ج ٢) ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٥٧ ،
 ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ،
 ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٦ ، (ج ٣) ، ٢٠ ،
 ٦٤ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٦٩ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ،
 ٢٠٣ ، ٢٢٠ ، ٢٧٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ،
 ٣٠٨ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٦١ ، ٤٠٥ ،
 مسيحيون (ال -) (ج ٢) ، ٢٠٠
 (ج ٣) ، ١٦٦ ، ٤٠٥ .
 مصر (ج ١) ، ٣٧ ، ١٠٣ ، ١١٣ ،
 ١٦٢ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ،
 (ج ٢) ، ١١٢ ، ١٢٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٤٦ ،
 ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ،
 ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥

١٦٢ (ج ٢) ، ٢٥٨ (ج ٣) ، ٢٦ ،
 ٤١ ، ٤٢ .
 ما قبل التاريخ - عصر (ج ١)
 ، ٢٢٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ (ج ٢) ، ١٠٩ ،
 ١٢٤ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ٢٤١ ، ٢٨٠ ،
 ٣٠٠ (ج ٣) ، ٩ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٢٩ ،
 ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ،
 ٣٥٨ ، ٣٤٥ .
 ماموث (حيوان ال -) (ج ١)
 ، ١٤٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ (ج ٣) ، ٢٣٨ ،
 ٣٦٨ ، ٣٤٠ .
 مانا (ج ٢) ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ،
 ٣٤ ، ٣٥ ، ٧٧ ، ١٩٨ ، (ج ٣) ، ٢١٦ ،
 ٣١١ .
 ماور (ال - داهومي) (ج ٣)
 ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .
 مايا (شعب) (ج ١) ، ٥٩ ، ١١١ ،
 ١١٣ (ج ٣) ، ١٨٧ ، ٢٤٧ ، ٣٣٥ ،
 ٣٣٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ،
 ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤ .
 محراث (ج ١) ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،
 ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، (ج ٢)
 ، ٥٦ ، ٧٢ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١١٠ ،
 ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٣٩ ،
 ١٤٠ ، ١٥١ ، ٣٢٧ (ج ٣) ، ٢٩ ،
 ٨٦ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٦ ، ١٧٩ ،
 محمد (نبي الاسلام) (ج ٢)
 ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ،
 ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ .
 محمود الغزني (ج ٢) ، ٣٥٥ ،
 (ج ٣) ، ١٩٨ .
 محمود القوري (ج ٣) ، ٢٠٤

٣٦٢ ، ٣٦١ ، ٣٦٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٣
٣٩٤ ، ٣٨١ ، ٣٧٩ ، ٣٦٧ ، ٣٦٦
٣٩٩ ، ٣٩٥

مكة (ج ٢) ٣٥٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤١
٣٥٧ (ج ٣) ١٩٩
ملاريا (ج ١) ٦٠ ، ٦١ (ج ٢)
٢٤ (ج ٣) ١٣

ملايو (ج ١) ٦٤ (ج ٢) ١٠
١١ ، ١٦ ، ١٨ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧١
٨١ ، ٨٤ (ج ٣) ١٣٤ ، ١٤٠
٢٤٤

ملايو - بولنيزية (ج ١) ٦١
(ج ٢) ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦
١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥
٢٦ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٢
٦٧ (ج ٣) ٨١

ممالك (ال -) (ج ٢) ٣٥٥
٣٥٦

منا (ملك مصرى) (ج ٣) ٢٦
٢٨

منبوفون (ال -) (ج ٣) ٢٠٠
٣١٣

منجل (ج ١) ٢٤٠ (ج ٢) ٩٥
(ج ٣) ٢٥ ، ٢٤١

منشور (ال -) (ج ٣) ٢٢١
٢٨٩

منغوليا (ج ٢) ١٧ ، ١٣٣
١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٨١ (ج ٣) ٢٢٦

منكيوس (مؤرخ صيني) (ج ٣)
٢١٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤

مهمس (آلة) (ج ٣) ١٤٢ ، ١٤٣
٣٣٩

٢٥٦ (ج ٣) ٩ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨
١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٦٣
٨٥ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٨ ، ١٩٧
٢١٩ ، ٢٢٠

مصر السفلى (ج ٣) ٢٦ ، ٢٧
٢٨ ، ٣٥

مصر العليا (ج ٣) ٢٥ ، ٢٦
٢٧ ، ٢٨ ، ٣٥

مصريون (ج ١) ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٥٣
١٨١ ، ١٨٩ (ج ٢) ١٨٥ ، ٢٢٥
٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٢٧٨
٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٣٢٧ (ج ٣) ٩٦ ، ١٧

مصادن (ج ١) ١١٣ ، ١٢٤
١٢٥ ، ١٧٦ ، ٢٥٣ (ج ٢) ١٤
٦٣ ، ٧٤ ، ١١٠ ، ١٣٠ ، ١٣١
١٣٨ ، ١٥١ ، ١٧١ ، ٢١٦ ، ٢٣٣
٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

٢٧٥ ، ٣١٩ (ج ٣) ٨٢ ، ٨٥
١٤٤ ، ١٧٩ ، ٢٢٣ ، ٣٢٨ ، ٤١٦
مفزل (ج ١) ١٩١ ، ١٩٥
١٩٦ (ج ٢) ٩٧ ، ١٤٦

مفول (ج ١) ٥٦ ، ١٤٠ (ج ٢)
٨٧ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٩

٢١٥ ، ٢٩٩ (ج ٣) ١٣٩ ، ١٤٠
١٩٩ ، ٢٢١ ، ٣٠٦ ، ٣٣٨

مقشط (ج ١) ٢٢٨ (ج ٢) ١١
٩٩ (ج ٣) ١٤٣ ، ٣٤٠

مقلع (ج ١) ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٢
(ج ٢) ١١ ، ١٣٥

مكسيك (ج ١) ١٠٩ ، ١١٣
١١٤ ، ١٣٧ ، ١٩١ ، ٢٠١ (ج ٣)

ميكونج (نهر -) (ج ٢) ٨٢ ،
 ميكروتيزيا (جزر -) (ج ١)
 ١٧٢ (ج ٢) ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،
 ٣٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
 ميلانيزيا (جزر -) (ج ١) ٤٧ ،
 ٥٢ ، ١٠٤ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ،
 ٢٧٣ (ج ٢) ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤٢ ،
 ٤٧ ، ٥٠ ، ٦٤ ، ١٠١ ،
 ميلانيزيون (ج ١) ٦١ ، ١٣٦ ،
 ٢٧٦ (ج ٢) ، ٤٣ ، ٥١ ،
 مينوس (ملك كريتي) (ج ٢)
 ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
 مينيوية (ج ٢) ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
 ٢٦٢ ، ٢٧٩ ،
 مينيويون (ج ٢) ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
 ٢٩٤ ،
 ميوسين (عصر ال -) (ج ١)
 ٣٢ ، ١٠٠ (ج ٢) ٢٥٦ (ج ٣)
 ١٣٧ ،
 ميوسينيون (ج ٢) ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،

مهيانا (مذهب) (ج ٢) ٦٨ ،
 (ج ٣) ١٩٤ ،
 موتسو (ج ٣) ٢٦١ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧٠ ،
 مستيرية (ج ١) ٢٢٧ ، ٢٣١ ،
 (ج ٣) ١١ ،
 موسيقى (ج ١) ٨٢ (ج ٣)
 ٢١٠ ، ٢٤٠ ،
 موشكينو (ج ٢) ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣١ (ج ٣) ٤١١ ،
 موهنچو دارو (ج ٣) ١٤٩ ،
 ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٧٤ ،
 مياو (ج ٣) ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
 ميجاليتية (ج ٢) ١٢٩ ، ١٣٠ ،
 (ج ٣) ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،
 ميجاستينس السلوقي (ج ٣)
 ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ،
 ميزولييتي - عصر (ج ١) ١٠٧ ،
 ١٥٠ ، ١٧٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
 ٢٤٧ ، ٢٥١ (ج ٢) ١٣٤ ، ١٣٥ ،
 ١٣٨ (ج ٣) ١٢ ، ٢٢٧ ،

(ن)

١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ٢١٧ ، ٢٤٣ ،
 ٢٦٠ ، ٢٢٣ ، ٢٥ (ج ٣) ٢٧ ،
 ٢٩ ، ٣١ ، ٥٤ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
 ١١٤ ، ١٤٦ ، ٢٤٤ ، ٣٠٨ ، ٣٩١ ،
 ٤١٦ ،
 نسيج (ج ١) ١٠٥ ، ١٠٦ ،
 ١٩٦ (ج ٢) ١١ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٧٣ ،

ناجا (اله هندي) (ج ٣) ١٩٠ ،
 (ج ٢) ١٨٧ ، ٢٠٨ (ج ٣) ،
 نادينية (اللفه -) (ج ٣) ٣٧٧ ،
 ٣٧٨ ،
 نبيذ (ج ٢) ٧٤ ، ١٢٠ ،
 نحاس (ج ١) ١٠٤ ، ١٧٦ ،
 ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٨٤ ، ٢٠٠ (ج ٢) ٧٤ ، ٩٩ ،

۲۲۸ ، ۲۲۹ ، ۲۳۳ ، ۲۳۶ (ج ۳)
 • ۱۱
 نیپال (ج ۱) ۱۵۲ (ج ۳)
 • ۱۸۷ ، ۲۰۴
 نیل (نهر ال -) (ج ۲) ۲۰۷
 (ج ۳) ۲۳
 نیلجیری (تلل) (ج ۴) ۱۳۳
 • ۱۸۰
 نیوزیلانده (ج ۲) ۲۱ ، ۲۲
 • ۲۵
 نیولیتی (العصر ال -) (ج ۱)
 ۱۰۹ ، ۱۶۲ ، ۱۹۵ (ج ۲) ۹ ، ۱۰
 ۱۲ ، ۶۳ ، ۷۳ ، ۹۱ ، ۹۲
 ۹۳ ، ۱۰۶ ، ۱۰۹ ، ۱۱۱ ، ۱۱۵
 ۱۱۶ ، ۱۱۸ ، ۱۲۲ ، ۱۲۳ ، ۱۲۴
 ۱۳۰ ، ۱۳۴ ، ۱۸۳ ، ۱۸۴ ، ۲۱۰
 ۲۴۱ ، ۲۴۳ ، ۲۵۵ ، ۳۱۹ (ج ۳)
 ۱۳ ، ۱۴ ، ۱۵ ، ۱۸ ، ۱۹ ، ۲۳
 ۲۴ ، ۹۸ ، ۱۴۳ ، ۱۴۶ ، ۱۵۶
 ۲۲۴ ، ۲۲۶ ، ۲۲۷ ، ۲۲۸ ، ۲۲۹
 ۲۳۰ ، ۲۳۲ ، ۲۳۸ ، ۲۴۱ ، ۲۴۴
 ۲۴۸ ، ۳۰۹ ، ۳۱۱
 نیومکسیکو (ج ۳) ۳۴۰ ، ۳۴۴
 • ۳۷۸ ، ۳۷۳
 نیویورک (ج ۲) ۱۳۳ (ج ۳)
 • ۳۵۹

۲۲۲ (ج ۳) ۲۷ ، ۸۵ ، ۱۷۹ ، ۲۳۹
 ۳۱۲ ، ۳۷۵ ، ۳۷۸ ، ۴۰۹ ، ۴۱۵
 • ۴۱۷
 نصل (ج ۱) ۱۰۷ ، ۲۳۱ ، ۲۳۷
 ۲۳۸ ، ۲۳۹ ، ۲۴۰ ، ۲۴۱ ، ۲۴۲
 ۲۵۸ (ج ۳) ۱۲
 نعام (ج ۱) ۹۹ ، ۱۴۲ ، ۲۵۹
 نجاجو (قبائل ال -) (ج ۳)
 ۳۷۷ ، ۳۷۸ ، ۳۷۹ ، ۳۸۰
 نقود (ج ۱) ۷۴ ، ۱۱۱ ، ۲۳۳
 (ج ۲) ۳۰۷ (ج ۳) ۵۴
 نمر (ج ۱) ۴۳ (ج ۳) ۲۴۲
 نهر الاصفر (ال -) (ج ۳)
 ۲۵۴ ، ۲۵۹
 نورسیون (قوم) (ج ۱) ۴۴
 (ج ۲) ۳۳۸
 نورمانیون (ج ۱) ۳۸ ، ۲۱۶
 (ج ۲) ۲۷۶
 نوسوس (قصر -) (ج ۲)
 ۲۵۷ ، ۲۶۷ ، ۲۶۸ ، ۱۷۰ ، ۲۷۳
 ۲۷۴ ، ۲۷۷ ، ۲۷۹
 نول (ال -) (ج ۲) ۱۱ ، ۵۲
 ۹۲ ، ۹۷ ، ۱۱۰ ، ۱۵۱ (ج ۳) ۷۴
 نیاندرتال (انسان ال -) (ج ۱)
 ۳۲ ، ۱۰۲ ، ۱۰۳ ، ۲۲۶ ، ۲۲۷

(ه)

هاوای (ج ۲) ۲۰ ، ۲۱ ، ۲۳
 • ۲۹ ، ۳۴ ، ۳۶ ، ۳۸ ، ۴۱
 هرم (ال -) (ج ۳) ۲۹ ، ۳۶۲
 • ۴۱۰

هان (أسرة -) (ج ۲) ۶۴
 ۶۵ ، ۷۵ ، ۱۷۳ (ج ۳) ۲۳۸
 ۲۷۸ ، ۲۸۰ ، ۲۸۷ ، ۲۹۶ ، ۲۹۸
 ۲۹۹ ، ۳۲۲

١٩٩ ، ١٩٦ ، ١٨٧ ، ١٨٥ ، ١٨٤
 ٢٠٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٠
 ٢١٦ ، ٢١١ ، ٢٠٩ ، ٢٠٦
 هندو أمريكا (ج ١) ٣٩ ،
 ٤٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٧ ،
 ٩٢ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
 ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
 ١٦١ ، ٢٤١ (ج ٢) ٣٥ ، ١١٣ ،
 ١١٤ ، ١٧٧ ، ٢٤٩ ، ٣٠٩ (ج ٣)
 ٢٤١ ، ٣١٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ،
 ٣٤٢ ، ٣٨٧
 هوانج هو (نهر ال -) (ج ٢)
 ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ (ج ٣) ٢٢٢ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٦
 هوتنتوت (ج ٣) ٦٥ ، ٧٢ ،
 ٧٨
 هولاندة (ج ٢) ١٣١ (ج ٣) ٣٢٨ ،
 ٣٥٣
 هون (قبائل ال -) (ج ١)
 ١٤٠ ، ١٦٥ (ج ٢) ١٦٥ ، ٣٠٠ ،
 (ج ٣) ٢٢١ ، ٢٦٠ ، ٢٧٢
 هو هو كام (ج ٣) ٣٨٠ ، ٣٨١ ،
 ٣٨٢
 هو ميروس (ج ٢) ١٤٢ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ،
 ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧
 هو يتزيلو پوشتلي (ج ٣) ٤٠١ ،
 ٤٠٦
 هيد يوشي (ج ٣) ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
 ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩
 هيرو دوت (ج ٢) ١٤٧ ، ٢١٨ ،
 (ج ٣) ٢٢ ، ٥٣ ، ١٦٨
 هيرو غليفية (ج ٣) ٢٩ ، ٣٧ ،
 ٤٤ ، ٥٥
 هينايانا (ج ٢) ٦٨ ، ٨٨

مكسوس (ال -) (ج ٢) ٢٤٦
 (ج ٣) ١٦
 ملسات (ج ٢) ٣٢١ (ج ٣)
 ١٥٦
 ملبنيستيه (ج ٢) ٢٠٩ ، ٢١٠ ،
 ٢٨١ ، ٢٩٧ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ،
 (ج ٣) ١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٦٥
 هليو پوليس (ج ٣) ٢٦ ، ٣٦ ،
 ٣٧
 مملايا (جبال ال -) (ج ٣)
 ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
 هند (ال -) (ج ١) ٢٠٠ ،
 (ج ٢) ٩ ، ١٠ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٨١ ، ٨٢ ،
 ٨٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ٢١٠ ، ٣٥٥ ،
 (ج ٣) ٢٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ،
 ١٣٧ ، ١٦٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
 ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ،
 ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٤٧ ، ٢٨٠ ،
 ٢٨٢ ، ٣٢٢
 الهند الصينية (ج ١) ١٦٥ ،
 ١٨٤ (ج ٢) ٦٥ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،
 ٢١٠ (ج ٣) ٣٢٢
 الهند الأوربية (شعوب) (ج ١)
 ١٩٠ ، ٢١٢ (ج ٢) ١٣٢ ، ١٤٨ ،
 ١٤٩ ، ٢٤٥ ، ٢٧٥ ، ٢٩٥
 الهند الأوربية (لغة) (ج ٢) ١٤٨ ،
 ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٢ ، ٢١٦ ، ٢٤٥ ،
 ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦
 ٣١٩ (ج ٣) ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٦١ ،
 ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٨٤ ، ٢٠٦
 هندوس (ال -) (ج ٢) ٦٧ ،
 ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٧ (ج ٣) ١٤٩ ،
 ١٥٧ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ٢٠١ ،
 ٢٠٩
 هندوسية (ال -) (ج ٣)

(و)

- وادی الجانج (ج ۳) ۱۳۳ ، ۱۵۰ ، ۱۵۶ ، ۱۶۷
 وادی السند (ج ۳) ۱۳۲ ، ۱۳۳ ، ۱۳۹ ، ۱۴۰ ، ۱۴۵ ، ۱۴۶ ، ۱۴۸ ، ۱۵۰ ، ۱۵۳ ، ۱۵۵ ، ۱۵۶ ، ۱۶۵ ، ۱۹۸ ، ۲۱۹
 وادی النيل (ج ۳) ۲۳ ، ۳۱ ، ۳۲ ، ۴۴ ، ۹۷
 وادی ماکنزی (ج ۳) ۳۳۶ ، ۳۳۹
 وحی (ال -) (ج ۲) ۲۷۷ ، ۲۹۳
- ورق (ال -) (ج ۱) ۱۶۸ (ج ۲) ۲۱۲
 (وشم) (ال -) (ج ۲) ۷۶ ، ۷۸ ، ۹۸
 وعل (ج ۱) ۲۴۱ (ج ۳) ۷۴ ، ۳۴۶ ، ۳۵۰
 الولايات المتحدة الامريكية (ال -) (ج ۱) ۹۳ ، ۱۰۱ ، ۱۰۹ ، ۱۴۰ ، ۱۶۳ ، ۲۱۱ (ج ۲) ۱۵ ، ۲۱۴

(ی)

- یابان (ال -) (ج ۱) ۱۶۱ ، ۱۷۵ (ج ۲) ۱۸ ، ۳۳ ، ۹۱ ، ۲۱۰ ، ۲۳۲ (ج ۳) ۱۹۴ ، ۱۹۵ ، ۱۹۶ ، ۲۳۲ ، ۲۴۱ ، ۲۹۱ ، ۳۰۷ ، ۳۱۱
 یام (نبات ال -) (ج ۱) ۱۵۵ ، ۱۶۵ ، ۱۶۶ ، ۱۷۴ (ج ۲) ۲۵ ، ۴۳ (ج ۳) ۸۱
 یاناکونا (ج ۳) ۴۱۵ ، ۴۱۶ ، ۴۱۷
 یانجسی کیانج (نهر ال -) (ج ۳) ۲۲۲ ، ۲۲۳
 یانج (امبراطور صینی) (ج ۳) ۲۲۲ ، ۲۲۹ ، ۲۶۷ ، ۲۶۸
 یشم (حجر ال -) (ج ۱) ۱۳۲ (ج ۳) ۲۴۱ ، ۳۰۰
 یونانیون (ج ۱) ۱۴۱ ، ۱۹۰ (ج ۲) ۲۸۷ ، ۲۸۹ ، ۳۳۶
- یهود (ج ۲) ۱۹۹ ، ۳۴۲ ، ۳۴۱ (ج ۳) ۱۶۶
 یوه (ج ۲) ۱۹۸ ، ۱۹۹
 یوریوتو (ج ۳) ۳۲۳ ، ۳۲۴ ، ۳۲۷
 یوقاطان (ج ۳) ۳۹۷ ، ۳۹۸
 یولیسوس قیصر (ج ۲) ۱۴۳ ، ۳۰۷ ، ۳۰۸ ، ۳۱۶ ، ۳۲۱
 یومان (ج ۳) ۳۴۰ ، ۳۶۶ ، ۳۷۳ ، ۳۸۲
 یونان (ج ۲) ۱۱۲ ، ۱۴۴ ، ۱۵۰ ، ۲۰۸ ، ۲۱۰ ، ۲۴۵ ، ۲۵۶ ، ۲۷۴ ، ۲۷۶ ، ۲۷۸ ، ۲۸۲ ، ۲۸۴ ، ۲۸۹ ، ۲۹۳ ، ۲۹۷ ، ۳۰۸ ، ۳۳۶ ، ۳۵۶ (ج ۳) ۵۰ ، ۱۶۶
 یونانیون (ج ۱) ۱۴۱ ، ۱۹۰ (ج ۲) ۲۸۷ ، ۲۸۹ ، ۳۳۶

الإشراف اللغوي: حسام عبد العزيز
الإشراف الفني: حسن كامل
التصميم الأساسي للغلاف: أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

إذا كان لنتون فى أواسط القرن العشرين قد آمن بضرورة دراسة الحضارة الإنسانية عبر تاريخها، بسبب ازدياد التواصل والصلات بين الشعوب، فكيف بنا ونحن نعاصر ثورة فى وسائل الاتصال ونقل المعرفة، كما نعاصر تطورات العولمة التى تسعى لأن تجعل من العالم قرية كونية واحدة تخضع للهيمنة الغربية - الأمريكية، مما لا يتفق مع طبيعة "اختلاف" الحضارات والثقافات وتنوعها الخلاق. إن حاجتنا الآن، فى بدايات القرن الحادى والعشرين، لدراسة ومعرفة أصول هذه الحضارات والثقافات أكثر ضرورة، ومن هنا تكمن أهمية مراجعة هذا الكتاب لمعرفة أصل الشجرة، التى ننتمى إليها جميعاً، شجرة الحضارة الإنسانية.